تمام المتون

في شرح رسالة ابن زيدون

لخليل بن أيبك الصفدي

تحقيق
محمد أبو الفضل ابراهيم

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تمام المتون

في شرح رسالة ابن زيدون

لخليل بن أيبك الصفدي

تحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت ص. ب: ٨٣٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

من الطرائق التي سلكها القدماء في التأليف والتصنيف، طريقة الشروح والحواشي والتعاليق؛ يعمد المؤلف إلى نص نفيس سار ذكره، أو كتاب موجز اشتهر أمره، فيتناوله بالتفسير والشرح إن كان مبهماً، أو يبسطه بالإيضاح إن كان موجزاً، ويزيد فيه بما يتاح له من المعاني، وما وقع من الخبرات والمشاهدات؛ ثم يستطرد بما يتداعى إلى ذهنه من فنون الكلام، مما قرأ وحفظ، أو سمع وروى، فيكون النص أو الكتاب بعد ذلك شيئاً آخر حفيلا بالفوائد، جامعاً لشتيت المسائل.

وبهذا المنهج المفيد، حفظ كثير من أبواب العلوم والفصول في الآداب ومرويات الشعر وأطراف الفنون، ونقل إلينا ما أودع في بطون كتب وأسفار، ربما تكون قد ذهبت بها عوادي الأيام.

ونظرة إلى ما حوته شروح نقائض جرير والفرزدق، والمفضليات، والمعلقات، وما أورده ابن أبي الحديد تعليقاً على كتاب نهج البلاغة وأبو العباس الشريشي على المقامات، وما اشتمل عليه كتاب خزانة الأدب للبغدادي، وما استطرد به ابن هشام في شرحه لقصيدة «بانت سعاد»؛ وما عقده العلماء من فصول وأبواب حول كتب الفقه والنحو والأصول، مما يدرس الآن في المعاهد والجامعات. . . كل هذا ومثله، مما زخرت به الآداب العربية؛ وأفاد منه الباحثون والدارسون على مر العصور.

ومن هذه الشروح النفيسة، هذا الكتاب الذي أسماه صاحبه «تمام المتون من شرح رسالة ابن زيدون»، وهي الرسالة المعروفة بالجدية،

وابن زيدون صاحب مذهب فى الكتابة والإنشاء عرف به ونسب إليه ، فقد كان إلى ما اشتمل عليه من اللفظ المحبّر ، والأسلوب الرشيق المنمق ، والديباجة الصحيحة المصفّاه ، يشتمل على كثير من ذكر الأحداث والإشارات التاريخية والمعارف الأدبية ، ما يجعل ميدان الشرح واسعاً ، ومناسبات الاستطراد والتعليق متنوعة . . .

وإن كانت رسالته المعروفة بالرسالة الهزلية ـ وهى الرساله التى كتبها على لسان ولادة بنت المستكفى ، إحدى الظريفات من نساء بنات خلفاء الغرب الأمويين إلى أحمد بن عبدوس ـ قد امتلأت بذكر الأعلام من رجالات الجاهلية والإسلام ، ما مكّن لشارحها جمال الدين بن نباته أن يورد فى شرحها قدراً وافياً من التراجم الأصيلة ، والروايات التاريخية ، فإن هذه الرسالة التى كتبها إلى أبى الوليد بن جهور مستعطفاً معتذراً قد حوت من بديع الاستعارات ومحاسن الكنايات ، وضروب الأمثال ، والإشارة إلى كبريات الأحداث فى الجاهلية والإسلام ، والاستشهاد بغرر الشعر ومصطفى القصيد ، ما أتاح لشارحها ، أن يورد حولها ما شاء من ذكر تاريخ هذه الأحداث والوقائع وما دار فيها ، وأن يعمد إلى قدر كبير من الأمثال ، يذكر مواردها ومصادرها ، وأن يروى من القصائد النادرة والخطب الجامعة ، والرسالة والمحبّرة ، والقصص والحكايات والأفاكيه والنوادر ، ما نضحت به القرائح فى الجاهلية والاسلام ، وحفلت به بطون الكتب والدواوين ، وما تنوقل فى مجالس الأدب والشعر على مرّ العصور ، ما جعل هذا الشرح حافلا بأكرم الذخائر وأنفس الأعلاق . بالإضافة إلى أنه جمع فيه المتشابه من معانى الشعراء الأقدمين والمحدثين من عصره فى مصر والعراق والشام ، وأضفى عليه من حسن المنحى واطراد التنسيق ما جعله مراد النفس وراحة العقل ومتعة القلب والخاطر .

ومما زاد هذا السفر نفاسة وقبولا تلك الرسالة الفريدة التى ذيّله بها ،

للكاتب محيي الدين بن عبد الظاهر ، أحد أشياخ الإنشاء فى القرن السابع ، كتبها إلى الامام ناصر الدين حسن بن شاور المعروف بابن النقيب ، حذا فيها حذو ابن زيدون ، وهى رسالة نادرة انفرد المؤلف بروايتها ، قصد بها الموازنة بين نثر ابن زيدون وبين من قلّده من كتاب الإنشاء .

* * *

ومؤلف هذا الشرح هو صلاح الصفدى ، أحد الكوكبة من الأئمة المصنفين فى الإسلام ؛ بل هو من أسبقهم فى هذا الميدان ، جال فى فنون الأدب والسِّيَر والتاريخ والتراجم ، مابين مطوّل ومختصر، ومنه ما أورده نثراً ، ومنه ماصاغه شعراً . وقد ترجم له الكثير من العلماء ، وأفردت لكتبه البحوث والمقالات[1] .

وأورِد من هذه التراجم نص الترجمة التى أوردها له المؤرخ ابن تغرى بردى فى كتابه المنهل الصافى[2] فإنه استوفى أخباره وذكر كتبه ، كما أورد فيها كثيراً من مختار شعره . وفيه نص رسالته لمعاصره جمال الدين بن نباته ، وإجازة ابن نباتة له فى ردّ رسالته ، وهى من النصوص المخطوطة التى لم تنشر بعد ؛ قال بن تغرى بردى :

خليل بن أيبك الألبكى الشيخ الإمام البارع المفنّن صلاح الدين أبو الصفاء الصفدىّ الأصل الدمشقىّ الدار والوفاة ، الشاعر المشهور . مولده سنة ست وتسعين وستمائة ، وحفظ القرآن العزيز فى صغره ، ثم طلب العلم ، وقرأ على علماء عصره إلى أن برع وساد فى الرسائل والنظم والنثر ، وشارك فى الفضائل ، وكتب

---

(١) انظر الأعلام للزركلى ٢ : ٣٦٤ ، إيضاح المكنون ١ : ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢/٥٥١ : ٦٧ ، ٨٣ ، ٤٤١ ، ٦٧٨ ، البدر الطالع ١ : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، البداية والنهاية ١٤ : ٣٠٣ ، تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٣ : ١٦١ الدرر الكامنة ٢ . ٨٧ ، ٨٨ ، شذرات الذهب ٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، طبقات الشافعية ٦ : ٦٤ — ١٠٣ ، كشف الظنون ٣١ ، ٤٨ ، ١٢٨ ، ٣٨٨ ، ٤٨٨ ، ٥٩٣ ، ٦٠٦ ، ٦٦٧ ، ٧٢١ ، ٨٤١ ، ٩٠٤ ، ١٠٧٣ ، ١١٠٨ ، ١١٢٣ ، ١٢٧٤ ، ١٤٨٨ ، ١٥٣٧ ، ١٥٤٨ ، ١٥٨٦ ، ١٩٩٦ معجم المطبوعات ١٢١٠ ، معجم المؤلفين ٢ : ١١٤ ، ١١٥ ، مفتاح السعادة ١ ، ٢١٠ ، النجوم الزاهرة ١١ ، ١٩ — ٢١ .

الخط المنسوب، وقرأ الحديث ، وكتب وسمع بالقاهرة من الدبوسى وغيره ، وبدمشق من أبي الحسن عليّ بن البندنيجيّ وغيره، فى النحو واللغة والأدب والإنشاء ، وولِيَ كتابة المال بدمشق ، وكتابة الإنشاء بها وبالديار المصرية . ثم ولى كتابة السرّ بحلب ، وباشر وظائف جليلة ، وكان بينه وبين علماء عصره وأدبائه مكاتبات ومراسلات ، كالحافظ أبى الفتح ابن سيد الناس ، والبارع جمال الدين بن نباته ، والشيخ زين الدين عمر بن الوردى، وأبى عبدالله المقرىء ، وغيرهم ، وجمع وصنف التصانيف المفيدة .

وذكره الحافظ أبو عبدالله الذهبى فى معجمه المختصّ وأثنى عليه ، وكتب من نظمه ونثره ، وقال : كان إماماً عالماً صادقاً ماهراً فى صناعة الإنشاء ، قدوة فى فن الأدب ، حسن الأخلاق والمحاضرة، رُحلة الطالبين ، كتب وصنف التصانيف الكثيرة ، وحدّث. سمع أبا المعالى بن عشائر بحلب . وله نظم رائق ، ونثر فائق. انتهى كلام الذهبى .

قلت : ومن مصنفاته كتاب جنان الجناس ، وفض الختام عن التورية والاستخدام ، والمجاراة والمجازاة مجلدان ، ونصرة الثائر على المثل السائر ، وحلوة المحاضرة فى جلوة المذاكرة ، وحسن التصريح فى مائة مليح ، والكشف والتنبيه على التّشبيه مجلدان ، ولذة السمع فى وصف الدّمع ، وغرّة الصبح فى اللعب بالرمح ، وجرّ الذيل فى أوصاف الخيل ، والروض الباسم والعَرْف الناسم ، مقاطيع ونظم . والثانى والثالث مقاطيع ونظم أيضاً . وشرح لاميّة العجم فى أربع مجلدات . ونكْت الهميان فى نكت العميان فى مجلدين ، والشّعور بالعُور ؛ وكشف الحال فى وصف الخال ، وألحان السواجع من البادى والراجع ، فى أربع مجلدات ، وطرد السمع عن سرد السمع ، فى أربع مجلدات ، والمقترح فى المصطلح ، وطراز الألغاز ، وتوشيح التوشيح ، وزهر الخمائل فى ذكر الأوائل، وتحرير التحريف وتصحيح التصحيف ، ونجم الدياجى فى نظم الأحاجى ، وحقيقة

الحجاز إلى الحجاز؛ نظم ونثر، صورة رحلته، والفصل المنيف فى المولد الشريف، وغوامض الصحاح، ونفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم، وحلى النواهد على مافى الصحاح من الشواهد، فى خمس مجلدات، ورسالة عبرة اللبيب بعثرة الكئيب، ورسالة رشف الرحيق فى وصف الحريق، ورسالة اختراع الخداع فى مخالفة النقل والطباع، والوافى بالوفيات الكبير فى اثنين وستين مجلداً صغاراً، وأعيان العصر وأعوان النصر، ذكر فيه من مات فى عصره من الأعيان فى اثنى عشر مجلداً لطيفاً، وله تصانيف غير ذلك.

ولما كان سنّه نيفاً على ثلاثين سنة أرسل واستجاز الشيخ جمال الدين محمد ابن نُباته فقال: الحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على أنبيائه محمد وآله وصحبه.

المسئول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رُحْلة أهل الأدب، قبلة ذوى التحصين له فى التحصيل والدأب، الذى تبيت شوارد المعانى صَرْعَى تخوّله لطافة تخيّله، وتُمسِى الألفاظ العذبة طوع تحوّله فى التراكيب وتحيّله، فأمسى وله النسيب الذى يضحك من العباس فى رِقّته، ويقيم صريع الغوانى إلى مقْتِه بعد مقّته، والغزل الذى يشيب له فوْد الوليد، ويسترقّ الحرّ من كلام عَبيد، والتشبيه الذى لو علمه ابن المعتز لمانصب الهلال فخّا لصيد النجوم، ولو تعاطاه حفيد جُريج لقيل له: ألم تسمع «الم غلبت الروم»، والمديح الذى لو بلغ زهيراً لقال: ما أنا من هذه الحدائق، أو اتصل نبؤه بالمتنبى لاشتغل عن ذكر العُذيب وبارق، والرثاء الذى نقص عنده أبو تمام بعد أن رُفع له لواء الشرف والفخر، وقال: هذه عذوبة الزلال لا ماتفجّر من الخنساء على صخر، والترسّل الذى سقَى الفاضل كأس الحتوف، لما شبّه الغمود بالكمائم والسيوف بالأزهار، وأذهله حتى صحّت له قسمة التجنيس فى الخيل والخيال بين المراقب المراقد، وأخطأت معه فى المرابع والمساجد بين الأنواء والأنوار، والكتابة التى تغدو

الطروس بها وكأنها برود محبّرة أو سماء بالنجوم زاهرة ، إن لم ترض أن تكون فى الأرض رياضاً مزهرة .

أدب على الحضْرى يعلو تاجه   وله ابن بسّام بكى ألوانا
وترسُّلٌ سبحان من قد زاده   منه وأعطى الفاضلَ النقصانا
وكتابة لعلوّها فى وضْعِها   ليس ابن مقلة عندها إنسانا
فلكم أخى فضل رأت عيناه فى الا   أوراق لابن نباتة بستانا

جمال الدين أبى عبد الله محمد بن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباته؛ جمع الله به شتات أهل الأدب فى دوحة هذه الدولة ، ولمّ به شعث أبنائه الذين لاصون لهم ولاصولة ، وأقام به عماد أبيات الشعر التى لولاه لما عرفت دارميّة من أطلال خولة ؛ بمنه وكرمه ... إجازة كاتب هذه الأحرف ، ماله - سمح الله له فى مدته - من رواية المصنّفات فى الأحاديث النبويّة والتأليفات الأدبية ، على اختلاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها ، بحسب ما تأدّى ذلك إليه ، واتّصل به ؛ من قراءة أو سماع أو إجازة أو وصية أو وجادة من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم ، وإجازة ماله - أحسن الله إليه - من مقول نظماً أو نثراً ، تأليفاً أو وضعاً ، إجازة خاصة ، وإثبات ماله من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم ، وإجازة مالعلّه يقع له بعد ذلك إجازةً عامّةً على أحد القولين فى المسألة ، فإن الرياض لاينقطع زهرها ، والبحار لاتنفد دررها ، وإثبات مايحسن إثباته فى هذه الإجازة ، من المقاطيع الرائقة ، والأبيات اللائقة ، وذكر نسبه ومولده ومكانه متفضلا فى ذلك . وكتبه خليل بن أيبك بن عبد الله الألبكى بالقاهرة المحروسة فى مستهلّ شعبان سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فكتب الشيخ جمال الدين مجيباً لسؤاله بما صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد حمد الله الذى إذا توجّه إليه ذو السؤال فاز ،

وإذا استدعى دعا كرمه ذوو الطلب أجاب وأجاز ، والصلاة على سيدنا محمد كعبة القصد التي ليس بينها وبين النجح حجاز ، وعلى آله وصحبه الذين هم حقائق الفضل والفصل ومن بعدهم مجاز. فلو لزم في كل الأحوال تناسبُ المخاطبة ، وكان جواب السؤال بحسب ما بينهما من شرف المناسبة ، لما رضيَ سجعُ الحمام لمطارحته نوعاً من الأطيار ، ولا قبل فصحاء الأول مراجعة الصدى من الديار ، ولاقنع غمزُ حواجب الأحبّة برد القلوب المائلة في أودية الأفكار ؛ ولكن تقوّل الأكابر والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها ، وتنفق مما عندها ، وتجرّد الأماثل سيوف النطق ولا تتعدى الأتباع من الطاعة حدّها . ولمّا كنت أيها الراقم بُرودَ هذا الاستدعاء ببيانه ، والمنشيء روض هذا السؤال بآثار السحب من بنانه ، والسائل الذي بهرت الأفكارَ فضائله ، وسحرت أربابَ العقول عقائله ، وأقام المسئول مقاماً ليس هو من أهله ، فليتق الله سائله . فريد فنّ الأدب الذي لا يبارى ، وبحره الذي لا يُهدِي غائصَ قلمه الدّر إلا كباراً ، وذا اليد البيضاء فيه الذي طالما آنس من جانب ذهنه الشريف ناراً ، وخليله الذي اطّلع على أسراره الدقيقة ، ورئيسه الذي لو طارح ابن المعتزّ وتمّت ولايته لكان خليل أمير المؤمنين على الحقيقة ، وناظمه الذي يسري الطائيّان تحت عَلَمِه المنشور ، وكاتبه الذي يتجبّح العُبدان بالدخول تحت رقّه المأثور. طالما شافه منه العلم وجهاً جميلاً ، وقدراً جليلا ، ولاقى من لا يندم على صحبته فيقول : ياليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً .

فهو الفرس الذي يقصر عن أمالي وصفه الشجري ، ويفخر الدين والعلم بسحْبه ولفظِه ، فهذا يقول: غرسي وهذا يقول ثمري . كم أغنى بمفرد شخصه عن فضلاء جيل ، وكم بدا للسمع والبصر من بنات فكره بُثينة ومن وجهه جميل ، وكم تنزّهت الأفكار من لفظه وخطّه بين آسٍ وورد ، لا بين إذخرٍ وجليل ، وكم دام عهده وودّه حتى كاد يبطل قول الأول : «دليل على ألا يدوم خليل» . تودّ الشهب لو كانت حصباء غدير طرسه ، ويغار الأفق إذا طرّز بُراعَ درجِه بالظلماء أردية شمسه ، ويتحاسد النظم والنثر على ما تُنتج مقدمات منطقه من النتائج ، وينشده

كل منهما إذا حاول القول: خليل الصفا، هل أنت بالدار عائج! إن كتب أغضى ابن مقله من الحسد على قذاه، وحمل ابنُ البوّاب لحجبته عصا القلم قائلا: ما ظلم مَنْ أشبه أباه، وإن نحا النحو لبّاه عشراً، ولانت أعطاف الحروف قسراً، وتشاجرت الأمثلة على لفظه، فلا غَرْوَ أن ضرب زيد عمراً، يترجل كلام الفارسىّ بين يديه، ويطير حفظ ابنِ عصفور حذراً من البازى المطلّ عليه. وإن شعر هامت الشعراء بذكره فى كل وادٍ، وحمل ذكرها فى كل نادٍ، ونُصبت بيوت نظمه على يفاع الشرف كما تنصب بيوت الأجواد، طالما بلّد لبيداً، وولّى منه شعر ابن مقبل شريداً، وقالت الآداب لبحترّى لفظه: ألم نربك فينا وليداً! وإن نثر فما الدّر اليتيم إلا تحت حجَره، ولا الزّهر النضير إلا ما ارتضع من أخلاف قطره، ولا المترسلون إلا من تصرّف فى ولاية البلاغة تحت نهيه وأمره، وإن تكلم على فنون الأدب روى الظّماء، وجلا معانى الألفاظ كالدمى، وقالت الأعاريض له ولابن أحمد: خليلى هبّا بارك الله فيكما.

هذا وكم أثنى قديم علم الأوائل على فكره الحكيم، وشهدت رواية الأحاديث النبوية بفضله، وما أغلى من شهر بفضله الحديث والقديم!

علت به درجاتُ الفضل واتّضحت ... دقائق من معانى لفظه البهجِ

هذا وليل الشباب الجون منسدلٌ ... فكيف حين يضىء الشيب بالسرج

ياحبّذا أعين الأوصاف ساهرة ... بين الدقائق من علياه والدرج

بدأتنى أعزك الله من الوصف بما قلّ عنه مكانى، واضمحلّ عيانى، وكاد من الخجل يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى. وحمّلت كاهلى من المنّ مالم يستطع، وضربت لذكرى فى الآفاق نوبة خليليّة لاتنقطع، وسألتنى – مع ما عندك من المحاسن التى لها طرب من نفسها، وثمر من غرسها – أن أجيبك وأجيزك، وأوازن بمثقال كلمى الحديد إبريزك، وأقابل لسَنك المطاق بلسانى المحصور، وأثبت استدعاءك الجليلىّ على بيت مال نطق المكسور، فتحيّرتُ بين أمرّين أمرّين، ووقع ذهنى السقيم بين دائين مضرّين، إن فعلتُ ما أمرتَ فما أنا من أرباب

هذا القدر العالى ، والصدر الحالى ، ومن أنا من أبناء مصر حتى أتقدم لهذا الملك العزيز ، وكيف أطالب مع إقتار علمى وفهمى بأن أمدح وأجيز ، وأين لمقيّد خطوى هذه الوثبات . وأنّى يماثل قوة هذا الفرس ضَعف هذا النبات : وإن منعتُ فقد أسأت الأدب والمطلوب حسن الأدب منى ، وأهملت الطاعة التى أقرع بعدها برمح القلم سنّى ، وفاتنى شرف الذكر الذى امتلأ به حوض الأفق وقال قطنى . ثم ترجّح عندى أن أجيب السؤال ، وأقابل بالامتثال ، صابراً على تهكم سائلى ، معظِماً قدرى كما قيل بتغافلى ، منقاداً إلى جنّة استدعائك من السطور بسلاسلى . وأجزت لك أن تروى عنى ما يجوز لى روايته من مسموع ومأثور ، ومنظوم ومنثور ، وإجازة ومناولة ومطارحة ومراسلة ، ونقل وتصنيف ، وتنضيد وتفويف ، وماض ومتردد ، وآت على رأى بعض الرواة ومتجدد ، وجميع ما تضمنه استدعاؤك ، فأجمع ما يكون من لفظه المتفرّد ، كاتباً لك بذلك خطّى ، مشترطاً عليك الشرط المعتبر ، فليكن قبولك يا عربىّ البيان جوابَ شرطى ، ذاكراً من لُمع خبرى ما أبطأتُ بذكره ، وأرجو أن أبطىء ولا أخطىء .

فأما مولدى فبمصر المحروسة ، سنة ست وثمانين وستمائة ، بمنزلنا بزقاق القناديل . وأما شيوخ الحديث الذين رويت عنهم سماعاً وحضوراً ، فمن أقدمهم الشيخ شهاب الدين أبو الهيجاء غازى بن أبى الفضل بن عبد الوهاب المعروف بابن الرداف ، والشيخ عز الدين أبو نصر عبد العزيز بن أبى الفرج الحصرى البغدادى ، والشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى محمد إسحاق الأبرقوهى . وأما ذوو الإجازات فى مصر وغيرها من الأمصار فكثير . وأما الفضلاء والأدباء الذين رويت عنهم ورأيتهم ، فمنهم القاضى الفاضل محيى الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان الكاتب المصرى ، والشيخ الإمام بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن النحاس الحلبى النحوى ، والأمير الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الصاحب شرف الدين إسماعيل القينى الآمدى ، اقترح علىّ ــ ولم أبلغ الحلم ــ نظماً فى زيادة النيل فقلت :

زادتْ أصـابعُ نيلنـا وطَمَتْ فأكـمـدتِ الأعادى
وأتت بـكلِّ جميـلةٍ ما ذى أصابعُ ذى أيادى

والشيخ العالم الدين قيس بن سلطان الضرير من أهل منية بنى خصيب ، قرأت عليه كثيراً من الكتب الأدبيات ، وكان كثيراً ما يستنشدنى إلى إن أنشدته قولى :

يا غائبين تعلَّلْنـا لغيبتهـمْ بطيب عيش ولا والله لم يطبِ
ذكرت والكأسُ فى كفِّى لياليكم فالكأس فى راحة والقلب فى تعبِ

فقال : أتعب والله جذعُك القُرَّح .

والشيخ العالم شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن المفسر ، أنشدنى لنفسه :

لا أرى لى فى حياتى راحةً ذهبت لذة عيشى بالكبرْ
بقىَ الموت لمثلى سترةً يا إلهى أنت أولى من سترْ

فأنشدته لى :

بَقَلَتْ وجنة المليح وقد ولّى زمان الصبا الذى كنت أملكْ
يا عِذار الحبيب دعنى فإنى لست فى ذا الزمان من خَلِّ بَقْلَكْ

والشيخ الأديب الفاضل سراج الدين عمر الوراق المصرى ، سمعته ينشدنى لنفسه :

واخجلتى وصحائفى سودٌ غداً وصحائف الأبرار فى إشراق
وتوقعى لموبخٍ لىَ قائل : أكذا تكون صحائف الورّاق !

والأديب الفاضل نصير الدين الحمامى ، أنشدنى لنفسه :

أحبُّ من الدنيا إلىّ وماحوت غزال تبدّى لى بكأس رحيق
وقد شهدت لى سنّة اللهو أننى أحبُّ من الصهباء كلّ عتيق

فأنشدته لى :

إنى إذا آنستُ همًّا طارقًا   عجّلت باللذات قطع طريقه
ودعوت ألفاظ المليح وكأسه   فنعمت بين حديثه وعتيقه

وجماعة يطول ذكرهم، ويعز علىّ ألاّ يحضرَنى الآن إلا شعرهم.

وأما مصنفاتى التى هى كالياسمين لا تساوى جمعها، ولولا جبر الخزائن الشريفة السلطانية الملكية لها ما استجزت نصبها ولا رفعها، فهى: كتاب مجمع الفرائد، كتاب القطر النباتى، كتاب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون، ومنتخب الهدية من المدايح المؤيدية، والفاصل من إنشاء الفاضل، وزهر المنثور، وسجع المطوّق، وأبزار الأخبار، وشمائر البيت التَّقَوِىّ، لم يكمل إلى الآن، والأرجوزة المسماة فرائد السلوك فى مصايد الملوك. أجزت لك أعزك الله روايتها عنى، ورواية ما أدوّنه وأجمعه بعد ذلك حسبما اقترحه استدعاؤك ونمّقه، ونسخه وحققه، وتضمنه سؤالك الذى تصدّقت به علىّ، فمنك السؤال ومنك الصدقة. والله تعالى يشكر عهدك الجميل، وكمالاتك الجزلة، وكرمك الجزيل، ويمتّع فنون الفضائل المتجئة إلى ظل قلمك الظليل، ولا يعدم الأحباب والآداب من اسمك وسمتك خير صاحب وخليل. بمنه وكرمه.

قال ذلك وكتبه محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن الحسن بن صالح بن على بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب أبى يحيى عبدالرحيم بن نباته الفارقى ثم المصرى الجذامىّ، عفا الله عنه. انتهى.

* * *

ومن نظم صاحب الترجمة رحمه الله ما أنشدنا ابن الفرات إجازة، أنشدنى الشيخ صلاح الدين بن خليل لنفسه إجازة:

أفديه ساجى الجفون حين رَنَا   أصاب مِنّى الحشا بسهمينِ
أعدمنى الرّشدَ فى هواه ولا   أفلح شىء يُصاب بالعين

وله:

سألتمُ عن منام عينى   وقد براه جفًا وبينُ
والنوم قد غاب حين غبتمْ   ولم يقع لى عليه عينُ

وله أيضاً :

المقلة السوداء أجفانُها ترشق في وسط فؤادي نبالْ
وتقطع الطرْق على سلْوتي حتى حسبنا في السُّوَيدا رجالْ

وله أيضاً :

إن لم يصدقني تصدّق بالكرى ليزورني فيه الخيال الزائلُ
وانظر إلى فقري لوصلك واغتنمْ أجرِي وقلْ للدمع :قف يا سائلُ

وله أيضاً :

يقول وقد أنكرته قبلة غصبتها في زورة الطّيْفِ
هذا عِذاري وجفوني فقم واحلف على المصحف والسّيْفِ

وله في معذّر :

محيّاهُ له حسنٌ بديع غدا روض الخدود به مُزَهّرْ
وعارضه رأى تلك الحواشي مُذهّبةً فزمّكها وشعّرْ

وله أيضاً :

أنفقتُ كنز مدائحي في ثغرهِ وجمعت فيه كلّ معنى شاردِ
وطلبت منه جزاء ذلك قُبلةً فأبى وراح تغزُّلي في البارد

وله أيضاً :

كئوس المدام تحبّ الصفا فكن لتصاويرها مبطلا
ودعها سواذِج من نَقشِها فأحسنُ ما ذُهّبَتْ بالطّلاَ

وله أيضاً :

أقول له ما كان خدُّك هكذا
ولا الصُّدْغ حتى سال في الشّفقِ الدُّجى
فمن أين هذا الحسن والطّرف قال لي: تفتّح وَرْدي والعِذارُ تخرّجا

وله أيضاً :

يا من إذا ما أتاه أهلُ المودة أوْلمْ
أنا محبُّك حقًّا إن كنت فى القوم أوْ لَمْ

وله أيضا :

بسهمِ ألحاظه رمانِي وذُبْت من هجره وَبينِه
إن متّ مالى سواه خصمٌ لأنه قاتلى بعينه

قلت : وشعر الشيخ صلاح الدين المذكور كثير ، وفضله غزير ، وهو شاعر مجيد ، على أن جيّده يقلّ عن رديئه ، ولولا أنه كان ضنيناً بنفسه ، راضياً بشعره ، لـكان يبدر له الرّدىء ، ويكثر منه الجيّد ، فإنه كان غوّاصاً على المعانى ، مبتكراً للنكت البديعة ، عارفاً بفنون الأدب ، لـكن رأيت من نظمه بخطّه عند ما يعارض بعض مَنْ تقدّمه من مجيدى الشعراء فى معنًى من المعانى اللطيفة ، فيأخذ ذلك المعنى أو النكتة ، فينظمها فى بيتين ، ويجيد فيهما بحسب الحال ؛ ثم ينظم أيضاً فى ذلك المعنى بعينه بيتين آخرين ، ثم بيتين ثم بيتين ، ولا يزال ينظم فى ذلك المعنى ، وهو يقول: قلت وقلت .. أنا إلى أن يملّه النظر ، وتسأمه النفس ، ويمجّه السمع ، فلو ترك ذلك وتحرّى فى قريضه ، لـكان من الشعراء المجيدين ، لِما يظهر لى من قوّة شعره ، وحسن اختراعه .

توفى الشيخ صلاح الدين المذكور بدمشق فى ليلة الأحد عاشر شوال سنة أربع وستين وسبعمائة عفى الله عنه (١) .

* * *

وقد سبق لهذا الـكتاب أن نشر فى بغداد سنة ١٣٢٧هـ ، ولـكنها كانت نشرة خلت من الأصالة والتحقيق ، وشاع فيها الخطأ والتحريف . وحينما عزمت على إخراجه على المنهج العلمى تهيأ لى الحصول على النسخ الآتية :

---

(١) المنهل الصافى ، مخطوطة دار الـكتب برقم ٦٣٠ ــ تاريخ .

١ — نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ٤٥٣٦ ـ أدب طلعت ، بخط محمد ابن محمود بن محمد بن خليل الشافعي تمت كتابته في « يوم الأحد المبارك الأول من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وتسعين وتسعمائة » ، كتبت بقلم معتاد تغلب عليها الصحة ، وفيها بعض الضبط وخاصة في الشعر . تقع في ٣٥١ صفحة ، في كل صفحة ٢١ سطر ، في كل سطر عشر كلمات تقريباً ، وقد اتخذت هذه النسخة أصلا في التحقيق .

٢ — نسخة مخطوطة بدار الكتب محفوظة برقم ٢٤٨ ـ أدب ، كتبت سنة ١٠٨٤ ، بخط نسخ ، خالٍ من الضبط ، تقع في ١٧٤ ورقة ، وفي كل صفحة ٢١ سطراً ، وفي كل سطر ١٣ كلمة تقريبا ، وقد رمزت بالحرف د .

٣ — نسخة مخطوطة محفوظة في دار الكتب برقم ١٩ م ـ أدب مخطوطة بقلم معتاد بدون تاريخ ، تقع في ١٥١ ورقة ، والشعر مضبوط ضبطاً تغلب عليه الصحة ، وفي كل صفحة ٢٥ سطراً ، وفي كل سطر ١١ كلمة تقريباً ، وفي نهايتها ترجمة مختصرة للصفدي مؤلف الكتاب وقد رمزت لها بالحرف م كما أني رمزت للنسخة المطبوعة برقم ط .

هذا عدا ما رجعت إليه من كتب التاريخ ومعاجم اللغة ودواوين الشعر ، وكتب الأدب . وقد صنعت له الفهارس المتنوعة ، ما يتيسر الانتفاع به إن شاء الله ، والله ولي التوفيق ؟ .

١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٨٩
٣ يوليه سنة ١٩٦٩

محمد أبو الفضل إبراهيم

تمام المتون

في شرح رسالة ابن زيدون

لخليل بن أيبك الصفدي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرح صدورَنا بالإسلام ، وطرح عنّا بالاستغفار أعباء الآثام ، ومنح أصدافَ الأسماع دررَ الأدبِ الّذى تَقذِفه الأقلام .

نَحمَده على نِعَمه التى أكملَت العَوْدَ والعوْن ، وأجملَت الصَّوْلَ والصَّوْن ؛ ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لاشريك له ، شهادةً خيّمتْ بين سُرادق العرشِ العظيم ، وتيّمتْ قلوبَ أهلِ التّوحيد حتّى مشَوْا سويًّا على صراطها المستقيم ؛ وديّمتْ سَحائبُها على رياض الإيمان فأنبتتْ زَهراً ناجماً يُخجِل النجومَ الزُّهْرَ فى الليل البهيم . ونَشهَد أنّ محمدا عبده ورسولُه ، الذى بعثَه الله إلى البشَر بشيرا ونذيرا ، وأصبح غَنِيُّ البلاغةِ إلى فِقَرِه فقيراً ، وأمسَى الخاملُ باتّباع أثَره أثيرا ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الّذين لاترْتقِى شُرُفاتُ مجدٍ إلى مجدهم[1] ، ولا يَقع دارْفُ طِرفٍ[2] على مِثل تحفهم فى الفصاحة ولاطُرَفهم ؛ ولا يَرْقَمُ المادحُ أمالىَ أمانيه فيهم إلاّ سَدَّ فاه لدرارِىِّ سُدَفِهم ، وصَدَّ فاه عن درر صَدَفِهم ؛ صلاةً غمائمُ رِضْوانها تَسفَح ، وحمائمُ غفرانها تصْدَح ، وكمائمُ إحسانها تنفتح ؛ ما أُطرِب المترسّل ، وأُغْرِبَ المتوسِّل ، وتَعطّف المتوصّل ؛ وتلطف المتنصّل ، وسلّم تسليما كثيرا إلى يوم الدّين .

وبعد ، فإنّ رسالةَ ابنِ زيدونَ الّتى كتبها لابن جهوَر ، من الرّسائل الطّنّانة ، والخمائلِ الّتى لايَذوِى زَهرُها وحمائمُ غُصونِها بالتّغريد رنّانة ، والفضائلِ الّتى لا تزال محاسنُها على من حاوَل معارضَتَها مَنّانة ، قد أبرزَها مُنشئُها كالقمر ليلةَ تمامِه ، وكالزّهَر المَخْبوء فى أكمامِه ؛ أتعبتْ من يُجارِيها فما تَشُقّ الغبْراء لها غُبارا ، ولا يبيتُ داحس ذا حِسّ فى مُباراتها فهو فى

---

(١) ط : « شرفهم » .

(٢) الطرف ، بالكسر : الكريم الطرفين منا ، أو الكريم من الخيل .

أصلِه وفرعِه يتمادَى ويتمارَى ، ولا عِلاك البرقُ المتألّقُ إذا سار على أثرِها الا عثارا ؛ مشحونةً بما فيها من الإشارات إلى الوقائع والأمثال ، وحلّ الأبيات الأبيات فى الانقيادِ على الرّجال ؛ ثمطّ فى الإنشاء غريب ، وحلاوةُ ألفاظِ ليس الضَّرَب لها بضريب ، وطلاوةُ عبارةٍ ما رَيب ، إنّها تحلّى الأجياد والتّريب . لم تَرَ فيها من البلاغة ترفيها ، ولم تجدْ فيها لفظةً تحويها ؛ إلاّ وهى تَنطِق بالبلاغة أو توحيها ، ولم تنظر معانيها إلاّ وهى تطوى المحاسنَ وتوطّيها .

لقد بُها رياضٌ لم تحُكْها سحابةٌ وأغصانُ دوحٍ لم تُغنّ حمائمُه(١)
وفوقَ حواشي كلِّ سطرٍ يضمُّه من الدرِّ سِمطٌ لم يُثقِّبْه ناظمُه
تدلُّ بما فيها على أنّ نثرَها لأبلجَ لاتيجانَ إلاّ عمائمُه
تُقبِّلُ أفواه الشيوخِ بساطَهُ ويكبر عنها كُمُّه وبراجمُه
له عسكرا نظمٍ ونثرٍ إذا رمى بها عسكراً لم يبقَ إلاّ جماجمُه
لقد ملّ ضوءُ الطِّرسِ عمّا يخيره وملّ سوادُ النفسِ عمّا يزاحمُه
وملّ قنا الإنشاء عمّا يدقُّها وملّ جديدُ الشّعر عمّا يلاطمُه
فأبصرتُ بدراً لا يَرى البدرُ مثلَه وخاطبتُ بحراً لا يَرى الدرَّ عائمُه

وما أوردتُها على أحدٍ إلاّ رقصتْ أعطافُه ، وجَنَى من غصونها ما استلذّ قِطافَه ، وملكتْ حبّةَ قلبِه بما فيها من اللطافة ، واجتنى منها محاسنَ السّوالف واجتنى لذّةَ السّلافة ؛ وقال : هذا هو الأدب الّذى ماشافه غيرَه(٢) ارتشافه ، وهذا هو الإنشاء الّذى مَن ركب اعتسافَه تَسافه(٣) ، وهذا هو النّثر الّذى من حلّ ساحتَه قال : الضّيافةُ الضيافةُ ! وهذا هو الترسّل الّذى من حطّ به برحالِه أثقلَ النوالُ بالتحف التحافه .

---

(١) المتنبى ، ديوانه ٣ : ٣٢٥ ـ ٣٤٢ مع تصرف كبير فى الألفاظ والأساليب .
(٢) ط : « غيره » .   (٣) ساقطة من ط .

سما فريضٌ على الأملاكِ مُحتجبٌ فلا تُذِله بإكثار على السُّوَقِ[1]

فلذلك آثرتُ أن أمليَ عليها شرحاً ، وأبني على كواكب كواعبها صرحاً ، وأكحل جفوناً باتت زرقية[2] بيانها قرحى ، وأطبّ قلوباً أمست لوصال إيضاحها جرحى ؛ وإن لم أكن من خيلِ ميدانها ، ولا ممن يَعُدُّه الأبطالُ من فرسانها ؛ ولكن جُهْد المقلّ ، وزهد الخلّ[3] ، وسُهْد المُطلّ ، وشُهْد المدِلّ[4] ، وعَهْد المِلّ .

قد يُدْرِكُ المجدَ الفتى وإزارُه خَلَقٌ ، وجَيْبُ قميصِه مرقوعُ[5]

وبالله أعتصم وأعتضد ، ومن فيضه أستمدّ وأستمد ؛ إنه الرقيب القريب ، والسميع المجيب .

---

(١) السوقة : الرعية ، ويجمع على سوق ، كصرد .
(٢) ط : « لرؤية » .
(٣) الخل : الفقير المعدم . وفي م : « وفد » .
(٤) ط : « المذل » .
(٥) لابن هرمة ، الشعر والشعراء ٧٣٠ .

فصـــــل

في ترجمة ابن زَيْدون ـ رحمه الله تعالى
وإيراد شيء من شعره الذي رَقَّ وراق، وشَقَّ على غيره وشاق

فأقول: هو ذو الوزارتين، الكاتبُ المُجيد المُفيد، الناظمُ الناثر، البليغ المفوّه اللسِن، أبو الوليد أحمد بنُ عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ غالب بن زَيْدون المخزوميّ الأندلسيّ القُرطبيّ.

أثنى عليه ابنُ بسّام في «الذّخيرة»، وابنُ خاقان في «قلائد العِقْيان»[1]. وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقُرطبة، برَع[2] أدبُه، وجادَ شِعرُه، وعَلا شأنُه، وانطلَقَ لسانُه، وحقّق بيانُه. ثمّ إنه انتقل من قُرطُبةَ إلى المعتضِد بن عبّاد صاحب إشبيلية، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، فجعَلَه من خواصّه، يُجالسه في خلواتِه، ويَركَنُ إلى إشاراتِه؛ وكان معه في صورةِ وزير، وكان أولاً قد انقطع إلى ابن جَهْوَر، أحدِ ملوكِ الطوائف المتغلّبين بالأندلس، فخَفَّ عليه، وتمكّن منه، واعتمَد عليه في السِّفارة بينَه وبَين ملوك الأندلُس، فأعجب القومُ به، وتمنّوا مَيْلَه إليهم لبَراعتِه، وحُسن سيرتِه؛ فاتّفَق أن نَقَم ابنُ جَهْوَر على ابن زيدونَ فحَبَسه، فاستعطَفَه ابنُ زيدونَ بهذه الرِّسالة وبأمثالها من فنونِ النّظم والنّثر، فما أجدَى ذلك عليه شيئاً، ففرَّ من محبَسه لمّا أعْياه الخَطْب، واتّصل بعد ذلك بابن عبّاد كما تقدّم.

وكَتَب إلى بعض أصحابه ـ وهو الأديبُ أبو بكر بُن مسلم ـ لمّا اختَفى بقُرطُبةَ بعد فِراره، رسالةً يعتذِر فيها عن فِراره، وهي في غاية الحُسن، ولولا

(١) الذخيرة جزء ١ : مجلد : ١ ص ٢٨٩ ومابعدها، والقلائد ٧٠ ومابعدها.
(٢) الذخيرة: «فرع أدبه».

خوفُ التطويل كان لا بأسَ بذِكرها، ونَشْرِ نَشْرِها، ودَرِّ دَرِّها، وهذه فَلْذَةٌ منها: [(١)] أبدأُ أوّلا بشرح الضرورة الحافزةِ إلى ماصنعت، إذ بلغني أنك أحدُ اللائمين لي عليه، ومِن أمثالِهم: وَيْلٌ للشجىِّ من الخلىّ [(٢)]، وهان على الأَمْلَسِ مالاقى الدَّبِرُ [(٣)]. وأُعاتبك على انفصالك عنّى، وبراءتك أمدَ المحنة منِّى، عسى أن تتلافَى عَوْداً ما أضعت بَدْءا، وإن كنت فى ذلك كدابغةٍ وقد حلِمَ الأديمُ [(٤)]. فمنفعة الغوث قبل العَطَب [(٥)]، وفى علمِك أنّى سُجِنت مغالَبةً بالهَوَى، وهو أخو العَمَى، وقد نَهَى عنه تعالى فقال: ﴿ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سَبيل الله ﴾ [(٦)]. وشهِد علىَّ فلانٌ الناشرُ لأذُنَيه طَمَعا، ليأْكُلَ بيَدَيْه جَشَعا، وقال: فكان القولُ ماقالتْ حذام [(٧)].

وليتنى مع قبولِ من لاتحلّ شهادتُه علىّ، يُعذِرفيه إلىّ، ولم يُقرَن الحَشَفُ بسُوءِ الكِيلَة [(٨)].

---

(١) الذخيرة ١ : ٣٠٥ .

(٢) الميدانى ٢ : ٣٦٧ ؛ وذكر أن أول من قاله أكثم بن صيفى .

(٣) الميدانى ٢ : ٣٩٣؛ قال: يضرب فى سوء اهتمام الرجل بصاحبه، والأملس: الصحيح الظهر ؛ والدبر: الذى أصابت رأسه الدبرة ؛ وهى القرحة .

(٤) حلم الأديم ؛ فسد ، والأديم : الجلد ، ومعنى المثل : إنك فى محاولة إصلاح أمر مثل من تدبغ الجلد وقد كاد يتمزق، وأصله قول الوليد بن عقبة :

فإنَّكَ والكتابَ إلى علىٍّ كدابغةٍ وقد حلِمَ الأديمُ

وانظر اللسان (حلم) .

(٥) عجز بيت للمتنبى ؛ ديوانه ١ : ١٠٢ ، وهو :

سَبَقتَ إليهمْ مَنَاياهُمُ ومنفعة الْغَوْثِ قَبْلَ العطبْ

(٦) سورة ص ٣٨ .

(٧) إشارة إلى البيت :

إذا قَالَتْ حذَامِ فَصَدِّقُوهَا فإنّ الْقَوْلَ ماقَالَتْ حَذَامِ

والبيت لديسم بن طارق ، أحد شعراء الجاهلية ؛ وانظر ابن عقيل ١ : ٩٤

(٨) الإعذار : قبول العذر؛ والحشف: أردأ التمر ؛ والمثل : « أحشفاً وسوء كيلة ! » . الميدانى ١ : ٢٠٦ .

وكنت في أول حبسي بموضع جرت العادة فيه بوضع مستوري الناس وذوي الهيئات منهم؛ وفي الشر خيار (١)، وبعضه أهون من بعض (٢).

ثم نقلت من بعد إلى حيث الجناة المفسدون، واللصوص المقيدون، ومنع مني عوادي، فشكوت إلى الحاكم الحابس لي، فصمم عني – «ولو ذات سوار لطمتني» (٣).

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف، ولم يغلبك مثل مغلب (٤)

فلم أستطع صبرا، وعلمت أن العاجز من لا يستبد (٥)، «والمرء يعجز لا محالة» (٦)، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين: عير الحي والوتد (٧).

---

(١) يشير إلى المثل: «إن في الشر خيارا»، الميداني ١ : ٢٠٦.
(٢) يشير إلى بيت طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

(٣) المثل في الميداني ١ : ١٧.
(٤) لامرىء القيس، ديوانه ٤٤.
(٥) يشير إلى قول عمر بن أبي ربيعة في بيتيه:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

(٦) الميداني ٢ : ٣٠٩؛ والمثل من أبيات لمجاعة بن مرارة الحنفي:

حاولت حين صرمتني والمرء يعجز لا محاله
والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعاله
والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقاله

(٧) يشير إلى بيتي المتلمس:

ولا يقيم على ذل يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له أحد

وذكرتُ أنّ الفرار من الظلم والهرب ممّن لا يُطاق، من سنن المرسلين، وقد قال تعالى على لسان موسى: ﴿ فَفَرَرْتُ منكم لمّا خِفْتُكُمْ ﴾ (١) . فنظرتُ في مفارقة الوطن؛ إذ قديمًا ضاع الفاضلُ في وطنه، وكسد العِلْق النفيسُ في معدنه، كما قال:

أُضيعُ في مَعْشَرِي وكم بَلَدٍ ... يُعَدُّ عُودُ الكِباء مِن حَطَبِهْ (٢)

فاستخرتُ اللهَ في إنفاذ العزم، وأنا الآنَ بحيثُ أمنتُ بعضَ الأمن، إلّا أنّ السّعيَ لم يرتفع، ومادّةَ البغْي لم تنقطع.

وختمَ هذه الرسالةَ بقصيدة أوّلُها:

شَحَطْنا، وما بالدّار نأيٌ ولا شَحْطُ ... وشطَّ بمَن نَهْوَى المَزارُ وما شطُّوا (٣)

وما شوقُ مقتولِ الجوانحِ بالظّما ... إلى نُطفةٍ زَرْقاءَ أضمرَها وقْطُ (٤)

بأبرحَ من شوقي إليكم، ودُونَ ما ... أديرُ المنى شَوْكُ القَتادةِ والخَرْطُ (٥)

---

(١) سورة الشعراء ٢١ .

(٢) الكباء: من أعواد الطيب.

(٣) ديوانه ٢٨٥ ، وفيه: «وما للدار» وبعده:

أأحبابنا ألْوَتْ بحادث عهدنا ... حوادث لا عَقْدٌ عليها ولا شَرْطُ

لعمركمُ إنّ الزّمانَ الذي قضَى ... بشتِّ جميعِ الشّمْلِ منّا لَمُشْتَطُّ

وأمّا الكرى مُذْ لم أزُرْكُمْ فهاجرٌ ... زيارتُه غِبٌّ، والمامُه فرْطُ

(٤) النطفة: الماء القليل الصافي. والوقط: حفرة في الصخور يجتمع فيها المطر.

(٥) القتادة: أشجار متشابكة الأغصان مليئة بالأشواك، وخرط القتاد: جذب شوكه بالأيدي؛ وفي المثل: «دونه خرط القتاد».

وفى الرَّبْرَبِ الإنسِيِّ أحْوَى ، كِناسُه
نَواحى ضَميرى ، لا الكَثِيبُ ولا السِّقْطُ [١]

عليكَ أبا بكرٍ بَكَرْتُ بِهِمَّةٍ لها الخَطَرُ العالى ، وإن نالَها حَطُّ
أَبِى بعدَما هِيلَ التُّرابُ على أبى ورَهْطى فِدَاءٌ حينَ لم يَبقَ لى رَهْطُ
ولولاكَ لم يثقبْ زِنادُ قَرِيحَتى فينتهب الظلماء من نارِها سِقْطُ [٢]
هَرِمتُ وما للشَّيْبِ وخْطٌ بمَفْرِقى
ولكنْ لشَيْبِ الهَمِّ فى كَبِدِى وخْطُ [٣]
وَقَدْ وسموني بالّتى لستُ أهلَها ولمَ يُرَ أمثالِى بأمثالِها قَطُّ
فَرَرْتُ فإن قِيلَ الفِرارُ إرابَةٌ فقد فَرَّ موسَى حين هَمَّ به القِبْطُ [٤]

* * *

وله الرِّسالة الّتى كتبَها على لسانِ وَلّادةَ بنت المستكفِى إلى الوزير أبى عامر بن عَبْدُوس ، يتهكّمُ به فيها ، فوَجَد فيها مكانَ القولِ ذا سَعَة ، وتلعّب فيها بأطراف الكلام ، وأجادَ فيها ماشاء [٥] .

وكلُّ رسائِله هكذا مشحونةٌ بفُنون الأدب ، ولُمَع التواريخ ، والأمثال الغَريبة ؛ نثراً ونظماً ؛ وأنت سوفَ ترَى نثرَه كيف يَهُزُّ عِطْفَك ، ويحرّك ويخدعُك ، وليس فيه سجعٌ تروّجه القوافِى على النّفوس ؛ ولكنْ هذا من القُدرة على البلاغة .

---

(١) الربرب : سرب البقر الوحشى : أحوى : فى شفتيه حمرة ضاربة للسواد . وكناس الظبي : مأواه . والكثيب : الرمل المكدس ، والسقط هنا : رقة الرمل حتى ينقطع .
(٢) السقط : الشرر ، ويثقب : يتقد .
(٣) الوخط : انتشار الشيب .
(٤) الإرابة : الاتهام والشك .
(٥) هى الرساله الهزلية ؛ شرحها ابن نباتة ؛ وقت بتحقيق هذا الشرح ، ونشر فى دار الفكر العربى .

وقال بعضُ الوزراء بإشبيلية : عَهدِى بأبى الوليد بن زيدونَ قائماً على جنازةِ بعض حُرَمِه ، والناسُ يُعزّونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمعتُه يجيبُ أحداً بما أجاب به غيره ، لسَعةِ مَيْدانِه ، وحضورِ جَنانِه .

وله مع وَلّادةَ هذه أخبارٌ تُطرِب القلوب ، وتُشنِّف المَسامع ؛ لأنه خَلَع فيها عِذارَه ، وأعطَى هَواهُ فيها فَضْلَ زِمامِه . وكانت وَلّادةُ هذه من أهلِ بيتِ الخِلافة ، ابنة محمد المستكفى بن عبد الرحمن ، وهى واحدةُ زمانِها ، المشارُ إليها فى أوانها ، حَسَنةَ المُحاضَرة ، مشكورة المُذاكَرة . وكانت مشهورةً بالصّيانة والعَفاف ، كَتبتْ بالذّهَب على طِرازِها الأَيْمَن :

أنا واللهِ أصلُح للمَعالِي   وأمشِى مِشْيَتِى وأتيهُ تِيهَا

وكَتبتْ على الطِّراز الأيْسَر :

وأُمكِنُ عاشِقِى من صَحْنِ خَدِّى   وأُعطِى قُبْلَتِى مَن يَشْتَهِيها

وكان لها جاريةٌ سوداء بديعةُ الغناء ، فظهَرَ لوَلّادةَ من ابنِ زيدون مَيلٌ إلى الجارية ، فكتبتْ إليه :

لو كنتَ تنصِف فى الهوَى ما بيننا   لم تَهْوَ جاريتِى ولم تتخيَّرِ
وتركتَ غُصْناً مُثمِراً بجمالِه   وجنَحْتَ للغُصْنِ الذى لم يُثْمِرِ
ولقد علمتَ بأننى بدرُ السّما   لكنْ وَلِعتَ لشِقْوَتِى بالمُشترِى

وكانت ترميه بأَبْنةٍ مع فتاه علىٍّ على حالةٍ ، فقالت فيه :

إنّ ابنَ زيدونَ على فضلِهِ   يغتابُنى ظُلماً ولا ذَنبَ لِي
يَلحَظُنى شَزْراً إذا جئتُه   كأنّما جئتُ لِأَخْصِى عَلِي

وكانت تُلقِّبه المسدَّسَ ، وتقول فيه :

ولُقِّبتَ المُسدَّسَ وهو نَعْتٌ   تُفارِقُك الحياةُ ولا يُفارِقْ
فلُوطِىٌّ ومأبونٌ وزانٍ   ودَيّوثٌ وقَرْنانٌ وسارِقْ

وقالت فيه أيضاً :

إنّ ابنَ زيدونَ له فقحةٌ　　تعشق قضبانَ السّراويلِ
لو أبصرتْ أيراً على نخلةٍ　　صارت من الطّيرِ الأبابيلِ

وبلغه أنّ أبا عبدِ الله البَطَلْيَوسِيّ اتّصل بوَلّادة ، فكتب إليه قصيدة طويلة ؛ أوّلها :

أبا عَبْدِ الإلهِ اسمـــع　　وخُذْ عقالَتي أَوْ دَعْ (١)
وأَقْصِرْ بعدَها أو زِدْ　　وطِرْ في إثرِها أو قَعْ
ألمْ تعلَمْ بأنّ الدّهــ　　ـرَ يُعطي بعدَ ما يَمْنعْ
وكم ضرّ امرأً أمرٌ　　تَوهّمَ أنّه يَنْفَــعْ
فإنّ قُصارَكَ الدّهليـــزُ حيثُ سِوالكَ في المَضْجَعْ

وكانت وَلّادة أوّلاً تهوى ابنَ زيدون ، ثم مالت عنه إلى الوزير ابنِ عَبْدوس ، وكان يلقب بالفار ، فقال ابنُ زيدون :

أكرِمْ بوَلّادةٍ عِلْقًا لمُعْتَلِقٍ　　لو فرّقتْ بينَ بيْطارٍ وعطّارِ (٢)
قالوا أبو عامرٍ أضحى يُلِمّ بها　　قلتُ الفَراشةُ قد تدْنو من النّارِ
عيّرتُمونا بأنْ قدْ صارَ يخلفُنا　　فيمنْ نحبّ ، وما في ذاكَ من عارِ
أكْلٌ شَهِيٌّ أصبْنا من أطايبِه　　بعضاً ، وبعضاً صفحْنا عنه للفارِ

وكانت قد طال عُمْرُها وعمرِ أبي عامر المذكور ، حتّى أربيا على الثّمانين ، ولم يدَعا المُواصلة ولا المُراسلة .

وأمّا ابنُ زيدونَ فإنّ غالبَ شعرِه وأغزالِه في وَلّادة ، ومن ذلك قصيدته النّونيّة الّتي سارتْ في البلاد ، وطارتْ في العباد ، وأوّلها :

أضحَى التّنائِي بَديلاً مِن تَدانِينا　　وناب عن طِيبِ لُقْيانا تجافِينا (٣)

---

(١) ديوانه ٥٧٨ .　　(٢) ديوانه ١٩٦ .　　(٣) ديوانه ١٤١ ـ ١٤٨ .

وقد اشتهرت حتى صارت محذورة ، فيقال : إنه ما حفظها أحد إلا مات غريبا . وعارضها الناس في حياته وبعد موته ولم يقاربوها ، وأظن أن ابن زيدون عارض بها البحتري في قوله :

يكاد عاذلنا في الحب يغرينا   فما لجاجك في لوم المحبينا
نلحى على الوجد من ظلم فديدننا   وجد نعانيه أو لاح يعنينا

وقد خمس الشيخ صفي الدين الحلي قصيدة ابن زيدون المذكورة ، وجعلها مرثية في الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة ، فأحسن ماشاء.(١)

وقال بعض الأدباء : من لبس البياض ، وتختم بالعقيق ، وقرأ لأبي عمرو ، وتفقه للشافعي ، وروى قصيدة ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف .

وكنت وأنا في زمن الشبيبة قد نظمت مرثية في بعض الأصحاب الأعزة بصفد ، على وزن قصيدة ابن زيدون هذه ورويها ، وهي :

تحكمت بعدكم أيدي النوى فينا   وقد أقامت بناديها تناديها
وجرعتنا كئوس الحزن مترعة   مزاجها كان زقوما وغسلينا
وقد أناخت بنا من بعدكم محن   عدت علينا بما يرضي أعادينا
والدمع أفناه تكرار البكا فجرت   نفوسنا ذائبات من مآقينا
وحسبنا حالة فيكم مبدلة   الذكر ينشرنا والحزن يطوينا

---

(١) ديوانه ٢٣٤ ، ومطلعها :

كاد الزمان يلقياكم يحيينا   وحادث الدهر بالتفريق يثنينا
فمذ ما صدقت فيكم أمانينا   أضحى التنائي بديلا من تدانينا
* وناب عن طيب لقيانا تجافينا *

أضحت علينا حمامُ الأيكِ نائحةً حُزناً وباتت عيونُ الغيثِ تبكينا
وكم لبرقِ الدُّجى جيبٌ يُشققه وبِلاطم الرَّعد خدًّا حين ينعينا(١)
وكم سمير من الذِّكرى يُطارحنا عنكمْ أحاديثَ أشواقٍ فيُشجينا
يامن تحكَّمَ في الأحشاءِ حُبُّهُمُ وزاده الله تذبيبا وتمكينا
ومن وجدْنا على نارِ الغرامِ بهمْ هُدًى ومن طُورهم في الحسنِ نُودينا
حتّى أتينا فآنسْنا وِصالَهُمْ وباتَ لُطفُهُمُ سرًّا يُناجينا
فما أتمَّ لنا ميقاتَ قُربِهِمُ ربٌّ قضى بالّذي يختاره فينا
فكم لنا صَعْقةٌ خرّ الفؤادُ لها رُعْباً، وباتَ كليمَ لذّاتٍ مفتونا
كأنّهُمْ لم يكونوا للعيونِ سَنًا أنسٍ وللأنفُسِ الحرَّى رياحينا
ما كان ضَرَّ لياليَ الوصلِ لو بقيتْ وأرغمتْ ببقاكُمْ أنفَ واشينا
وجمّعتْ شملَنا فضلاً وتكرمةً حتّى نَرى ما نُعاني من تصافينا
يادهرنا إذ دعا الدّاعي بفُرقتنا كيف انخدعتَ إلى أن قلتَ آمينا!
ما كان أسرعَ حكماً جاءنا عجلاً فسَلَّ لذّاتنا من بين أيدينا
فحسبُنا يارزايا الدّهرِ حادثُنا وبعض ماقدجرى من ذاك يكفينا
ومن تحقّق ماقد حلّ منه بنا فما يَزيدُ على الدّعوى براهينا
يابدرَ تِمٍّ تجلّى في دُجى شَعَرٍ وغصنَ بانٍ تَثنّى في الرُّبا لِينا
ويا غزالَ النّقا جِيداً ومُلتَفَتاً وجنّةَ الرّوضِ تُفّاحا ونسرينا
بالله هل ذهبتْ تلك المحاسنُ أو حالت حُلاكَ الّتي كانت أمانينا!
وهل تنكَّرَ ذاكَ القدُّ أو سُلِبتْ منه الرّشاقةُ لمّا راحَ مدفونا!
وهل تغيّرَ ذاك الوجهُ أو ذهبتْ محاسنٌ عن بدورِ التّمِّ تُغنينا
فإنْ شمَمْتَ عبيراً في الجِنانِ لأنْـ ـفاسِ التّحيّاتِ فاذكُرنا وحيّينا
وإنْ تمتّعتَ في الفرْدوسِ بِساكني بطيبِ عيشٍ فلنْ تُنسى لياليِنا

(١) كذا ورد الشعر .

وكتب ابنُ زيدون إلى ولّادةَ يوماً من الزّهراء :

إنّى ذكرتُكِ بالزّهراء مُشتاقا ... والأفقُ طَلْقٌ ووجهُ الأرض قد راقا [1]
وللنّسيم اعتلالٌ فى أصائلِه ... كأنّه رقّ لى فاعتلّ إشفاقا
والرّوض عن مائه الفِضّىّ مبتسمٌ ... كما شققتَ عن اللبّات أطواقا
يومٌ كأيّام لذّاتٍ لنا انصرمتْ ... بِتْنا لها حين نامَ الدهرُ سُرّاقا
نلهو بما يستميلُ العينَ من زَهَرٍ ... جالَ النّدى فيه حتّى مال أعناقا
كأنّ أعينَه إذ عاينتْ أرقى ... بكتْ لما بى ، فجالَ الدّمعُ رقراقا
لا أسكنَ اللهُ قلباً عن تذكّرِكمْ ... فلم يَطِرْ بجناح الشّوق خفّاقا
لو شاء حَملى نسيمُ الرّيح حينَ هفا ... وافاكمُ بفتى أضناه ما لاقى
فالآن أحمدُ ما كُنّا لعهدِكمُ ... سلوتمُ ، وبقينا نحنُ عُشّاقا

ومن نظمِه أيضاً :

أمّا مُنَى نفسى فأنتِ جميعُها ... ياليتنى أصبحتُ بعضَ مُناكِ
يُدْنى مَزارَكِ حين شطّ به النّوى ... وَهْمٌ أكادُ بِهِ أُقبِّل فاكِ [2]

ومن نظمِه أيضاً :

ولقد شكوتُكِ بالضّميرِ إلى الهوى
ودعوتُ مِن حَنَقٍ عليكِ فأمّنا [3]
مَنّيتُ نفسى من وصالِكِ ضَلّةً ... ولقد يَغُرّ المرءَ بارِقةُ المُنَى

ومن قصيدةٍ يمدح بها عبّاداً فى يوم عيد :

ولمّا قضينا ما عَنانا قضاؤه ... وكلٌّ بما أوليتَ داعٍ فَمُلْحِفُ [4]
رأيناك فى أعلى المصلّى ، كأنّما ... تَطلّعَ من محرابِ داودَ يوسفُ

---

(١) ديوانه ١٣٩ .
(٢) ديوانه ٣٤٥ ، ٣٤٦
(٣) ديوانه ١٩١ .
(٤) ديوانه ٤٩٥ .

ومن نظمه أيضاً :

بَيْني وبينَك ما لو شئتَ لم يضعِ ... سِرٌّ إذا ذاعَت الأسرارُ لم يَذعِ (١)

يا بائعاً حظّه مِنّي ولو بُذِلتْ ... لِيَ الحياةُ بحظّي منه لم أبعِ

يكفيك أنّك إنْ حمَّلتَ قلبيَ ما ... لمْ تستطِعهُ قلوبُ الناسِ يستطِعِ

تِهْ أحتمِلْ، واستَطِلْ أصبِر، وعِزَّ أهُنْ

ووَلِّ أُقبِل، وقُلْ أسمَعْ، ومُرْ أطِعِ

ومنه :

ألَمْ يأنِ أنْ يبكي الغمامُ على مِثلي

ويَطلُبَ ثأري البرقُ منصلتَ النصلِ (٢)

وهلّا أقامَتْ أنجُمُ الزُّهرِ مأتماً ... لتندُبَ في الآفاقِ ما ضاعَ من نَبْلي

أمفتوكةَ الأجفانِ مالَكِ والهاً! ... ألمْ تُرِكِ الأيّامُ نجماً هوى قبْلي!

ولله فينا عِلمُ غيبٍ وحسْبُنا ... به عند جَوْرِ الدهرِ من حَكَمٍ عَدْلِ

وفي أمّ موسى عِبرةٌ إذ رمَتْ بهِ ... إلى اليمِّ في التابوتِ فاعتَبِري واسْلِي

ومنه من قصيدة كتب بها من السّجن إلى ابن جَهْوَر :

ماجالَ بعدَكِ لحظي في سنا القمرِ ... إلّا ذكرتُك ذِكْرَ العَيْنِ بالأثَرِ (٣)

ولا استطَلْتُ زِمامَ الليلِ من أسَفٍ ... إلّا على ليلةٍ سرّتْ مع القِصَرِ

في نشوةٍ من سِناتِ الوَصْلِ موهمةٍ ... أنْ لا مسافةَ بين الوَهْنِ والسَّحَرِ

يا ليتَ ذاكَ السّوادَ الجَونَ متّصلٌ ... قد استعارَ سوادَ القلبِ والبَصَرِ

---

(١) ديوانه ١٦٩ .

(٢) ديوانه ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) ديوانه ٢٥٠ .

فهمتُ معنى الهوى فى لحظِ طَرْفِك لى ... إنّ الحِوارَ لَمفهومٌ من الحَوَرِ
لم تَطوِ بُرْدَ شبابى كَبْرَةٌ، وأرى ... بَرْقَ المَشيبِ اعتَلَى فى عارضِ الشَّعَرِ
قبلَ الثلاثين إذْ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ ... وللشَّبيبةِ غُصْنٌ غيرُ مُهتَصَرِ
يالَلرزايا لقد شافَهْتُ مَنْهلها ... غَمْراً فما أشربَ المكروهَ بالغُمَرِ
لا يَهْنأ الشامِتَ المرتاح خاطرُهُ ... أنّى مُعنّى الامانِى ضائعُ الخَطَرِ
هل الرياحُ بنجم الأرضِ عاصفةٌ ... أم الكُسوفُ لغير الشمسِ والقَمَرِ!
إنْ طالَ فى السِّجنِ إيداعِى فلا عَجَبٌ ... قد يُودَع الجَفْنَ حدُّ الصارمِ الذَّكَرِ
وإنْ يُثَبِّط أبا الحَزم الرِّضا قَدَرٌ ... عن كَشْفِ ضُرِّى فلا عَتْبٌ على القَدَرِ
مَن لَمْ أزلْ من تأنِّيه على ثقةٍ ... ولم أبِتْ من تجنِّيه على حَذَرِ
أغنَتْ قريحتُه مَغْنَى تجاربِه ... ونابَتِ اللَّمحةُ العَجْلَى عن الفِكَرِ
كم أشتري بكَرَى عَيْنَيْه من سَهَرٍ ... هُدوءَ عَيْنِ الوَرَى فى ذلك السَّهَرِ

ومنها:

أحِينَ زُفَّت على الآفاق من أدَبى ... عَرائسٌ من جناها يانِعُ الثَّمَرِ
لا تَلْهُ عَنّى فلم أسألْكَ معتسِفاً ... رَدَّ الصِّبا غِبَّ إشفاء على الكِبَرِ
واشفَعْ أكُنْ مِثلَ ممْطورٍ ببَلْدَتِه ... جذْلانَ بالوَطَنِ المألوفِ والوَطَرِ

ومن نظمه فى بنى جَهْوَر:

بنى جَهْوَرٍ أنتم سماء رياسةٍ ... مَناقِبُكُمْ فى أُفْقِها أنجمٌ زُهْرُ
ترى الدهرَ إنْ يَبطِشْ فمنكم يمينُه ... وإنْ تَبْسِم الدنيا فأنتم لها ثَغْرُ
لكُمْ كلُّ رَقْراقِ السَّماحِ كأنّه ... حُسامٌ عليه من طَلاقتِه بِشْرُ
طريقتُكُمْ مُثْلَى وهَدْيُكُمو رِضاً ... ومذهبُكم قصدٌ ونَيْلُكُمُ غَمْرُ
عَطاءٌ ولا مَنٌّ، وحُكْمٌ ولا هوًى ... وحِلْمٌ ولا عَجْزٌ، وعِزٌّ ولا كِبْرُ

ومن نظمه فيهم بعد حبسه :

بنى جَهْوَرٍ أحرقتمُ بجفائكمْ ... جَنانى فما بالُ المدائح تَعْبَقُ ! [١]
تظنّوننى كالعنبرِ الوَرْدِ إنما ... تطيبُ لكمْ أنفاسُه حينَ يُحرَقُ

وقال يخاطب أبا الحزم بن جَهْوَر :

قلْ للوزيرِ وقد قطعتُ بمدحِه ... عُمْرِى فكانَ السِّجْنُ منه ثَوابِى [٢]
لا تَخْشَ لا ئمتِى بما قد جئتَه ... مِن ذاكَ فىّ ولا تَوَقَّ عِتابِى
لم تُخْطِ فى أمرِى الصّوابَ موفّقاً ... هذا جزاءُ الشاعرِ الكذّابِ

قلت : ومن هذه المادّة قولُ الأَبِيوَرْدِىّ :

وقصائدٍ تَحكِى الرِّياضَ أَضَعْتُها ... فى باخلٍ ضاعَتْ به الأَحْسابُ
وإذا تَناشَدَها الرُّواةُ وأَبْصَروا الْـ ... ـمَمدوحَ قالوا : شاعرٌ كَذّابُ

وقول أبى بكر بن أبى حمزة [٣] :

ووعَدْتَنى فظنَنْتُ أنكَ صادقٌ ... فظَلَلْتُ من طَمَعى أجىءُ وأَذْهَبُ
وإذا اجتمعتُ أنا وأنتَ بمجلسٍ ... قالوا : مُسَيْلِمَةٌ وهذا أشعبُ

وقول ابنِ زَيْدون : « لم تخط فى أمرِى الصّواب » ، يُشبه قولَ محمّد بن مُناذِر فى خالد بن طليق [٤] قاضى البَصْرة :

قل لأمير المؤمنين الذى ... من هاشمٍ فى سِرِّها والُّلبابْ [٤]
إن كنتَ للسُّخْطةِ عرّضتَنا ... بخالدٍ فهو أشدّ العِقابْ
كان قُضاةُ الناسِ فيما مَضَى ... من رحمةِ اللهِ وذا من عَذابْ

---

(١) ديوانه ٥٩٠ ، و الذخيرة ١ : ٣٠٤ .

(٢) ديوانه ٥٩١ .

(٣) ط : « فى أبى حمزة » .

(٤) ى الأغانى ١٧ : ٢٤ (ساسى) : « كان قاضى المهدى » .

ياعَجبًا من خالدٍ كيف لا يُخطئ فينا مرّةً بالصّوابْ !

وكَتب إلى أبى حَفْص بن برد الكاتب من السِّجن أيضاً ، قطعةً منها :

ماعلى ظَنِّىَ باسُ يَجْرَحُ الدَّهرُ ويأسُو[1]
رُبَّما أشرفَ بالمَرْ ءِ على الآمالِ ياسُ
ولقد يُنْجيك إغفا لٌ ، ويُؤذيك احتراسُ

ومنهـا :

يا أبا حَفْص وما سا واكَ فى الفَهْم إياسُ
مِنْ سَنَا رأيكَ لى فى غَسَقِ اللّيل اقتباسُ

ومنها :

وِدادِى لكَ نَصٌّ لمْ يُخالفْه قِياسُ
يَلبُدُ الوَرْدُ السَّبَنْتَى وله بعْدُ افتراسُ[2]
إنْ أكنْ أصبحتُ محبو ساً فللغَيْث احتباسُ
فتأمَّلْ كيف يَغشَى مُقْلةَ المَجْد النُّعاسُ
ويُفتُّ المِسْك فى التُّرْ بِ فيُوطا ويُداسُ
لا يَكنْ عَهْدُك وَرْداً إنّ عهدِى لكَ آسُ
وأدِرْ ذكرِىَ كأساً ما امتطت كفَّك كاسُ

ومِن نظمِه :

أمّا رِضاكَ فشىءٌ ماله ثَمَنُ لو كان سامَحنى فى ملكِكَ الزّمَنُ[3]
تبكى فِراقَكَ عينٌ أنتَ ناظرُها قد لجَّ مِن هَجْرِها فى هَجْرِك الوَسَنُ

---

(١) ديوانه ٢٧٣ . (٢) يلبد : يقيم بمكانه ، والورد والسبنتى : من أسماء الأسد .
(٣) ديوانه ١٨٠ .

إنّ الزمانَ الّذى عَهْدِى به حَسَنٌ ... قد حالَ مُذْ غاب عنّى وجهُكَ الحسَنُ
واللهِ ماساءنى أنّى خَفِيتُ ضنًى ... بل ساءنى أنّ سِرّى فى الهوَى عَلَنُ
لو كانَ أمْرِى فى كَتْمِ الهوى بِيَدِى ... ما كان يعلَمُ مافى قَلبِيَ البدَنُ

ومِن نَظمِه أيضا :

لم أنسَ إذ باتت يَدِى ليلةً ... وشاحَه اللاصق دونَ الوِشاح(١)
لَمْ أَشِمِ البَرقَ جَهاماً ؛ ولَم ... أقتدِح النارَ بزَنْدٍ شَحاح
يامُرْشِدى جَهْلاً إلى غيرِه ... أغْنَى عن المِصْباح ضوءُ الصَّباحْ
ذو باطنٍ أُقْبِسَ نورَ التُّقَى ... وظاهرٍ أُشْرِبَ ماءَ السَّماحْ

ومنها :

لا طارَ بى حَظٌّ إلى غايةٍ ... ما لم أكنْ منكمْ مَرِيشَ الجَناحْ
لَم يَثْنِنى عن أمَلٍ ماجَرَى ... قد يُرقَعُ الخَرْقُ وتُوسَى الجِراحْ
وأُشفِعُ فلِلشّائمِ نُعْمَى بما ... بَناه من عَقْدٍ وَثيقِ النَّواحْ
إنّ سَحابَ الأُفْقِ منها الحَيَا ... والحمد فى تأليفها للرِّياحْ

ومِن نظمِه مهنِّئا المعتضد عبّاد بهزْم أبنه إسماعيل لابن الأفطس وقتله
ولد إسحاقَ بنِ عبدِ الله :

وبُشْرَاكَ دُنيا غضّةُ العَهْدِ طَلْقةٌ ... كما ابتسَم النُّوّارُ عن أدْمُعِ النَّدَى(٢)
دعوتَ فقال النّصرُ لَبّيْكَ ماثِلاً ... ولم تكُ كالدّاعِى يُجاوِبُه الصَّدَى
وأحمدتَ عقبَى الصّبرِ فى دَرَكِ المُنَى ... كما يَبلُغ السّارى الصّباحَ فأَحْمَدَا
وَجَدْناكَ إنْ ألقحتَ سَعْياً نَتجتَه ... وغيرُكَ شاوٍ حين أنضجَ أرمَدَا
سَلِ الخائنَ المغترَّ : كيفَ احتقابُه ... مع الدّهرِ عاراً بالفِرار مخلَّدا !

---

(١) ديوانه ٢٤٧ .
(٢) ديوانه ٤٦٧ .

رَأى أنّه يُضحِي هِزَبْرًا مصمّماً ... فلم يَعْدُ أن أمسَى ظَلِيماً مُشَرَّدَا

يوَدُّ إذا ما جَنَّه الليلُ أنّه ... أقامَ عليه آخر الليل سَرْمَدا

وأصبحَ يَكْفِيه المصاب بشكله ... بكاء لَبِيدٍ حين فارَقَ أَرْبَدَا

وهذا القَدْر يكفي في إيراد نَظْم ابن زيدون .

ولمّا اتّصل بعدَ فِرارِه من سِجن ابن جهوَر بالمعتضد بن عبّاد ، ولم يزَلْ عندَه وعند أبيه المعتمد قائمَ الجاه ، وافرَ الحرمة ، إلى أن توفّيَ بإشبيليَةَ ، سنة ثلاثٍ وستّين وأربعمائة ، كذا قال شيخُنا شمسُ الدّين الذّهبيّ .(١)

وقال ابن بَشْكُوال : توفِّي سنةَ خمسٍ وأربعمائة ، وكانت وفاتُه بألبيرة ، وسِيقَ إلى قُرطُبة ودُفِن فيها . ومَولِدُه سنةَ أربعٍ وخمسين وثلثمائة(٢) .

قلت : ولعلّ الذى قاله ابنُ بَشْكُوال أقربُ إلى الصّواب ، على أنّ ابنَ بَسّام قال في « الذّخيرة » : توفّيَ سنةَ ثلاثٍ وستّين ، وكان يَخضِبُ بالسّواد ، وكان له ولدٌ يقال له : أبو بكر ، تولّى وزارةَ المُعتمِد ، وقُتِلَ يومَ أخَذ يوسفُ بنُ تاشفين قرْطُبةَ من ابنِ عبّاد ، رحمهم الله أجمعين .

---

(١) العبر ٣ : ٢٥٣ .

(٢) لم أجده في الصلة .

رسالة ابن زيدون

وها أنا أورد الرسالة منقولةً من خطِّ الإمام علىّ بن ظافر، رحمه الله تعالى وأثبتها جملةً، ثمّ أعودُ بعدَ ذلك وأوردُها شيئًا فشيئًا، من أوّلها إلى آخرها، وكلما أوردتُ منها شيئًا أوضحتُ مُبهمه، وفصّلتُ مُجملَه، وأوردْتُ ماله به عَلاقه، مستعينًا فى بلوغ المقصود بالله تعالى.

كتب أبو الوليد أحمدُ بنُ زَيدونَ إلى ابنِ جَهْوَر:

يامولاىَ وسيِّدى الذى ودادِى له، واعتمادِى عليه، واعتدادِى به. ومَن أبقاهُ الله تعالى ماضىَ حَدِّ العَزم، وارِىَ زَنْد الأمَل، ثابتَ عَهْدِ النِّعمة. إن سَلَبْتَنى أعزّكَ الله لِباسَ إنعامِك، وعَطَّلتَنى من حُلِيّ إيناسِك، وأظمأتَنى إلى بُرُودِ إسْعافِك، ونَفَضْتَ بى كفَّ حياطَتِك، وغضضتَ عنّى طَرْفَ حمايتِك؛ بعد أن نَظَرَ الأعمى إلى تأميلى لك، وسَمِعَ الأصمُّ ثنائى عليك، وأحسَّ الجمادُ باستحمادِى إليك؛ فلا غَرْوَ، قد يَغَصُّ بالمـاءِ شارِبُه، ويقتلُ الدواءُ المُستشفِىَ به، ويُؤتَى الحذِرُ مِن مأمَنِه، وتكون مَنِيّةُ المتمنّى فى أُمنيّته، والحَيْنُ قد يَسْبِقُ حِرصَ الحريصِ.

كلُّ المَصائبِ قد تَمُرُّ على الفتى وتَهُونُ غيرَ شماتَةِ الأعداءِ

وإنّى لأتجلّد، وأرِى الشامتين أنى لرَيْبِ الدّهْرِ لا أتضعضع، فأقول: هل أنا إلاّ يَدٌ أدْماها سِوارُها، وجَبِينٌ عَضَّ به إكْليله، ومَشْرِفِىٌّ ألصقه بالأرضِ صاقِلُه، وسَمْهَرِىٌّ عرَضَه على النارِ مثقّفه، وعَبْدٌ ذهبَ به سيِّدُه مَذهبَ الذى يقول:

فقسا ليزدَجِروا ومَن يَكُ حازِمًا فلْيَقْسُ أحيانًا على مَن يَرْحَمُ

هذا العَتْب محمودٌ عواقِبُه، وهذه النَّبْوة غَمْرةٌ ثم تَنجلِى، وهذه النَّكْبة سَحابةُ صَيْفٍ عن قليلٍ تَقَشَّع. ولن يَرِيبَنِي مِن سيّدى أن أبطأ سَيْبُه،

أو تأخَّرَ غيرَ ضنينٍ غَناؤه ، فأبطأُ الدِّلاءِ فَيْضاً أملؤُها ، وأثقلُ السحابِ مَشْياً أحفلُها ، وأنفعُ الحيا ما صادَفَ جَدْباً ، وألذُّ الشراب ما أصابَ غليلا ، ومع اليومِ غدٌ ، ولكلِّ أجلٍ كِتاب ؛ له الحمدُ على اهتبالِه ، ولا عَتْبَ عليه في إغفالِه .

فإنْ يَكُنِ الفعلُ الذى ساءَ واحداً فأفعالُه اللاّتى سَرَرْنَ أُلُوفُ

وأعود فأقول : ماهذا الذَّنْب الذى لم يَسَعْه عفوُك ، والجهلُ الذى لم يأتِ مِن ورائِه حِلمُك ، والتطاوُل الذى لم يَستغرِقْه تطوُّلُك ، والتحامُل الذى لَم يَفِ به احتِمالُك ؛ ولاأخلو من أن أكونَ بَرِيئاً فأينَ العَدْل ! أو مُسيئاً فأينَ الفَضْل !

إلاَّ يَكُنْ ذنبٌ فَعَدْلُكَ واسعٌ أوكانَ لى ذَنبٌ ففَضْلُكَ أوسَعُ

حَنَانَيْكَ ! قد بَلَغ السَّيْلُ الزُّبَى ، ونالَني ماحَسْبِي به وكَفَى . وما أراني إلاَّ لو أنّى أُمِرْت بالسُّجود لآدمَ فأبيْتُ واستكبرت ، وقال لى نوح : ﴿ اركَبْ مَعَنا ﴾ ، فقلتُ : ﴿ سآوِى إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِن الماءِ ﴾ ، وأُمِرْت ببِناء صَرْحٍ لَعلِّي أطَّلِعُ إلى إلهِ موسَى ، وعكَفْتُ على العِجْل ، واعتَدَيْتُ في السَّبْت ، وتعاطَيْت فعقرْت ، وشرِبْت من النَّهْر الذى ابْتُلِيَ به جُيوشُ طالوت ، وقُدْتُ الفِيلَ لأَبْرَهَة ، وعاهدْتُ قُرَيشاً على مافى الصَّحيفة ، وتأوَّلْتُ في بَيْعَة العقَبة ، ونَفَرْتُ إلى العِيرِ ببَدْر ، وانْخَزَلْت بثُلُث النّاس يومَ أُحُد ، وتخلّفْتُ عن صَلاة العَصْر في بنى قُرَيْظة ، وجِئْتُ بالإفْك على عائشةَ الصِّدِّيقة ، وأَنِفْتُ من إمارةِ أُسامة ، وزَعمْتُ أنّ بَيْعةَ أبي بَكْر كانت فلتةً ، ورَوَيْتُ رُمْحِي مِن كَتِيبةِ خالد ، ومزَّقْتُ الأديمَ الذى بارَكَتْ يدُ الله عليه ، وضحَّيْت بالأشْمَط الذى عُنْوانُ السُّجودِ به ، وبذَلْت لقَطَام :

ثلاثةَ آلافٍ وعَبْدًا وقَيْنَةً ... وضَرْبَ عليٍّ بالحُسامِ المسمَّمِ

وكتبتُ إلى عمر بنِ سعد: أن جَعْجِعْ بالحسين، وتمثَّلتُ عندما بلغني من وقعة الحَرَّة:

لَيْتَ أشياخِي ببَدْرٍ عَلِمُوا ... جزَعَ الخَزْرجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ

وَرجمتُ الكعبة، وصلبتُ العائذَ على الثَّنِيَّة ـ لكان فيما جرى عليَّ مايحتمل أن يسمَّى نكالا، ويُدعَى ولو طَلَى المَجاز عقاباً.

وحَسْبُكَ من حادثٍ بامرىءٍ ... تَرَى حاسِدِيه له راحِمِينَا

فكيفَ ولا ذنبَ إلاّ نميمةٌ أهداها كاشحٌ، ونبأٌ جاء به فاسِق، وهم الهَمّازون المشّاءون بنميم، والواشُون الّذين لايلبثون أن يصدَعُوا العَصا، والغُواةُ الّذين لايتركون أديما صحيحا، والسُّعاةُ الّذين ذكرهم الأحنفُ ابنُ قيس، فقال: ماظنُّك بقومٍ الصِّدْقُ محمودٌ إلاّ منهم!

حلفتُ فلم أَترُكْ لنفسِكَ رِيبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

ووَاللهِ ماغَشَشْتُكَ بعدَ النّصيحة، ولا انحرفتُ عنك بعدَ الصّاغية، ولا نَصَبْتُ لك بعدَ التشيُّع فيك، ولا أزمَعْتُ يأساً منكَ مع ضمانٍ تكلّفتْ به الثّقة عنك، وعهدٍ أخذه حُسنُ الظّن عليك؛ ففيم عَبِثَ الجفاء بأذِمّتي، وعاثَ العُقوقُ في مَواتِّي، وتمكّنَ الضّياع من وسائلي! ولِمَ ضاقَتْ مذاهِبي، وأكْدَتْ مَطالِبي! وعلامَ رضيتُ من المركَب بالتعليق، بل من الغنيمة بالإياب! وأنَّى غلبَني المغلَّب، وفَخَر عليَّ العاجزُ الضعيف، ولَطَمَتْني غيرُ ذاتِ سِوار! ومالَكَ لم تَمنَع منّي قبلَ أن أُفترَس، وتُدرِكني ولمّا أُمزَّق! أم كيف لاتتضرّم جوانحُ الأكْفاء حسداً لى على الخصوص بك، وتتقطع أنفاسُ النُّظَراء منافسةً في الكرامة عليك، وقد زانني اسمُ خِدْمتك، وزهاني وَسْمُ نعمتك، وأبليتُ البلاءَ الجميلَ في سِماطِك، وقمتُ المَقامَ المحمودَ على بِساطِك.

أَلَسْتُ المُوالِي فيكَ غرَّ قصائد
هِيَ الأنجُمُ اقتادَتْ مع الليل أنجُمَا
ثناءٌ يُظَنُّ الرَّوْضُ منه منوَّراً ضُحًى، ويُخالُ الوَشْيُ فيه مُنَمْنَمَا

وهل لَبِس الصَّباحُ إلاّ بُرْداً طرَّزْتَهُ بفضائلك، وتقلَّدَتِ الجَوْزاء إلاّ عِقْداً فصَّلْتَهُ بمآثرك، واستَمْلَى الرَّبيعُ إلاّ ثناء ملأتَهُ من محاسنك، وبَثَّ المِسكُ إلاّ حديثاً أذعْتَه في محامدك! مايومُ حليمةَ بِسِرٍّ.

وإن كنتُ لم أَكْسُك سَليبا، ولا حَلَّيتك عُطْلاً، ولا وَسَمْتك غُفْلاً؛ بل وجدتُ آجُرّاً وجِصًّا فبنَيْت، ومكانَ القول ذا سَعة فقُلت

حاشا لكَ أن أعدَّ من العاملة النّاصبة، وأكونَ كالذُّبالة المنصوبة تُضيء للنّاس وهِيَ تحترِق! فلكَ المَثَلُ الأعلى، وهو بكَ - وبي فيكَ - أَوْلى.

ولَعَمْرُكَ ما جهِلتُ أنّ صَريحَ الرّأيِ أن أتحوّلَ إذ بلَغتني الشّمس، ونبابي المَنزل، وأصفَح عن المَطامع الّتي تُقطِّع أعناقَ الرّجال، فلا أستوطئ العَجْز، ولا أطْمَئِنّ إلى الغُرور؛ ومن الأمثال المضروبة: خامِري أمَّ عامر؛ وإنّي مع المعرفة أنّ الجلاءَ سِباء، والنُّقلةَ مُثْلة.

ومَن يَغترِب عن قومه لم يزَل يرَى
مَصارِعَ مَظلومٍ: مَجَرّاً ومَسْحَبَا
وتُدفَن منه الصّالحاتُ وإنْ يُسِئْ
يكنْ ما أساءَ النّارَ في رأسِ كَبْكَبا

لعارفٌ بأنّ الأدبَ الوَطنُ لا يُخشَى فِراقه، والخليط لا يُتوقَّع زِيالُه، والنَّسيب لا يُجفَى، والجار لا يَخفَى. ثمّ ما قِرانُ السَّعد للكواكب أبهَى أثرا، ولا أسنَى خطرا، من اقتران غنى النّفس به، وانتظامِها نَسَقاً معه؛ فإنّ

الحائزَ لها، الضاربَ بسَهْمٍ فيهما - وقليلٌ ماهُمْ - أينما توَجَّه وَرَدَ مَنْهَلَ بِرٍّ، وحَطَّ فى جَنابِ قَبُول، وضوحِك قبلَ إنزالِ رَحْلِه، وأعطى حُكْمَ الصَّبِيِّ على أهله.

وقيل له: أهْلاً وسَهْلاً ومَرحباً فهذا مَبِيتٌ صالحٌ ومَقِيلُ

غير أنّ الوَطَن محبوب، والمَنْشَأ مألوف، واللبيب يحِنّ إلى وَطَنِه، حَنِينَ النَّجِيبِ إلى عَطَنِه، والكريمَ لايَجْفُو أرضاً فيها قَوابِلُه، ولا يَنْسَى بَلَداً فيها مَراضِعُه. قال الأوّل:

أحَبُّ بلادِ الله ما بَيْنَ مَنْعِجٍ إلَيَّ وسَلْمَى أن يَصُوبَ سَحابُها

بلادٌ بها عَقَّ الشَّبابُ تَمائِمى وأوّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِى تُرابُها

هذا إلى مُغالاتى لعَقْد جِوارِك، ومُنافَسَتى بلَحظةٍ مِن قُرْبك، واعتقادِى أنّ الطّمَع فى غيرك طَبَع، والغنى من سواك عَناء، وكُلّ الصَّيْدِ فى جوف الفرأ، والبَدَل منك أعْوَر، والعِوَض نَفاء.

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادَنِى ضَنّاً به نَظَرى إلى الأُمَراءِ

وفى كلّ شَجرةٍ نار، واستمجَد المَرْخُ والعَفار. فما هذه البَراءة ممّن يتولاّك، والمَيْل عمّن لا يَمِيل عنك! وهلاّ كان هَواكَ فيمن هَواهُ فيك، ورِضاكَ لمن رضاه لك!

يامن يَعِزُّ علينا أن نُفارِقَهم وِجْدانُنا كلّ شىءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ

أُعيذُك ونفسى من أن أشِيمَ خُلَّبا، وأَسْتَمْطِر جَهاماً، وأكْدِم فى غيرِ مَكْدَم، وأشكو شَكْوَى الجَريح إلى العِقْبانِ والرَّخَم؛ فما أبْسَسْتُ لكَ إلاّ لتَدِرّ، وحرَّكْتُ لك الحُوارَ إلاّ لتَحِنّ، ونبّهتُك إلاّ لأنام، ومَرَيْتُ إليكَ إلاّ لأحمَدَ السُّرَى لَدَيْك. وإنّكَ إنْ شئتَ عَقْدُ أمرٍ تيَسّر،

ومتى أعذرتَ فى فكِّ أسْرِى لم يتعذّر ، وعلمُك محيطٌ بأنّ المعروفَ ثمرةُ النِّعمة ، والشفاعة زكاةُ المروءة ، وفضلَ الجاهِ ـ تعودُ ـ به صدقة .

وإذا امرؤٌ أهدى إليكَ صنيعةً   من جاهِـه فـكأنّها من مالِهِ

لعلّى أن ألقى العصا بذراك ، ويستقرّ بىَ النوى فى ظلّك ، وأستأنف التأدُّبَ بأدبك والاحتمالَ على مذهَبك ، فلا أوجِد للحاسد مجالَ لحظة ، ولا أدَع للقادِح مساغَ لفظة ، والله ميَسِّرك من إطلاقى بهذه الطَّلِبة ، وإشكائى من هذه الشَّكوى ، بصنيعةٍ تُصيبُ منها مكانَ المصنَع ، وتستودِعها أحفظَ مُستودَع ، حسْبما أنت خليقٌ له ، وأنا منك حرِىٌّ به ؛ وذلك بيدِه ، وهيِّنٌ عليه .

ولمّا توالَتْ غُرَرُ هذا النَّثر واتّسقَتْ دُرَرُه ، فهزَّ عِطفَ غُلوائِه ، وجرَّ ذيلَ خُيَلائِه ، عارَضَه بالنّظم مُباهِيا ؛ بل كايَدَه مُداهِيا ، حين أشفق أن يستعطفَك استعطافُه ، وتميلَ بنفسِك ألطافُه ، فاستحسن العائدةَ منه ، واعتقد بالفائدة له ، فما زال يستكدُّ الذِّهنَ العليل ، والخاطرَ الكليل ، حتّى زفَّ إليك عروسا مجلوّةً فى أثوابها ، منصوصةً بِحَلْيِها وملابِسها ، وهى :

الهوَى فى طلوعِ تلك النّجومِ   والمُنَى فى هُبوبِ ذاكَ النَّسيمِ
سرَّنا عيشُنا الرّقيقُ الحواشى   لو يدومُ السّرورُ للمستديمِ
وطرٌ ما انقضَى إلى أن تقضَّى   زمنٌ ماذمامُـــــه بالذَّميمِ
إذ ختامُ الرِّضا المسوّغ مِسْكٌ   ومِزاجُ الوِصال من تَسنيمِ
وعريضِ الدّلال غضٍّ جنَى الصَّبْــــوةِ نشوانَ من سُلافِ النَّعيمِ
طالما نافر الهَوَى منه عِزٌّ   لم يطُل عَهْدُ جِيدِه بالتّميمِ
زارَ مستخفِياً ، وهيهاتَ أن يخـ   فَى سَنا البدرِ فى الظلام البهيمِ

فَوَشَى الحَلْيُ إذ مَشَى، وهفا الطِّيـ بُ إلى حُسنِ كاشحٍ بالنَّميمِ
أيها المُؤذِنِي بظُلمِ اللَّيالي ليس دهري بواحدٍ من ظَلُومِ
ما تَرَى البَدْرَ إنْ تأمَّلتَ والشمـ سَ هما يُكسَفانِ دونَ النَّجومِ!
وهو الدهرُ ليس يَنفكُّ يَنحو بالمُصابِ العظيمِ نحوَ العظيمِ
بوَّأ اللهُ جَهْوَراً أشرفَ السُّو دَدِ في السِّرِّ واللُّبابِ الصَّميمِ
واحدٌ سلَّمَ الجميعُ له الأمـ ـرَ فكانَ الخصوصُ وَفقَ العمومِ
قلَّدَ الغَمْرُ ذا التَّجاربِ فيه واكتفى جاهلٌ بعلمِ عليمِ
خطرٌ يقتضي الكمالَ بنوعَيْ خُلُقٍ بارعٍ وخَلْقٍ وَسيمِ
أُسوةَ الرَّوضِ تَطَّبيكَ بحظَّيْ نظرٍ ما اعتمدتَه وشميمِ
أيُّهذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعَصا بَدْءُ قَرْعِها للحليمِ
ما عَناني أن يألفَ السابقُ المَرْ بطَ في العِتْقِ منه والتَّطهيمِ
وثواءُ الحسامِ في الجفنِ يَثْني منه بعدَ المَضاءِ والتَّصميمِ
أفضرٌّ مثلي جَمًّا من الأيـ ـامِ ناهيكَ من عذابٍ أليمِ
ومُعنًّى من الصِّبا بهَناتٍ نكأتْ بالكُلومِ قَرحَ الكُلومِ
سَقَمٌ لا أُعادُ منه وفي العا دةِ أُنسٌ يَفي ببُرْءِ السَّقيمِ
نارُ بَغْيٍ سَعَى إلى جَنَّةِ الأمْـ ـنِ لَظاها، فأصبحتْ كالصَّريمِ
بأبي أنتَ إن تَشأ تَكُ بَرْداً وسلاماً كنارِ إبراهيمِ
للشَّفيعِ الثَّناءُ والحمدُ في صَوْ بِ الحَيا للرِّياحِ لا للغيومِ
وزعيمٌ بأن يذلِّلَ لي الصَّعْـ بَ فيأتي إلى الهُمامِ الزَّعيمِ
وثناءٌ أرسلتُه سَلوةَ الظا عِنِ عن شَوْقِه ولهوَ المُقيمِ
ووِدادٌ يُغيِّرُ الدَّهرُ ما شا ءَ ويَبقَى بقاءَ عهدِ الكريمِ
فهو رَيْحانةُ الجليسِ ولا فَخْـ ـرَ، ومنه مِزاجُ كأسِ النَّديمِ
لم تَزَلْ مُغضِياً على هَفوةِ الجا ني مُصيخاً إلى اعتذارِ المُليمِ

ومتى نبدأ الصَّنيعةَ يُوليـ ... كَ تَمَـامُ الخِصالِ بالتَّتْميمِ

ها كَهَا أعزَّك اللهُ يَبْسطها الأَمَل، ويَقْبضها الخَجَل، لها ذَنْب التقصير، وحُرْمة الإخلاص، فهَبْ ذَنبًا لحُرْمة، واشفَع نعمةً بنعمة؛ ليأتي لك الإحسانُ مِن جهاتِه، وتَسلُك إلى الفضلِ طُرُقاتِه؛ إن شاء الله تعالى.

هذه الرسالة الزيدونية بجملتها نثرا ونظما، منقولة من خط ابن ظافر رحمه الله تعالى.

* * *

وهذا أوان الشُّروع فى إيرادِها على التفصيل شيئاً فشيئا ؛ ليتأتى الـكلامُ على ما أودَعه فيها من الإشارات إلى الوَقائع والأمْثال ، وخلّد فيها من أبياتٍ اشتَهَر بين الأدباء استعمالُها ، وتخلل فى غصون الرّسائل والمُـكاتَبات وُرودُها ؛ حسَب الإمكان ، وباللهِ الإعانة .

١ — قوله : يَامَوْلاَىَ وسيّدى الّذى وَدادِى لَهُ .

المَولَى يَجىء فى الـكلام على مَعانٍ . [فالمَوْلَى ابنُ العَمّ][1] ، والمولَى الحليف ، والمولَى المُنعِم ، والمولى المعتِق ، والمَولَى العَتِيق .

فالمَوْلَى أعْلَى وأسفَل ، فهو من الأضداد ؛ فمَن وَقَف على مَوالِيه فللشّافعىّ رحمه الله تعالى فيه ثلاثة أقوال : أحدُها يُصرَف إلى الأعلى ، والثانى يُصرَف إلى الأسفَل ، والثالث أن يشترك بينهما ، وعليه الفَتْوَى .

وما أحسنَ قولَ أبى إسحاق الغزّىّ :

ولن يتساوَى سادةٌ وعبيدُهُمْ　　على أنَّ أسماءَ الجميعِ مَوالِي

وقولَ أبى تمام الطّائىّ :

مولاكَ يامولاىَ صاحبُ لَوْعـةٍ　　فى يومِه وصَبابةٍ فى أمْسِهِ
دَنِفٌ يَجُود بنفسِه حتى لقــد　　أمسَى ضعيفاً أن يَجودَ بنفسه

والمَولَى : الوَلِىّ ، وفى الحديث : « اللهمّ مَنْ كنتُ مولاه فعلِىٌّ مولاه » .

والمَولَى : الجار والناصر ، وكلُّ من وَلِىَ أمراً فهو وَلِيّه ، والمراد من هذه

---

(١) من ط .

المعانى كلِّها المُنعِم ، والمُعتِق ، والسيِّد . تقول العرب : سادَ قومَه يَسودُهم سِيادةً ، وسُودداً ، وسَيْدردةً ، فهو سيِّدهم ، أى فضَل عليهم وأرتفَع عن طبَقتهم ، لِما امتازَ عنهم بمَناقِبِه ؛ وما أحسَنَ قولَ أبى نُواسٍ فى الفضل ابنِ عبد الصّمد الرّقاشىّ :

وجَدْنا الفضلَ أكرَمَ من رَقاشٍ لأنّ الفضلَ مولاهُ الرّسولُ

أرادَ أبو نُواسٍ نفيَه عن وَلائه ؛ لأنه جعَلَه أكرَمَ ممّن ينتَمِى إليه ، وذَهَب إلى قوله صلّى الله عليه وسلّم : « أنا مولَى مَن لا مَولَى له » ، وهذا من الهَجْو الخبيث الخفىّ .

والوِداد : المحبّة ، تقول منه : وَدِدْتُ الرّجل أَوَدُّه وِداداً ، أحبَبْتُه ، والوُدّ والوَدّ بضم الواو وفتحها : المَوَدّة .

ويُقابِل المولى مذكّرًا المَولاة مؤنّثة ، ويقابل السيّد مذكّرًا السيّدة مؤنّثة . وأمّا قولُ الناس : « لِسِتّ » ، فليس فى كلام العَرَب ، بل هو مولَّد ، وما أحسَنَ قولَ البَهاء زُهَير :

بنَفْسِى مَن أُسمّيها بِسِتِّى فتَرْمُقُنى النُّحاةُ بعين مَقْتِ[1]
يَرَوْن بأنّنى قد قلتُ لَحْناً فكيف وإنّنى لَزُهَيْرُ وقتى
وقد مَلَكَتْ جهاتِى السّتَّ حقًّا فلا عَجَبٌ إذا ماقلتُ : سِتِّى

وقال الباخَرْزىّ :

إنّى لأعْشَقُ سِتّى إى والّذى شَقَّ خَمْسِى

وقد غلَب على كُتّاب الحُكْم عن القُضاةِ أن يقولوا : سيّدنا ومولانا قاضى القُضاة ، فيما يكتبونه من السّجلاّت وغيرِها ، والصوابُ فيه تقديمُ مولانا على سيّدنا ، لأمور :

---

(١) ديوانه ٢٢ .

الأوّل : أنّ كُتّاب الإنشاء هم الأصل فى هذه الصِّناعة ، وأوّل مايقولون : المَوْلَوِيّ الأمِيرِيّ ، ويأتون بالسيّد بالآخِر .

الثانى : أنّ العَرَب كذا قالوا ، قالت الخنساء فى أخيها صَخْر :

وإنّ صَخْراً لمَوْلانا وسيّدُنا   وإن صَخْراً ـ إذا نَشْتُو ـ لَنحّارُ[1]
وإنّ صَخْراً لتأتَمُّ الهُداةُ به   كأنّه عَلَمٌ فى رأسه نارُ
حامِي الحَقِيقةِ محمودُ الخَلِيقةِ مَهْ   دِيُّ الطّرِيقةِ نَفّاعٌ وضَرّارُ

ولا نُورد عليها مايُرْوَى عن أبى عثمان المازنِيّ ، قال : رأيْتُ أبا فرعون العَدْوانّي ومعه ابنتاه ، وهو فى سكّة العَطّارين بالبَصْرة يقول :

بُنَيّتيّ صابِرَا أبا كُما   إنّكما بعَيْنِ مَن يَرا كُما
اللهُ رَبّى سيّدى مَوْلا كُما   ولو يَشا بفَضْلِهِ أغنا كُما

لأنّ الكلامَ فى المعطوف ، وليس هذا فيه عَطْف ؛ لأنّ مِثْل هذا لا تَرْتِيبَ فيه ، كقولِه تعالى: ﴿ غافِرُ الذّنْب وقابِلُ التّوبِ ﴾[2] ، واللهُ تعالى يَقْبل التوبةَ أولاً ، ثم يَغفِر الذّنْب .

والثالث : لأنّ البلاغةَ أن يُذكَر الأعمّ ثمّ الأخَصّ ، كقولِه تعالى : ﴿ فيهما فاكِهةٌ ونَخْلٌ ورُمّانٌ ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كان عَدُوّاً لِلّهِ وملائكته ورُسُلِهِ وجِبْرِيلَ وميكال ﴾[4] .

فالمولَى أعمُّ من السّيّد ، لأنّ المَولَى يُطلَق على مَعانٍ كما تَقدّم ، والبلاغة أن تقول : ياصاحِبي ، ياأخِى ، ياحبيبي ؛ لأنّ الأصحاب كثيرة ، والأخْوة أقلّ منهم ، والحبيب لا يكون إلاّ واحداً .

ومن أقوَى أدِلّة المُعتزِلة فى تفضِيل الملائكة على الأنبياء مايَستدِلّون

---

(١) ديوانها ٧٩ .   (٢) سورة غافر ٢ .
(٣) سورة الرحمن ٦٨ .   (٤) سورة البقرة ٩٨ .

به من الأدلة السمعية قوله تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقرّبون ﴾[(١)] . قالوا : والبليغ لا يقول : لا أفكر فى السلطان ، ولا فى الوزير ، والصحيح ما قاله أهلُ السنة ، وليس هذا بموضع بيانِ هذه المسألة.

ومما يؤيّد ما قلتهُ ، أنّ سيّدَ العلماء والفصحاء ، إمامَ الحرمين[(٢)] ، قال فى كتاب الإرشاد : القولُ فى نبوّة مولانا وسيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم :

وتقولُ العرب : إنّ مِنْ نعتِ السيّد أن يكون لَحِيمًا ، ضَخْمَ الهامة ، جَهيرَ الصوت ، إذا خطا أبعد ، وإذا يُؤمّل ملأ العينَ مهابةً ؛ لأنّ حقّه أن يكون فى صدرِ المجالس ، أو ذِرْوة مِنبر ، متفرّداً فى موكِب ؛ ويقولون فى نعته : يملأ العينَ جمالاً ، والسمعَ مقالا .

وقال دِعْبِل :

فإذا جالستَهُ صدّرتَهُ ... وتنحّيتَ له فى الحاشيَهْ[(٣)]

وإذا سايرتَه قدّمتَه ... وتأخّرتَ مع المستانيَهْ

وإذا عاشرتَه صادفتَـه ... شَرِسَ الرأي أبيًّا داهيَـهْ

فاحمَدِ اللهَ على صُحبتِـهِ ... وسَلِ الرحمنَ مِنهُ العافيَهْ

ويؤيّد هذا قولُ الفرزدق :

يقلّب رأساً لم يكن رأسَ سيّدٍ ... وعيناً له حولاءَ بادٍ عيوبُها[(٤)]

وقال رجل لعمرَ رضى الله تعالى عنه : مَن السيّد ؟ قال : الجوادُ حينَ يُسأل ، الحليمُ حين يُستجهَل ، الكريمُ المجالسةِ لمن جالسَه ، الحسَنُ الخلقِ لمن جاورَه . والذى أظنه أنّ السيّد عند العرب ، مَن سادَ قومَه أو غيرَهم بصفاته المحمودة ، ولا يتوقف فى ذلك على أصالةٍ ولا نسب ، من قولِ القائل :

---

(١) سورة النساء ١٧٢ .

(٢) إمام الحرمين ، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى ، الملقب بإمام الحرمين ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى ، وكتابه الإرشاد فى أصول الدين ؛ توفى سنة ٤٧٨ . (٣) ديوانه ٢٥٥ . (٤) ديوانه ٥١ .

نفسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصامَا وعلّمته الكرَّ والإقداما[1]

وقال عامرُ بنُ الطُّفَيل :

فما سَوَّدَتْني عامرٌ عن كلالةٍ أبَى اللهُ أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ[2]

ولكنّني أحمى حِماها وأتّقى أذاها ، وأرمِي مَن رمَاها بمِقْنَبِ[3]

وقد أنصفَ عمرو بنُ عُبيد المعروفُ بالحزين حيث قال :

وتَلقَى الفتى ضخماً جميلاً رُوَاؤُه يَروعُك فى النّادى وليس له عَقْلُ[4]

وآخَرَ تَنْبو العَيْنُ عنه مُهذَّبٌ يَجُودُ إذا ما الضّخمُ همّته البُخْلُ[5]

فصل

هل يجوز إطلاق هٰذين الاسمين على الله تعالى ؟ نَعَم يجوزُ ذلك .

أمّا المَوْلى فقد نَطَق به القرآنُ العظيمُ فى غيرِ مَوْضِعٍ ، وأمّا السيّد فقد جاء مأثوراً عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ ذكَر ذلك الإمامُ الحافظ ، رُكْن الإسلام ، سيفُ السنّة ، أبو بكر أحمد بنُ الحسين بن علىّ البيهقى البروجردِىّ رضى الله عنه فى كتاب الأسماء والصّفات ، قال : أخبرَنا أبو علىّ الرّوذبارِىّ ، أنبأنا أبو بكر بن داسة ، حدّثنا أبو داود ، حدّثنا مسدّد ، حدّثنا بِشْر بن المفضّل ، حدّثنا أبو سَلَمة سعيدُ بنُ يزيد ، حدّثنا أبو بَصْرة[6] ، عن مُطَرِّف ابن عبد الله بن الشّخّير ، قال : انطلقْتُ فى وفدِ بنى عامرٍ إلى رسولِ الله

---

(١) ينسب إلى النابغة الذبيانى ، العقد الثمين ١٧٥ .

(٢) حماسة ابن الشجرى ٧ ، الشعر والشعراء ٢٩٤ .

(٣) المقنب : جماعة الخيل من الثلاثين إلى الاربعين .

(٤) الأغانى ١٥ : ٣٣٧ .

(٥) الأغانى : « نهمه البخل » .

(٦) هو أبو بصرة الغفارى ، واسمه جميل بن بصرة . تقريب التهذيب ٢ : ٣٩٥ .

صلى الله عليه وسلّم ، فقلنا : أنت سيّدنا ، فقال : السيّد الله ؛ فقلنا : وأفضلُنا فَضْلا ، وأعظمُنا طَوْلا ؛ فقال : قولُوا بِقوْلكم ، أو بِبَعْض قولِكم ، ولا يستجرِيَنَّكم الشّيطان .

وقال الحليمى[1] رحمه الله تعالى: ومعناه : المحتاجُ إليه بالإطلاق؛ فإنّ سيّد الناس إنّما الّذى إليه يَرجِعون ، وبأمْرِه يَعْمَلون ، وعن رأيه يصدُرُون ، ومِن قولِه يستمِدّون . فإذا كانت الملائكةُ والإنسُ والجِنّ خَلْقا للبارِئ جلّ ثناؤه ، ولم يكن بهم غُنْيَةٌ عنه فى بدء أمرِهم وهو الوجود ، إذ لو لَمْ يُوجِدْهم لم يُوجَدوا ، ولا فى الإبقاء بعد الإيجاد ، ولا فى العوارض العارضة أثْناء البَقاء ؛ كان حقّا له جلّ ثناؤه أن يكون سيّدا ، وكان حقّا عليهم أن يَدْعوه بهذا الاسم . انتهى .

وقال السُّهَيْلى[2]: والّذى أقول فى السيّد ، إنه يعتبر بالإضافة ، لأنّه فى أصل الوضع بعض ما يضافُ إليه ، تقول : فلانٌ سيّدُ قيسٍ ، إذا كان منهم ، ولا تقول فى قيسىّ : سيّد بنى تميم ؛ فلذلك لا يقال : الله سيّد الناس ، ولا الملائكة ، وإنما يقال : ربُّهم . فإذا قلتَ : سيّد الأَرْباب وسيّد الكُرَماء جازَ ؛ لأنّ معناه أعظَم الأَرْباب ، وأكرَمُ الأكْرَمين . وقد مُنِع أن يُشْتَق له من السّؤدد ؛ ولا حُجّةَ فى قولِ حسّانَ يرثِى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم :

فى جَنّة الفِرْدَوس فا كْتُبْها لنا ... ياذا الجَلالِ وذا العُلاَ والسُّؤْدُدِ[3]

لأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يَسْمَعْها فيقرّها .

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخارى ، صاحب كتاب المنهاج فى شعب الإيمان ، توفى سنة ٤٠٣ . الإعلام للزركلى ١ : ٢٥٣ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمى ، صاحب الروض الأنف والتعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن . توفى سنة ٥٨١ . ابن خلكان ١ : ٢٨ .

(٣) ديوانه ٩٨ .

هذا ملخّصُ كلام السُّهيلى ؛ وفيه نَظَر ، لأنّ الخلفاء الراشدين والصّحابة المهتدين سَمّوها وأقرّوها . وما أحْسَنَ قولَ الإمام أبى الفضْل طاهر بن الفقيه المحدِّث :

أشارتْ إلىّ بمُنابةٍ مُخضَّبةٍ من دَمِ الأفئدَهْ
وقالتْ : عَلَى المهدِ ياسيِّدى ؟ فقلتُ إلى الحشرِ يا سيِّدَهْ

وقال أبو العَلاء المعرّى :

حسابُكُم عندَ الملوكِ وما لكمْ سِوَى الوُدِّ منّى فهُبوطٍ ومَفزَعِ [1]
ووادِى لكمْ لم ينقسِمْ وهو كاملٌ كمَشْطورِ وَزْنٍ ليس بالمُصرَّعِ

الشِّعر كلّه يصرّع إلاّ المشطورُ من الرَّجز والسّريع فإنّه لا يصرّع ؛ لأنّه على ثلاثة أجزاء ، كقول رُؤْبة :

* وقاتِمِ الأعماقِ خاوِى المخْتَرَقْنْ * [2]

وسُمّىَ المشْطورَ لذلك ، لأنّه حُذف منه شطرُ البيت ، وما أحسنَ قولَ محمّد بن غالب الرُّصافىّ :

لكَ الوُدُّ الّذى لارَيْبَ فيهِ وإن بقيتْ نَواكَ على التمادِى
إذا كَرُمتْ عهودُ المرء طَبْعًا فأكرَمُ ما يكون على البِعادِ

* * *

٢ ــ وقوله : وٱعْتِمادِي عَلَيْهِ ، وَٱعْتِدادِي بِهِ .

تقول العَربُ : اعتمدتُ عليه فى كذا ، أى اتّكلتُ عليه ؛ واعتمدتُ على الشىء ؛ بمعنى اتّكأتُ واستَندْتُ . واعتدادى به ، أى عُدّتى التى ادّخرتُها ليوم حاجتى .

---

(١) سقط الزند ٤ : ١٥٧٦

(٢) خزانة الأدب ٨١ ، والقتمة : الغبرة . والأعماق : جمع عمق ، وهو ما بعد من أطراف المفاوز ، والمخترق : مكان الاختراق . والتنوين للترنم .

وقد أتى ابنُ زيدون فى هذه الألفاظ بالترصيع ، وهو من أنواع البَديع ؛ لأنّه قال: «الذى وِدادى له ، وأُعتمادى عليه ، واعتدادى به » ، فأتى بالدّال وبعدها الياء ، وهى ضميرُ المتكلّم ، وعَدّى كل واحدٍ بحرفِ جرّ : له ، وعليه ، وبه ؛ وهذا نوعٌ من المبالَغة يدلّ على قوّة المارضة وسَعَة العبارة .

وما أحسن قولَ شيخِ الشّيوخ شَرَفِ الدّين عبد العزيز :

لنا مَلكٌ وَاحدٌ ما أشْتَهى ولـكنّنا لَم نجدْ مِثلَهُ
مَلاذى به ، ومُثولى لَدَيْهِ ، ومَيْلى إليه ، ومَدْحى لَهُ

ومِثلُ هذا قولُ الآخَر :

كتبتُ وشِيمَاتُ حالِى غَلَبْن إلى سيّدٍ جَلّ عن مُشْبِهِ
فشَوْقى إليه ، وشكرى له وشِعرىَ فيه ، وشُغْلِى بِهِ

وكتبتُ إلى بعض الأصحاب :

كتبتُ لمولىً نأتْ دارُهُ وسِيماتُ حالىَ وقفٌ لديْهِ
فسوْقى إليه ، سُمُوّى به ، سؤالِى عنـه ، سلامِى عَلَيْهِ

وكتبتُ أيضاً :

كتبتُ وَدالاتُ حالى كما تَراها إلى سيّدٍ لم أخُنْهُ
دُعائى وَدَمْعى ودأْبى ودا ئى ، له وعليهِ وفيه ومنهُ

وما أحسنَ قولَ الباخَرْزِىّ :

سَقى اللهُ تَماثِين من قريةٍ غماماً نَداهُ عن المَحْلِ يَنهى
فأُنسِى وحِرصى ومِلْـكى ومالى بهـا وعليها وفيها ومِنْهَا

وقال الحريرىّ فى مقاماته(١) :

فَهذِهِ قِصّتِى وَقِصّتُهُ فانظُرْ إلينا وبيننا ولَنَا

---

(١) مقامات الحريرى ٧٤ « من المقامة الثامنة » .

٣ ـ وقوله : مَنْ أَبقاهُ اللهُ ماضِيَ حَدِّ العَزْمِ ، وارِيَ زَنْدِ الأَمَلِ ، ثابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ .

ماضى حدّ العَزم ، أى حادّ العزيمة ، والماضى : السَّيف النافذُ فى الضَّريبة . والعَزْم : الصريمة ، قال الله تعالى : ﴿ولَمْ نجدْ لَهُ عَزْماً﴾ (١) ، وعزَمتُ على الأمر أعزِم عَزْما وعُزْمانا ـ بضم العين ـ وعزيمةً وعزيماً ، إذا أردتَ فعلَه .

وَارِى زَنْدِ الأَمل ، ورَى الزندُ إذا خرجتْ نارُه وقتَ الأقْتِدَاح . والزَّنْد : المقدَحَة . وَالأَمَل : الرَّجاء .

وَثابت عهدِ النِّعمة ، الثابتُ المتمكِّن الموثّق ، والعهدُ : الأمان واليمين ، والموثق والذِّمّة والحِفاظ .

والنِّعمة : تأنيث النَّعيم ، وهو ضدّ الشقاء ، ومعناه : والذى أبقاه الله وعزمُه ماضِى الحدّ ، وأملُه وارِى الزَّند ، ونعمتُه ثابتةُ العهد ، فهذه الجُمَل واقعةٌ موقعَ الحال ، وفيها ثلاثُ استعارات ، وهى : المضاء لحدّ العَزْم ، كأنّه لا يَعزِم على شىء إلاّ أمضاه ونفَذَ فيه حدُّه . ووَرىّ زَنْد الأَمَل كأنه لا يؤمّل شيئاً ، إلاّ وهو يرى نوره . وثبات عهد النعمة ، أى لا تغيُّرُ له ذمّة نعمة ، بل هى محفوظةٌ أبدا عليه .

قال الصولى (٢) : أخذ الكتّاب قولهم فى الدّعاء : « وأتمّ نِعمتَه عليك ، وزادَها » من قولِ عَدِيّ بن الرِّقاع :

صلّى الإله على امرئٍ ودّعته ... وأتمّ نعمتَه عليه وزادَها (٣)

---

(١) سورة طه ١١٥ .

(٢) هو محمد بن يحى الصولى فى كتابه أدب الكتاب ص ١٧٤ .

(٣) الشعر والشعراء ٦٠٢ ، وروايته : « صلى المليك » .

حضر أعرابيٌّ وَليمةً ، فرأى نِعْمة ، فقال : النِّعَمُ ثلاث : نعمة في حالِ كونها نِعمةٌ ، ونعمةٌ تُرجَى مستقبَلة ، ونعمةٌ تأتي غيرَ محتسَبة ، فأدامَ اللهُ لك ما أنتَ فيه ، وحقّق ظنَّك فيما ترجوه ، وتفضَّل عليك بما لا تحتسبه .

وذكرتُ بقوله : « ماضيَ حدِّ العَزْم » ، قولَ ابن الساعاتي يمدح بعضَ أولادِ صلاح الدّين :

وأبقَ ضافي ثوبِ النَّعيم قريرَ الـ ... عَيْن نضْرَ الجنابِ، صافي الوُرودِ
بينَ عَزْمٍ ماضٍ، وَحُكْمٍ مُطاعٍ ... ومُرادٍ دانٍ ، وعَيشٍ رَغيدِ

* * *

٤ـــ وقوله : إنْ سَلَبْتَني أعزكَ اللهُ لِباسَ إنعامِك ، وَعَطَّلْتَني من حُليِّ إيناسِك .

الاستلاب : الاختلاس . واللِّباس : ما يُوارِي الجسَد . والإنعام : المِنّة واليَد ، وما أُنعِم به عليك .

والتَّعطيل : خُلوُّ جِيد المرأةِ من القلائد ، يقال : امرأةٌ مِعْطالٌ ، إذا كانت عاريةً من الحُليّ ، والحُليُّ[1] : ما تتحلَّى به المرأةُ من خاتَمٍ وسِوارٍ وقِلادة .
والإيناس : مصدرُ الأنس ، وهو ضدُّ الوَحْشة ؛ يقول : إن أخذتَ منّي ، واختلستَ ما كان لكَ عليَّ من لباسِ الإنعام ، وتركتَني عاطِلاً من حُليِّ أُنسِك بي ، وأنسِي بك وهو الأوْلَى .
وقد استعار الاستلابَ اللِّباس ، والعطلَ للحُليّ ، وهي استعارةٌ حَسَنة ، كأنّ إنعامَه كان له بمنزلة للِّباس ، فأرتجعه وسلبه ، وكأنّ إيناسَه له كان

(١) الحلى جمع حلي ، بفتح الحاء وسكون اللام .

بمنزلة الحلىّ له ، فعطّله منه ، وترك جيده بلا قلادة عارياً من حلىّ الأُنس .

وما أحسنَ قولَ أبى بكر أحمد الصَّنَوْبَرِىّ :

وإنْ أبدلْتَنى بالسّهـ ـلِ من أخلاقِكَ الوَعْرَا
وَعَادَ الحُلْوُ من وُدِّ كَ لِى فيما مضَى مُرّا
إذا ما زِدْتُكَ الآنَ وَفاءً زِدْتَنى غَدْرا
فَمَا تَسمَع لِى قولاً وما تَقْبَلُ لِى عُذْرَا
ومالِى فيكَ إلاّ الصَّبْـ ـرُ، ساءَ الدهرُ أو سَرّا(١)

٥ — قوله : وَأظمَأتنى إلى بَرُودِ إسعافِك ، وَنفَضْتَ بى كفّ حِيَاطَتِكَ .

الظّمأ : العطش ، والبَرود : الشىء البارد ، وقال الشاعر :

* بَرُودُ الثَّنايَا واضِحُ الثَّغْرِ أَشْنَبُ *

والإسعاف : الإنجاد والإغاثة ، والنفْض : الطَّرْح ، والحِياطة : الإحاطة بالشىء ، وهو الاستيلاء على جميع نواحيه .

يقول : وأعطشْتَنى إلى بَرود إغاثتك لى وإنجادى ، وطرحْتَنى من كفّ حَوْزِك .

وقد استعار الظّمأ ـ وهو شدّة العطش ـ إلى برد الإسعاف ، ونَفْض الكفّ من الإحاطة به والحوزَةِ له ؛ وذلك فى غاية الحُسْن .

---

(١) ط : « ساء الوقت » .

٦ — وقوله: وَغضَضْتَ عَنّى طَرْفَ حِمَايتِك .

تقول العرب : غَضَّ طرْفَه ، أى خفَضه ، والطَّرْف هو البَصَر . والحِماية : الوِقاية . يقول : وغضَضْتَ طرفَ حمايتِك عنّى ، فتركتَنى غَرَضاً لصائبات الحوادث .

وقد استعار الطَّرْفَ للحماية ، لمّا كان الّذى يَحميك ويَقيك كأنّه ناظرٌ إليك يحفَظُك من كلّ ما يَهُمُّك أمرُه ؛ لا جرَم أنه حَسُن استعمالُ الغضّ هنا لطَرْف الحِماية ، وهى استعارةٌ حَسَنة .

وقد أخذ ابنُ زَيْدونَ يعدِّد على ابنِ جَهْوَر ما عامله به من الجَفْوة ، وكان يكفيه أن يقول : إنْ سلبتَنى لِباسَ إنعامك بعدَ أن نظَر الأعمى إلى تأميلى لك ، ولكنّه وفّى المقامَ حقَّه من تَعداد ما وَجَده منه ؛ مِن سَلْبِه لباسَ إنعامِه ، وتعطيلِه من حُلِيّ إيناسِه ، وإظمائه إلى بَرودِ إسعافِه ، ونَفْضِ كفِّ الحِياطة ، وغضِّ طرفِ الحِماية . . . ولا شَكّ أن تَعدادَ الظُّلامات أبلغ وأجلَب للرحمة ، وأدَلّ على التّوجّع ، وهذا كقول الشاعر :

قال لى : كيف أنتَ! قلتُ: عليلُ   سهرٌ دائمٌ وحُزنٌ طَويلُ(١)

وكقول الحماسىّ :

أَسِجْناً وقَيْداً واشتياقاً وغُربةً   ونأيَ حبيبٍ ! إنّ ذا لَعَظيمُ(٢)
وإنّ امرأً تَبقَى مواثيقُ عهدِه   على مِثلِ ما لاقَيتُه لَكريمُ

وكقول الآخَر :

---

(١) معاهد التنصيص ١ : ١٠١ ، من غير نسبة .
(٢) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ١٣١٥ ، ونسبه إلى بعض الأعراب .

ولقد أردتُ الصبْرَ عنك فعاقني ... عَلَقٌ بقلبي من هَواكَ قديمُ
يبقى على حَدَثِ الزمان وَرَيْبِهِ ... وعلى جفائك ، إنّهُ لكريمُ

وقول ابن القيّم :

ضاع سَعْيي وخِبتُ ، خابتْ أعادِ ... يكَ ، ومن يبتغي لكَ الأسْواء !
واحتملتُ الحرمانَ والنّقصَ والإبْ ... عادَ والذّلّ والجوَى والجَفاء
وتحمّلتُ واصطبرتُ فلمْ يُبْ ... قِ على عُودِيَ الزّمانُ لِحَاء[1]
أفَلِي هــذه المصيبةِ صَبْرٌ ... لا ؛ ولو كنتُ صَخرةً صَمّاء !

ومما قلتُ أنا :

يا لَقومي سألتُكمْ خبّروني : ... هكذا كلُّ مَنْ أحبَّ حَبيبَهْ !
سَقَمٌ زائدٌ ، ودَمعٌ وسُهْدٌ ، ... ولَحا عاذلي تمامُ المصيبَهْ[2]

٧ — وقوله : بَعْدَ أنْ نَظَرَ الأعمى إلى تأميلي لك .

يقول : فعلتَ بي ما تقدّم من سَلْب لِباسِ إنعامك ، وما بعده من الجُمَل المعطوفة ، بعد ما نَظَرَ الأعمَى إلى تأميلي لك — وهذه مُبالَغة زائدة ؛ وهو أن التأميلَ أمرٌ معنوىّ لا تُشاهِدُه العين — وأنا كنتُ مبالغاً فيما أمّلْتُه منك ورجوتُه ، حتّى رآه الأعمى من شدّة اتّصافي وتلبُّسي به . وهذه مبالَغةٌ عظمَى في هذا المعنى ، وهو يشيرُ إلى قول أبي الطيّب :

أنا الذي نَظَرَ الأعمَى إلى أدَبي ... وأسمعتْ كَلِماتي مَن به صَمَمُ[3]

---

(١) ط : « رجاء » .
(٢) يقال لحا الرجل ، يلحاه لحاء ؛ أى لامه ، ولحا هنا مقصور لحاء .
(٣) ديوانه ٣ : ٣٦٧ .

وهذا من قصيدته التي يقول في أولها :

وَاحرَّ قَلْبَاهُ مِمّن قلبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بِجِسْمِي وحالي عِنْدَه سَقَمُ

وقفَ القاضي ناصرُ الدّين شافع بن عليّ — رحمه الله تعالَى — على شيء من نَظْم الشيخ شرفِ الدّين محمد بن الوحيد — رحمه الله تعالى — فكتب إليه :

أرانا يَراعُ ابنِ الوحيدِ بدائعاً ... تشوق بما قد أبهجته من الطُّرُقِ
بها فاتَ كلَّ الناس سَبْقاً ، فحبّذا ... يمينٌ له قد أحرزَتْ قصبَ السَّبْقِ

فقال ابْنُ الوحيد يمدحُه ويشكُرُه :

يا شافعاً شَفَعَ العَلْيا بحِكْمَتِهِ ... فسادَ مَن راحَ ذا عِلْمٍ وذا حَسَبِ
بانتْ زِيادةُ حَظِّي بالسّماع له ... وكان يَحْكيه في الأوضاعِ والنَّسَبِ
فجاءني منه مدحٌ صِيغَ من ذَهَبٍ ... مُرَصّعاً ، بل أتى أبهى من الذّهَبِ
فكدْتُ أُنشِد لولا نُورُ باطنِهِ : ... أنا الّذي نَظَر الأعمى إلى أدَبِي

فلمّا بلغت الأبياتُ شافعاً انحرفَ وتأذّى ، فقال :

نعمْ نظرتُ ولكنْ لم أجدْ أَدَباً ... يامَن غدا واحداً في قِلّة الأدَبِ
جازَيْتَ مدحي وتقريظي بمَعْيرةٍ ... والعيبُ في الرأس دونَ العيْبِ في الذَّنَبِ
وزدْتَ في الفخرِ حتّى قلتَ مُنتَسِباً ... بحظِّكَ اليابسِ المرْميِّ كالحطَبِ
بانت زيادةُ حَظّي في السّماعِ له ... وكانَ يحْكيهِ في الأوضاعِ والنَّسَبِ
كذبتَ واللهِ إن أرضاهُ في عُمُرِي ... يابنَ الوحيدِ ، وكم صنّفتَ من كَذِبِ
جازيتَ دُرّي — وقد نضّدْتُه كلِماً ... يَروقُ سمعَ الورَى — دُرّاً بمخشلَبِ
وما فهمتَ مُرادي في المديحِ ولو ... فهمتَه لم توجّهه إلى الأدَبِ

سأتبع القافَ إذ جاوَبْتَ مفتخراً　　بالزّاي ياغافلاً عن ثورة الغضبِ
خالفتَ وزني عجزاً والرّويَّ معاً　　وذاكَ أقبحُ مايُروَى عن العرَبِ

قلتُ: ابنُ الوحيدَ ـ رحمه الله تعالى ـ معذورٌ في العدُول عن الوزن والقافية؛ لأنّه ما كان يجدُ في ذلك الوَزْن والقافية، مِثلَ قول أبي الطيّب:

* أنا الّذى نَظَرَ الأعمى إلى أدَبى *

وكان ناصرُ الدين شافع في ذلك الوقت قد أُضِرّ، وقد احترَز ابن الوحيد في قوله: «لولا نُورُ باطنه» احترازاً جيّدا، ولكن ما أفاده ذلك شيئا، مع تسرُّع ناصر الدين شافع، رحمهما الله تعالى.

وقد قال المعَرّى لمّا لهجَ بشعر أبي الطيِّب، وعَكَف عليه: قاتله الله! كأنه يَرانيَ الآن حتى قال:

* أنَا الّذى نَظَرَ الأعْمَى إلَى أدَبِى *

* * *

٨ ـ وقوله: وَسَمِعَ الأَصَمُّ ثَنائِي عَلَيْكَ، وَأَحَسَّ الجَمَادُ بِإِسْنَادِي إِلَيْكَ.

الأصمّ: الّذى لا يَسْمَع شيئاً.

وأحَسّ: من الإحساس، وهو الإدْراك بالحواسّ الخمْس.

وَالجماد: كلّ ما ليس يُدْرِك مِثل الحجَر والتّراب وغيره، وفى اللّغة: الجماد: الأرض الّتى لم يُصبها مطر، وناقةٌ جماد، لا لَبَن فيها.

والإسْناد في الحديث: أنْ يَرْفعه إلى قائله، وهذا ممّا تقدّم في المبالَغة. يقول: فعلتَ بى كلّ ذلك بعد ما نظر الأعمى إلى تأميلى لك، وسَمِع الأصمّ ـ وهو الذى لا سَمْع له ـ ثنائِى الّذى كنتُ أثنيه عليك، وأحسّ الجماد الّذى لا إدراكَ له ولا إحساس برَفع الحديثِ إليك؛ وهذه غايةٌ في المبالَغة، وطبقة

عُلْيا في البلاغة ، وهو أن يُثْنِيَ عليه إلى أن يسمَعَه الأصمّ ، ويُسند إليه حتى يَحِسّ الجمادُ بذلك .

وقد جاء في بعض النُّسَخ : « وقد أحسّ الجمادُ باستِحمادي لك » ، والاستحماد : استِفْعالٌ ، من الحَمْد ، وهو معلوم مما تقدّم ، وما أحسنَ قولَ ابنِ الساعاتي :

في مِثلِها نظَرَ الأعمَى فلا برحَتْ   صُبْحي وأسمعَ حتّى مَن به صَمَمُ
أثنى بها كلُّ شيء بعد عُجْمَتِهِ   فكلُّ ما ضَمَّ صدْرَ الخافقَيْنِ فَمُ

* * *

٩ — وقوله : فَلَا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالمَاءِ شارِبُهُ ، ويَقْتُل الدَّواءُ المستَشْفِيَ بِهِ .

هذه الفاء جوابُ الشّرط في قوله أوّلَ الرسالة : « إنْ سَلَبْتَني . . . » وما بعده من الجُمَل ، بعد ما نظَر الأعمَى الى تأميلى لك . فلا غَرْوَ ، أى فلا بِدْعَ ولا عَجَبَ قد يَغَصُّ بالماء شارِبُهُ . وهذه « قد » التى تدخل على الجُمَل للتقليل مثل : قد يكْبُو الجواد ، وقد يَنبو الحُسام ، وقد يَصدُق الكَذوب ، وقد يبخَل الجواد .

جاء في كلام ابنِ المعتزّ رحمه اللهُ تعالى : ربّما شَرِق شاربُ الماء قبلَ رِيِّهِ .

وقال الشاعر :

مَن غصَّ داوَى بشُرْبِ الماءِ غُصّتَهُ   فكيفَ يَصنَع من قد غَصّ بالماء !

وقال الآخر :

إلى الماء يَسعَى مَن يَغَصُّ بأكْلَةٍ   فقلْ : أينَ يَسعَى من يَغَصّ بماء !

وقال عَدِيّ بنُ زَيْد العِبَادِيّ :

لو بغيرِ الماءِ حَلْقِي شَرِقٌ كنتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعتصاري[1]

وقال الآخر :

كنتُ مِن محنتِي أفرُّ إليهمْ فهمُ مِحْنتِي ، فأين الفِرارُ !

وقال الآخر :

فكيفَ نُجِيزُ غُصَّتَنا بشيء ونحنُ نَغَصُّ بالماءِ الشَّرُوبِ !

ومن هذه المادّة قولُ الآخر :

على أيِّ بابٍ أطلُب الإِذْنَ بعدَما حُجِبتُ عن البابِ الّذي أنا حاجِبُهْ

وقال أبو فِراس الحَمْدانيّ :

قد كنتَ عُدّتِيَ التي أسطو بها ويَدِي إذا اشتدّ الزمانُ وساعِدِي[2]

فرُمِيتُ منكَ بغير ما أمَّلتُهُ والمرء يَشرَق بالزُّلالِ البارِدِ

وقال الفرزدق لمعاوية من أبيات :

فلو كان هذا الحكمُ في غيرِ مُلكِكمْ لبُؤْتَ به ، أو غصّ بالماء شارِبُهْ[3]

وقال أبو إسحاق الغزّيّ :

مصاحَبةُ المُنى خَطَرٌ وجَهْلٌ وكم شَرِقٍ تولَّدَ من زُلالِ

وما أحسنَ قولَ ابنِ سَناءِ المُلْك :

وإنّي لأحْصَر مِن ذِكْرِه فإنّي إلى كَبِدِي أصْطَلِي

وإنّي لأذْكُر منه الرُّضابَ فأشْرَق بالبارِدِ السَّلْسَلِ

---

(١) الأغانى ٢ : ١٥ .

(٢) ديوانه ٦١ « طبعة بيروت » .

(٣) ديوانه ٤٩ ، وروايته : « فلو كان هذا الأمر » .

وقال ابن حَيّوس :

عَفَى الكُرَماءُ صانُوا ماءَ وَجْهى بما بَذَلوه عَنْ ذُلِّ السؤالِ
وها أنا بعدَهُمْ فى الناس أبْقى كريمًا يُشترَى شكرى بمالِ
أرى الأكْدار يَشْرَقُ شارِبُوها فوَاشَرَقى من الماءِ الزُّلالِ !

وقال آخر :

إنى لأذكُركم وقد بَلَغَ الظما مِنّى فأشرَقُ بالزُّلال البارِدِ
وأقولُ ليتَ أحِبّتى عايَنْتُهُمْ قبلَ المَماتِ ولو بيَوْمٍ واحدِ

وقال ابنُ سَناءِ المُلْك :

أموتُ غَرامًا حينَ أُحرَم وَصْلَ مَن هَويتُ وأحْيا فَرحةً حين أرزقُ
وإنَّ الفتى يحيا بما قد يُميتُه فبالماءِ يَحْيا وهو بالماءِ يَشْرَقُ

وما أحسنَ قَولَ ابن الساعاتى يمدَح المَلِكَ المؤيَّدَ نجمَ الدّين بن صلاح الدين رحمهما الله تعالى :

مَن ليسَ يَشرَقُ بالسؤا لِ ولا يَغَصُّ من المَلامَهْ

وقال البحترىّ :

تداويتُ مِن لَيلَى بلَيلَى فما اشتَفَى بماءِ الرُّبا من باتَ بالماءِ يَشرَقُ(١)

أصلُ المعنى قول قيسُ بنُ ذَرِيح(٢) ، إذ يقول :

تداوَيتُ من لَيلَى بلَيلَى من الهَوَى كما يتداوَى شاربُ الخَمْرِ بالخَمْرِ

فقصّر عنه ، وقد أخذ أصلَ المعنَى من قول الأعشى :

وكأسٍ شَرِبتُ على لَذّةٍ وأُخرَى تَداويتُ منها بِها(٣)

---

(١) ديوانه ٢ : ١٢٨

(٢) ط : « قيس بن زهير » ، وهو خطأ . والبيت فى ديوانه ٩٥ .

(٣) فى الأصول : « قيس بن ذريح » ، وهو خطأ ، والبيت فى ديوانه الأعشى ١٧٣ .

وهذا البيت فى الذِّروة ، وما جاء بعده فهو دونه فيما يقول ، وقد أخذه أبو نُواس فأحسن :

دعْ عنكَ لَوْمي فإنّ اللّومَ إغراءُ ... وداوِني بالّتي كانتْ هي الدّاءُ

وفى المَثَل : من فسدتْ بطانَتُه كان كمَن غَصَّ بالماء ؛ وهذا من كلام أكثر بن صَيْفى ؛ لأنّ الغاصّ بالطعام يرجع إلى الماء ، وإذا كان الماء هو الذى أغصّه فلا حِيلةَ له ؛ فكذلك بطانةُ الرجل وأهلُه إذا خانوه فسد حالُه .

وفى المَثَل أيضا : « يا ماءُ لو بغَيْرِكَ غصصت ! » .

وقوله : « ويقتلُ الدواءُ المستشفَى به » ، كان أبو الطاهر إسماعيلُ بنُ المنصور بن القاسم بن المهدىّ صاحب إفريقيّة ، أحد الخلفاء الفاطميّين ، اعتلّ علّةً طويلة ، ولمّا أراد دخول الحمّام فى المنصوريّة نهاه طبيبُه إسحاق بن سليمان الإسرائيلىّ ، فلم يَقبَل منه ، ودخل الحمّام ففنيت الحرارةُ الغريزيّة ، فلازَمَه السَّهر ، فأقبل إسحاقُ فعالَجَه ، ففنيتْ الحرارةُ الغريزيّة ، ولازَمَه السَّهر ، فأقبَلَ إسحاق يعالجه ؛ وسهرُه باقٍ على حالته ، فاشتدّ ذلك على المنصور ، وقال لبعض خدَمه : أما بالقَيروانِ طَبيبٌ يخلِّصنى من هذا ؟ فقالوا : هاهنا شابٌّ قد نشأ يقال له : إبراهيم ، فأمَرَ بإحضاره ، فلمّا حضر عرّفه حالَه ، وشكا إليه ما به ، فجَمَع له شيئا ينوِّمه ، وجُعِل فى قِنِّينةٍ على النار ، وكلّفه شمّ ذلك ، فلمّا أدْمَن شَمّها نام ، فخرج إبراهيمُ مسروراً بما فعل ، وحضر إسحاق ، فقالوا : إنّه نائم ، فقال : إن كان صُنِع له شىء ينام به فقد مات ، فدخلوا عليه فوجَدوه ميّتا ، فأرادوا قَتل إبراهيم ، فقال إسحاق : ماله ذَنْب ، وقد داواه بما ذكَرَه الأطباء ، ولكنّه جَهِلَ أصلَ المَرَض وما عرّفتموه ذلك ، وإنّى كنتُ أعالجه وأنظر فى تقويَة الحرارة الغريزيّةِ ، وبها يكون النّوْم ، فلمّا عُولِجَ بما أطفأها ، علمتُ أنه مات .

١٠ — وقوله : وَيُؤْتَى الحَذِرُ من مأْمَنِه ، وتكونُ مَنِيَّةُ المتمنِّي في أُمْنِيَّتِهِ .

يُؤْتَى : فعل مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه ، من الإتيان وهو المَجيء ، أتيتُ إلى فلان أي جئتَ إليه . الحَذِر : اسمُ فاعل من الحَذَر ، وهو التحذّر . والمأمَن : المكان الذي يَحصُل فيه الأَمْن ، وهو الطُّمأنينة . والمنيّة : الموت . والمتمنِّي : اسمُ فاعلٍ من التمنّي ، وهو الترجِّي . والأمنيّة ، واحدة الأماني .

وقوله : « ويُؤتَى الحَذِرُ من مأمَنِه » معناه[1] في القرآن العظيم ، وهو قوله تعالى : ﴿ حتّى إذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ﴾[2] .

قال أبو العتاهية :

وقد يَهلِكُ الإنسانُ من بابِ أَمْنِهِ ... ويَنجُو بإذنِ اللهِ مِنْ حَيثُ يَحذَرُ[3]

وما أحسنَ قولَ الجزّار من أبيات :

وحَقِّكَ مالِيَ مِن قدرةٍ ... على كَشْفِ ضُرٍّ إذا مَسَّنِي
فكمْ أخذَتْنِي عيونُ الظِّبا ... ءِ بعدَ الإنابةِ من مَأْمَنِي

وقال الشريف الرّضيّ :

يقولون رُمْ تَلْقَ الّذي أنتَ طالبٌ ... فإنّ العَواقِي دونَهُ والمَهالِكُ[4]
وكم سَعْيُ ساعٍ جَرَّ حَتْفاً لنفسِه ... ولولا الخُطا ما شاكَ ذا الرجلِ شائِكُ

وقول ابن سناء المُلْك يمدح المَلِك الناصرَ ويذكر الفرنج :

(١) ساقطة من ط .

(٢) سورة الأنعام ٤٤ .

(٣) ديوانه ١٠٢ .

(٤) ديوانه ٢ : ٥٩٦ . والعواق مثل العوائق ، يقال : عاقني وعقاني .

والمليكَ العظيمَ فيهم أسيراً   مستضاماً فاجعلْ له الغارَ سِجْنا
يحسبُ النومَ يقظةً ويظنُّ الشخصَ طوداً ويبصر الشمسَ دجْنا
كم تمنّى اللقاءَ حتى رآهُ   فتمنّى لو أنه ما تمنّى

وقال ابن الخياط الدمشقي :

رأيتك لما شِمتُ برقَك خُلَّبا   وما أربى في عارضٍ ليس يُمطِرُ ! [(١)]
فأخطأنى منكَ الذى كنتُ أرتجى   وأدركنى منك الذى كنتُ أحذرُ

وقال أبو الحسين أحمدُ بنُ فارس :

اسمَعْ مقالةَ ناصحٍ   جمعَ النصيحةَ والمِقَهْ
إيّاكَ واحذرْ أنْ تكو   نَ من الثّقاتِ على ثِقَهْ

وقال يوسف بن عليّ الأستراباذيّ :

ومازلتَ في عيْني كرًى فتصرّفتْ   صُروفُ الليالي فانقلبتَ لها قذَى
وخُنتَ ومأمولي وفاؤك ضِلّةً   ومن مأمن الإنسانِ يفجؤهُ الأذى

* * *

لمّا قُتِل المقتدر ، واختلفت الآراء فيمن يقوم بعده خليفة ، قال مؤنس المظفر [(٢)] : هذا محمدٌ [(٣)] بن أحمد المعتضد ، رجل سما للخلافة ، فهو أولى ممن لم يَسْمُ . فأحضر القاهر بالله ، وبُويع يومَ الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة ، واستقبّ الأمرُ للقاهر ، وكان أوّلَ من قتله القاهرُ مؤنسٌ المذكور .

ولمّا غلب إدريسُ بنُ عبدِ الله بنِ الحسَن بن الحسن بن عليّ بنِ

---

(١) ديوانه ١٢٣ .
(٢) مؤنس المظفر ، أمير الجيوش على عهد المقتدر .   (٣) هو المعروف بالقاهر .

أبي طالب – رضي الله عنه – على المغرب ، بلغ ذلك المهدىّ ، فدسّ إليه الشمّاخ اليمانى مولى المهدىّ ، فدخل المغرب وأظهر أنه طبيب ، فأحضره إدريسُ وأقام عنده ، وأنِسَ به ، فشكا إليه مرضاً في أسنانه ، فأعطاه سَفُوناً[1] مسمومة ، وقال له : إذا طلع الفجرُ فاستنّ[2] به ، وهرب الشمّاخ من وقته . فلما طلع الفجر استنّ به ، وجعل يردّده في فيه ، فسقط فوه ومات ، وطُلِب الشمّاخ فلم يُقدَر عليه .

وهذا إدريسُ ، هو أبو الأدارسة خُلفاء المغرب ، وقام من ذرية إدريسَ جماعةٌ[3] . وقيل : إنّ الذى دسّ إليه الشمّاخ ، إنما هو هارون الرشيد .

يقال : إنه مرّ قوم بماء من مياه العرب ، فوصف لهم ثلاثُ أخواتٍ بالجمال مطيّبات[4] ، فأحبّوا أن يروهنّ ، فحكّوا ساق أحدهم بعود حتى أدموه ، ثم أتوهنّ ، وقالوا : هذا سَليم[5] ، فهل من راقٍ ؟ فخرجت صغراهنّ منهنّ كأنها الشمسُ طالعةً ، فرأته ، فقالت : ليس بسَليم ، ولكن خَدَشه عودٌ بالت عليه حيّة ، إذا طلعتْ عليه الشمسُ مات ، فكان كما قالت .

ومن شعر الحافظ أبي بكر أحمدَ بن عليّ خطيبِ بغداد ، والمراد هنا البيتُ الثالث :

لا تَغْبِطَنّ أخا الدّنيا بزُخْرُفِها ... ولا بلذّةِ وقتٍ عجّلتْ فرَحا[6]

فالدّهرُ أسرعُ شيءٍ في تقلُّبِه ... وفعلُه بيّنٌ للخلقِ قد وَضَحا

كم شاربٍ عسلاً فيه مَنِيّتُه ... وكم تقلّدَ سيفاً مَن به ذُبِحا

---

(١) السفون : ما يستاك به .
(٢) استنّ : استاك .
(٣) ط : «جماعه» .
(٤) ط : «مستطبات» ، تصحيف .
(٥) السليم : اللديغ ؛ سمى بذلك على التفاؤل بسلامته .
(٦) معجم الأدباء ٣ : ٢٥ .

ذكر عند المتوكل أمرُ السيوف ، فقال بعضُ مَن حضر : يا أمير المؤمنين ، وقع عندَ رجلٍ من أهل البَصرة سيف من الهند ، ليس له نظير . فكتب يطلُبه من البَصره ، فاشتراه بعشرةِ آلافِ درهم ، وسُرّ المتوكِّل به سرورا كثيرا ، وقال للفتح [بن خاقان] : اطلبْ لى غلاما تثق بنجْدته وشجاعته ، وادفعْ إليه هذا السيف ليكونَ واقفاً به على رأسى فى كلّ يوم ما كنتُ جالساً . فلم يتمّ المتوكّل حتّى دخل باغر التركىّ ، فدعا به المتوكّل ، ودفع إليه السيفَ ، وأمرَه بما أراده منه ، وزاد مرتبتَه .

قال البُحتُريّ : فوالله ما انتضاه باغرٌ ولا سَلّه إلاّ فى قِتْلة المتوكِّل ، على ما هو مشهورٌ فى واقعته مع المتوكل .

ولمّا وُلّىَ سالم بن حامد دِمَشق للمتوكّل ظلم وعَسف ، وكان بدمشق جماعة من العرب لهم قوّة ومَنَعة ، فقتلوه فى يوم جُمعة على باب الخضراء ، فغضِب المتوكل ، وقال : من يكون للشام ، وليكن فى صَوْلة الحجّاج ؟ فقال أفرِيدُون التركىّ : أنا لها يا أميرَ المؤمنين ، فأمرَه ، وجهّزه إليها فى سبعة آلافِ فارس ، وأطلَقَ له القتلَ والنَّهبَ ثلاثة أيام ، فجاء ونزل بيت لهيا ، ولمّا أصبحَ قال : يادِمَشق ، أيْشٍ يحلّ بكِ اليوم منّى ! وقُدّمتْ له بَغلةٌ دَهْماء ليَركبها ، فلمّا وضع رِجله فى الرِّكاب ضربته بالزوج فى صَدْره ، فسقط ميّتا . وقبرُه معروفٌ بها ، وذلك فى حدود الأربعين ومائتين .

وكان السلطان ألبا أرسلان محمد بن جعفر بك المدعُوّ عضد الدولة وأبو شجاع السَّلْجُوقى ، قد أتَوْه يوما بوالِى قَلْعة يُدعَى يوسفَ الخُوارَزمىّ ، فأمرَ أن تُضرَب له أربعةُ أَوْتاد ، وشدّ أطرافه إليها ، فقال يوسف : يامخنّث ، مِثْلى يُقتَل هكذا ! فقال السلطان : خلّوه ، وأخذَ القوسَ ورماه ثلاثَ فردات فشاب فأخطأه فيها — ولم يكن يخطىء له سَهْم — فأسرع يوسفُ إليه وضَرَبه

بسكّين كانت معه فى خاصِرَته ، فلحق يوسفَ بعضُ الخدم فقتله أيضاً ، وحُمِل السلطان وهو مُثقل ، فقضى نَحْبَه .

وهذا المَلِكُ الأمجد بَهْرام شاه بن فرُّخْشاه ، صاحب بَعْلَبَكّ ، أخذَ الأشرفُ منه بَعْلَبَكّ ، وسلَّمها إلى أخيه الصالح ، فقَدِم إلى دمشقَ وأقامَ بها ، وكان له غلام مليح أذْنَبَ ذنْباً فضَرَبه ، وأمر بحَبْسه فى خِزانةٍ عندَه فى مكانه الذى يجلس فيه ، وجلس ليلةً يَلْهو بالنَّرْد ، فولع الغلامُ برَزَّة[1] الباب ، فقَلَعها ، وخرج إلى الأمجد فقتله وهَرَب ، فرمَى بنفسه من السَّطح فمات .

وهذا الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاوون ، كان يحبّ مملوكَه الأمير سيف الدين بَيْدار ، وَيَثِق به حتّى جعَلَه نائبَ مصرَ ؛ وثوقا به ، أوّل من ضَرَبه بالسيف وهو فى بُرجه يصطاد كُرْكِيًّا ، وجاء من بعده حسام الدين الأخير فكمّل قتله .

وهذا الأمير سيف الدين تنكز قرّب الأمير سيف الدين قومش وأدناه وزاد وثوقه به[2] ، فكان أوّل مَنْ عمِل عليه ، واتّفق مع طازجات الداودار على إمساكه .

وكان الزَّكِىّ عبد الرحمن بن وَهْب القوصىّ قد استوزَرَه المَلِكُ المظفّر صاحب حَماةَ ، قبلَ أن يحصُل له مُلكُ حماة وما انضافَ إليها ، ووعَدَه إذا ملكها أعطاه ألفَ دينار ، فأنشده قصيدة منها :

متى أراكَ كما تَهْوَى وأنتَ كما أهْوَى على رغمهم رُوحَيْن فى بَدَنِ

هُناكَ أُنشِدُ والآمالُ حاضِرةٌ : هُنِّئتَ بالمُلكِ والأحبابِ والوَطنِ

---

(١) الرزة : حديدة يدخل فيها القفل . (٢) ط : « وثوقاً به » .

فلما مَلَكَ حماةَ أنشدَه :

مولايَ هذا المُلكُ قد نلتَه ... برغْم مخلوقٍ من الخالقِ
والدهرُ مُنقادٌ لمــا شئْتَه ... وذا أوانُ المَوعِدِ الصادقِ

فدفَعَ إليه ألفَ دينار ، وأقام معه مدّة ، ولزمتْه أسفارٌ أنفق فيها المالَ الذى أعطاه ، ولم يَحصُل بيَدِهِ زيادةٌ على ذلك ، فقال :

ذاكَ الذى أعطَوْهُ لى جُمْلةً ... قد استرَدّوه قليلاً قليلْ
فليتَ لمَ يُعْطوا ولم يَأْخُذوا ... وَحَسْبِيَ اللهُ ونعمَ الوكيلْ

فبلغ ذلكَ المظفرَ ، فأخرجَه من دارٍ كانَ قد أنزلَه بها ، فقال :

أتُخرِجُنى من كِسْرِ بيتٍ مهدَّمٍ ... ولى فيكَ مِن حُسن الثناء بيوتُ
فإن عشتُ لم أعدَمْ مكاناً يضمّنى ... وأنت ستدرِى ذكرَ من سيَموتُ

فحبَسه المظفرَ ، فقال : ما ذنبى إليك ؟ فقال : « وَحَسْبِيَ اللهُ ونعم الوكيل » ، وأمر بخَنْقه ، فلما تيقّنَ ذلك قال :

أعطيتَنى الألفَ تعظيماً وتكرمةً ... ياليتَ شعرىَ أم أعطيتَنى دِيَتِى!

وقال الأحنف بنُ قَيْس فى بعض خُطَبه : من أَمِن الزمانَ خانَه ؛ ومن تعظّم عليه أهانَه .

وقال أصرَم بنُ حُمَيد :

أسْرفْتَ فى سوءِ الصَّنيعِ ... وفتَكْتَ بى فَتْكَ الخليعِ (١)
وولِعْتَ بى متهزِّئاً ... والعُذر فى طرف الوَلُوعِ
صيّرتُ حبّك شافعا ... فأتيتُ من قِبَل الشفيع

وقال المعتصم بنُ صمادح (٢) :

وزهّدَنى فى النّاس معرِفَتى بهمْ ... وطولُ اختبارى صاحباً بعد صاحبِ

---

(١) نهاية الأدب ١ : ١٣٤

(٢) المعتصم بن صمادح ، أحد ملوك الأندلس ، والأبيات فى طراز المجالس للخفاجى ٢٤٢ .

فلم تُرِنى الأيامُ خِلاً تَسرُّنى ... مَبادِيه إلاّ ساءَنى فى العَواقِبِ
ولا قلتُ أرجوهُ لدَفْعِ مُلِمَّةٍ ... من الدّهرِ إلاّ كان إحدى النوائبِ

خطَبَ عُتبةُ بنُ أبى سُفْيانَ الناسَ بالمَوْسم سنة إحدى وأربعين ، وعَهدُ الناسِ حديثٌ بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : أيها الناس ، قد وليِنا هذا الأمر الذى يضاعَف فيه للمحسن حُسنُ الأجرِ ، وعلى المسىءِ الوِزْر ، فلا تَمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا ؛ فإنّها تنقطع دوننا ، ورُبَّ متمنٍ حَتْفُه فى أمنيّته .

وما أحسنَ قولَ أبى محمّد عبدِالله بنِ محمّد الخفاجىّ رحمه الله :

وكم طالبٍ أمرا وفيه حِمامُهُ ... وسائرةٍ تَمشى الى ما يَقْبُرُها

وكان المؤمّل بن أميل بن أسيد المحاربىّ يهوَى امرأةً من أهلِ الحِيرة يقال لها هند ، وفيها يقول قصيدتَه المشهورة ، وأوّلها :

شَفَّ المؤمّلَ يومَ الحيرة النّظر ... ليتَ المؤمّل لم يُخلَق له نَظَرُ[1]

ونام فرأى فى منامه رجلا أدخلَ إصبعَه فى عينيه ، وقال : هذا ما تمنيتَ ؛ فأصبح وهو أعمى .

ومن قول الحكماء : الأمانىُّ تَخدَعُك ، وعند الحقائق تدَعُك .

وقال بكرُ بنُ النّطاح :

وكم ترحةٍ لم أحتسِبْها لَقيتُها ... وكم فرحةٍ جاءت على غيرِ مَوْعِدِ

وقال أمية بن أبى الصلت المغربىّ :

تجرى الأمور على حكم القضاء وفى ... طَىِّ الحوادث محبوبٌ ومكروهُ
فربّما سرّنى ما بتُّ أحذرُه ... وربّما ساءنى ما بتُّ أرجوه

---

(١) معجم الشعراء ٢٩٨ .

١١ — قوله : والحَيْنُ قدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الحَرِيصِ

الحَيْن : الموت . والحِرْص : الجَشَع ، يقال : قد حَرَص على الشيء يَحْرِص بالكسر ، فهو حريص ، وهذا نصفُ بيتٍ من أبياتِ لعَدِيّ بن زَيد العِبَاديّ ، وهو :

قد يُدرِكُ المُبطىءُ من حَظِّهِ   والحَيْنُ قد يَسْبِق جَهْدَ الحَرِيصْ (١)

وقال :

وقد تَدْنو المقاصِدُ والأَماني   فتعترِض الحوادثُ والمنونُ

وهو كقول القُطامىّ :

قد يُدرِكُ المتأنِّى بعضَ حاجتِهِ   وقد يكون مع المستعجِل الزَّلَلُ

وسمعه أعرابىّ فقال : هذا يثبِّط الناس ، هلاّ قال بعد هذا :

وربّما ضرَّ بعضَ الناس بُطؤهُمُ   وكان خيراً لهمْ لو أنَّهمْ عَجِلوا

وعكس بشّارُ بنُ بُرْد قول القطامىّ فقال :

من راقبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجَتِه   وفازَ بالطيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ (٢)

واختصره سَلْم الخاسرُ فجوّد ماشاء فقال :

من راقَبَ الناسَ ماتَ غمًّا   وفازَ باللذةِ الجَسُورُ

ومما ضَرَبت به العَرَبُ المَثل ، فى أنّ الحاجة تُطلَب فيحولُ دونها حائل ، قولُهم : سَدَّ ابنُ بَيْضٍ الطَّرِيقَ .

قال أبو عبيد البَكرىّ : إن ابنَ بَيْض لمّا حضرَتْه الوفاة قال لابنه :

---

(١) ديوانه . ٢ الإعجاز والإيجاز ١٥١ .
(٢) ديوانه ١ : ٧٥ .

لا تُقارِبْ لقمانَ فى أرضِه ، فسِرْ بأهلِك ومالِك حتّى إذا كنت بثنيّة كذا فاقطعها بأهلِك ومالك ، وضَعْ فيها للقمانَ حقّه ؛[1] فإنّ له عندنا فى كلّ عام حُلّة وجارية وراحلة ، فإن هو قبله فهوَ حقّه عرفناه له ، لإجارته وخفارته ، وإن هو لم يقبله وبَغى ، أدركه اللهُ ببَغْيِه[2] . ففعل الفتى ما أمره به أبوه . فأتى لقمان الثّنيّة فأخذ حقّه وانصرف ، وقال : « سدّ ابنُ بَيْض الطّريق »[3] .

وقال عمرو بنُ الأبرد فى ذلك[4] :

سَدَدْنا كما سدّ ابْنُ بَيْضٍ سبيلَها   فلم يجدُوا عند الثّنيّةِ مَطْلَعَا

* * *

١٢ — وقوله :

كلُّ المصائِب قد تَمُرُّ على الفتى   فتَهونُ غيرَ شَماتةِ الحُسّادِ

المصائب : جمعُ مصيبة ، وهى ما يُصيبُ الإنسان من حوادث الدهر ونوازِلِه . والشماتة : التشفّى . وهذا البيتُ من جملةِ أبياتٍ قالها عبد الله بنُ محمّد بن أبى عُيَيْنَة ، يعاتب ذا اليَمِينَيْن :

مَن مُبْلِغٌ عنّى الأميرَ رسالةً   محصورةً عندى عن الإنشادِ[5]

كلُّ المصائب قد تَمُرُّ على الفتى   فتَهونُ غيرَ شماتة الحُسّادِ

وأظُنّ لى منها لديك خبيئةً   ستكونُ عند الزّاد آخرَ زادِ

مالى أرَى أمْرِى لديكَ كأنّهُ   مِن ثقْلِه طَوْدٌ مِن الأطوادِ

---

(١) فصل المقال : « حظه » .

(٢) فصل المقال : « بنقمة » .

(٣) فصل المقال ٢٧٩ .   (٤) لعمر بن الأسود الطهوى ، اللسان — بيض

(٥) التمثيل والمحاضرة ٨ ، ونهاية الأدب ٣ : ٨ .

قيل لأيوبَ عليه السلام : أىّ شىء كان فى بلائك أشدّ عليك ؟ قال : شماتةُ الأعداء . وفى المَثَل : الشماتةُ لؤْم ، أوّل من قاله أكثم بن صيفى ، أى لا يَفرح بنكبة الإنسان إلاّ من لَؤُم أصلُه .

وقال آخر :

إذا ما الدهرُ جرّ على أناسٍ كَلاكله أناخ بآخرينا[٢]
فقُلْ للشامتين بنا أفيقوا سيَلْقى الشامتون كما لقينا

وقد جاءت الشّماتة فى القرآن فى مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ذُقْ إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم﴾[٣] ، فقوْلُه : ﴿ذُقْ﴾ شماتة ، وقوله ﴿إنَّك أنتَ العزيزُ الكريم﴾ ، تهكُّم . وقولُه تعالى : ﴿الآنَ وقد عصيْتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين﴾[٤] ، فعلى هذا الشّماتة[٥] من أنواع البديع . ومن الشّماتة قولُ الشاعر :

إلى النّارِ ياوَلَدَ الزّانيَهْ وهذا الهُوِىُّ إلى الهاويَهْ
وَقَعْتَ فيابَرْدَها فى القلو بِ ويالَيْتَها كانت القاضيَهْ

ولابن الرّومى أبياتٌ فى الشّماتة ، وقد بالَغَ فيها :

لازالَ يومُك عِبْرَةً لغَدِكْ وبكتْ لِشَجْوٍ عَيْنُ ذى حَسَدِكْ
فلئِنْ بكيتَ فطالمَا بُكِيَتْ بكَ هِمّةٌ لجأَتْ إلى سَنَدِكْ
لو تَسجُدُ الأيّامُ ما سَجَدَتْ إلاّ ليوم ٍ فَتَّ فى عَضُدِكْ
يا نعمةً ولّتْ غَضارتُهَا ماكان أقبحَ حُسْنَها بيَدِكْ
فلقد بَدَتْ بَرْداً على كَبِدى لمَّا غدتْ حَرَّى عَلَى كَبِدِكْ
ورأيتُ نعمى الله زائدةً لمَّا استبانَ النّقصُ فى عَدَدِكْ

---

(١) ذو اليمينين ، هو طاهر بن الحسين ، وانظر سبب التسمية فى المضاف والمنسوب ٢٩١
(٢) للفرزدق ، ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ٢٩١ .
(٣) سورة الدخان ٤٩ . (٤) سوره يونس ٩١ .
(٥) انظر بديع القرآن لابن أبى الإصبع ٢٨٢ .

ولمّا أُمسك ناصرُ الدّين محمّد بن عبد الرحمن المعروف بابن المَقدِسىّ وواقعتُه مشهورة، ورُسم عليه بالمدراوية، وذاق الهوان، وكان قد آذى الناس، ومنهم: سيف الدين السامرىّ، كان قد أخذ منه الزنبقيّة، فمضى السامرىّ إليه وتقدّم له متشفّيا، فقال له ناصر الدين المَقدِسىّ: سألتُك بالله ألاّ تعود تجىء إلىّ! فقال السامرىّ: هو يصير لى، ونظَم القصيدة الّتى منها:

وردَ البشيرُ بما أقرّ الأعيُنا ... فشفَى الصدورَ وبلّغَ الناسَ المُنى
إنْ أنكر اللّصُّ العظيمُ فِعالَهُ ... بالمسلمين فأوّلُ القتلَى أنا

وقال أبو تمّام الطائىّ:

أجرٌ ولكن قد نظرتُ فلم أجدْ ... أجراً يفى بشماتةِ الأعداءِ[1]

ويُنسب إلى المَلِك الأمجد:

لم يبقَ إلا نفَسٌ خافتٌ ... ومُقلةٌ إنسانُها باهتُ
ومُدنَفٌ تضرم أحشاؤه ... بالنار إلاّ أنّه ساكتُ
رَقّ له الشامتُ ممّا به ... يا ويحَ من يَرثى له الشّامتُ!

ومن شعر جَحظة البرمكىّ:

ظفِر القلبُ بحبٍّ دَنِفِ ... فيكَ والسُّقم بجسمٍ ناحلِ
فهُمَا بينَ اكتئابٍ وضنًى ... تركانى كالقضيب الذّابلِ
فبكَى العاذلُ لى مِن رحمةٍ ... فبُكائى من بكاء العاذلِ

وقال عُمارة اليمنىّ:

فعندها أطرقتُ من خَجْلةٍ ... تصبغُ خدَّ الأمَلِ النّاصلِ
وكانَ من أصعَبِ ما مرّ بى ... شماتةُ الحاسدِ والجاهلِ

وقال أبو فراس بن حَمْدان:

لمن جاهد الحسّاد أجر المجاهد ... وأعجب ما حاولتَ إرضاء حاسد[2]

---

(١) ديوانه ١ : ٢ — (٢) ديوانه ٨١

ولم أرَ مِثلى اليومَ أكثرَ حاسداً · كأنّ قلوبَ الناسِ لى قلبُ واحدِ
أرَى الغِلَّ من تحت النِّفاقِ فأجتني · من العَسَلِ الماذِيِّ سُمَّ الأساوِدِ

وقال سيف الدين بن المشدّ :

لم يُبْقِ مِنِّى الحبُّ إلا ضَنًى · يخفى عن الزائر والعائد !
قد رَقَّ لى الحاسدُ مما أرَى · واخجْلتا مِن رِقّة الحاسِدِ !

وقال الأرَّجانى :

تطلّعت فى يَوْمَىْ رَخاءٍ وشِدّةٍ · ونادَيْتُ فى الأحياء هل من مُساعِدِ ![1]
فلَم أرَ فيما ساءنى غيرَ شامتٍ · ولم أرَ فيما سَرَّنى غيرَ حاسدِ

* * *

١٣ — وقوله :

وإنى لأتجلّد ، وأرى الشامتين أنى لرَيْبِ الدّهر لا أتضعضع .

أتجلّد : أتفعّل ، من الجَلَد ، وهو الصلابة ، والتجلّد : تكلُّف الثبات والصبر وعَدمِ المُبالاة بالأمر الّذى يَنزِلُ بالرجل ، وهو صعْب يشُقّ احتماله .

و « الشامتين » : جمعُ شامِت ، وهو اسمُ فاعلٍ من الشّماتة ، وهى الفرَحُ ببليّة العدوّ والتشفِّى به .

وأتَضَعْضَعُ : أتفعّل ، من الضَّعْضَعة ، وهى الهَدْم والخراب .

وأمّا التجلّد والصبر ، فمِن أعظم صبرٍ وقَع لامرأةٍ ما كان من أم سُلَيم امرأة أبى طَلْحة الأنصارىّ ، وهو أنّ ابنَها مَرِض وماتَ فى صبيحته فى المَخدَع ، فقامت ، فهيّأتْ لأبى طلحة فُطوره كما كانت تهيِّئه له فى كلّ ليلة ، فدَخل أبوطلحة فقال : كيف الصبيّ ؟ فقالت : بأحسنِ حالٍ ؛ نحمَدُ الله ! ثم قامت إلى

---

(١) ديوانه ٨٦

مايقوم إليه النّساء ، فأصاب أبو طلحة أهلَه ، فلمّا كان فى السَّحَر قالت : يا أبا طلحة ، ألم تَرَ إلى آلِ فلانٍ استعارُوا عارِيَةً فتمتّعوا بها ، فلمّا طُلِبتْ منهم شقّ عليهم ! قال : ما أنصفُوا ، قالت : إنّ ابنَكَ كان عارِيَّة من الله وإنّ الله قَبَضَه ، فاسترْجع ، ثمّ غدَا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال له : يا أبا طَلْحة ، باركَ اللهُ لكما فى ليلتِكما .

* * *

وكلامُ ابنِ زيدونَ رحمه الله تعالى محلول من قول أبى ذُؤَيْب الهُذَلىّ ، من قصيدته التى رثى بها أولادَه فقال :

وتَجلّدِى للشامِتِين أرِيهمُ ... أنّى لَرَيْبِ الدّهرِ لاأتَضَعْضَعُ

وأولها :

أمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تتَوَجّعُ ... والدّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَن يَجْزَعُ

ومنها يذكر أولاده :

ولقد حَرَصْتُ بأنْ أدافعَ عنهمُ ... وإذَا المنيّة أقبلَتْ لا تُدفَعُ
وإذا المنيّة أنشَبَتْ أظفارَها ... ألفَيْتَ كلّ تَميمةٍ لا تَنْفَعُ
فالعَيْنُ بعدَهُمُ كأنّ حِداقَها ... كُحِلَتْ بشَوْكٍ فهْى عُورٌ تَدْمَعُ (١)
حتّى كأنّى للحوادثِ مَرْوَةٌ ... بصَفَا المشقّرِ كلّ يومٍ تُقْرَعُ (٢)
وتجلُّدِى للشامِتِين أُرِيهمُ ... أنّى لريْبِ الدهر لا أتضعضَعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

ولمّا ثقُل (٤) معاوية رضىَ الله عنه فى المرَض الّذى مات فيه ، دخل عليه الحسنُ بنُ علىّ رضى الله عنهما يعودُه ، فاستوَى جالساً وقال :

---

(١) الحداق : جمع حدقة.
(٢) المروة : حجر أبيض براق تقتدح منه النار . والمشقر سوق بالطائف
(٣) ديوانه الهذليين ١ : ١ . (٤) ثقل ، كفرح : اشتد مرضه .

* وتجلدى للشامتين أريهم *

فقام الحسنُ بنُ علىّ رضى الله عنه وهو يقول :

وإذا المنيّةُ أنشبَتْ أظفارَهَا　　ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ

وقيل : لمّا ثقل فى علّتهِ الّتى مات فيها ، أن يُكحّل ويبرّق وجهُه ، ويدخُلَ الناسُ إليه ليسلّموا عليه قياما ، فلمّا خرج الناسُ تمثّل معاوية :

* وتجلّدى للشامتين أُريهمُ *

وقال لابنتيه فى علّته هـذه وهما تقلّبانه : إنّكما لتقلّبان حُوّلاً قُلّبا ، جمع المال من شُبّ إلى دُبّ[(١)] ، إن لم يدخل النار ؛ وتمثّل بقوله :

لقد سعيتُ لكمْ مِنْ سَعْيِ ذى نصبٍ　　وقد كفيتُكمُ التّطواف والرِّحَلاَ

وقال فى مرضه هذا : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كسانى قميصا ورفعته . وقلّم يوما أظفارَه ، فأخذت ابنتُه قُلامته فجعلتْها فى قارورة ، فقال : احفَظِيها ، فإذا مِتُّ فألبسونى القميص ، وقطّعوا تلك القُلامةَ وذُرّوها فى عَيْنى وفى ، ثم تمثّل :

إذا مِتُّ ماتَ الجود وانقطَع النّدَى　　من النّاسِ إلاّ من قليلٍ مُصَرَّدِ[(٢)]
ورُدَّتْ أكفُّ السائلين وأمسكوا　　من الدِّين والدُّنيا بخِلْفٍ مُجَرَّدِ

فقالت إحدى بناته : يدفَع الله عنك ، فقال :

وإذا المنيّةُ أنشبتْ أظفارَها　　ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ

وذكر المسعوديُّ أن عمرو بنَ العاص لمّا قدِم من مصرَ على معاوية أنشدَ معاوية :

---

(١) من شب إلى دب ، مثل ، أى من لدن شببت إلى أن دببت على العصا
(٢) المصرد من العطاء : القليل .

يموتُ الصالحون وأنتَ حيٌّ تخطّاك المنايا لا تموتُ

فأجابه عمرو يقول:

أترجو أن أموتَ وأنتَ حيٌّ ولستُ بميّتٍ حتّى تموتْ!

* * *

وقال أبو ذؤيب أيضا:

وإنّي صبرتُ النفسَ بعد ابنِ عنبسٍ وقد لجّ من ماء الشئونِ لجوجُ (٢)
لأحسبَ جلْدًا أو ليُنبأَ شامتٌ وللشرّ بعد القارعاتِ فروجُ

وقد جوّد ابنُ الرومي حيث قال:

أرى الصبرَ محمودا عليه مذاهبٌ فكيفَ إذا ما لم يكنْ عنهُ مذهبُ
هناك يحِقّ الصبرُ والصبرُ واجبٌ وما كان منه كالضّرورة أوجبُ
فشدّ امرؤٌ بالصبر كفًّا فإنّه له عصمةٌ أسبابُها لا تُقضَّبُ
هو المهربُ المنجى لمن أحدقتْ به مكارهُ دهرٍ ليس عنهنّ مهربُ
لبوس جمالٍ جُنّةٌ من شماتةٍ شفاء أسًى يُثنَى به ويُثوّبُ
فياعجبًا للشيء هذي خلالُه وتاركُ مافيه من الحظّ أعجبُ
وقد يتظنّى الناس أن أساهمُ وصبرَهمُ فيه طباعٌ مركّبُ
وأنهما ليسا كشيءٍ مصرّفٍ يصرّفه ذو نكبةٍ حين ينكبُ
فإن شاء أن يأسَى أطاعَ له الأسَى وإن شاء صبرًا جاءه الصبرُ يُجلَبُ
وليس كما ظنّوهما بل كلاهما لكلّ لبيبٍ مستطاعٌ مسبّبُ
يصرّفه المختارُ منّا فتارةً يُرادُ فيأتي أو يُذادُ فيذهبُ
إذا احتجّ محتجٌّ على النفس لم يكدْ على قدرٍ يُبكى لها يتعتّبُ

(١) مروج الذهب ٣ : ٣٠ . (٢) ديوان الهذليين ١ : ٦١

(٣) ديوان ابن الرومي ، مخطوطة دار الكتب الورقة ٢٥

فساعدها الصبرُ الجميلُ فأقبلت ... إليها له طوعاً جنائبُ تجنبُ
وإن هو منّاها الأباطيلَ لم تزلْ ... تقاتل بالغيبِ القضاء فتغلبُ
فتضحي جزوعاً إن أصابت مصيبةٌ ... وتمسي هلوعاً إن تعذّر مطلبُ
فلا يعذرنّ التاركُ الصبرِ نفسه ... بأن قيل: إنّ الصبر لا يتكسّبُ

وقال الأمير تاج الدين الكِلْبي:

هيهات يؤلمني الزمان فأشتكي ... وهو الذي من سطوتي يتألمُ
وعزيمتي ما إنْ يُثلمُ غربها ... خطْبٌ على أن الحديدَ يُثلمُ

وقال الأمير تميم بن المعز:

صبرتُ على الشكوى حياءً وعفةً ... وهل يشتكي لدغَ الأراقم أرقمُ!(١)
وبي كلُّ ما يبكي العيونَ أقلُّه ... وإن كنتُ منه دائماً أتبسّمُ

وما ألطفَ قولَ أبي الحسين الجزار:

أطيل شكاياتي إلى غيرِ راحمٍ ... وأهلُ الغنى لا يرحمون فقيرا
وأشكرُ عيشي الورى خوفَ شامتٍ ... كذا كلُّ نحسٍ لا يزالُ شكورا

وقال شرف الدين المبارك مستوفي إربل:

ألقى الخطوبَ إذا اشتدّت عريكتُها ... بتيهِ رأيٍ كثير التيهِ مختالِ
ما ينقمُ الدهرُ مني غيرَ معرفتي ... بأنه قطُّ ما يبقى على حالِ

وقال أبو عامر بنُ الشهيد:

إنّ الكريم إذا نالته مخمصةٌ ... أبدى إلى الناس ريّاً وهو ظمآنُ
يحني الضلوعَ على مثل اللظى حُرَقاً ... والوجهُ غمرٌ بماء البِشر ملآنُ

---

(١) ديوانه ٣٩٨

وما أحسنَ قولَ القاضي الفاضل :

لا تَلِنْ للخُطوب واصلُبْ فمن لا ... نَ توالَى عليه قَرْعُ الخطوبِ
إنَّ ضربَ الحديدِ ما كان إلاَّ ... حين أبْدَى لِيناً لحرِّ اللّهيبِ

وقال أبو بكر الخُوارزميّ :

عليكَ بإظهـــارِ التجلُّد للعِدَا ... ولا تُظْهِرَنْ منكَ الذبولَ فتُحقَرا
ألستَ ترَى الرَّيْحَانَ يُشْمَمُ ناضراً ... ويُطْرَح في الميضا إذا ما تغيَّرا !

وعلى كلّ حال فالعِلم بالحاسد ، ولا رؤْية الشامِت ، قال الشاعر :

لا ماتَ حُسَّادُكَ بلْ خُلِّدوا ... حَتّى يَرَوا منك الّذى يكمدُ
ولا خَلاكَ الدّهر منْ حاسدٍ ... فإنّ خيرَ الناسِ مَن يُحْسَدُ

وما أحسن قول القاضي ناصح الدين ، وقد تقدّم :

ولمّا بلوْتُ النّاسَ أطلبُ عندَهُمْ ... أخا ثقةٍ عند اعتراضِ الشّدائدِ
تطلّعتُ في يومَىْ رَخاء وشِدّةٍ ... وناديتُ في الأحياء : هل من مُساعدِ ؟
فلمْ أرَ فيما ساءني غيرَ شامتٍ ... ولم أرَ فيما سرّني غيرَ حاسدِ

* * *

١٤ ــ فأقول : هل أنا إلاّ يدٌ أدْماها سِوارُها ، وجَبينٌ عَضَّ به إكْليلُهُ !

أدْماها : أجرَى دَمَها . والسِّوار : سوارُ المرأة ، وهو معروف .

والجبين : مافوق الصُّدْغ ، وهما جبينان عن يمينِ الجَبْهَةِ ويسارِها .

عَضَّ به ، والمراد عَضّه ، والعَضّ معروف ، وإذا كان حقيقةً فهو إمّا بالأسنان ، ويُكتَب بالضاد المُعجَمة ، وإذا كان مجازًا مِثل عَظَّ الزّمانُ ، وعظّت الحربُ ، كُتِب بالظاء القائمة .

والإكليل: العِصابة للرأس تُكلَّل باللؤلؤ، ويسمّى التاجُ إكليلا،
ومعنى هذا أنه لما قال: أتجلّد وأرِي الشامت[(١)] أنّى لا أتضعضع لما نزل بى منك، فأكابر نفسى، وأُريها الباطل حقًّا، قال: ما أنا إلّا يدٌ أدماها سِوارُها الّذى تحلّت وتزيّنت به، وجبينٌ عضّ به تاجُه الّذى وَضَعه فوقَه؛ ليتجمّل به، ويتحلّى بجواهِره، فما أَلُومُ أحدًا فعل بى ذلك؛ وهذا مأخوذٌ من قول أبى الطيّب:

بنو كعبٍ وما أثّرْتَ فيهمْ   يدٌ لم يُدْمِها إلّا السِّوارُ[(٢)]
بها من قطعهِ ألمٌ ونقصٌ   وفيها من جلالتِهِ افتخارُ

[(٣)] وهذا من باب تحسين القبيح؛ وهو أن يعتذر له بشىء يعود قبحُه حسنًا كما[(٣)] اتفق للعزيز صاحب مصر ووزيره ابن كلّس[(٤)]، لمّا تسابقا بالحمام، فسبق حمامُ الوزيرِ، فشقّ ذلك عليه، وأراد الإيقاعَ به، فكتب الوزيرُ إليه:

قلْ لأمير المؤمنين الّذى   له العُلا والنسبُ الثاقبُ
طائرُك السابقُ لكنّه   جاء وفى خِدْمته حاجبُ

فسكّن غيظ[(٤)] الخليفة. وكما قال الآخر لما احترق حَرَمُ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم:

لم يَحْترق حَرَمُ النبىّ لرِيبةٍ   تُخشَى عليه ولا هُنالِكَ عارُ
لكنّما أيْدِى الرّوافِضِ لامَسَتْ   ذاك الضّريحَ فطهّرتْه النارُ

وقال أبو الحسين الجزّارُ من أبيات، وقد ذكر حريقَ الحَرَمِ النبوىّ:

لِلّهِ فى النّار الّتى وقعتْ به   سرٌّ عن العُقلاء لا تُخْفيه
أنْ ليس يبقى فى فِناه بقيّةٌ   مّما بَنَتْهُ بنو أميّةَ فيـه

---

(١) ط: «الشامتين».
(٢) ديوانه ٢: ١١٢.
(٣ ـ ٣) ساقط من ط.
(٤) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف. والخبر مع البيتين فى ترجمته، فى ابن خلكان ٢: ٣٣٥.

وكما قال صَنَّاجة الدَّوح محمّد بن القاسم بن عاصم ، شاعرُ الحاكم :

بالحاكم العَدْل أضحى الدِّين معتليًا   نَجلَ العُلا وسَليل السادةِ الصُّلحا(١)

مازُلزِلتْ مصرُ من كيدٍ يُرادُ بها   وإنّما رقَصتْ من عَدْلِه فرَحا

ولابن الأبّار مصنَّف سمّاه : « قِطَع الرِّياض ، فى بدع الأغراض » وكله جمعه من هذا الباب فى تحسين القبيح .

وقوله : « يَدٌ أدماها سِوارُها » ، يُشْبِه قولَ الباخَرْزِىّ :

هىَ الآدابُ حَلْىٌ غيرَ أنّى   بِحِرْفَتها اضطُرِرْتُ إلى الصَّغارِ

كذاك لِمِعْصَمِ الحسْناءِ صَبْرٌ   على ضيق الخِناقِ من السِّوارِ

وقال ابن بابك :

لاَصَبْرَ عنك ولو عَضَّ السِّوارُ يَدِى   وبِتُّ مرتفِقاً فى رَأْسِ غُمدانا

كلاّ ولو هَزّ عرشُ المُلْكِ ناصيَتِى   وصِرْتُ المِنبر الشرقىِّ دَيَّانا

وقال الأحوَص من قصيدة :

فطلِّقْها فلستَ لها بكُفْءٍ   وإلاّ عَضَّ مَفرِقكَ الحُسامُ(٢)

* * *

١٥ — وقوله : وَمَشْرَفِىٌّ ألصَقَهُ فى الأرْضِ صاقِلُه ، وسَمْهَرِىٌّ عرَضَهُ علَى النّارِ مُثقِّفُهُ .

المَشْرَفىّ ـ بفتح الميم والراء ، وتشديد الياء : السيف ، منسوبٌ إلى المَشارف ، وهى قُرًى من أرض العَرَب ، ولا يقال : سيفٌ مَشارِفىّ ، لأنّ الجموع لا يُنسَب إليها إذا كانت على هذا الوزن ، لا يقال : مَهالِبىّ ، ولا جَعافِرِىّ ، ولا عَباقِرِىّ . وقد قيل : مدائِنىٌّ ، نسبةً إلى مدائن كِسْرَى ، لأنّ

---

(١) حسن المحاضرة ٢ : ١٩٩   (٢) من أبيات له فى الأغانى ١٥ : ٢٩٣ .

النسبةَ إلى مدينة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم مَدَنىٌّ ، وإلى مدينة المَنصورة مدينىٌّ ، فقيل فى ذلك الفرق .

ألْصَقَه فى الأرض : وضَعَه عليها .

والصاقِل : القَيْن الّذى يَجْلو السّيوف من الصَّدَأ .

والسَّمْهَرِىّ : الرّمح الصُّلْب ، وقيل : منسوبٌ إلى سَمْهَر ، وهو رجل كان يقوِّم الرِّماح .

مثقِّفُه : مقوِّمُه ، والتثقيف : التقويم ، معناه : أنا سيفٌ وضَعَه على النّار من يَجْلوه من الصَّدأ ، وإن كان حمله على الكَتِف ، ورمحٌ عَرَضَه على النّار مقوِّمه ؛ وذلك لمصلحةٍ تعودُ على السّيف والرمح ، فما أعدّ ذلك شيئاً غريباً .

قال الخفاجىّ :

ألامُ إذا ماناوَشَ الدّهرُ جانبى ... وأىّ حُسامٍ لا يحادَثُ بالصَّقْلِ ![1]

وما هـو فيما بيننا من صَنيعِه ... بمطّرِحٍ قَوْلى ولا جاهلٍ فعلِى

وقال أبو إسحاق الغزّىّ :

صَقلْتُ العُلا بالمَكْرُماتِ وإنّما ... يَنِمّ بأسرارِ السّيوف الصّياقِلُ

وقال أبو تمّام الطائىّ :

وما السّيْفُ إلاّ زُبْرةٌ لو تركتَه ... على الحالةِ الأولَى لمَا كان يقطعُ[2]

وقال أبو فِراس بن حَمْدان :

ولئن بقيتُ فإنّنى ... غَيْظُ العِدا طِفلاً وكَهْلا[3]

ما كنتُ إلاّ السّيفَ أخـ ... لَصَهُ القُيونُ فزادَ صَقْلا

يفْـرِى رءوسَ عِـداتهِ ... ويَشُلّهمْ بالضّربِ شَلاّ

ولئنْ هلَكْتُ فإنّما ... موتُ الكرام الصِّيدِ قَتْلا

---

(١) ديوانه ٣٨ (مخطوطة دار الكتب رقم ٥١٠ ـ أدب) ، وهو عبد الله بن سعيد المعروف بأبى محمد الخفاجى . والتحادث هنا : جلاء السيف .

(٢) ديوانه ٢ : ٣٣٤ . والزبرة : القطعة من الحديد . (٣) ديوانه ٢٢٩ .

وقال شهاب الدين الخيمى لمّا تولّى تفاشف عذابَ ابن الزُّبَير :

لأَبن الزُّبيرِ مكارمٌ أضحتْ بها ... طيرُ المَدائح فى البلادِ تُغرِّدُ
إن قيَّدوه وبالغُوا فى عصْرِهِ ... فالكرْم يُعصَر والجوادُ يُقيَّدُ

وقال الأمير أبو المنيع قراوش :

لله درُّ النائباتِ فإنّها ... صدأُ اللّئام وصَيقَلُ الأحرارِ
ما كنتُ إلاَّ زُبرةً فطبعْنَنِى ... سيفاً وأطلق صرفهنّ غِرارى

وقال ابن السّاعاتى :

وما أبيضّ وجهُ الخائضِ الحربَ فى الوَغَى ... بصارمِهِ لولا سوادُ القساطل
يزيدُ النُّضار الطَّلقُ بالنّار رفعةً ... وَيذهب بالتثقيف زَيْغُ العوامِلِ
كذاكَ سُيوفُ الهِند يَركبُها الصَّدا ... فتُكسِبُها حُسْناً أكُفُّ الصَّياقلِ

وقال أبو الفتيان بن حَيُّوس فأحسَن :

أرَى كلّ معوجٍّ المَودّةِ يُصطفَى ... لديكمْ ، وَيلقَى حَتْفَهُ من تَقوَّمَا(١)
حَنِى النَّاس من قبلُ القِسِىّ لتُقتنَى ... وثُقِّفَ مُـادُ القنا ليُحطَّما

وقال ابنُ سَناءِ المُلك :

حاربتُ هذا الدّهرَ لـ ... ـكنْ ما وجدتُ عليه نصْرا
من أجلِ حرْبى قد أعدّ ... وقد أحدّ شباً وظُفْرا
والقوسُ يُحنَى والمُهنّـ ... ـدُ يُنتضَى والسّهمُ يُبرى

وقال علىُّ بنُ الجَهْم لمّا حُبِس :

والبدرُ يُدرِكه السِّرارُ فتَنْجلى ... أيامُه فكأنّه متجدِّدُ(٢)

---

(١) ديوانه ٥٩٨ .
(٢) ديوانه ٤٢ .

والغيثُ يحصره الغمامُ فما يُرى ... إلاّ وريِّقُهُ يُراح ويرعدُ(١)
والزّاعِبيّةُ لا يُقيم كُعوبَها ... إلاّ الثّقافُ وجذوةٌ تتوقّدُ(٢)
والنارُ فى أحجارِها مخبوءةٌ ... لا تُصطلَى إن لم تثرْها الأزندُ
والحبسُ، ما لم تغشَه لدنيّةٍ ... شنعاءَ نعمَ المنزلِ المتوردُ

وقال القاضى أبو الفتح نصر بن سيّار الهرمزىّ السُّهرُودىّ:

عزاءك إن حُبِسْتَ فليس عَيْباً ... فتلك الرّاحُ تُحبَس فى الدّنانِ
وهذا الوَرْدُ قد يزداد طِيباً ... إذا حبسَتْه أطرافُ البَنانِ
وضربُك إن ضُرِبْتَ فليس عاراً ... كما قد يُضرَبُ السيفُ اليمانِي
ومثلُك مَن تُعانِدُه الليالى ... وتُجمِع نحوه نُوَبُ الزمانِ

وقال آخر:

لئن صُرِفْتَ وحاشا ... ك فالدّنانيرُ تُصرَفْ
وما اُعتقلتَ كريماً ... إلاّ وأنتَ مثقّفْ

وقال سيف الدين بن قزل المشدّ:

أنتَ الحُسام إذا ما هاجَ مُعتركٌ ... والرُّمحُ أنتَ إذا ماضاقتِ السُّبُلُ
فلا تُبالِ بأمرٍ جاءَ عن قدرٍ ... فالسّيفُ يُضرَبُ والخطّىُّ يُعتقَلُ

وقال الباخرزىّ صاحب الدُّمية:

أبا عاصمٍ كن عاصماً لابن محنةٍ ... أبتْ نكباتُ الدّهرِ إلاّ ثقافَهُ
صبورٌ على عضّ الثِّقافِ وما القنا ... بمعتدلٍ ما لم تُحسِّنْ ثِقافَهُ
هو الخادرُ المُلقِى بأرضِك رحلَهُ ... فإن زُرْتَهُ بدّلْتَ بالخاءِ قافَهُ

وقال إبراهيم بنُ المدبّر، وقد حُبِس:

ألستَ ترَى الخمرَ يظهر حسنُها ... وبهجتُها بالحبس فى الطين والقارِ

---

(١) ريق كل شىء: أوله.
(٢) الزاعبية: رماح منسوبة إلى رجل من الخزرج اسمه زاعب كان يعمل الأسنة.

وما أنا إلاّ كالجَوادِ يَصونُه مقوِّمُه للسَّبْق فى طىِّ مضمارِ
أو الدُّرّةِ الزَّهراء فى قَعْرِ لُجّةٍ فلا تُجتَلى إلاّ بهَوْلٍ وَأخطارِ
فلا تُنكِرى طُولَ المُداراةِ للعِدَا فإنّ نِهاياتِ الأُمورِ لإقصارِ
لعلَّ وراءَ الغَيْبِ أمراً يَسُرّنا يقدِّرُه فى علمِه الخالقُ البارِى

* * *

١٦ ــ وقوله : وَعَبْدٌ ذَهَبَ به سيّدُه مذهبَ الّذى يَقُول :

فقسا ليزْدَجِرُوا ومَنْ يَكُ حازِماً فَلْيَقْسُ أحْيَاناً على مَنْ يرْحَمُ

ليزدَجِروا : ليَفْتَعِلوا من الازدِجار ، وهو الزَّجْر ، والزجر هو المَنْع ، يقال : زَجرَه فازدَجر وانْزَجَر .

وَالحَزْم : ضبْط الرَّجل أمرَه ، والأخذُ فيه بالثِّقة ، ومعناه : وأَعُدُّ نفسى عَبْدا ذَهَب به سيِّدُه فيما فعل به مَذْهَبَ الّذى قال هذا البيت ؛ لأنَّه يريد بذلك صلاحه وتأديبه ، فهو مع رحمته له قد قسا عليه حتّى يتأدب ، ولم يكُ من شأنه القَسْوة .

وهذا البيت يقوله أبو تمام من قصيدةٍ مَدَح بها مالكَ بنَ طَوْق ، وأوّلها :

أرْضٌ مصرَّدَةٌ وَأُخرَى تُثجَمُ تلك الّتى رُزِقَتْ وهذى تُحرَمُ(١)

يقول منها فى المديح :

ما هذه القُرْبى الّتى لاَ تُصْطَفَى ما هذه الرَّحِمِ الّتى لا تُرحَمُ !
حَسَدُ القَرابةِ للقرابة قَرْحةٌ أعْيَتْ عوانِدُها وجُرحٌ أقدَمُ(٢)

---

(١) ديوانه ٣ : ١٩٥ . ومصرده . يقطع شجرها . وتثجم : تمطر على الدوام .
(٢) عوائد : جمع عائد ، من قولهم : عند العرق ، إذا سال ولم يرقأ .

تلكمْ قريشُ لم تكن آراؤها … تَهْفو ولا أحلامُها تُتَقَسَّمُ
حتّى إذا بُعِثَ النبيُّ محمّدٌ … فيهم غدَتْ شَحْناؤهمْ تتضرّمُ
عَزَبَتْ عقولُهُمُ وما مِنْ مَعْشَرٍ … إلاَّ وهمْ منها ألَبُّ وأحزَمُ(١)
لمّا أقام الوَحْيُ بينَ ظهورِهِمْ … ورأوا رسولَ الله أحمدَ منهمُ
ومن الْحَزَامَةِ لو تكون حَزامةٌ … ألاَّ يؤخَّر من به يُتقدَّمُ(٢)
إنْ تَذْهبوا عن مالِكٍ أو تجْهلوا … نُعْمَاهُ فالرَّحِمُ القَريبةُ تَعْلَمُ
هى تِلكَ مُشكاةٌ لكُمْ لو تشتكى ، … مظلومةٌ لو أنَّهـا تتظلَّمُ(٣)
كانت لكمْ أخلاقُه مَعْسولةً … فتركْتُموها وهى مِلْحٌ عَلْقَمُ
حتّى إذا أجِنَتْ لكمْ داوَتْكمُ … من دائكم ، إنّ الثقافَ يُقوِّمُ(٤)
فقَسا ليَزْدَجِروا ومَن يَكُ حازماً … فليَقْسُ أحْياناً على مَن يَرْحَمُ
وأخافَكُمْ كى تُغْمِدوا أسيافَكمْ … إنّ الدّمَ المُعْترّ يحرسُه الدّمُ(٥)

ومن مادّة هذا البيت الّذى هو الرّسالة ، قولُ أبى تمّام الطائىّ أيضاً :

يا شامِتاً بى إذْ رأَى … هَجْرَ الحبيبِ وَصَدَّهُ(٦)
لا تَشْمَتَنَّ فإنَّــهُ … مَوْلًى يؤدِّبُ عَبْدَهُ

ومن هذا قول مَهْيار :

ما كنتُ أعلمُ ما مِقْدارُ وصلِكُمُ … حتّى هجرتُمْ ، وبعضُ الهجرِ تأديبُ(٧)

---

(١) ألب : أعقل ؛ وأحزم : أضبط .
(٢) الحزامة : حسن الرأى . والنطف : القذر .
(٣) مشكاة ، اسم مفعول من الشكاية .
(٤) أجنت : تغيرت . والثقاف : آلة تقوم الرماح .
(٥) تغمدوا : تستروا . المعتر : المضطرب .
(٦) ديوانه ٤٣٧ (بيروت)
(٧) ديوانه ١ : ٢٤

وهو مأخوذٌ من قول أبي تمَّام :

ليس يَعرِفُ كُنْهَ الوَصل صاحبُه حتَّى يُفادَى بنأْيٍ أو بِهجْرانِ (١)

وقال أبو العلاء :

فاضْرِبْ وَلِيدكَ تأديباً على رَشَدٍ ولا تَقُلْ هوَ طِفْلٌ غيرُ مُحتلم (٢)

فَرُبَّ شَقٍّ برأس جَرَّ مَنْفَعَةً وقِسْ علىشَقِّ رأسِ السّهم ِوالقلَمِ

وقال ابن خَفاجةَ الأنْدَلُسيُّ في هذا المعنى :

نَبِّهْ وَلِيدَكَ مِنْ صِباه بزَجْرةٍ فلَرُبّما أغفى هناك ذكاؤُهُ

وأنهره حتى تَستَهِلَّ دُموعَهُ في وجنَتَيْهِ وتَلْتَظِي أحشاؤُهُ

فالسَّيف لا تذكو بكفِّكَ نارُه حتّى يسيلَ بصَفْحَتَيْه ماؤُهُ

وقال عليّ بنُ الجَهْم :

ليس عندي وإنْ تغَضَّبْتَ إلاّ طاعةٌ حُرّةٌ وقلبٌ سليمُ

وانتظارُ الرِّضا فإنَّ رضا السّا داتِ عِزٌّ وعَتْبُهُمْ تقويمُ

* * *

١٧ — وقوله : هَذَا الْعَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ .

العواقب : جمع عاقبة ، وهي آخِرُ كلّ شيء ؛ يشير بذلك إلى قول أبي الطَّيِّب :

لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقِبُه وربّما صَحّت الأجسامُ بالعِلَلِ

وهذا من قصيدتِه الّتي مَدَح بها سيفَ الدّولة بن حَمْدان ، وكان في نفسِ سيفِ الدّولة بقيّةٌ من مَوْجِدةٍ عليه ، وأوّل هذه القصيدة :

أجابَ دَمْعي وماالدّاعي سِوَى طَلَلِ دَعَا فَلَبّاه قبلَ الرَّكْبِ والإبِلِ (٣)

ومنها :

يأَيُّها المحسنُ المشكورُ مِن جِهتي والشُّكرُ مِن قِبَلِ الإحْسانِ لا قِبَلي

---

(١) ديوانه ٣ : ٣١٠ (٢) اللزوميات ٢ : ٢٦١

(٣) ديوانه ٣ : ٨٤ .

ما كان نوْمِىَ إلاَّ فوقَ معْرِفتى ... بأنَّ رأيكَ لا يَأْتى من الزَّلَلِ
أقِلْ أَنِلْ أقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ أدْنِ سُرَّ صِلِ
لعلَّ عتْبَكَ محمودٌ عواقبُه ... ورُبَّما صحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

ورواه بعضُهم: «طرائقه».

وما أحسنَ قولَ السَّرَّاجِ الوَرَّاق، ومن خَطِّه نقلت:

وقائلٍ قال لى لمَّا رأى قلَقى ... لِطُولِ وَعْدٍ وآمالٍ تمنِّينا
عَواقبُ الصَّبرِ فيما قال أكثرُهمْ ... محمودةٌ قلتُ أخشَى أن تخزِّينا

وقال ابنُ الخيَّاط الدِّمشْقىّ:

وما كلُّ مسلوبِ الرُّقادِ مُعاره ... ولا كلُّ مسْلوب الفُؤاد مُفاداه (١)
يرَى الصبرَ محمودَ العواقب معشرٌ ... وما كلُّ صبرٍ يحمد المرء عُقْباهُ

وقال سيف الدين علىّ بن قزل المشدّ:

صبرتُ على مُرِّ هِجْرانِكُمْ ... وعاتبتُ قلبىَ ثم ارعوَى
فأصبح جِسْمِىَ فى صِحَّةٍ ... وعُوفيتُ من ضُرِّ داءِ الجْوَى
وعاقبةُ الصَّبرِ محمودةٌ ... لِمَنْ يتداوَى به فى الهَوَى

وما أحسنَ قولَ بعضِ الشُّعراء:

لعلَّ سبًّا يُفيدُ حُبًّا ... والشرُّ للخيرِ قدْ يجُرُّ

* * *

١٨ — وقوله: وهذه النَّبْوَةُ غمْرةٌ ثم تنْجلى، وهذه النَّكبه سحابةُ صيْفٍ عن قليلٍ تقشَّعُ.

النَّبوة: تأنيث نبو، وهو مصدرُ، نبَا الشىء إذ تحاماه وتباعَدَ عنه، ومنه نبَا السيفُ إذا ارْتفَع عن الضَّريبة ولَمْ يَقطَع فيها.

---

(١) ديوانه ٧١٢.

وَالغَمْرَة : الشِّدَّةُ الشَّدِيدَةُ العامّة ، والجمع غُمْر .

تَنْجلِيَ : تذهَب ، وفى المَثَل . غَمَراتٌ ثُمّ تَنْجَلِى ، أوّل من قاله الأغْلَب العِجْليّ ، قال أبو حاتم : زَعَموا أن صَبِيًّا من العرَب نظر إلى قوْم يأكلون فأرادهم ، فجاء سَيْلٌ فحالَ بينَه وبينهم ، فألقى نفسَه فى الماء ، ثم جعل يَنْغَط مرّة ويرتَفِع أُخْرَى ويقول : « غَمَرات يَنْجَلِين » ، حتّى تخلّص ووَصَل إليهم . وقد وَرَد هذا المَثَل فى رَجَز لبعض الرُّجّاز ، وهو :

يُقارِعُ السنين عن بنينا والغَمرات ثُمّ يَنْجَلِينا(١)

وَالنَّكْبة ، واحدةُ نَكَبات الدّهر ، يقال : أصابتْه نَكْبة ، وَنُكِبَ فلان وهو مَنْكوب ، كأنّه قد عُدِل به من الخَيْر إلى الشّرّ .

وَتَقَشَّعُ ، أصلُه تتقشّع ، فأُدغِمتْ إحدى التاءين فى الأخرى . تَقَشَّع السحابُ إذا أقلع ، أخَذَ يعزِّى نفسَه ويسلّيها ويمنِّيها ، وما أحسَن قولَ الأمير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة :

هى شدّةٌ يأتى الرّخاء عَقِيبَهـا ... وأسًى يبشّر بالسّرور العاجِلِ
وإذا نظرتَ فإنّ بُؤْساً زائلاً ... للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائِلِ

وقال شرف الدين المبارك مستوفى إربل :

وما السجنُ إلاّ ظلّ بيتٍ سَكَنْتَه ... أُرَفَّهُ فى أفيـائِهِ وَأُنعَّمُ
فكمْ من طَليقٍ أوثقَ الذّلُّ نفسَه ... وآخرَ مأسورٍ يُعزُّ وَيُكْرَمُ
وقد شُحِذَ الهِنْدِيُّ وهو مطبّقٌ ... وقد ثُقِّفَ الخَطّىُّ وهْو مقوَّمُ
وما هِيَ إلاّ غَمْرَةٌ ثُمَّ تنْجَلِي ... سريعاً وإلاّ نَبْوَةٌ تتَصرّمُ

---

(١) الميدانى ٢ : ٢٠٩ ، وفصل المقال ٢١٠ .

قوله : « سحابةُ صَيْف » ، مَرَّ بلالُ بنُ أبي بُرْدَة الأشعرىّ بخالدِ بنِ صَفْوانَ فى مَوْكِبٍ عظيمٍ ، فقال خالد : سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقَشَّع ، فسمعه بلال فقال : والله لاتَقَشَّع منها حتّى يصيبَك شُؤْبُوبُ بَرَد . وأمَر بضَرْبه بالسِّياط وحَبْسه .

وقال المبرِّد : كان ابنُ شُبْرُمة إذا نزلتْ به نازلةٌ قال : سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تقشَّع (١) .

وبلال بن أبي بُرْدَة أشارَ بقوله : حتّى يصيبَك منها شُؤْبوبُ بَرَد ، إلى قول النابغة :

ولا تُلاقِى كما لاقَى بنو أسَدٍ فقد أصابَتْهُمْ منها بشُؤْبوبِ (٢)

وما أحسنَ قولَ أبي القاسم هبة الله بن الفَضْل الطبيب :

يامعشَرَ الناسِ النَّفيرَ النَّفيرْ قد جلَس الهِرْدَبُّ فَوْقَ السَّريرْ
وصارَ فِينا آمِراً ناهِياً وكنتُ أرجو أنّه لا يصيرْ
وكلّما قالوا غداً ينجلِى وظُلْمةٌ عمّا قليلٍ تُنِيرْ
فتحتُ عَيْنى فإذا الدّولة الدَّوْ لَةُ والشّيخ الوزيرُ الوزيرْ !

وقول ابن الخَيّاط الدِّمَشْقى :

سَحابةُ برٍّ آنَ منها انقِشاعُها وأَيْكةُ مجدٍ حانَ مِنْهَا ذُبولُها (٣)

* * *

١٩ – وقوله : ولن يَريبَنى من سيّدى إنْ أبطأ سحَابُهُ ، أو تأخر غيرَ ضنينٍ غَناؤه .

يريبنى : فعلُ مضارع ، والرِّيبة : الشّكّ والتّهمة .

وضَنين : بخيل ، وغَناؤه ، بفتح الغين المعجمة والمدّ : النفع .

---

(١) الكامل ٢ : ٤١ .
(٢) ديوانه ١١ (٣) ديوانه ٢ ، ١٠٢ .

وكان أبو العتاهية قد عاق عُتْبة جارية المهدىّ ، وعلم المهدىُّ بذلك ، واشتهر أمرهما على ما هو معروف عند الأخباريين ، فوعده المهدىُّ بزواجها ، وطال الأمرُ على أبى العتاهية ، فأنشد يوما :

ولقد تنسّمتُ الرّياحَ لحاجتى فإذا لها من راحتَيْكَ نسيمُ
أعلمت نفسى من رجائك مالها عَنَقٌ يخبّ إليك وهو رسيمُ
وَرَمَيْتُ نحو سماء جُودكَ ناظِرى أرْعَى مخايلَ بَرْقِها وأَشِيمُ
ولربّما اُستَيْئَسْتُ ثمّ أقولُ : لا إنَّ الّذى ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

وأتى بذلك إلى يزيد حَوراء ، وكان من كبار المطربين فى زمانه ، وقال : أريد أن تصنع فى هذه الأبيات لحناً وتغنّى به بين يدى المهدىّ ، فلمّا طابت نفسُ المهدىّ فى بعض الأوقات غنّى يزيدُ بذلك ، فأحضرَ المهدىُّ أبا العتاهية فقال : أمّا عُتْبة فلا سبيلَ لك إليها ؛ لأنّ مَوْلاتها منعتْ منها ، ولكنْ هذه خمسون ألف دِرْهم ، فاشترِ ببعضها خيراً منها ، فحمَل الدراهمَ وانصرَف .

وقال أبو إسحاقَ الصابى :

وعلِمِى باستحكامِ حَقّى لديْكمُ يحقّق ظَنّى أنّ جرمى سيوهبُ
وأنّكَ لِلحُرّ الّذِى لك عنده وَدِيعةُ وُدٍّ خيرُها مترقَّبُ

وقال :

ولولا رجاءٌ مِلْءُ أرجاء أَضْلُعى وعلمٌ يقينٍ بالرّعاية وَالعَهْدِ
وأن نسيمَ الإنعطاف يهبُّ لى
هبوبَ نسيمِ النّرجسِ الغضِّ والوَرْدِ
قضيتُ بإحداهُنّ نَحبِىَ حَسْرةً ولو كان لى قلبٌ من الحجرِ الصَّلْدِ
وَلِى عندَ مولانا وديعةُ حُرْمَةٍ وشُكرُ أياديهِ وديعتُه عندِى
وإن عشتُ كانت عُدّتى وذَخيرَتِى
وإن لم أعِشْ فهىَ التُّراثُ لِمَنْ بَعْدِى

فيأيُّها المولَى الذى أُشتاقَ عبدُه إليه ، أما تشتاقُ يوماً إلى العَبْدِ !
فإن كان لم يَبْلُغْ إلى رُتْبة الرِّضا فبلِّغْه فيما قبلَها رُتْبة الوَعْدِ

* * *

٢٠ — وقوله : فأَبْطأُ الدِّلاءِ فَيْضاً أَمْلؤُهَا ، وأَثْقَلُ السَّحاب مَشْيا أَحْفَلُهَا .

أبطأ : أفْعل من البُطْء وهو ضدّ السّرعة .

وأملؤُها : أفعَلُ من مَلأ الشىءَ إذا أَوْقَره وأَحْفَلَه .

وأحْفَلَه : أيضا من الحفل ، يقال : حَفلَ الضّرعُ حَفْلا إذا امتلأ . أخذ فى الاعتذار عن المخاطَب لكونه أخّر الحنوّ عليه ، والإجابة إلى ما قَصَدَه منه ، وهذا الذى يسمّيه أربابُ البَديع حُسْنَ التّعليل ، لأنّهم يحسّنون الشىءَ بعبارتهم الفصيحة ، وإن كان الأمرُ فى نفسه قبيحاً ، كما قال الوزير أبو الغارات طلائعُ ابن رزّيك :

وما أُخضرَّ ثوبُ الأرضِ إلاّ لأنّه عليه إذا زارتْ بأقْدامها تَخْطو
ولا طابَ نَشْرُ الزَّهْرِ إلاَّ لأنّه يُجرُّ عليها من جَلابِيبِهَا مِرْطُ

وكما قال أبو منصور ظافر الحدّاد :

قالوا مَحَا الْجُدَرِيُّ بهجَتَهُ قَسما بربٍّ مِنّى لقد كَذَبوا
قد صَفّت الصَّهْباءُ وجْنَتَه لوناً فَحُمِّلَ صَفْوها الْحَبَبُ

وكما قال التِّهامىّ :

لَو لَمْ يكنْ أُقْحُوانا ثغرُ مَبسمِها ما كان يَزْدادُ طِيباً ساعةَ السَّحَرِ(١)

وقوله :

* أَبطأُ فَيضِ الدِّلاءِ أَمْلؤُهَا *

هذا نصفُ بيتٍ قاله ابنُ المعتزّ فى الاُستسقاء ، من جملةِ بيتين ، وهما قولُه :

---

(١) ديوانه ٤٣ .

قلتُ وقـــد ضجَّ رافعاً يدَهُ دَعُوا البَرايا فاللهُ يَكْلؤُهـا
واستَيْقِنوا بالدّواء منـــه كما أبطأ وفرِ الدِّلاء أملؤُها

وما أحسنَ قولَ المكعبر الضبيّ من أبيات :

وإنّى لأرجوكمْ على بُطْءِ سَعْيِكُمْ كما فى بُطونِ الحاملاتِ رَجاءُ[(١)]
أخبِّر مَن لاقيتُ أن قد وَفَيْتُمُ ولو شئتُ قال المخبِرون أساءوا

وقول أبى إسحاقَ الغزّى :

ومشكورةُ التّسويف فى قدرة الغنى

وخيرُ نوالِ الحبّ مالم يُعجَّلِ[(٢)]

أبَى صَدُّها أن تعدمَ العينُ قرّةً وللبدر فى إدباره حُسن مقبلِ

وقول أبى تمّام الطائىّ :

يا أيّهـــا المَلِكُ النّائى برؤيتـه وجوده لمَراعِى جُودِه كَثَبُ[(٣)]
ليس الحِجابُ بمُقْصٍ عنكَ لى أمَلاً إنّ السَّماءَ تُرَجَّى حينَ تحتجِبُ

وقول أبى الطيّب :

ومن الخير بُطْءُ سَيْبِكَ عَنّى أسرَعُ السُّحْبِ فى المَسيرِ الجَهامُ[(٤)]

وقال ابن قلاقس :

رُبَّ ضِحْكٍ جَنَيْتُهُ مِن عُبوسٍ ونعيمٍ ألفيْتُـه بين بُوسِ
وإذا ما السَّحابُ قطّبَ وَجْهاً كان فى طيّه حَياةُ النُّفوسِ

وقوله أيضاً :

ولى رَسْمٌ عليكَ ولا دِفاعٌ لدَيْكَ يصدّ عنه ولا مِطالُ
ولمّا أن تأخّر طابَ عَيْشاً فقد تُسْتَبْطأُ السُّحُبُ الثِّقالُ

وما أحسنَ قولَ أبى تمّام فى معاتبة ابن أبى دُواد لمّا استبطأه :

رأيت العُلا معمورةً منكَ دارُها إذا أجمعت جاشاً وَقرَّ قَرارُها[(٥)]

---

(١) الكامل ١ : ٨١ (٢) ديوانه ٨٨ (مخطوطة دار الكتب رقم ٨٨ ـ أدب)
(٣) ديوانه ٢٢ (بيروت) (٤) ديوانه ٤ : ١٠٠ (٥) ديوانه ٣٩٩ (بيروت) .

وكم نكبة ظلماء تحسب ليلة ... تجلّى لنا من راحتيك نهارُها
فلا جارك العافى تناول محلها ... ولا عِرضك الوافى تناول عارُها
فلا تمكننّ المطل من ذمة النوى ... فبئس أخو الأيدى الغزار بجارُها
فإنّ الأيادى الصالحات كبارُها ... إذا وقعت تحت المطال صِغارُها
وما نفعُ من قد بات بالأمس صادياً ... إذا ما سماه اليوم طال انهمارُها
وما العُرف بالتسويف إلاّ كخُلّة ... تسلّيتُ عنها حين شطّ مزارُها
وخيرُ عِدات الحُرّ مختصراتها ... كما أنّ خيرات الليالى قِصارُها

وما أحسنَ قولَ من قال :

إنّ المطايا لا تكون هنيّةً ... حتّى تكون قصيرةَ الأعمارِ

* * *

٢١ — وقوله : وأنفع الحيَا ما وافق جدْبا ، وألذُّ الشراب ما أصاب غليلا .

الحيَا مقصور غير ممدود : المطَر والخصْب .

وافق : صادف .

الجدْب ، بالدّال المهملة : المَحْل . الغليل : العطَش بحرارة .

وهذا من أحسن الاعتذار للمخاطَب فى إهماله الجواب ، وتركه الإجابة إلى قصْدِه . يقول : أنفَع المطَر ما صادف مَحْلا ، وألذُّ الشّراب ما صادف حرارةَ العطَش ، ولاشكّ أنّ المطر للأرض المُمْحِلة أنفع وأوفق لها من الأرض الخصِبة ، وكذلك لذّة الماء عند الظمآن أشدّ وقعاً مما يكون عند الرّىّ .

وما أحسنَ قولَ ابن حَيّوس :

وإنّ ألذّ القُرْب ما كان قبلَهُ   نوًى وأحلى وصالٍ ماتقدَّمه جهدُ (١)

ومثله قولُ الأرّجانيّ :

وأحْسَنُ قُرْبٍ ما تقدَّمه نوًى   وأحْسَنُ وَصْلٍ ما تقدّمه هَجْرُ

وقولُ مهذّب الدّين بن القَيْسَرانيّ :

فياوَيْحَ قلبي مِن بلاء بحُبِّهِ   ومَنْ دَلَّ ألحاظِي على ذلك الدَّلِّ

ألِفْتُ قِلاَه ، واستَطَبْتُ مِطالَه   وأطيَبُ ماجاءَ الوِصالُ على مَطْل

وقول الآخَر :

وليس يَعرِف كُنْهَ الوصلِ ذو كَلَفٍ

حتى يعادَى ببَينٍ أو بهِجْرانِ

وقوله : « وألذّ الشراب ما أصاب غَليلا » مأخوذٌ من قول الشاعر — أظنّه كُشاجِم :

هذا الشّرابُ أخو الحياةِ وماله   من لَذَّةٍ حتّى يُصيب غليلا

وقال القُطاميّ :

يَقْتُلْنَنَا بحديثٍ ليس يَعْلَمُهُ   من يتّقينَ ولا مكنونه بادِي (٢)

فهنَّ يَنْبِذْن من قولٍ يُصِبْنَ به   مواقع الماء منْ ذِي الغُلّة الصادِيه

وقال أبو هلالٍ العسكريّ :

بقَدْر الصبابةِ عند المَغيبِ   تكونُ المَسرّة عند الحضورِ

وأطيَبُ ما كان بَرْدُ الثُّغُورِ   إذا هو صادَفَ حَرَّ الصُّدور

(١) ديوانه ٨ .   (٢) ديوانه ٨

٣٢ — وقوله : ومع اليوم غدٌ ، وَلِكلّ أجل كتاب .

ومع اليوم غَد ، هذا أصلُه من أمثال العرب ، ولكنهم يقولون : « إنّ مع اليوم غدًا »[١] ؛ يُضرب مثلا فى تنقّل الحالات ، وتقلّب الأيام بالدُّوَل على مَرِّها وَكَرِّها .

ومن أمثالهم أيضا : « يأتِيكَ كلُّ غد بما فيه » ، أى بما قُضِىَ فيه من خيرٍ وَشَرّ . ومن أمثالهم أيضا : « لِكلّ صَباحٍ صَبُوح »[٣] ، أى كلّ يوم يأتى بما يُنتَظَر فيه . ومن أمثالهم أيضا : « لِكلّ غدٍ طعام »[٤] . وقولهم فى المثل أيضا : « عسى غدُكَ لغيرك »[٥] ، أى لا تَتأخَّر من اليوم إلى غدٍ ، فلعلّك لا تُدرِكه .

ومّما يُنسَب إلى يزيدَ بن معاوية :

أقولَ لِصَحْبٍ ضَمّت الكأسُ شَمْلَهمْ ... وَدَاعِي صَبَاباتِ الهوى يترنّمُ
خُذُوا بنصيبٍ من نعيمٍ وَلَذّةٍ ... فكلٌّ وإنْ طالَ المَدَى يتصرّمُ
ولا تَتْرُكَنّ الأُنسَ يوماً إلى غدٍ ... فرُبّ غدٍ يأتى بما ليس تَعلَمُ

ويقولون فى المثل أيضا : «غداً غَدُها إن لم يعقنِى عائِق»[٦] ، والهاء كِناية عن الفَعْلة ، أى غدا غدُها إن لم يحبسنى حابس .

ومن كلام مولانا القاضى الفاضل رحمهُ الله تعالى : والمقدور كائن ، والهمّ فضل ، والمعنَّى من سَخِط على الأقدار ، وَيُقلّب اللهُ اللّيلَ والنّهار ، إن دار الفلك ، فعَليك أو فَلَك ، لا حذَر مِنْ قدَر ، ولا ملام على الأيّام .

هى المَقاديرُ تجرِى فى أَعِنّتِها ... فاصبرْ فليسَ لها صبرٌ على حالِ

---

(١) الميدانى ١ : ٣٠ .   (٢) الميدانى ٢ : ٤١٦ .   (٣) الميدانى ٢ : ١٢ .
(٤) الميدانى ٢ : ١٨٢ .   (٥) الميدانى ٢ : ٣٨ .   (٦) الميدانى ٢ : ٦١ .

لا تَسألِ الدَّهرَ فى بأساء يكشفها ولو سألْتَ دوامَ البُؤْس لم يَدُمِ

إذا عَقَدَ القَضاءُ عليكَ أَمْراً فليس يَحُـلُّه إلاَّ القَضـاءُ

وفى المقادير ما يُبطل التقدير ، ومع اليومِ غد ، واُصْبرْ فإنَّ الدهر لا يَصبِر ، قد يتجلّى المكروه عمّا يُحْمَد . انتهى .

ولـكلِّ أجلٍ كتاب ، لفظُ القرآن العظيم . والأجل مُدَّةَ الشيء ، ومعناه لـكلِّ شيء أَجلٌ مكتوب ، وأوقاتٌ محْدودة ، أو لـكل أجلٍ أجّله الله كتاب أثبته فيه ، لا يتقدم عن وقته ، ولا يتأخَّر .

وقيل : هذا من المقلوب الّذى جاء فى القرآن ، ومعناه لـكلِّ كتابٍ أجلٌ ينزل فيه ، كقوله تعالى : ﴿وَجاءَتْ سَـكْرَةُ الْمَوْتِ بالْحَقِّ﴾[1] وإنّما هو : « وجاءَ الْحَقُّ بسَـكْرة الموت » ، وكقوله تعالى : ﴿ فَـكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[2] ، وهو كثيرٌ فى القرآن .

وما أحسنَ قولَ السِّراج الوَرّاق ، ومن خَطّه نَقَلْتُ :

أَرَانِى بطيئـاً إذا ما كَتَبْتُ وقد خُلِقَتْ طِينَتِى مِن عَجَلْ
كأنّىَ خالَفْتُ نصَّ الـكتابِ فعِنْدِى لـكلّ كتابٍ أَجَلْ

وقولهم فى المثل : «اليومَ خمر ، وغداً أَمْر»[3]. أوّل من قاله اُمرؤ القيس . كان حُجْر أبو[4] اُمرئِ القيس قد طرد اُبنَه هذا لشعرِه وغزَله ؛ لأنَّ الملوك كانوا يأْنفون من ذلك ، فلَحِقَ اُمرؤُ القيس بأرضِ اليمن ، ولم يَزَلْ بها حتّى قتل بنو أَسَد بن خُزَيمة حُجْراً ، فجاءه الأعْوَر العِجلىّ فأخبره بمقتل أبيه ،

---

(١) سورة ق ١٩ . (٢) سورة النجم ٩ .
(٣) الميدانى ٢ : ٤١٧ . (٤) ط : « أبا » ، وهو خطأ .

فقال: «ضيَّعني صغيراً، وحمَّلني دمه كبيراً، لا صحو اليوم، ولا سُكْر غداً، اليومَ خمر، وغداً أمر». ثمّ شرب سبعة أيَّام، ولمَّا أصبح فى اليوم الثامن ارتحل، وقام يسعى لأخذ الثأر.

وما أحسنَ قول شمس الدين محمّد بن العفيف التِّلِمْسانىّ:

قالوا غداً تندم من لَثْمةٍ ... فى ثغره إذْ يغلب السُّكْرُ
فقال لى مَبْسمهُ: دَعْهمُ ... اليومَ خَمْرٌ وغداً أَمْرُ

وما أحسنَ قولَ ابن الحجاج:

يا صاحبيَّ ذرَا لَوْمِي وَمَعْتَبَتِي ... قُمْ نَصطبحْ خمرةً من خير ما ذخروا
وبادِرَا غفْلَةَ الأيَّامِ وَاغتنِمَا ... فاليومَ خَمْرٌ وَيَبْدُو فى غدٍ خَبَرُ

وقال ابن طباطبا:

يا مَن يخافُ أنْ يكو ... نَ، ما يكونُ سَرْمَدا
أَمَا سَمِعتَ قولهم: ... «إنَّ مع اليومِ غدا»

وما أحسن قول معن بن أوس المزنىّ:

وإنّى أخوكَ الدائمُ العهدِ لم أحلْ ... أن ابزاك خصمٌ أو نبابك منزلُ
وإن سؤْتَنِي يوما صفحتُ إلى غدٍ ... ليعقِبَ يوما منك آخرُ أوّلُ

وقول علىّ بنِ الجَهْم لمَّا حبسه المتوكّل من أبيات:

صبراً فإنَّ اليومَ يعقبُه غَدُ ... وَيَدُ الخلافة لا تُطاوِلُها يَدُ (١)
ولكلِّ خيرٍ مُعقِبٌ ولرُبَّما ... أَجْلَى لكَ المكروهُ عمَّا يُحْمَدُ
لا يُؤْيسنَّكَ مِنْ تفرُّجِ كُرْبَةٍ ... خَطْبٌ رَماكَ به الزّمان الأنكدُ
كم مِن عليلٍ قد تخطَّاه الرَّدَى ... فنجا، وماتَ طبيبُه والعُوَّدُ

(١) ديوانه ٤٥.

وقال غَيْلان بن خَرَشَة الثَّقَفِيّ :

أناةً وحِلْمًا وانتظاراً بهمْ غداً فما أنا بالواني ولا الضَّرَع الغَمْرِ
أظُنُّ صُروفَ الدَّهرِ بيني وبَيْنَهمْ ستَحملهم منّى على مَرْكَبٍ وَعْرِ
ألم تَعلَموا أنّى تُخافُ عزائمى وأنّ قَناتى لا تَلين على القَسْرِ
وإنّى وإيَّاهمْ كمَن نَبَّه القَطا ولو لم تُنَبِّه باتَت الليلَ لا تَسرى

وقول ابن مُقْبِل :

خليلَىَّ لا تَستعجِلاَ وانظُرَا غَدا
على أن يكون المُكْثُ فى الأمرِ أرشَدا(١)

وقال الأمير تميمُ بنُ المُعِز :

إنّ الأمورَ إذا اشْتَدَّت مَفاقِدُها يُفرِّج اللهُ منها كلَّ ما وَرَدَا(٢)
كذلك الدَّهرُ إنْ جاءت فَوادِحُه فى اليوم فارجُ لها ألاَّ تَدُومَ غدا

وقول منصور بن الحاكم أبى منصور الهَرَوِىّ :

لا تُعاتِبْ زَمانَنا إنْ عَرانَا جَفاؤُهْ
شِدَّةُ اللهِ تنقضِى ثمّ يأتى رَخاؤُهْ
كَدَر العَيْشِ للفتَى يقتضيه صفاؤُه
وكذا الماء يسبق الصفْوَ منه جَفاؤُهْ

وقول البُحْتُرِىّ :

يسرُّك الشيء قد يَسوءُ وكمْ نَوّه يوماً بخاملٍ لَقَبُهْ(٣)
لا ييأسِ المرء أن يُنجِّيَه ما يَحسَب الناسُ أنّه عطَبُهْ

* * *

(١) ديوانه ٦ . (٢) ديوانه ١٠٠ . (٣) ديوانه ١ : ٣٢ .

٢٣ — وقوله : لَهُ الحمدُ على اهتبالِه ، وَلا عَتْبَ عليه فى إغْفالِه .

الحمد نقيض الذمّ ، وقيل : إنَّ الفرق بين الحَمْد وَالشُّكر أن الحمدَ يكون فى الخير والشرّ ، والشكرَ لا يكون إلاَّ فى الخير فقط ؛ لأنَّه ورد أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا جاءه مايُحبُّه قال: « الحمد لله على نِعمه » ، وإذا جاءه مايَكْرَهه قال : « الحمد لله على كلّ حال » .

والاُهتبال : الاُغتنام والاُفتراص والاُحتيال ؛ واهتَبَلْت غفلتَه ، أى تحيَّنْتُها واُغتَنَمْتُها ، والهبّال : الصيّاد الّذى يتحيَّنُ الصَّيْد .

والإغفال مصدرَ أغفَلَه ، أغْفلْتُ الشىء ، إذا تركته على ذُكرٍ منك ، أخذَ يحْمَده على إبطائِه عنه ، وعلى تلَبُّثِه فيما يطلُبه منه ، قال الفرزدق :

وإنّى وَسَعْدا كالحُـوارِ وَأُمّه إذا وَطِئَتْه لم يضرْه اعتمادُها[١]

وما أحسنَ قولَ المجنونِ ـ وقيل لإبراهيم بن العبَّاس :

تَطَلَّعُ مِن نفسِى إليـكَ نَوازِعُ
عَوارِفُ أنَّ الناسَ منك تُصيبُها
وزالَتْ زوالَ الشَّمسِ عن مستقرِّها
فَمَنْ مُخْبِرِى فى أىِّ أرْضٍ غُروبُها
حَلالٌ لَليْـلَى أن تَرُوعَ فُؤادَهُ
بهجْرٍ ومغفورٌ لَليْلَى ذُنوبُهـا

وقال آخر :

إنْ أَمُتْ وَجْداً فلِى قَـدَمٌ بى إلى حَتْفِ الهَـوَى سَبَقَتْ
أو تُرِقْ تِلْكَ اللحاظُ دَمِى فهىَ فى حِـلٍّ وفى سَعَةٍ

(١) ديوانه ١ : ٢١٦ ، واعتمادها ، أى اتكاؤها عليه . والحوار : الفصيل أول ما ينتج .

وما أحسنَ قول البهاء زُهَير :

ومن شغَفِي فيكم ووجدىَ أنَّنى   أهـوِّنُ ما ألْقاهُ وهْو هَوانُ[(١)]
ويَحسنُ قبحُ الفِعل إن جاءَ مِنكمُ   كما طابَ ريحُ العُود وهو دُخانُ

وقوله أيضا :

أبدًا أزيدُ مع الوِصالِ تلهُّفاً   كالعِقْدِ في جِيدِ المَليحةِ يَعلَق[(٢)]
ويَزيدُنى كَلَفا فأشكُرُ فعلَه   كالمِسْكِ تَسْحَقُه الأكفُّ فيَعْبَق

وقول الرشيد محفوظٍ العراقىّ مِمَّا يُقارِب هذا :

فرّقَتْ بيننا الحوادثُ لكنْ   لىَ نَفْسٌ إليكمُ أُدْنيها
فكأنّ فى الفؤاد فأرَةَ مِسْكٍ   أفرَغوها ونفحَة الطِّيب فيها

وذكرتُ أنا ما قلتُ هنا فى هذا المعنى ، وهو :

مَن منصِفِي مِن زمانٍ قد منيتُ به   فقد غَدَوْتُ بما ألْقاه منه لَقَى
يَضُوع عَرْف اُصطِبارى أن يضيّعَنى   والعُود يَزْداد طِيباً كلَّما احْتَرَقا

وقال الأمير محمّد بن قرطاى الإرْبِلِىّ :

أمَا واُشتياقِى عند حضرةِ ذِكرِكُمْ
وذا قَسَمٌ أن لو تَعلَمونَ عَظِيمُ
لَأنتمْ وإن عذّبتُمونى بهَجْرِكمْ
على كلّ حالٍ جنّـةٌ ونعيمُ
سَلِمتمْ من الوَجْد الّذى بى علَيْكمُ
ومِن مهجةٍ فيها أَسًى وكُلومُ

---

(١) ديوانه ١٥٥ .   (٢) ديوانه ١٠٢ .

فلا ذقتمُ ما ذقتُ منكمْ فلِي بكمْ
رَسِيسُ غَـرامٍ مقعِـدٌ ومُقيمُ

وقال مؤيّد الدَّولة أُسامة بنُ مُنقِذ :

إذا أَدْمَتْ قَوارِصُكمْ فؤادِى صبرْتُ على أَذاكُمْ وانطوَيْتُ
وجئتُ إليكمُ طَلْقَ المُحَيَّـا كأنّى ما سَمِعتُ ولا رأَيْتُ

٭ ٭ ٭

٢٤ — وقوله :

فإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الّذِى ساءَ واحِداً فأفعالُه اللاّئِى سَرَرْنَ أُلوفُ

أخذَ فى تأييد ماتقدّم مِن حمده له ، وصبرِه على إبطائه ، فقال : وإن كان هذا الفعلُ الّذى تأتيه فى هذه الفَتْرة واحداً ، فلكَ أفعال قد سَرَرْنَ وهى أُلوف ، فلا عِبرةَ بهذا الفِعل الواحد الّذى ساءَ مع اعتبار الأفعال السارَّة وهى ألوف .

وهذا البيتُ لأبى الطيّب ، من أبياتٍ كَتَب بها إلى أبى العشائر الحسين ابن حَمْدان يُعاتِبه على سببٍ جَرى عليه من غِلْمانه ، وهى :

ومنتسِبٍ عندى إلى مَن أُحِبُّهُ وللنَّبلِ حَوْلِي من يديْه حَفيفُ(١)
فهَيَّجَ مِن شوقى وما مِن مَذَلّةٍ جنَيتُ ، ولـكنَّ الـكريمَ أَلوفُ
وكُلُّ وِدادٍ لا يَدومُ على الأذَى دَوامَ وِدادِى للحُسين ضعيفُ
فإن يكن الفِعلُ الَّذى ساءَ واحداً فأفعـالُه اللَّائى سَرَرْن أُلوف
ونفسِى له نَفسِى الفداء لنفسِه ولـكنَّ بعضَ المالِـكين عَنيفُ

ومن هذه المادّة :

إذا ما صديقٌ أسـا مَرّةً وقد كان فيما مَضى مُجمِلا

(١) ديوانه٢ : ٢٩٢ ، وحفيف ، أى صوت يحف بى .

ذَكَرتُ المقدَّم مِن فِعلِه فلا يَنقصُ الآخِرُ الأوّلا

وقال الأديب أبو محمّد بنُ مالك المغربيّ من جملةِ رسالة كَتَب بها إلى ابن صُمادِح : ولئن أُعقِب يوماً من الدَّهر بحِرْمان ـ وحاشاه ـ فلقد سبق بمعروف ، ولئن ساءنى يوماً فِعلُه ؛ فأفعاله اللّائِى سَرَرْن أُلوف .

وهذا البيتُ الّذى استَشهَد به أُبنَ زَيدون فى رسالته ، يشبه قولَ القـائل :

وإذا المَليحُ أَتَى بذَنْبٍ واحدٍ جاءتْ محاسِنُه بأَلْف شَفيـع

وقال أبو البركات محمّد بن أحمد المِنْقَرىّ ، وعُرِف بالمؤيَّد :

ما ذِلّتى فى حُبِّكمْ وخُضوعِى عارٌ ، ولا شَغَفى بكمْ ببَديعِ
دِين الهَوَى ذلٌّ وجِسْمٌ ناحِلٌ وسُهادُ أجْفانٍ وَفَيضُ دمُوعِ
كم قد لحَانى فى هواكمْ لائمٌ فثَنَيْتُ عِطْفى عنه غيرَ سَميعِ
ما يُحدِث التّقبيحُ عندى سَلْوةً لـكمُ ولو جئتمْ بكلِّ فَظِيعِ
وإذا الحبيبُ أتى بذَنْبٍ واحدٍ جاءت محـاسنُه بألفِ شفيـعِ

٭ ٭ ٭

٢٥ ــ وَقوله : وَأعود فأقول : ما هذا الذنْبُ الّذى لَم يَسَعْهُ عفوُكَ ، وَالجهل الّذى لم يأتِ مِن ورائه حِلْمُك !

رجع بعد أن وَطّن نفسه فى مخاطبته على الصَّبر والأُنتظار ، التفاتاً منه إلى ما فى ضميرِه من بقايا العتب ، فقال يَستفهِم منه : ما هذا الّذى صَدَر منى ، حتّى إنّ عفوَكَ لَم يسعْه ، وهو صغير بالنّسبة إلى كبير عفوك ؛ وما هذا الجَهْلُ فى حقّى حتّى وَقَع ما وَقَع ، ولم يأتِ من ورائه حِلمُك وَعَقْلُكَ !

أمّا العفو فإنّه أمر نطَق به القرآنُ العظيم ، ووردَتْ به السُّنّة ، وحثَّ عليه عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾(٣) . والآياتُ في هذا كثيرة .

وممّن قدَر وعَفا ، وصفّ لآلىء غُفْرانِه وصفَا ، سيِّدُنا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، لأنّ أهلَ مكّة كانوا يؤذونه في نفسه ، ويقصِدون نكايتَه في أهلِه ، قتلوا أعمامَه ، وعذّبوا أصحابه ، وألّبوا عليه ، وأخرجوه مِن أحبِّ البِقاع إليه ، حتى إذا فتَحها الله عليه ودَخَلها بغيرِ حَمْدِهم ، وظهرتْ كلمتُه بها على رَغْمِهم ، قام فيهم خطيباً ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، وشكَره على ما منحه من الظّفَر ، ثمَّ قال : أقول لكمْ كما قال أخي يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾(٤) .

وعن عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ عَلَيْك من يوم أُحُد ؟ قال : لقد لقيتُ مِنْ قومك ، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهمْ يومَ العقَبة ، إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبدِ ياليل [ابن عبد كُلال] ، فلَمْ يُجِبْني إلى ما أرَدْت ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلَمْ أستَفِقْ إلاّ وأنا بقَرْن الثعالب(٥) ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال : إنَّ الله قد سَمِعَ قولَ قومك لك ، وما رَدُّوا عليك ، وقد بَعَثَ إليكَ مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم . قال: فناداني ملَكُ الجبال ، فسلّم عليَّ ثم قال : يا محمّد ، إنَّ الله قد سمع قولَ قومِك لك ، وأنا مَلَكُ الجبال ، قد بعثني ربُّك إليكَ لتأمُرَني بأمرك

(١) الأعراف ١٩٩ (٢) الحجر ٨٥
(٣) آل عمران ١٣٤ . (٤) يوسف ٩٢ .
(٥) قرن الثعالب ، من مواقيت أهل نجد، وفي الأصل: «قرية» ، وصوابه من صحيح مسلم .

[فما شئت][1] ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخْشَبين[2]؛ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : بل أرجو أن يَخرُج من أصلابهم مَن يَعبُد اللهَ وَيُوَحِّده ، ولا يُشرِكُ به . متّفقٌ عليه[3] .

وعنها رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم شيئاً قطُّ بيَدِه ، ولا امرأةً ، ولا خادماً إلاَّ أن يجاهِد فى سبيل الله . وما نِيل منه شىءٌ قطّ ، فينتقِم من صاحبه ، إلاّ أن يُنْهكَ شىءٌ مِن محارم الله تعالى ، فينتقم الله تعالى . رواه مسلم .

وعن ابن مسعود قال : كأنّى أنظرُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، يَحكِى أنّ نبيًّا من الأنبياء صلوات الله وسلامُه عليهم ضربه قومُه فأدْمَوْه ، وهو يمسح الدّمَ عن وجهه ، ويقول : اللهمَّ اغْفِرْ لقَوْمى فإنَّهم لا يَعلَمون . متّفق عليه .

قيل لخالد بن صَفْوان : أىُّ إخوانِكَ أحبُّ إليك ؟ قال : الّذى يَسُدّ خَلَلى ، وَيَغفِرُ زَلَلى ، وَيقبَل عِلَلى .

حُكِىَ أنّ المأمون كان يوضِّئه غلامُه ، فغفَل عن شأنِه ، فنزلتْ المِيضأةُ من يده على جبْهتِه فشجَّتْه ، فنظر إليه المأمون مغضَباً ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ﴿والكاظِمِين الغَيْظ﴾ ، قال : كَظَمْتُ غَيْظِى ، قال : ﴿والعافِينَ عن الناس﴾ ، قال : قد عَفَوْتُ عنك ، قال : ﴿ واللهُ يُحِبّ المحسنين ﴾[4] ، قال : اذْهَبْ فأنْتَ حُرٌّ .

وقال عبد الله بنُ طاهر : كنتُ عند المأمون ثانىَ اثنين ، فنادى : ياغلام ، يا غلام ! بأعلى صوتِه ، فدخَلَ غلامٌ تركىّ فقال : لا ينبغى للغلام أن يأكل أو

---

(١) من صحيح مسلم .
(٢) الأخشبان : جبلان بمكة .
(٣) صحيح مسلم ١٤٢٠ .
(٤) آل عمران ١٣٤ .

يَشرَب، أو يتوضأ أو يصلّى! كلّما خرجْنا مِن عندِك تصيح: يا غلام، ياغلام! إلى كم ياغلام، ياغلام! فنكّس المأمون رأسه طويلا، فما شككْتُ أنَّه يأمرنى بضَرْب عُنقه، فقال: يا عبدَ الله، إنَّ الرجلَ إذا حسنتْ أخلاقُه ساءت أخلاقُ خَدَمه، وإذا ساءتْ أخلاقُه حَسُنَتْ أخلاقُ خدمه، ولا نستطيع أن نُسيء أخلاقَنا لتحْسُن أخلاقُ خدَمِنا.

وقال المأمون: لقد حُبِّب إلىَّ العفوُ، حتّى لقد خِفْتُ ألاَّ أُوجَرَ عليه.

قلتُ: لعلّه أَخذ هذا من قولِ أبى تمّام من قصيدةٍ مَدَحه بها، جاء منها:

لو يَعلَمُ العافُون كم لك فى النَّدى ... مِن لذَّةٍ أو فَرحةٍ لم تُحْمَدِ(١)

وقال ابن الخيَّاط الدِّمَشْقىّ:

من الكاظِمِى الغَيْظ والمُحْسِنينَ ... إذا بَرَّحَتْ بالصُّدورِ الحُقودُ
فَمُتّ بجُرمٍ إلى عفوه ... يَنَلْكَ مع العفوِ برٌّ وَجُودُ
إذا كنتَ سيِّدَ قومٍ ولم ... تَسَعْهُم بحِلْمٍ فأنتَ المَسودُ

وما أحسنَ قولَ مسلمِ بن الوَليد فى الرَّشيد:

بأبى وأمِّى أنت ما أَندَى يَداً ... وأبرَّ ميثاقاً وما أَزْكا كَا(٢)
يَغدو عَدوُّك خائفاً فإذا رأى ... أَنْ قد قَدَرْتَ على العِقابِ رَجاكا

وما أحسنَ ما كتَب به ابن عمّار إلى المعتمِد بن عبّاد يَستعطِفه:

سَجاياكَ إن عاتبتَ أَنْدَى وأسمَحُ ... وعُذْرُك إنْ عاقبتَ أنْدَى وأَوْضَحُ
وإن كان بينَ الخُطّتيْنِ مِنه مَزِيَّةٌ ... فأنتَ إلَى الأدْنَى مِن الله أَجْنَحُ
حَنانَيْكَ فى أَخذِى برأْيِكَ لاتُطِعْ ... عِداتِى وإن أَثْنَوا علىَّ وأَفْصَحُوا
فإنَّ رجائى أنّ عندكَ غيرما ... يَخُوضُ عدوِّى اليومَ فيه ويَمْرَحُ

---

(١) ديوانه ١١٣ - بيروت . (٢) ديوانه ٣٣١، وبينهما ثالث

ولمْ لا وقد أسْلفتَ وُدًّا وحُرْمةً ... يَـكرّانِ في لَيلِ الخُطوب فيَصْبَح
وهَبْني وقد أعقبتُ أعمالَ مُفسد ... أما تُفسَد الأعمال ثمّت تصلحُ!
وماذا عَسَى الأعداء أن يتزيَّدوا ... سِوَى أنَّ ذَنبي واضحٌ متضحضِح
نعمْ لىَ ذنبٌ غيرَ أنَّ لِحلْمِـه ... صَفاةً يَزِلُّ الذَّنب عنها فيَنزِحُ
أَقِلْنى بما بَيْنِي وَبينْك من رِضًا ... له نحو بابِ اللهِ رَوحٌ مفتّح
ولا تلتفتْ قولَ الوُشاةِ وزُورهمْ ... فـكلُّ إناء بالّذى فيه يَنْضَحُ
وقالوا سيَجْزِيه فلانٌ بِسَعْيِه ... فقلتُ وقدْ يَعْفُو فلانٌ ويصْفَحُ
ألا إنَّ بَطْشًا للمؤيّد يُتَّقَى ... ولـكنَّ حِلْما للمؤيّد أرجَحُ

وما أحسن ما وَصَفَ به الحِلْمَ أبو تمَّام فى قوله:

رقيقُ حَواشِي الحِلْمِ لو أنَّ حِلْمَهُ ... بِكَفَّيْكَ ما مارَيْتَ فى أنه بُرْدُ(١)

وقال محمَّد بن غالب الرُّصافىّ من أبيات:

كنا إلى المَلأ الأعْلَى بِنِسْبَتِه ... لو ناسب المَلأَ العلوِىَّ إنسانُ
يُغضِى عن الذنب عَفْواً وهُو مُقْتَدِرٌ ... ويَتْرُك البَطش حِلْماً وهو غَضْبانُ

وقال أبو الفرج الببغاء:

أعِدْهَا إلى عَادات عَفْوِك مُحسناً ... كما عوّدَتْها قبلُ آباؤك الشُّمُّ
فإنْ ضاقَ عنها العُذْرُ عندَك فى الذى ... جنتْهُ فما ضاقَ التفضُّلُ والحِلْمُ

وقال أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الخازن:

وأحْسِنْ إنّنى أَحسنتُ ظَنًّا ... وأرجُو أنَّ ظَنِّى لا يَخيبُ
فأيّةُ طَرْبةٍ للعفو إنّ الـ ... ـكَرِيمَ وأنتَ معناهُ طَرُوبُ

---

(١) ديوانه ١٢١ ــ بيروت، وفى ط: «لو أن حلمه».

وكان الأحنفُ بنُ قيس يقول : لا شيء أثقل من حمل الغضب .

وقال الجاحظ : قيل لأبى عباد وزير المأمون ـ وكان أسرع الناس غضباً : إنَّ ابنَ لقمانَ قال لأبيه : ما الحمل الثَّقيل ؟ قال : الغضب . قال أبو عبّاد : لكنّه والله أخفُّ من الرِّيش ، فقيل له : إنّما عنَى لقمانُ أنّ احتمالَ الغضب ثقيل ، فقال : لا والله ما يَقوَى على احتمال الغَضَب إلاَّ الجمل .

وقال زياد : تأخير جزاءِ المُحسن لؤْم ، وتعجيلُ عُقوبة المُسيء دَناءة ، والتثبُّتُ فى العقوبة ربما أدَّى إلى السَّلامة منها ، وتأخيرُ الإحسان ربما أدَّى إلى نَدَم لم يمكن صاحبَه أن يتلافاه .

حدَّث أبو هُرَيرة الشاعر المصرىُّ ، قال: خرجتُ يوماً إلى بِرْكة الحَبَش بمصرَ متنزِّهاً فى أيَّام الرَّبيع ، حين أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنتْ ، ومعى آنيةُ شراب ـ وكانت تلك عادتى فى كلِّ سنة ـ فجعلتُ أشرَب وأنادِم كتّابى طولَ يَوْمى ، فلمَّا كادت الشمسْ تغرُب وتلمعَ فى أجنحة الطير ، أخذتُ فى الانصراف إلى منزلى وأنا ثمِل ؛ فبينما أنا أمشِى وإذا بفارسٍ خَرَج من مصرَ متلثِّماً ، لا يبينُ من وَجهه غير عَينَيْه ، فسلَّم وقال : من أينَ أقبَلَ الشيوخ ؟ فقلتُ فى نفسى : أجُنَّ الرَّجل ! ومن يرى معى ؟ والتفَتُّ وإذا خلْفى ذَوْدُ تُيُوس وراعٍ يَسُوقه ، فقلتُ : حضرنا إمْلاك[1] الوالدة ، يرْحمك الله ! فضحَك وانصرف .

ولمَّا كان بعد أيَّام دخلت على الأمير تكين فى حاجة ، فقضاها وأمَرَ لى بألف دِرْهم ، وقال لى : هذا حقُّ حضورك ذلك الإملاك ، فقلت : إنه الَّذى لقِيَنى ذلك اليوم ، فأخذتُها وانصرفتُ خَجِلا .

وحكى محمد بنُ أزْدَشير قال : كنت بالشِّيرجان[2] مع الوزير أبى غالب الحسنِ بن منصور ، الملقَّب بذى السَّعادتين ، فاتَّفق أن شربتُ عنده يوماً

(١) الإملاك : التزويج . (٢) الشيرجان : قصبة كرمان .

فسكرْت سُـكراً ، فسقطتْ معه سُفْتجتى[(١)] من كمىّ ، وفيها رقاعٌ قد أعطانيها أربابُها لأُنجِّز عليهم توقيعات ، ومِن جُملتها رُقْعتان بخَطِّى ، قد كتبتُ في أحدِهما :

يا قليلَ الخيرِ مَوْفُورَ الصَّلَفْ والَّذى في البَغْى قد حازَ الشَّرَفْ
كُنْ لَئِيما وتَواضَعْ تُحْتَمَلْ أو كريماً يُحتَملْ منك الصَّلَفْ

وفي الأخرى :

ياقارِعَ البابِ على عبدِ الصَّمَدْ لا تَقرَعِ البابَ فما ثَمَّ أَحَدْ

فأخَذَ السُّفْتجة وفتحها ، ووَقَف على الرِّقاع بجميعِ مافيها ، ووقَّع على الرُّقعةُ التي فيها البيْتان : «يُطلقَ له ألفُ دِرهم» ، وعلى الأخرى التي فيها البيت الواحد : « يوجب له كلّ شهر ألف درهم ، من اتِّصال الشهر الَّذى نحن فيه » ، وردَّ الجميع إلى السُّفتجة ، وجعَلَها في كمّى ، وأصبحتُ من الغَداةِ ولا علم لى بما جرى ، فاستَدْعانى إلى الطعام وقتَ الظّهر ، فلم يرَ عندى أثرًا لفَعْلته الّتى فَعَلها ، وأنا من الضّالين ، ولا سمع منّى شُكْراً على الصَّنيعة ، فقال لى : وقفت على الرِّقاع ؟ فقلت : لا ، أيُّها الوزير ، ثم ذكرتُ ما كان في الأوراق فتصبَّبْتُ عرَقا ، واشتَغَل قلبى لِما وُجِد فيها بخَطِّى ، فنهضتُ إلى الرِّقاع وتأمّلتها ، وعدتُ إليه وشكَرْتُه ، واعتذرتُ ممّا وجد ، فقال : لا تعتَذِر ، فإنّا نستحقّه إن لم نقض واجبا ، ولم نَرْعَ صاحبا .

* * *

(١) في القاموس : « السفتجة أن يعطى مالا لآخر وللآخر مال في بلد المعطى فيوفيه إياه ثم فيستفيد أمن الطريق » .

٣٦ — وَقوله : وَالتَّطاوُل الّذِى لم يَسْتَغْرِقه تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحامُلُ الّذِى لَمَ يَفِ به احتِمَالُكَ !

التطاوُل : تفاعُلٌ من الطُّول ، وهو ضدُّ العَرْض . يَستغرق : يَستفعِل ، من الإغراق . والتطوّل تفعُّل من الطَّوْل بفتح الطاء ، وهو المَنُّ والفَضْل . والتحامُل ، « تفاعُل » من الحمل ، تقول : تحمّلت على نفسى ، أى تكلَّفت الشيء على مَشَقَّة .

لم يَفِ به ، لم يقُم به ، والاحتمال : مصدر احتَمل ، إذا تكلَّف فوق طاقته وقدرته .

يقال : إنَّ العجَّاج دخل على عبدِ الملك ابنِ مَرْوان ، فقال له : بلغنى أنَّك لا تُحْسن الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَن قدر على حُسْن تشييدِ الأَبنِيَة أمكنَه خراب الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إنّ لنا عِزًّا يمنعنا من أن نُظلَم ، وحِلْماً يمنعنا أن نظلِم . فقال: لَكلماتُك هذه أحسَنُ من شِعْرِك .

استأصَلَ الحجّاجُ بالقَتْل أُسارَى ، فقال أحَدُهم : واللهِ ياحَجّاج لئن كنّا أسأْنا فى اقتراف الذَّنْب لَما أحسنتَ أنت فى ترك العفو ، فقال : أُفٍّ لهذه الجِيَف ! أما كان فيهم من يُحسِن مِثلَ هذا : وأمسَكَ عن قَتْلِ الباقين .

ومن الاُحتمال ما وَرَد فى قضيّة العبَّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ ، لمّا أعطاه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أربعين من الإبل ، وأَعطى المؤلَّفَة قلوبهم خمْسمائةً من الإبل ، فقال العبَّاس :

أَتجْعَلُ نَهْبِى وَنَهْبَ العُبيـ ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ (١)

(١) اللآلى ٣٣ .

وما كانَ حِصْنٌ ولا حابِسٌ يَفُوقانِ مِرْداسَ فى مَجْمَعِ

العُبَيد : فرَسُه ، وحِصْن هو أبو عُيَيْنَةَ بن حِصْن بن حُذَيفة بن بدر ، سيِّد فَزارة ، وحابِس : أبو الأقْرع بنِ حابس ، فأمَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بإحضاره ، وقال : أنت القائل : « أتجْعَل نَهْبي وَنَهْبَ العُبيدِ بينَ الأقْرَع وعُيَيْنَةَ » — وكان صلّى الله عليه وسلّم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾[1] — ياعليّ ، قُمْ فاقطع لسانه ، فقال العبّاس : وإنّك لقاطِعٌ لسانى ! قال : إنّى لمُمْضٍ فيكَ ما أُمِرْتُ به ، قال : فمضى بى حتى أدخلنى الحظائر ، وقال : اعتدّ ما بين أربعين إلى مائة ، قال : فقلت : بأبى أنت وأمّى ! ما أعلمَكم وأحلَمَكمُ وأحكمَكم وأكرَمَكم ! فقال : إنّ رسول الله أعطاك ، وجعلك من المهاجِرين ، فإن شئتَ نخذها ، وإن شئتَ خُذْ مائة ، وكن مع المؤلَّفة ، فقال : أشر عليّ ، فقال : إنى آمرك أن تأخذ ما أعطاكَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأخذتها .

واحتمال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهور إلى الغاية ؛ معروفٌ مشهور .

* * *

٢٧ — وقوله : وَلا أَخْلو من أن أكونَ بريئًا فأينَ عَدْلُك ، أو مُسيئًا فأينَ فَضْلُك !

لا أخلُو : لا أكون خاليًا من أحَد القسمين : إمّا بَرِيئًا مِمّا رُميتُ به ، فأين كان عدْلُك — والعدل ضدّ الجوْر — وإمّا مُسيئًا فأين كان[2] فَضْلُك ! والفضلُ ضدُّ النّقص ، وهو الاتّصاف بالمحامد ، وهذا ألزم للمخاطب بأن يعترف له بأحد القسمين . وهذا هو الذى يسمّيه أربابُ البَديع صحّةَ التّقسيم ،

---

(١) سورة يس ٦٩ .

(٢) ساقط من ظ .

وقد جاء منه فى القرآن العظيم قوله تعالى : ﴿ هو الّذى يُرِيكم البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾[١] ، فإنّه ليس فى البرق إلاّ الخوفُ من الصّواعِق ، أو الطّمع فى سُقْيا الغيْث .

وقال زُهَيْر :

فإنّ الحَقّ مَقْطَعُه ثلاثٌ يمينٌ أو شُهودٌ أو جِلاءُ[٢]

حتّى إنَّ عمرَ بن الخَطّاب رضىَ الله تعالى عنه لمّا سمع هذا قال : لو أدركْتُه لولّيْتُه القَضاء .

وما أحسنَ قولَ الإمام العلاّمة جمال الدّين بن الحاجبِ رحمه الله تعالى لمّا ادّعى فى مقدّمته أنّ الكلمة ثلاثة أقسام ، ولا رابعَ لها ، قال : لأنّها إمّا أن تَدُلَّ على معنًى فى نفسها أوْ لا ، الثانى الحَرْف ، والأوّل إما أن يَقترِن بأحدِ الأزْمِنة[٣] أوْ لا ، الثانى الاسم[٤] ، وهذا الّذى يسمّيه الأصولِيّون دليل السّبْرِ والتقسيم .

والإمام فخر الدين الرّازىّ فى هذا الباب أمرُه عجيب ؛ لأنّه إذا تكلم فى المسألة يَذكُر تقسيمها ، وتفاريعَ التّقسيم ، فلا يفوتُه بذلك شىءٌ من أحْوالها .

ولمّا قدم قُتَيبة خُراسانَ قال : من كان فى يدِه من مالِ عبد الله بنِ خازمٍ شىءٌ فلينبذه ، أو كان فى فيه فليلفظه ، أو فى صَدْرِه فلينْفِثْه ؛ فتعجّب الناس من حُسْن ما قسم وفصّل .

---

(١) الرعد ٢٢ .
(٢) ديوانه ٧٥ ، والجلاء : الأمر الجلى .
(٣) ط : « الأزمنة الثلاثة » .
(٤) بعدها فى د : « والأول الفعل » .

وقال رجلٌ من أهل الشام للمنصور : يا أميرَ المؤمنين ، من اُنْتقِم فقد شفا غَيْظَه ، ومن عفا فقد تفَضّل ، ومن أخذ حقّه لم يَجِب شُكره ، ولم يُذكر فضله ، وكظْم الغَيْظ حِلم ، والتشفّي طرف من العَجْز .

وقال بعض الكُتّاب لرئيسه ، وقد عَتَب عليه : إذا كنتَ لم ترضَ مِنّي بالإساءة ، فلمَ رَضِيتَ من نفسِك بالمكافأة !

وحدَّثَ الزّياديّ قال: تحدّث رجل من الأعراب ، قال : نزلت برجلٍ من طيّء فنحر لي ناقةً ، فأكلتُ منها ، فلمّا كان الغدُ نَحَر أخرى ، فقلتُ : إن عندك من اللحم ما يغْنِي ويكفِي ، فقال : إنّي والله ما أُطعِم ضيفي إلاّ لحما عَبِيطاً . قال : وفَعَل ذلك في اليوم الثالث ، وفي كلّ يومٍ آكُلُ شيئا ، ويأكُلُ الطائي أكلَ جماعة ، ثمّ يُؤتَى باللّبن فأشرب منه شيئا ، ويشربُ عامّة الوَطْب ، فلما كان في اليوم الثالث ارتقَبْتُ غَفْلته ، فاضطجع ، فلما امتلأ نوماً استقْتُ قطيعاً من إبله ، فأقباته الفجّ[1] ، فانتبه ، واختصر عليّ الطريق حتّى وقف في مَضيقٍ منه ، فألقم وَتَرَه فُوقَ سَهْمه ، ثم ناداني : لِتَطِبْ نفسُك عنها ، قلتُ : أرِني آيَةً ، قال : انظر إلى ذلك الضّبِّ ، فإنّي واضعٌ سَهْمي في مَغْرز ذَنَبِه ، فرماه فأندرَ[2] ذنبه ، فقلتُ له : زِدْني ، قال : فانظر إلى أعلى فَقارِه، فرماه فأثبتَ سَهْمه في الموضع ، ثم قال لي : الثالثة والله في كبِدك . قال : فقلتُ له : شأنك بإبلِك ! فقال : كلاّ حتّى تسوقها إليّ حيث كانت ، فلمّا اُستقْتُها قال : فكّرت فيك فلم أجدْلك عندي تِرةً تطالِبني بها ، وما أجِد أنّ الّذي حملك على أخْذِ إبلي إلاّ الحاجة ، قال : قلتُ : هو والله ذاك . قال : فاعمد إلى عشرين من خيارها[3] فخذها ، قال : فقلتُ : إذاً والله لا أفعل حتّى تَسمع مَدحَك ؛ والله ما رأيتُ رَجُلا أكرم ضِيافةً ،

---

(١) الفج : الطريق . (٢) أندر : قطع . (٣) د : « جيادها » .

ولا أهدى اسَبيلٍ ، ولا أرْمى كَفًّا ، ولا أوْسَعَ صدرا ، ولا أرْعَبَ خوْفا ، ولا أكرَم عفواً منك . قال : فاستَحيا وَصَرَفَ[١] وجهه عنّى ، ثمّ قال : انصرِف بالقَطيع [كلّه][٢] مُبارَكا لكَ فيه .

وأحسَنُ من هذا وأعجَبُ وأطرَبُ ، ما حكاه الوزيرُ سُليمانُ بنُ وَهْب ابن سعيد بن عمرو بن حُصَين ، قال : كنتُ قد نشأتُ بالحَضْرة ، وتصرّفت فى خدمة الخُلَفاء ، فلمّا تقلّدتُ مصر سِرْتُ إليها ، ووَالِيها محمّدُ بنُ خالد الصّرِيفينيّ ـ وكان فى غاية العَفافِ والنَّزاهة ـ فقبَضت عليه لمّا وصلت إلى مصرَ ، وكان قد بلغنى أنّ عنده ستّين بَغْلا من بِغالِ مصرَ المنتخَبة ، فطالبْتُه بإحضارها[٣] إلىّ فلم يَعترف لى بها ، وكان أكثرُ أهلِ مصرَ يَميلون إليه لِحسن سيرتِه ، فاجتهدت فى الكَشْف عليه والتتبّع ، فلم أقِفْ له على خيانة ولا ارتفاق ، فأقامَ فى حبسى مُدّة . ثمّ إنّ أخاه أحمد بن خالد الصّرِيفينيّ ، أصلَحَ حالَه فى الحَضْرة ، وكان متمكِّنا منها ، فأخَذَ العملَ لأخيه محمّد كما كان ، وأخذَ الكتُبَ إليه ، وسبق بها كلَّ خبر . فبعث محمّد بن خالد الصّرِيفينيّ إلىّ عند ذلك يقول : ما هذا ! قد طال حَبْسى ، وكشفت علىّ فلم تجد لى خيانة ، وأشتهى أن تحضِرنى مجلسك ، وتسمع حجّتى ، وتزيل السُّفراء بينى و بينك ، على أن نتّفق على أمر . فطمِعتُ فيه ، وقدّرتُ فى نفسى الإيقاع به ، فأمرتُ بإحضارِه ، فلمّا دخل رأيتُ من كثرة شَعْرِه ، ووَسَخِه وتأذّيه بالجُبّةِ الصُّوف والقَيْدِ ما غمّنى ، فأجلستُه بحضرتى وقلت : اُذكرْ ما تريد ، فقال : خَلْوة ، فصرَفْتُ الناس ، فأخرج إلىّ الكتابَ بالظَّرْف ، وقال : هذا كتابُ بعض إخوانك فاقرأه . فلمّا قرأتُه وددْتُ أنّ أمّى لم تَلِدنى ، وعرقتُ من فَرْقى[٤] إلى قدمى ، وأظلمت الدّنيا فى عينى ، ولم أشُكَّ فى لبسِ جُبّة الصّوف والقَيْد والمصير إلى تلك الحال . فلمّا قرأت الكتاب قمتُ إليه ، وجلستُ معه ، قال :

---

(١) د ، م : « وضرب » .
(٢) تكملة من م .
(٣) ط : « بإهدائها » .
(٤) ط : « قرنى » .

لا تشغَلْ قلبك ، وابعَثْ من يأخذ ما فى رجلى . ففعلت ، وأحضرت المزيّن ، فأخذ من شعره ، ودخل الحمّام وخرج ، وقال : هاتِ طعامك ، فتغدينا جميعا ، وأنا أنظر إليه وهو لا يكلّمنى بحرف فى العمل ، ثمّ قال لى : أتأذن لى بالانصراف؟ فقلت : ياسيّدى ، هذه الدار وما فيها بأمرك ، فقال : لا ، ولكن أنصرف السّاعةَ وأستريح ، وأغدو إليك . ومَضى ، نختم على الدّيوان وعلى ما فيه ، وسيّر إلى نوابى ، فأحضرَهم ، ووَكّل بهم ، وقال : ليس بك حاجةٌ أن تذكر لى شيئا من أمْرِ البلد ، فإنّى أحْفَظُه وأعرفه ، وقد صار إليكَ من البلد كذا وكذا ، فأحضر الجَهابِذةَ وأمُرْهم بتسليم ذلك إلىّ — وأحضَر لى البغال الّتى كنت طلبتُها منه وأنا لا أفتح الدّيوان ولا أنْظُر فى شىء من أحواله — وأنت فى مصرَ ، فانصرف فى حِفْظِ الله ، وفى كَلاَءته . ثمّ إنّه خرج معى مشيّعاً ، نخرجتُ وأنا منْ أشكرِ النّاسِ له ، وأشدّهم حياءً منه ، لما عاملتُه به ، وما عامَلنى به .

وقال إبراهيم السراق(١) ، مولى أبى المهلَّب :

هبينى يامعــــذّبتى أسأتُ ... وبالهجران قبلـــــكمُ بدأتُ
فأينَ الفضل منكِ فدَتكِ نفسى ... علىّ إذا أسأتِ كما أسأتُ

وهذا مأخوذ من قول الحماسى :

هَبينى ظَلُوما نِلْتِـــه بمساءة ... قِصاصاً، فأينَ الأخذُ ياعَزّ بالفَضْلِ !

ومن هذا البيت أَخَذ ابنُ زَيْدون ، وإياه حلّ .

وقال بعض الأقدمين :

هَبِينى امْرأً : إمَّا بريئاً ظَلَمتِه ... وإمَّا مُسِيئًا تابَ منه وأعتبا
أقولُ التماسَ العُذْر لمَّا ظلمتِنى ... وحمّلتِنى ذَنبا وما كنتُ مُذْنِبا
ليَهْنِكِ إشْماتُ العدوِّ بهجْرِنا ... وقطعُكِ حَبْلَ الوُدّ حتّى تقَضّبا

---

(١) « السواق » .

وقال بعضُ المحدثين :

فإن عاقبتَنى فبِسوءِ فِعْلى   وما ظَلمتْ عقوبةُ مُستَقِيدِ
وإنْ تغْفِرْ فإحسانٌ جَديدٌ   دعَوْتَ به إلى شكرٍ جديدِ

وقال آخرَ :

فَهَبْنى مسيئاً كالّذى قلتَ ظالما   فعَفْواً جميلا كَىْ يكونَ لكَ الفَضْلُ
فإنْ لم أكنْ للعَفْوِ منك لِسوءِ ما   أتيتُ به أهْلاً ، فأنتَ له أهْلُ

وقال البُحْترىّ من قصيدة :

أُقِرُّ بما لَمْ أَجْنِهِ متفضِّلا   إليكَ على أنّى إخالُكَ ألْوَمَا (١)
لِىَ الذنبُ معروفاً وإن كنتُ جاهلا   به ولكَ العُتْبَى علىّ وأنْعَمَا
وَمِثْلُك إنْ أبدَى الجميلَ أعادَهُ   وإن بدأ المعروف عادَ وتَمَّمَا

ومن كلام القاضى الفاضل : يا من أنا عبده ، السّيئة أنا معترِف بأنّى كسبتها ، والخطيئة قد أحاطت بى حكما ، وأحاط بها الناس عِلما ، وقد اُستوجبتُ نار غضبك ، وتثقيف أدبِك ، فإن عفوتَ فبحقّك ، فإنّك سيّدعاف، وإن عُوقبتُ فبحقّى لأنّى عبدٌ هاف ، فحا كِمْنى إليك ، ولا تحا كِمْنى إلىّ ، و[إن] أخطأتُ فاعْذِرْنى ، فإنّى ابنُ آدَم .

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٢٨ .

٢٨ — وقوله :

إلاَّ يكنْ ذنبٌ فعدلُكَ واسعٌ ... أو كان لى ذنبٌ ففضلكَ أوسعُ

إلاّ بكسر الهمزة ، أَصلُه « إنْ لا » ، مركّب من إن الشّرطيّة ، ولا النافية ، فأُدغمت النونُ فى اللام ، ولهذا جاءت الفاء فى الجواب فى قوله : « فعدلُكَ » . وهذا البيتُ من قول البحتريّ ، من قصيدةٍ أوّلُها :

شوقٌ إليكَ تفيضُ منْهُ الأدْمُعُ ... وجوًى عليكَ تضيق عنه الأضلُعُ

ومن هذه القصيدة قولُه :

يعتادُنى طَرَبى إليكَ فيغتلِى(١) ... وَجْدِى ويدعُونى هواكَ فأتبَعُ

وقال نُصَيب يمدَح مولاه المَهدىّ :

تَلمّستُ : هل من شافعٍ لى فلمْ أجِدْ ... سِوى رحمةٍ أعطاكَها اللهُ تَشفَعُ

لئن جلّت الأجْرام مِنّى وأفظَعتْ ... لَعَفْوُك عن جُرْمِى أجلّ وأوسَعُ

وقال إسحاق بنُ إبراهيم المَوْصلىّ للفضل بن الرَّبيع :

لاشىءَ أعظمُ من ذنبى سوَى أمَلى
في حُسْنِ صفحِك عن جُرْمى وعن زَلَلى
فإنْ يكن ذاوذا فى القَدْرِ قد عَظُما
فأنتَ أعظمُ مِن ذنبى ومن أملى

وما أحسنَ قولَ الشّريف أبى الحسن علىّ بن الحُسَين المُقْبِلىّ :

يا طاعِنِى بِعِتَابٍ كاد ينفُذنِى ... لو لم أكنْ لابسًا دِرْعًا من الأمَلِ(٢)

---

(١) ديوانه ٢ : ٧٥ .   (٢) ديوانه ٢٣٨ .

اخلَعْ علَيَّ جديداً مِن رضاكَ فقد
رقَعْتَ بالعُذْرِ ما خرّقتُ بالزَّلَلِ

وما أحسنَ قولَ الإمام الشافعيّ رضي الله عنه :

ولمّا قسا قلبي وضاقَتْ مَذاهِبي ... جَعلتُ الرَّجا ـ ربّي ـ لعَفْوِكَ سُلّماَ(١)
تعاظَمَني ذَنْبي فلمّا قرَنْتُه ... بعَفْوِكَ ـ ربّي ـ كانَ عفوُكَ أعظَماَ

وقول أبي نُواس :

يا ربِّ إنْ عَظُمَت ذُنوبي كَثرةً ... فلقد علِمْتُ بأنّ عفوَكَ أعظَمُ(٢)
إن كان لا يرْجوكَ إلا مُحْسِنٌ ... فمن الّذي يدعو ويرجو المجرم !

وكلٌّ هذا مأخوذٌ من قول الأوّل :

بني هاشمٍ عَفْواً ، عفَا اللهُ عنكمُ ... وإن كان ثوْبي حشوَ ثِنْيَيْهِ مُجرِمُ
لكُمْ حَرَم الرحمنِ والبيتُ والصَّفاَ
وجَمعٌ ، وما ضَمّ الحَطيمُ وزَمْزَمُ
فإنْ قلتمُ باءَ هتْنا بعظيمةٍ ... فأحلامُكم منها أجلّ وأعظَمُ

وأحسنَ الّذي قال :

اغتنِمْ زَلّتي لتُحرِز فَضْلَ الْـ ... ـعَفْوِ عنّي ولا يَفُوتكَ شُكري
لاَ تَكِلْني إلى التوسُّل بالعُذْ ... رِ لعَلّيَ ألاّ أقومَ بعُذْري

وقال إبراهيمُ بنُ المهديّ يخاطب المأمون :

فإنْ لا أكنْ أهلاً لما أنتَ أهلُه ... فأنتَ ـ أميرَ المؤمنين ـ له أهلُ
ففَضْلَكَ أرجُو لا البراءةَ إنه ... أبَى اللهُ إلاّ أنْ يكونَ لَهُ الفَضْلُ

---

(١) ديوانه ٥٩ . (٢) ديوانه ١٩٩ ، « وفيه فمن يلوذ ويستجير المجرم » .

وما أحسنَ قولَ السَّلامىّ :

تبسَّطْنـا على الآثامِ لمّـا رَأَيْنا العفْوَ من ثمرِ الذُّنوبِ

وقول ابن قَلاقِس :

وغيرُ عجيبٍ أن أُوفيكَ مُجرِماً أُنيب وأرجو في ذَراكَ مَتابَا [(١)]
فأَسبِلْ رِداءَ العفوِ منكَ تكرُّماً فحَسْبِيَ كونى غِبْتُ عنكَ عقابَا

وهو مأخوذٌ من قول الأوّل :

ارضَ لمنْ غابَ عنكَ غَيْبَتَهُ فذاكَ ذَنبٌ عِقـابُهُ فيهِ
لو لم يَنَلْه من العِقاب سِوَى بُعدِك عنه لـكان يَكفِيهِ

ولقد زاد ابنُ زَيدونَ في هذا المَقام ، وأفرَط فى الخضوع والتوسّل ، وما أحقَّه أنْ ينشِد قولَ المؤمَّل بن أميل :

إذا مَرِضْتُمْ أَتيْناكُمْ نَعودُكُمُ وتُذنِبون فنأتيكمْ ونَعتَـذِرُ [(٢)]

وقول محمّد بن عبد الله بنِ المولَى :

وَأَبكِى فلا لَيْلَى بكتْ من صَبابَةٍ لِذاكَ ولا لَيلى لِذِى الوُدّ تبذُلُ
وأَخضَع بالعُتْبي إذا كنتُ مذنِباً وإن أذنبتْ كنتُ الّذى أتوسّلُ

وما أحسنَ قولَ مُسلمِ بنِ الوَليد :

ويخطِئُ عـذرِي وجـهَ جُرْمىَ عِندَها
فأجني إليهـا الذَّنبَ من حيثُ لا أدرِي [(٣)]
إذا أذنبتْ أعـددْتُ عُـذْرا لِذَنبِها
وإن سَخِطتْ كانَ اعتذارِي من العُذْرِ

---

(١) لم أجدهما فى ديوانه . (٢) خاص الخاص ٩١ . (٣) ديوانه ٣٢ .

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

إذا رضيتْ لم يَهْنِنِي ذلك الرِّضا　　لصحَّة عِلمِي أنْ سَيَتْبَعُه عَتْبُ[(١)]
وَأبكى إذا ما أذْنبتْ خوفَ عَتْبِها　　فأسألُها مَرْضاتَها ولهَا الذنبُ

وقال أبو فِراسٍ بن حَمْدان :

وكَنَى الرَّسولُ عَنِ الجَوابِ تَظرُّفَاً
ولئن كَنَى ، فلقد علِمْنَا ماعَنَى[(٢)]
قلْ يا رسولُ ولاتُحاشِ فإنَّه　　لا بدّ منه أساءَ بى أم أحسَنَا
الذّنبُ لى فيما جَناهُ لأنَّنى　　مكّنْتُه من مُهْجَتِي فتمكّنا

قلتُ : مقتضَى الكلامِ كلّه أن يقول : « مكّنْتُه من مُهْجَتِي فتسَلّطا » أو فتحكّما ، أو فترعنّا ، وتركه لأجل القافية .

وما أحسنَ قولَ مِهْيار :

لا والّذى لو شاءَ لم أعتَذِرْ　　فى حُبّه من حيثُ لَمْ أُذْنِبِ[(٣)]
ما حدَرَتْ ريحُ الصَّبا بَعدَه　　أنسامَها عن نفَسٍ طَيّبِ

وما أحسَنَ قولَ البُحترىّ :

عَفا اللهُ عنكَ أما حُرمةٌ　　تعودُ بعفوِك أن أبعَدَا[(٤)] !
ألمْ ترَ عَبْدًا عدا طَوْرَه　　وَمَوْلًى عفا ورَشيداً هَدَى !
ومفسِدُ أمرٍ تلافيتَه　　فعادَ فأصلحَ ما أفسَدَا
أقِلْنى أقالَكَ مَن لم يزَلْ　　يَقيكَ ويَصرفُ عنك الرَّدَى

---

(١) ديوانه ١٩
(٢) ديوانه ٤٠٣ .
(٣) ديوانه ١ : ٧٦
(٤) لم ترد هذه الأبيات في ديوانه

وقوله أيضا :

إنَّ دونَ السُّؤالِ والإعتذارِ خطّةً صَعبةً على الأحرارِ (١)
فارضَ للسّائلِ الخضُوعَ وللمُذْ نبِ ذَنْبا فَضَاضةَ الإحْتقارِ
واستعِذْ منهما فبئْس المَقاما نِ لآلِ العُقولِ والأخْطارِ

* * *

٢٦– وقوله : حنَانَيْك قد بَلغ السَّيْلُ الزُّبَى ، ونَالني ما حَسْبي بِهِ وَكَفى .

حنانَيْكَ : تَثْنِيةحَنان ، وهوالرَّحمة ، يقال : حَنَّ عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَحَنانًا من لَدُنّا ﴾ (٢) ، أى رحمةً من عندنا ، وذكر عِكْرِمة عن ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما أنه قال : ما أَدْرِى ما الحنان ؟ وقولهُم : حَنانَيْك ، أى حَنانًا بعد حنانٍ ، وهو نصبٌ على معنى « نطلب » ، والعرب تقولُ : حَنانَيْك يا ربّ ، أى نطلبُ رحمتَك .

قال امرؤُ القيس :

وَيمنحُها بنو شَمَجَى بن جَرْمٍ مَعيزَهُمُ .. حَنانَكَ ذا الحنانِ (٣)

وغالبُ ماجاء فى كلامهم على لفظ التثْنِية .

وقال طرَفة بنُ العَبْد :

أبا مُنذِرٍ أفنَيْتَ فاستَبْقِ بعضَنا حنانَيكَ بعضُ الشرّ أهونُ مِن بَعْضِ (٤)

قال طرَفة بنُ العبدهذا حين أمر النّعمان بقتْله ؛ يضرَب عند ظهور تفاوُتِ ما بين الشرّيْنِ ، وهو كقولِهم : « إنَّ من الشرّ خِيارا » ، وقوله : « بَلَغ السَّيل الزُّبَى » ، جمع زُبْيَة ، وهى حُفرة تُحفَر للأسَد إذا أرادوا صيده ، وأصلُها

---

(١) لم ترد هذه الأبيات فى ديوانه
(٢) سورة مريم : ١٣
(٣) ديوانه ١٤٣
(٤) ملحق ديوانه ٢٠٩

وما أحسن قول أبى تمّام الطائىّ :

نامتْ همومىَ عنّى حينَ قلتُ لها ... حَسْبي أبو دُلَفٍ حَسْبِي به وَكَفَى[1]

وقال القاضى أبو بِشْر الفضل بن محمّد :

رفرَفتْ فوقَنا سحائبُ نُعْمَى ... أمْطرتْنا السُّرورَ فى كلّ حالِ

حسبيَ الله فى الأمورِ نصيراً ... ثمّ حسبي الأميرُ شمسُ المَعالِي

وقال شمس الدين محمّد بن التّلمِسانىّ :

باللهِ يالَيْلِيَ الطّويلَ لقدْ ... قصّرْتَ نوْمِي ولم تعُد بِغَدِي

حسْبي وَحسْب الهَوَى وَحَسْبُكَ ما ... يَفْعَلُه الهجْرُ بى فلا تَزدِ

وقال العبّاس بنُ الأحْنَف :

إن كان يُرضيكمْ عذابِي وأن ... أموتَ بالهِجْرانِ والكَرْبِ[2]

فالسّمع والطاعةُ مِنّى لكمْ ... حَسْبي بما ترْضَوْن لى حَسْبِي

* * *

٣٠ - وقوله : وما أراني إلاّ لو أُمِرت بالسُّجود لآدمَ فأَبيت وأسْتكبرتُ .

يشير بهذا إلى قولِه تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكة اُسجدُوا لآدمَ فسَجَدوا إلاّ إبليسَ أَبَى واستكبر ﴾[3] ، يَعنى لو كان ذنبي إليك ذنب إبليس لمّا أمره الله بالسُّجود لآدم ، فأبَى عن السُّجود واستكبر على آدم ، وقال: ﴿ أنا خيرٌ منه خلقْتَنى مِن نارٍ وخلقتَه من طِينٍ ﴾[4]، وهذا ذنبٌ عظيم،

(١) ديوانه ٢٠٤ .
(٢) ديوانه ٥٧ .
(٣) سورة البقرة ٣٤
(٤) سورة الأعراف ١٢

سقطتْ به درجة إبليس بعدما وصل إلى ما وصل ، وتقرّب بالعبادة إلى أن حظِىَ بين الملائكة ، ثمّ لُعِن وأبْعِدَ وأُهبِط إلى الأرض ، وأُخرِج من الجنّة وجُعِلت اللّعنة عليه إلى يوم الدِّين ، وصار عدوًّا لآدم وبنيه من الأنبياء والصالحين والأولياء والشُّهداء ، ولا يُذكر إلاّ مقرونا بالخِزى واللّعنة ، وأعدّ اللهُ له فى الآخرة العذاب المؤبّد ، والخزى السرمد .

ويقال : إنّ إبليس أخزاه اللهُ تعالى — أوّل من أحدث القياس لأنه قاس الطِّين على النار ، فلم يرضَ بالسُّجود لآدم ، ولهذا قال بشّار بن بُرْدٍ — قبّحه الله تعالى !

إبليسُ خيرٌ من أبيكمْ آدَمٍ فتنبّهوا يامعشرَ الفُجّارِ

إبليسُ مِن نارٍ وآدمُ طِينةٌ والطِّين لا يَسْمو سُمُوَّ النارِ

ثمّ إنّ إبليسَ اتّصف فى هذه القصّة بثلاث صفات : هنّ أردأ ماتكون وهى : الإباء ، أى امتنع من فِعل ما أُمِر به ، والاستكبار ، وهو فعل الجبّارين ، والكفْر وهو شرُّ الثّلاث . وكان يمكنه الإباء دونَ الاستكبار والكُفْر والإباء والاستكبار دونَ الكفر ، فقال تعالى : ﴿ أَبَى واستَكْبرَ وكان من الكافرين ﴾ (١).

* ثلاثةٌ كلُّها تَجْرِى على نَسق *

وقد ذكر الإمامُ محمّد بنُ عبد الكريم الشّهرستانىّ فى أوّل كتابه المِلل والنِّحْل ، عن شارح الأناجيلِ الأربعة ، وهى مذكورةٌ فى التّوراة صورةَ مُناظَرةٍ جرتْ بين الملائكة وبين إبليسَ بعد الأمرِ بالسُّجود .

---

(١) سورة البقرة ٣٤

قال إبليسُ للملائكة : إنِّى أُسلِّم أنّ إلهى هو خالقى ومُوجِدى ، وهو خالقُ الخلْق ؛ لكنْ لى على حكمة الله أسئلة : الأوّل ، ما الحكمة فى الخلْق ، لا سيّما وقد كان عالماً أنّ الكافر لا يستوْجِب عند خلْقه إلاّ الآلام ؟ الثانى ما الفائدة فى التّكليف مع أنّه لا يعود إليه منه نفعٌ ولا ضرَرَ ؟ وكلّ ما يعود إلى المكلّفين ، فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطةِ التكليف . الثالث ، هَبْ أنّه كلّفنى بطاعته ومعرفته ، فلماذا كلّفنى بالسّجود لآدم ؟ الرابع ، لمّا عصيتُه فى ترْك السُّجود ، لِمَ لعننى ، وأوجب عقابى ، مع أنّه لا فائدة له ولا لغيرِه فيه ، ولى فيه أعظمُ الضَّرر ؟ الخامس ، ثمّ لمّا فعل ذلك ، لِمَ مكّننى من دخول الجنّة ، ووَسْوَسةِ آدم ؟ السادس : ثمَّ لمّا فعل ذلك ، لِمَ سلّطنى على أولاده ، ومكّننى من إغوائهم وإضلالهم ؟ . السابع : لمّا استُمهلتُ المدّة الطويلةَ لِمَ أمْهلنى ، ومعلومٌ أنّ العالم لو كان خالياً من الشرّ لكان ذلك خيراً !

قال شارح الأناجيل : فأوحى اللهُ إليه من سُرادِقات العَظمة والكبرياء ، ياإبليس ، إنك ما عرفتنى ، ولو عرفتنى ، لعلمت أنه لا اعتراض علىّ فى شىء من أفعالى ، فإننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، لا أُسأل عما أفعل ﴿ وربك يخلق ما يشاء ﴾ (١) .

قال الإمام فخر الدين ـ قدس الله روحه ـ : واعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق ، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصا ، وكان الكلّ لازما .

قلت : قال بعضهم: إن سيف الدولة بن حمدان خرج يوما على جماعةٍ ، فقال

---

(١) الملل والنحل ١ : ٢٤ ، ٢٥ ، بتصرف .

قد عَمِلتُ بيتاً ، وما أحسبُ أحداً يعمل بيتاً آخرَ إلاّ إن كان سيّدى أبا فِراس ، وأنشدَهم :

لكَ جِسمِى تُعِلُّهُ فـدَمِى لِمْ تُحِـلُّهُ

فابتدأ أبو فِراس فقال :

أنا إنْ كنتُ مالِـكاً فلِىَ الأمرُ كلُّهُ(١)

وَعكسُ هذا قولُ القائل :

قريبٌ غيرُ مقتربِ ومؤتلفٌ لمجتنبِ
له وُدِّى ولى منـــه دواعِى الهمِّ والـكرَبِ
أُواصلُه على سَببٍ ويَهجرُنى بلا سَبَبِ
ويَظلِمُنى على ثِقـةٍ بأنّ إليـه مُنقلَبِى

وما أحسَنَ قولَ من قال: جَلَّ جَنابُ الجلال ، أن يُوزَن بميزان الاعتزال.

وقد اختَلف قوم ، فقال بعضُهم(٢) : إنّ إبليسَ ـ أخزاه الله تعالى ـ أوّل كافر بالله تعالى ، وعليه الأكثرون ؛ لأنه لم يكن قَبلَه إلاّ الملائكة ، وهم معصومون من الذّنوب .

واختلفوا أيضا فى إبليس ـ أخزاه الله ـ هل كان من الملائكة أولا ؟ والأكثرون على أنه ليس من الملائكة ، لقولِه تعالى : ﴿ إلاّ إبليس كان من الجِنِّ ففَسَق عن أمرِ ربِّه ﴾(٣) .

وقال الأقلُّون : إنه كان من الملائكة ، لقوله تعالى: ﴿ و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلاّ إبليسَ ﴾(٤) ، ولو لم يكن من الملائكة وتخلّف عن السجود ، لـكان لا لومَ عليه ، وهذا ليس بشىء ؛ لأنه كان فى جملة المأمورين بالسّجود ، ولهذا فَهِم هو الأمرَ ، واحتجّ لِنفسه بأنّه خيرٌ منه .

* * *

(١) ديوانه ٤٥٤ . (٢) كذا فى ط ، م ؛ وفى الأصل : « قوم » .
(٣) سورة الـكهف ٥٠ . (٤) سورة البقرة ٣٤ .

قال محبّ الدين بن النَّجار : قرأتُ على أبي عبدِ الله محمدِ بن أبي سعيد الأديب بأصْبهانَ ، عن أبي طاهر بن أبي نصر التاجر ، أنبأنا عبدُ الرحمن بنُ أبي عبدالله بنِ منده ، أخبرَنا محمد بنُ عبد العزيز بن عبد الله اللّبّان الشيرازيّ يقول : سمعتُ أبا الحسن أحمد بن عبد الله الهاشميّ ، يقول : سمعت أبا القاسم الجُنَيديّ بن محمد الصوفيّ ببغدادَ يقول : مازلتُ أطابُ من الله في صَلَواتي خمسَ عشرة سنةً أن يُرِيَني إبليسَ ؛ فلمّا كان يومٌ بنصف النّهار في صَيْف ، وأنا قاعدٌ بين البابَين أسبِّح ، إذ دُقَّ البابُ عليَّ ، فقلت : مَن ذا ؟ فقال : أنا ، قلتُ ثانيَ مرَّة : مَن أنت ؟ قال : أنا ، قلت الثالثة : من أنت؟ قال : أنا ، قلتُ : لا يكون إلاّ إبليس ! قال : نعم ، فمضَيتُ ففتحتُ البابَ ، فدخل عليَّ شيخٌ عليه بُرْنُسٌ من الشَّعْر ، وقَمِيصٌ من الصوف ، وبيَدِه عُكَّازة ، فحَيَّا ، فجئت أقعد مكاني بين البابين ، فقال لي : قمْ من مجلسي ، فإنّ بين البابين مجلسي . فقمتُ وقَعَد ، فقلتُ : بِم تُضِلُّ الناسَ ؟ فأخرَجَ لي رغيفا من كُمّه وقال لي : بهذا ، فقلتُ : بمَ تحسِّن إليهم أفعالَهمْ ؟ فأخرج لي مِرآةً ، فقال : أريهم سيئاتِهم حسناتٍ بهذه المِرْآة ، ثمَّ قال لي : قلْ ما تُريد وأَوْجِزْ في كلامك ، فقلت : حيث أمرَكَ اللهُ بالسُّجود لآدَم ، لِمَ لم تَسْجد ؟ فقال : غيرةٌ منّي عليه أن أسجُدَ لغيره . وغاب عنّي فلم أرَه .

وقال ثابت البُنانيّ : بَلَغنا أنّ إبليسَ قال : ياربّ ، إنّك خلقتَ آدم وذرّيَّته وجعلت بيني وبينهمْ عداوة ؛ فسلِّطني عليها ، فقال الله تعالى : قد جعلتُ صدورَهم مساكن لك ، فقال : ياربّ ، زِدْني ، قال تجري منهم مَجرَى الدّم ، فقال : ياربِّ ، زِدْني : فقال : (١لا يولد لآدم ولد إلا ويولد منك عشرة ، فقال : يارب زدني١) ، فقال : ﴿ وأَجْلِبْ عليهمْ بِخَيْلِك ورَجِلِك وشارِكْهم في الأمْوال والأوْلاد ﴾(٢) . فشكا آدمُ إبليسَ فقال : ياربِّ ، إنّك

(١ ــ ١) ساقط من ط . (٢) الإسراء ٦٤ .

خلقتَ إبليس، وجعلتَ بينى وبينه عداوة، وسلّطتَه علىّ، وأنا لا أُطيقه إلاّ بك. قال الله تعالى: إنّه لا يُولَد لك ولدٌ إلاّ وكّلتُ به ملَكين يَحفظانه من قُرَناء السوء، فقال: يارِبِّ زدْنى، قال: الحَسَنة بعَشرة أمثالها، فقال: يارب زدْنى، قال: لا أحجُبُ عن أحدٍ من أولادِك التَّوبة ما لم يُغَرْغِر.

وقد سأل بعضُهم فقال: وكيف يُؤمَر بالسُّجود لآدَم وذلك شرْك، فإن السجود لا يكونُ لغير الله! والجوابُ أنّ السجودَ كان لله تعالى، وإنّما كان آدمُ قِبلةَ السُّجود.

وما أحسَنَ قولَ ظافر الحدّاد الإسكَنْدرىِّ:

أنتَ المرادُ بنَظْمِ كلِّ قصيدةٍ بُنِيَت على الأفهامِ فى تبجِيلِهِ
كسجُودِ أملاكِ السماء لآدَم وسجودُهُمْ لله فى تأويلِهِ

وقال ابن التَّبْل البَغْدادىّ:

ولاتحتقرْ ضعف[1] العدوّ ولاتقُلْ على كَيْدِهِ أسْطو بكلِّ مُساعدِ
فلو أنَّ أهلَ الأرض صافَوْك ماوَفَوْا بفُرصَةِ كَيدٍ من عدوٍّ مُعاندِ
كما بسجودِ الكلّ لَمْ يَنْجُ آدَمٌ وقد ضَرَّهُ منهمْ تمنُّعُ واحدِ
فبدّله بُعْدًا بقُرْبٍ، وَوَحْشَةً بأنسٍ، وبالجَنّات دارَ الشّدائد
ولم ينجِه أنْ صوّرَ الله خلقَه وعلّمه الأسماءَ مِن كَيْدِ حاسدِ

ولقد ظَرُف أبو نُواس فى قوله، وهو أوّل من ابتَدَع هذا المعنى، فقال:

---

(١) ط، م ز «كيد».

وليلةٍ قصَّرها طولُها   بالكرخ إذ مُتِّعتُ من خلوته
أشربُ من ريقته مرَّةً   ومرَّةً أشربُ من فضلته
في مجلسٍ يضحك تفاحُه   من الرياحين إلى خضرته
ليس يرى خلوتنا ثالثٌ   إلا الذي يشرب من خمرته
حتى إذا ألقى قناع الحيا   ودارت الخمرةُ في وجنته
مكّن من حلّ سراويله   وكان لا يأذن في قُبلته
دبَّ له إبليسُ فاقتاده   والشيخُ نقّاعٌ على لعنته
تاهَ على آدمَ في سجدةٍ   وصارَ قوّادا لذرّيّته

وفي قوله أيضا :

سوءةً يالَعينُ أنتَ اختلستَ الـ   ـناسَ غيظا عليهم أجمعينا
تِهْتَ لما سجدت في سالفِ الدهـ   ـرِ وفارقْتَ زُمْرة الساجدينا
عندما قلتَ : لا أطيق سجوداً   لمثالٍ خلقتَه ربِّ طينا
حسدًا إذ خُلقْتَ من مارجِ النا   رِ لمن كان مبدأ العالمينا
ثم قد صرتَ في القيادة تسعى   يامجيرَ الزُّناة واللائطينا

وقوله من أبيات :

أبى السجودَ له من فرْطِ نخوته   وقد تحوّل في مِسلاخِ قوّادِ

وما أحسنَ قولَ أبي إسحاقَ الغزّي هجْواً :

خلقت لذنب إبليسَ اعتذاراً   فتاةً وقال فُزْتُ وحقِّ جيدي
إذا كان ابنُ آدمَ مثلَ هذا   فكيف ألامُ في تركِ السجودِ !

ومثل هذا قولُ ابن نباتة الأعور الموصلي :

شريفٌ أصلُه أصلٌ حميدٌ   ولكنْ فعلُه غيرُ الحميدِ
ولم يخلُقْه ربُّ العرشِ إلا   لتنعطفَ القلوبُ على يزيدِ

وقال عبدُ الصَّمد بن بابك :

وقالوا توخَّيتَ مدْحَ الصغيرِ وقصَّرت بالرَّجل المحتشمْ
وإبليسُ أكبرُ من آدمٍ ولكنْ عَصَى ربَّه فانتقَمْ

قال الحسن بنُ رَشيق : كان إبراهيم بنُ علىّ بن تميم الُحصَرىّ قد أخذ فى عمل طبقات الشعراء على الأسنان ، وكنتُ أصغَر القوم سِنًّا ، فكتبتُ إليه :

مهلاً أبا إسحاقَ بالعالِم وقعت فى أضيقَ مِن خاتمِ
لو كان فَضْلُ السّن مَنْدوحةً فُضّـلَ إبليسُ على آدمِ

فلمّا بلغه هذان البيتان ، أمسك عنه ، واعتذر منه ، ومات وقد سُدّ عليه بابُ الفِكْرة ، ولم يصنع شيئا . وقلتُ أنا فى هذا المعنى :

تقدُّمُ المَوْلدِ لم يُعتبَرْ لأنّه فى الفَضْل تدليسُ
لو اعتبَرنا السّنَّ يومَ العُلاَ رَقى على آدمَ إبليسُ

وقال صرّدرّ :

جَلسةٌ فى الجحيم أحرَى وأوْلَى من رحيلٍ يُفضِى إلى تدْليس
ففِراراً من المذلّةِ فى آ دمَ كان العصيانُ من إبليسِ

وقال ابن الصّقر الواسِطىّ :

كلُّ رزقٍ ترجوهُ من مخلوقٍ يَعتريه ضَربٌ من التّعويقِ
وأنا قائلٌ ـ وأستغفرُ اللّـ ـه ـ مقالَ المجاز لا التّحقيقِ :
لستُ أرضى من فعلِ إبليسَ شيئا غيرَ تركِ السّجود للمخلوقِ

٣١ — وقوله : وقال لي نوحٌ : اركَبْ معنا ، فقلت : سآوِى إلى جبلٍ يَعصمُني من الماء .

يشير بهذا إلى قصَّة نوحٍ عليه السلام لمَّا جاء الطُّوفان ، وصَعِد نوحٌ فى السّفينة بمَن آمَنَ معه ، وقال لابنِه : ﴿ يا بُنَيَّ اركَبْ معنا ﴾ قال : ﴿ سآوِى إلى جَبلٍ يَعصِمُني من الماء (١) ﴾ .

قيل : انّ اسمَ ابنِ نوحٍ كَنْعان ، أو يام ـ وكان كافراً ؛ وقيل : إنَّه كان ابن امرأته ، فلما أحَسَّ نوح عليه السلام بالطوفان ، ركِب هوَ ومن آمَن معه ، وكانوا ثمانين آدَميًّا ـ واختُلِف فى ذُكْرانهم وإناثِهم ـ وحَمَل معه من كلّ زَوْجين اثنين ، ﴿ ونادَى نوحٌ ابنَه وكان فى مَعزِلٍ ﴾ أى فى مكانٍ منقطعٍ عن السفينة ، أو عن دِينِ الله ، ﴿ يا بُنَيَّ اركَبْ مَعَنا ولا تكُنْ مع الكافِرين قال سآوِى إلى جَبلٍ يَعصِمُني من الماء قالَ لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ الله ﴾ ، أى مِن عذابِ الله ﴿ إلاَّ مَنْ رَحِمَ وحالَ بَينهما الموجُ فكانَ من المُغرَقين ﴾ (١) ، لأنّ الطُّوفان عمّ الأرضَ جميعا ، وعلا الجبالَ قدرَ أربعين ذِراعا ، وقيل : خمسةَ عشَر ذراعا .

وقيل : إنَّه قال له نوح : يا بُنَيَّ اركبْ معنا بشرط الإيمان . قال الحَسَن : إنه كان منافقاً فى إيمانِه . وروى أنه قيل : لو رحم اللهُ أحدًا يومئذٍ لرحِم أمَّ الصبيّ ، فإنّها كانت تحبّه حُبًّا شديدا ، فخافت عليه ، فخرجتْ به إلى الجبل حتّى بلغتْ ثُلثَه ، فبلغها الماء ، فبلغتْ به ثُلثَى الجبل ، فبلغها الماء ، ثم استوت به إلى أعلَى الجَبَل ، فبلغ الماءُ رَقَبَتَها ، فرفَعَتْه بيديها ، فذهبَ بهما الماءُ .

(١) سورة هود ٤٢ ، ٤٣ .

ومِن شِعر الفَرَزْدق يُعرِّض بالحجّاج بن يوسفَ فى مَدْح سليمانَ بن عبدِ المَلِك بن مَرْوانَ :

فلمّا طَغَى الحجّاج حين طغَى به غِنًى قال إنِّى مُرْتَقٍ فى السَّلالِمِ[1]
وقال كما قال ابنُ نوحٍ سأرْتَقِى إلى جَبَلٍ مِن خَشْيةِ الماء عاصِمِ

* * *

٣٢ — وقوله : وأمرْتُ ببناءِ صَرْحٍ لعلِّى أطَّلِع إلى إلهِ مُوسَى .

يشير بذلك إلى فِرْعون حين أمرَ هامَانَ أن يَبنِىَ له صَرْحا ، لِيَطّلِع إلى إله موسى ، لأنّ موسى عليه السلام لمّا جاء إلى فرعونَ وأدّى رسالةَ ربّه ، وأمَره بالإيمان ، قال فرعون : ﴿ يأيُّها الملأُ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقِدْ لى ياهامَانُ على الطّين فاجْعلْ لِى صَرْحا لعلّى أَطَّلِع إلى إله موسى وإنّى لأظُنُّه من الكاذِبين ﴾[2] .

الصَّرْح : القَصْر ، وفِرْعون أوّل من طَبَخَ الآجُرَّ بالنّار ، وبَنَى به . وذكروا أنَّ هامانَ جمع خمسين ألف بنّاء سوى الأتْباع والأُجَراء ، ومَن يَطْبخ الآجُرّ ، ويعمل الجِصَّ ، ويَنحَتُ الخَشَب والأبواب ، ويضرب المسامير ، حتّى ارتفع الصَّرْح ارتفاعا لم يَبلُغه بنيانُ أحدٍ من الخلق ، جعله اللهُ فتنةً لهم ، ولمّا فرغ ارتقاه ، ورمى نُشّابَةً نحو السّماء ، فعادت مُلطّخة بدمٍ ، فقال فرعون: قتلتُ إلهَ موسى ـ أو إلهَ السماء ـ وكان يَصعَد إلى أعلاه على البراذِين ،

---

(١) ديوانه ٨٥٣ .
(٢) سورة القصص ٣٨ .

فبعث اللهُ عزّ وجلّ جبرائيلَ عليه السلام، فضرب الصَّرْح بجناحه، فتقطّع ثلاثَ قِطع، فلم يبقَ أحدٌ ممّن عمل فيه شيئًا إلاّ هلك.

وقيل: إنّه وقعتْ قطعةٌ على عسكر فرعونَ، فقتلتْ منهم ألف ألف رجل، ووقعتْ قطعةٌ فى البحر، ووقعتْ قطعةٌ فى المَغْرِب.

وقال بعضهم لآخَرَ: إلى أين يا هامان؟ قال: أَبنِى لكَ صَرْحًا يافرعون!

وما أحسن قولَ عُمارةَ اليمَنىّ يذكر مصرَ:

هىَ الصَّرْح إلاّ أنّ هامان لم يَشِدْ بِناهُ، ولا استعْطاه فرعُون لِلكُفْرِ
تنزّهتْ عن فخرٍ بمصرَ وملكِها وقد عدَّه فرعونُ قاضيةَ الفَخْرِ

* * *

٣٣ — وقوله: وعكَفْتُ على العِجْل.

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ واتَّخذَ قومُ موسى من بعدِه مِنْ حُليِّهمْ عِجْلاً جَسَدًا له خُوار ألم يروْا أنّه لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾[١].

لمّا واعَد اللهُ موسى لِيقاته وهو أربعون ليلةً، كان قومُ موسى قد أَمِنوا مِن عدوّهم ودخلوا مصر، ولم يكنْ لهم كتابٌ ولا شريعة ينتهون إليها، فوعَدَ اللهُ موسى أن يُنزِّل عليه التوراة، فقال موسى لقومه: إنّى أذهبُ إلى ربّى، لآتيكم بكتابٍ فيه بيانُ ماتأتون وما تذَرُون، وواعَدَهم أربعين ليلةً؛ ثلاثين من ذى القَعْدة وعشراً من ذى الحِجَّة، واستخلَفَ عليهم أخاه

(١) سورة الأعراف ١٤٨.

هارون ، فلمّا جاء الوعْد أتى جبريلُ على فَرَس الحياة ، لا يمرّ على شيء إلاَّ حَيِيَ ، فلمَّا جاء رآه السامريّ — وكان رجلا صائغا يقال اسمه منجا ، من أهل كَرْمان أو من أهل باجَرْمَى ، أَو كان من بنى إسرائيل من قبيلةٍ يقال لها : سامرة ، فرأى مواضع الفَرَس تخضرّ ، وكان منافقا ، من قومٍ يَعْبُدون البَقَر — فقال : إنَّ لهذا لشأنا ، فأخذ قبضةً من تُربةِ حافرِ فرسِ جبريل ، وأُلقى فى رُوعِ السامرىّ أنّه إذا ألقى فى شىء غيّره . وكان بنو إسرائيلَ قد استعاروا حُليًّا كثيرةً من قومِ فرعون حين أرادوا الخروجَ من مصرَ بعلّة عُرْسٍ لهم . ولمّا أهلكَ اللهُ فرعونَ وقومَه ، بقيتْ تلك الحلىُّ فى أيديهم ، فقال السامرىّ لبنى إسرائيل : إنّ الحلِيّ التى استعرتموها غنيمة لا تحِلّ لكم ، فاحفِروا حُفْرَةً وادفِنوها فيها حتّى يرجع موسى من ميقات ربّه ، فيرى رأيَه فيها ، أوأنّ هارونَ أمرَهم أن يُلقُوها فى حُفْرة ، فلمَّا اجتمعت الحُلِيّ صاغَها السامرىُّ عِجْلا فى ثلاثةِ أيّام ، ثمّ ألقى القبضةَ الّتى أخذَها من أثرِ حافرِ فرسِ جبريل ، فخرج عِجْلاً من ذهبٍ ، مرصّعاً بالجواهر ، من أحسنِ مايكون ، وخارَ خَوْرةً ، وكان يمشى ويَخُور ، فقال السامرىّ : هذا إلٰهُكم وإلٰهُ موسى نَسِيَه هاهنا وخرج يَطْلُبه . وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا المَوعِد ، وعَدُّوا اليومَ مع اللّيلةِ ، حتّى مَضَى عشرون يوما ولم يَرجِع موسى ، فوقَعوا فى الفِتْنة فى العِشْرين ، فعكَفَ على عِبادة العِجل ثمانيةُ آلافٍ يعبُدونه ـ أو كلُّهم عبَدوا العِجْل إلاّ هارون مع اثنىْ عشَرَ رجلا ، وهو الصَّحيح ، أو عَبَدوه أجمعين إلاّ هارون ـ فأوحَى اللهُ إلى موسى : إنَّا قد فَتَنّا قومَك ، فرجَع إليهمْ غضبانَ أسِفا ، وقال ﴿ ياقومَ إنّكم ظلَمْتمْ أنفُسكم باتّخاذكمُ العِجْلَ فتوبوا إلى بارِئكم فاقتُلوا أنفسكم ذَلكمْ خيرٌ لكم عندَ بارِئكم فتابَ عليكمْ إنّه هو

التوّاب الرحيم[(١)]﴾ أى ليقتل البرىءُ منكم المُجرِم. فقالوا: نَصْبِر لأمْر الله تعالى، فجلَسوا فى الأفْنِية مُحتَبِين وقال لهم: من حَلَّ حبوَته، أو مَدّ طَرْفه إلى قاتله، أو اتّقاه بيَده أو برِجْله فهو مَلْعون غيرُ مَقْبول التوبة، فأصْلَتَ القومُ عليهم الخَناجِر. وكان الرَّجل يرَى ابنَه أو أباه، أو أخاه أو صديقَه، أو جارَه يُقتَل فلا يَقدِر أن يُدافِع عنه، وقالوا: ياموسى، كيف نَفعَل؟ فأرسَل الله عليهم سحابةً سوداءَ، وأصبحوا لا يُبصِر بعضُهم بعضا، وكانوا يَقتلونهم إلى المَساء — ولما كَثُر القَتْل دَعَا موسى هارون وبَكَيا، وتَضرّعَا إلى الله وقالا: يارِبِّ، هلكتْ بنو إسرائيل، فكَشَفَ اللهُ السّحابة وأمرَهم أن يكُفّوا عن القَتْل، وكان عددُ القَتْلَى سبعين ألفاً، فأوحَى اللهُ إلى موسى: أما يُرضِيك أن أُدْخِلَ القاتلَ والمقتولَ الجنّة!

وقال بعض الشّعراء:

سئِلتُ عن موسى وموسى ما الخبَرْ؟ فقلت: شَيْخان كقسمى القَدَرْ
الفرقُ بين الموسيَيْنْ قد ظَهَرْ موسى بنُ عِمرانَ ومُوسَى بن الظَّفرْ

موسى بن الظّفَر هو السامِرِىّ.

* * *

٣٤ — وقوله: واعتَدَيْتُ فى السَّبْت.

يشير بذلك إلى ما اُعتَمَده بنو إسرائيلَ فى السّبت من انتهاكِ حُرمَتِه قال تعالى: ﴿ولقد عَلِمْتُمُ الّذين اعتَدَوْا منكُمْ فى السّبت فقلنا لهم كونوا قِردَةً خاسِئين﴾[(١)]، اعتدوا، أى جاروا.

كان بنو إسرائيلَ فى زَمَن داودَ عليه السلام بأرضٍ يقال لها: أَيْلَة[(٢)]، حرَّم اللهُ عليهمْ صيدَ السَّمك يومَ السبت، فكان إذا دخل السّبت لم يَبقَ

---

(١) البقرة ٦٥. (٢) فى الطبرى: «قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين».

حُوتٌ إلا اجتمع هناك ، يَخرُجْن من الماءِ حتّى لا يُرى الماء من كثرتها ، فإذا مَضى السّبت تفرّقْنَ فلا يُرى منها شيء ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إذْ تأتِيهم حِيتانُهم يَوْمَ سَبْتِهِم شُرّعاً ويومَ لا يَسْبِتُون لاتأتيهم . . . (١) ﴾ الآية .

ثم إنّ الشيطان وَسْوَس لهم وقال : إنّما نُهِيتم عن أخذِها يومَ السبت ، فعَمَد رجالٌ ، فحَفَروا حِياضاً نحوَ البحر ، وشرعوا(٢) منها إليها الأنهار ، فإذا كان عَشِيَّةُ الْجُمُعَة فتَحوا تلك الأنهار ، فأقبَل الموجُ بالحِيتان إلى الحِياض ، فلا تقدر على الْخُروج لبُعْد عُمْقِها ، وقِلّةِ مائها ، فيأخذونها يومَ الأحد . وكانوا يسوقون الْحِيتانَ إلى الحِياض يومَ السبت ثم يأخذونها يوم الأحد ، وكانوا يَنصِبون آلاتِ الصَّيْد يومَ الجمعة ، ويُخرِجونها يوم الأحد ، وفعلوا ذلك مدّة ، فلم يُنزِلْ بهم عُقوبةً ، فقالوا : ما نرَى إلاَّ أنّه قد أحَلَّ لنا السّبت، فأخذوا وأكلوا وملّحوا وباعوا ، وكَثُر مالُهم ، فلمّا فعلوا ذلك صار أهلَ القَرْية ـ وكانوا نحو سَبْعِين ألفا ـ ثلاثةَ أصناف : صِنْفٌ أَمسَك ونَهَى ، وصِنفٌ أمسَكَ ولم يَنْهَ . وصِنْفٌ انتهكَ الْحُرْمة . وكان النّاهون اثنى عشر ألفا ، ولمّا أبى المجرمون قبولَ نُصْحهم قالوا : والله لانُساكِنُكم ، فقسَموا القريةَ بجدار ، وتحيزّوا كذلك سنتين ، فلعَنَهم داودُ ، وغَضِب عليهم لإصرارهم على المعصية ، فخرج النّاهون ذاتَ يومٍ من دِيارهم ، ولم يَخرُج من المجرمين أحدٌ ، ولم يَفتَحوا لهم بابا ، فلمّا أبطئوا تسوّروا عليهم الحائطَ ، فإذا هم جميعا قِردةٌ لهم أذنابٌ يتعاوَوْن .

وقيل : صار الشّباب قِرَدة ، والشيوخُ خنازير ، فمكثوا ثلاثةَ أيام ، ثمّ هلكوا ، ولم يَبقَ مَنْ مُسِخ فوق ثلاثةِ أيّام ، ولم يتوالَدوا(٣) .

قال مجاهد : مُسِختْ قلوبُهم دونَ صُوَرِهم ، وهذا خلافُ الإجماع ومانَطَق

---

(١) الأعراف ١٦٣

(٢) ط : «شقوا» .

(٣) الخبر في تفسير الطبرى ٢ : ٢٦٩ .

به القرآنُ العظيم . وفى الأمثال المولّدة : عليه ما على أصحاب السّبت ـ يعنون بذلك اللّعنة .

كان ابن الرّومىّ مَنْهوماً فى الأكْل ، وكان يُعجبه السّمك ، فوعده أبو العبّاس أحمد المزيدىّ[١] أن يبعث إليه كلّ يوم سبتٍ وظيفةً من السّمك ، لا تنقطع عنه ، ثمّ قطعه ، فقال :

ما لحيتاتِنا جفَتْنا وإن أخْ ... لفتِ الزائرين منتظريهمْ
جاء فى السّبتِ زورُهم فأتَتْنا ... من حفاظٍ عليه ما يكفيهمْ
وجعلناهُ يومَ عيدٍ عظيمٍ ... فكأنّا اليهود أو نَحْكيهمْ
وأَراهمْ مصمّمين على الهَجْ ... رِ فلِمْ يُسْخِطون مَنْ يُرضيهمْ !
قد سُبِتْنا وما أتَتْنا وكانوا ... يومَ لا يَسْبِتون لا تأتيهمْ

ولمّا وقع أبو فِراس بن حمْدانَ فى أسْرِ الرّوم أمر المَلِكُ أنّ الأسرى يتزاورُون يومَ السّبت ، فقال :

جعلوا الإلتقاء فى كلِّ سبتٍ ... فجعلناه للزيارة عِيدا
وشَرِكْنا اليهودَ فيه فكِدْنا ... رغبةً فيه أن نعود يهُودَا

وقال علاء الدين الوَداعىّ فيمن وَعَدَه بسمك :

يامالكاً صدَقَ مواعيده ... خلّى لنا فى جُوده مَطْمَعا
لم نَدْرِ فى السّبت فما بالُنا ... لمْ تأْتِنا حيتانُنا شُرّعا

وقال ابن الزّقاق الأندلسىّ :

وحبّبَ يومَ السَّبْت عِنْدِىَ أنّنى ... ينادمُنى فيه الّذى أنا أحببتُ[٢]

---

(١) ط : « المرثدى » .   (٢) ديوانه ١١٣ .

ومن عَجبِ الأشياء أنِّى مُسلِمٌ حَنيفٌ ، ولكنْ خيرُ أيّامِى السَّبتُ

* * *

٣٥ — وقوله : وتَعاطَيْت فعقَرْت .

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ إنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فتنةً لهمْ فارْتقِبهمْ واصطَبِرْ ۞ ونَبِّئْهم أنَّ الماءَ قِسمةٌ بينهمْ كلُّ شِرْبٍ مُحتَضَرٌ ۞ فنَادَوْا صاحِبَهم فتعاطَى فعقَرَ ﴾ (١) .

كانت ثمودُ هذه هى عادٌ الأخرى ، وتسمَّى عاداً الصُّغرى ، وكان الله سبحانه وتعالى قد أهلكَ عاداً الأولَى . ثم إنَّ الله سبحانه استخلَفَ عاداً الأخرى ، وكانوا قوما عَرَبا ، وكانوا يَسكُنون الحِجازَيْن : الحِجازَ والشّام إلى وادى القُرى ، فانتشرُوا فى تلك الأرض وكفروا ، وعَبَدوا غيرَ الله ، فبعَثَ إليهم صالحا ، غلاما شابًّا ، فدعاهم حتى شمِط ولم يتَّبِعْه منهم إلا قليلٌ مستضعَفون ، فسألوه أن يُرِيَهم آية ، فقال : وأىّ آيةٍ تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عِيدنا وندعو آلهتَنا ، وتدعو أنت إلٰهك ، فمن استُجيب له اتّبعناه . فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ، وخرج صالحٌ إلى الله تعالى ، فقال له جندع بن عمرو سيّد ثمود : ياصالح ، أخرِجْ لنا من هذه الصّخرة ناقةً جوفاء ، وبْرَاء عُشَراء (٢) ، فإن فعلت ذلك صدّقناك ، وآمنا بك . فأخذ مواثيقهم على ذلك ، وصلَّى ركعتين ، ودعا ربَّه ، فتمخّضتِ الهضْبة ، فلما نَظَروا إليها وقد انتفَضَتْ تصدّعتْ عن ناقةٍ كما وَصفُوا : جَوْفاء ، وَبْراء عشَراء ، بين جنبيْها ما يعلمه الله تعالى . فآمن به جندع ومَنْ كان معه من رَهْطه ، وأرادت أشرافُ ثمودَ أن تؤمن ، فنهاهم ذُؤابُ بن عمرو ومَنْ شايعه ، وردّهم عن الإسلام ، وكان لابن عمرو هذا ابن عمٍّ يقال له : شهاب ، عزيز منيع أراد أن يُسلِم فنهاه ذؤاب ، ورباب والحباب ، وصاحبا الأوثان (٣) ، وفى ذلك قال شاعرهم (٤) :

---

(١) سورة القمر ٢٧ ـ ٢٩ . (٢) حاشية الأصل : « العشراء التى تشبه البخت » .
(٣) فى ابن كثير : « ذؤاب بن عمر والحباب صاحبا أوثانهم ، ورباب بن صمعر » .
(٤) ابن كثير : « مهرش بن غنمة بن الذميل » .

وكانت عُصْبةٌ من آلِ عمرٍو ... إلى دِينِ النبيّ دعَوْا شِهابا[1]
عزيزَ ثمودَ كلَّهمُ جميعاً ... فهمَّ بأن يجيبَ ولو أجابا
لأصبحَ صالحٌ فينا عزيزاً ... وما عدَلوا بصاحِبِهم ذُؤابا
ولكنَّ الغُواةَ مِن آلِ حُجْرٍ[2] ... تولَّوْا بعد رشدهمُ ذبابا

ويقال: إنّ الناقة تمخّضتْ بعد انفصالها، وولدَتْ سَقْبا، فمكثتْ في أرضهم ترعَى الشجر، وتشرب الماء، وأخبرهم صالح عليه السلام أن الماء قِسمةٌ بينهم، لها يوم من الشِّرب ولهم يوم. وكانت تدخِل رأسها في بئر لهم، يقال لها: بئر الناقة، فإذا رفعتْ رأسها تفاحَجَتْ لهم، فيحلبوها ويَشْرَبون ويدّخِرون، وكانت تصيف بظهر الوادي، فتهرب منها المواشي، وتشتو ببطن الوادي فتهرب منها المواشي. وكانت ترعَى بوادي الحجر، وكانت فيه امرأة يقال لها: عنيزة، لها بناتٌ حسان ومال، وامرأة أخرى يقال لها: صَدُوق، بنت المحيا صاحب أوثانهم، وكانتا من أشد الناس لثمودَ عداوةً لصالح، وكان زوجها أسلم، وأنفق مالها على مَنْ آمن بصالح، فدعت مصدع ابن بهرج بن المحيا[3]، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة. ودعَت عنيزةُ قُدارَ ابن سالف ـ وكان رجلا أحمر أزرقَ العيْن، وُلد لغير رِشْدة ـ فانطلَقا واستنْشَدا غُواةَ ثمود، فاتبعهما تسعة نفر، فرصدوها حين صدرت عن الماء، وكمن لها قدار في أصل صخْرة، ومصدع في أصل أخرى، فرماها مصدع، فانتظم عضَلة ساقها، وخرجت عنيزة، وأمرت بنتها فسفرَتْ عن وجهها لقُدار، ثم أمرته فشدَّ على الناقة بسَيْفه، فكشف عن قوائمها، فخرّت، ورغَت رغاةً واحدة، تحذِّر سَقْبَها، ثم طعن في لبَّتها فنحَرها، وانطلق سَقْبُها حتى أتى جبَلا ضَيّقا، ثم أتى صخرةً في أعلى الجبل. فأتاهم صالح، فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى، وقال: انتهكتُم

---

(١) البداية والنهاية ١ : ١٣٤ . (٢) ط : « آل عمرو » .
(٣) ابن كثير « مصدع بن مهرج » .

حرمةَ الله فأبشروا بعذابِ الله. ثم اتبع السَّقْبَ أربعة نفرٍ من التسعة ، فرماه مصدع فانتظم قَلْبَه ، ثم جرَّه برِجْله فأنزَلَه ، ثم ألقوا لحمَه مع لحمِها ، وقالوا لصالح : متى يكون ذلك؟ كالمستهزئين به، وما آيته ؟ فقال : تُصبحون غداة مؤنس — يعني يومَ الخميس — ووجوهُكم مصفرَّة ، وتُصبحون يومَ العُروبة — يعني يومَ الجمعة — ووجوهُكم محمَرَّة ، ثم تُصبحون يومَ شِيار — يعني السَّبت — ووجوهُكم مسوَدَّة ، ثم يصبِّحكم العذابُ يومَ أوَّل — يعني الأحَد . ثم إنَّ هؤلاء التّسعة هَمُّوا بأن يبيِّتوا صالحا ، وقالوا : إن كان صادقا كنّا قتلْنَاه ، وإن كان كاذبا كنا ألحقْناه بناقتِه . فأتَوْه ليلا وقد منعتهم الملائـكةُ بالحجارة ، فلمَّا أبطئوا جاءت أشياعُهم ، فوجَدُوهم مشدَّخين ، فقالوا : ياصالح ، أنت قتلتَهم ! وهمُّوا به ، فمنعَهم عشيرتُه . وأصبَحوا صبحة ليلتئذ مصفرة وجوههم ، فعلموا أنّه صدقهم ، فلما كانت ليلة الأحد ، خرج صالحٌ وَمن آمَنَ معه من بينهم إلى أرض الشام ، فنزل رَملة بفلسطين ، فلمَّا كان ضُحَى يوم الأحد أخذتْهم الصَّيحة ، فلم يَبقَ منهم كبيرٌ ولا صغيرٌ إلاَّ هَلَك ، إلاَّ جارية مُقْعَدة كافِرة بصالحٍ ، أطلق لها رِجْلَيها بعد ما عايَنَت العذاب ، فأخبرت بما حلّ بثمود . ثم إنّها استسقت الماء فشربت وماتت . وفيها قال بعض شعرائهم :

يا فَعلةً ما أتَتْ قوما بمُرْدِيَةٍ — كانوا شِراراً وما كانوا بأخيارِ
كانوا بأنْعَمِ عيشٍ غير مكتنعٍ — في مجلس بين جنّاتٍ وأنهارِ
لا يرْهَبون من الأعداء بائقةً — وقعَ السُّيوفِ ولا نَبْضًا بأوْتارِ
فعاجلوا ناقةً لله راتعـةً — قد أنذَروها وكانوا غيرَ أبرارِ
إذا تذكَّرتُها رفَّت على كَبدي — حرارةٌ مِثل لَذْع الـكيِّ بالنارِ
قادُوا قُداراً ولحمُ السَّقْب بينَهُمُ — هل للعجول وَهلْ للسَّقْب من ثارِ !
فاضَ دَمْعي ولم أملِكْ له عبرا — إلاَّ الدّعاء وتَصويتاً بأسحارِ

وقيل : إنَّ الصاعقة لمَّا أخذتْهم ، صارت وجوهُهم كأنما طُلِيَتْ بالقار ، وكانوا يَقلِّبون أبصارَهم إلى السَّماء مرّة ، وَ إلى الأرض مرّة ، ولا يدْرون من

أين يأتيهم العذاب ! وتقطَّعَتْ قلوبُهم فى صُدورِهم ، ولم يُسلِم غيرُ الجارية المُقْعَدة الَّتى أتت تُخبر أهلَ وادى القُرَى ، ورجل كان بالحزم اسمُه أبو رغال ، منعه الحَزْمُ من العذاب ، فلمَّا خرج أصابَه ما أصابَهم ، فدُفِن به ومعه غُصْن من ذَهَب ، وأخبرَ النبى صلى الله عليه وسلم بقَبْرِه ، فابتدَرُوه بأسيافِهم ، فَحَفَروا عنه ، فوَجَدوا الغُصْن .

وقيل إن صالحًا ابتعثه الله لهم ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فأقام فى دعوتهم عشرين سنة .

وقيل: إنَّ صالحا لمَّا قيل له: أدرِكِ الناقةَ فقد عُقِرَتْ ، فأقبَل ، وخرجوا يعتذِرون إليه ، ويقولون : إنما قَتَلها فلان ، فقال لهم : أدرِكوا سَقْبَها ، فإن أدرَكْتُموه فعسى أن يُرفَع العذابُ عنكم ، فأدرَكوه ، فرَغا ثلاثا ، وانفجرتْ له الصَّخْرة فدَخَلها ، فقال صالح : قد أنذرَكم ثلاثا ، ويحلُّ بكم العذاب ، فلمَّا كان بعدَ ثلاث وَقَع بهم العذاب على ما تقدَّم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ تمتَّعُوا فى دارِكم ثلاثةَ أيَّام ذلكَ وعدٌ غيرُ مَكْذُوب ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾[2] ، أصلُ الانبعاث الإسراع ، وأشقاها ثمود ، أى أشقى ثمود ، لأنه الَّذى باشَرَ العَقْر .

وقيل : فى قوله تعالى: ﴿ ولا يَخافُ عُقْبَاها ﴾[3] ضمير يرجع إلى قُدارِ ابن سالِف عاقِرِ النَّاقة ، معناه فَعل فَعْلتَه الذَّميمة ، وماخافَ عاقبتَها . وقوله تعالى: ﴿فتَعاطَى فعقَر﴾[4] ، أى أتى أمراً عظيما ، يقال : فلانٌ يتعاطَى المنكَر .

قيل :إنّ جعفرَ بنَ سليمانَ كان شديدَ البُخْل على الطعام ، فرُفِعتْ المائدة يوماً من بين يديه ، وفيها دجاجة ، فوَثَب عليها بعضُ بنيه فأكل منها ، وأعيدَتْ من الغَدِ ، فلما رآها وقد أكل منها ، قال: مَنْ هذا الذى تعاطى فعقر ؟ قالوا : ابنك فلان ، فقطع أرزاق بنيه كلهم ، فلما طال عليهم ذلك قال :

---

(١) سورة هود ٦٥ .
(٢) سورة الشمس ١٢ .
(٣) سورة الشمس ١٥ .
(٤) سورة القمر ٢٩ .

بعضُ بنيه : أفتهلِكُنا بما فَعَل السفهاء مِنا ؟ فردّ عليهم بعضَ أرزاقِهم .

وقال عُمارة اليَمنىّ :

لا تَعجَبا لقُدارِ ناقةِ صالحٍ ⁂ فلكلِّ عصرٍ ناقةٌ وقُدارُ

* * *

٣٦ — وقوله: وَشربتُ من النهر الذى ابتُلِىَ به جنودُ طالوت .

يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ فلمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْه إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾[1] .

لمَّا خرج طالوتُ بالجنود من بيت المَقْدِس ، وهم يومئذ سبعون ألفَ مُقاتل ــ أو ثمانون ألفاً ــ لم يتخلّفْ عنهم إلاّ كبير لهرمه ، أو مَريضٌ ، أو ذو عُذْر ؛ لأنّهم لمّا رأوا التّابوت لم يشكّوا فى النّصر ، وتسارَعوا[2] إلى الجهاد ، فقال طالوت : لا حاجةَ لى فى كلّ ما أرَى ، لا يخرج معى رجلٌ بَنَى شيئا لم يفرُغ منه ، ولا صاحبُ تِجارةٍ يَشتغِلُ بها ، ولا رجلٌ عليه دَيْن ، ولا رجل تزوّج امرأةً ولم يَبْنِ بها ، ولا أبتغِى إلا الشابّ[3] النّشِيط الفارغ[4] .

فاجتمع له ثمانون ألفاً من شرْطه ، وكان حَرٌّ شديد ، فشكَوْا إليه قِلّة الماء بينهم وبين عدوِّهم ، وقالوا : إنّ المِياهَ لا تَحملُنا ، فادعُ اللهَ يُجْرِى لنا نَهَراً ، فقال : إنّ اللهَ مُختبِرُكم بنَهَرٍ ــ وهو نهر بين الأُرْدُنّ وفِلَسْطين ــ عَذْب ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْه فَلَيس مِنِّى ﴾ ، أى من أهلِ ذِمّتى ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنّه مِنِى إلاّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إلاّ قَلِيلاً مِنهُم ﴾ ، قيل: كانوا أربعةَ آلافٍ ــ أو ثلاثمائةٍ وبضعة عشرَ رجلا ــ وهو الصّحيح ، ولم يتجاوَزْ معه إلاّ مؤمن .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٠ .

(٢) م : « فسارعوا » .

(٣) ط : « الشباب » .

(٤) تفسير الطبرى ٥ : ٣٤٨

ولمّا وصلوا النّهر وقد ألقى عليهم العطش ، شَرِب الكلّ إلاّ هذا العدد القليلُ ؛ ممّن اغترَف غُرفةً بيده كما أَمر الله تعالى. فقَوِيَ قلبُه، وصحَّ إيمانُه، وكَفَتْه تلك الغُرْفةُ الواحدة لشُرْبه وحَمْله ودَوَابِه . والّذين شَربوا وخالفوا أمْرَ الله تعالى اسودّت شفاهُهُم ، وغلَبَهم العطش ، ولم يرْووْا ، ووَقفوا على شاطىء النَّهْر ، وجَبُنوا عن لقاء العدوّ ، فلم يُجاوِزوا ولم يَشهدوا الفَتْح ، أوجاوَزوا ولكنّهم لم يحضُروا القتال ، إلاّ الّذين لم يَشربوا ، قال الله تعالى : ﴿ فلمّا جاوزَهُ هُوَ والّذِين آمَنُوا معه قالوا لا طَاقَةَ لنا الْيَوْمَ بِجَالوتَ وجُنودِهِ ﴾ . أي الّذين خالَفوا أمرَ الله ، وشَرِبوا ولَم يتجاوَزُوا . ﴿ قال الّذين يَظُنُّون أنّهم مُلاقُو الله كم مِنْ فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبتْ فِئةً كَثيرةً بإذن الله والله مع الصابِرين ﴾(١) .

ومن أبياتٍ ربّانيّة لشيخ الإسلام ابنِ دقيقِ العيدِ ـ قدّس الله روحه في الجنّة :

ويارُبَّ مَن أوفَى على بعضِ قَصْدِه ... فأدرَكه آثارُ هَيبة قُرْبِهِ
يُنادِي لمن قد أَمَّ بحرَ جَنابِهِ : ... حَذارِ حَذارِ الموتَ أن لاتَعُبَّ بِهِ
كأنّا وَرَدْنا نهرَ طالوتَ في الهَوَى ... فذُقْنا وما فُزْنا بلذّةِ قُربِه

وقال أبو إسحاق الغَزّيّ :

ومن حسناتِ الوارِد البحرَ أنَّه ... يُرَى مُذنبا من لا يعاف الذنائبا
بما شَرِبوا منه ، لما كُنتُ شارِبا ... ولو كُنتُ في أصحاب طالوتَ مبتلًى

وقال أبو العَلاء المعرّي :

سَقْياً لدِجلة وَالدّنيا مفرّقةٌ ... حتّى يَعودَ اجتماعُ النّجم تَشتيتا(٢)
وبَعدَها لاأُريدُ الشّربَ من نَهَرٍ ... كأنّما أنا من أصحابِ طالُوتا

---

(١) سورة البقرة ٢٥٠ .

(٢) سقط الزند ١٦٣٨ .

٣٧ — قوله : وَقَدْتُ الفيلِ لأبْرَهَة .

يشير بذلك إلى ما أخبر الله تعالى عن أهل الفيل الّذين قصدوا خرابَ مَكَّة ، وذلك أنّ أبرهةَ بنَ الصَّبَّاح أبا يَكْسُوم ، بنى كنيسةً بصَنْعاء لأصحمة النَّجاشيّ ، لأنّه كان مَلِكَ اليَمَن من قِبَل النَّجاشيّ ، وأراد صَرْفَ الحاجّ عن الكعبة إليها ، فخرج رجلٌ مِنْ كِنانةَ ، فأحدَثَ فيها ، ولَطَّخها بالعَذِرة احتقاراً لشأنها . أو أنَّ رُفقَةً من قريش خرجوا في تِجارةٍ حتّى نزلوا قريباً من تلك الكنيسة ، واحترقوا ناراً واشتَوَوا ، ثم ارتحلوا ، فهبَّتْ ريحٌ فأحرقتْها النار . فغَضِب النجاشيُّ لذلك ، فقال أبرهة وحُجْر بنُ شَراحِيل : لا تَحزَن ، فنحن نَهدِم الكعبة . فطَلَب أبرهةُ من النّجاشيِّ فِيلَه المعروف بمحمود ، وكان عظيما جسيما لم يُرَ مِثْلُه ، فبعثه إليه ومعه غيرُه من الفِيَلة ، وجيشاً ليسير إلى الكعبة ، فلمّا قرب أبْرَهة من مَكّة أمرَ بالغارة على أهلِ الحرم ، فأخذوا لعَبْد المُطّلب مائتَيْ بعير . وجهّز أبرهةُ برسولٍ إلى شريفِ مكّة يقول: لم آتِ لقِتال ، وإنما أتيتُ لهَدْم هذه البَنِيّة . فجاء الرسولُ إلى عبد المطّلب ، وبلّغه الرسالة ، فقال : هذا بيتُ الله وبيتُ إبراهيم خليلِ الله ، ونحن مالنا يدٌ أن نُقاتِلَ هذا المَلِك . وتوجَّهَ مع الرسول إلى أبْرَهة ، ودخل عليه بعد ماعرّفوه بشَرَفِه ـ وكان وسيما جَسِيما ـ فأكْرَمَه أبرَهَةُ وعَظّمه ، ونزل عن سريره وجلس معه على البِساط ، وقال لتَرْجُمانه: قل له يسأل حاجته ، فقال: قل للمَلِك يَرُدّ عليَّ الأباعرَ الّتي أخذها ، فقال أبرهة : قل له قد زَهِدْتُ فيك بعد رغبتي. أنا جئت إلى بيت ـ هو دِينُك ودِينُ آبائك ، وهو شرفُكم وعِصمتُكم ـ لأهدِمَه ، لمْ تكلّمني فيه ، وتسألني في ردّ مائتي بعير ! فقال عبد المطّلب : أنارَبّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه . فقال أبرهة : ما كان ليمنعني منه فقال : دونَكه[1] فردّ عليه إبله ،

(١) ط : « دونك » .

فعاد عبد المطّلب إلى مكّة، وأمرَ قومَه أن يتفرّقوا فى رءوس الجبال، وأتى هو إلى البيت وأخذ بحلقه الباب، وقال:

يارَبِّ لا أرجو لهم سِواكا   يارَبِّ فامنَعْ منهمُ حِماكا
إنَّ عَدُوَّ البَيْتِ مَن عاداكا   امنَعْهُمُ أَنْ يُخرِبوا قُراكا

وقال أيضاً:

يارَبِّ إنَّ العبدَ يَمْـنَعُ رَحْلَهُ فامنعْ رِحالَكْ[١]
لا يَغْـلِبَنَّ صَليبُهمْ ومِحالُهم غَدْوًا مِحالَكْ
جَمَعُوا جُموعَ بلادِهِم والفيلَ كى يَسْبُوا عِيالَكْ
عَمَدوا حِماكَ بجَهْلِهِمْ كيداً وما رَقَبوا جَلالَكْ
إن كنتَ تارِكَهم وكعـبتَنا فأَمْرٌ ما بَدَا لَكْ[٢]

ثمّ خرج عبد المطّلب مع قومه إلى رءوس الجبال، وأصبح أبرهة بجيشه وقد عَبَّأه فى فِيَلَته ـ قيل: كانوا ثمانية أفْيِلة، أو اثنى عشر، أو ألف فيل. وقيل: لم يكن معه غير الفيل المدعوّ محموداً[٣] ـ فقدّموا الفيلَ المذكورَ وبعثوه إلى نحو الحَرَم فلم يَنْبَعث، فضربوه بالمِعْوَل فى رأسه فأبَى، فوجّهوه نحو اليمن فقام وهَرْوَل، ووجّهوه نحوَ الشّام فهَرْوَل، ونحوَ المشرق فهرول، فوجّهوه نحو الكَعْبة فَبَرك.

وزعموا أنّ عبد المطّلب لم يزل آخِذاً بحلْقةِ الباب حتى نشأ من قِبَل اليمن من البحر طير؛ عن أبي سَعيد الخُدرىّ، أنه سأل عن الطّير، فقال:

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٥١ وفيها: «فامنع حلالك». والحلال: جمع حلة ـ وهى جماعة البيوت.

(٢) ابن هشام: «وقبلتنا».   (٣) ط: «محمود».

حمامُ مكّة ، مع كلّ طير ثلاثة أحجار ، أكبرُ من العدسة ، وأصغر من الحِمّصة .

وعن ابن عبّاس رضى الله عنه ، أنّه قال: رأى منه عند أمّ هانىء من ذلك نحو قفيز ، مخطّطة بحُمْرة كالجزع[(١)] الظّفارِىّ ، على كلّ حصاة اسم من يرمَى بها ، أو كان الحجرُ كرأس الرجل[(٢)] .

ورُوِى أنّ عبدالمطّلب لمّا رأى الطيرَ ، قال: أرى طيراً ما أعرفها ، ماهى نجدّية ولاتِهاميّة ، ولاعربيّة ولاشآميّة ، أشباه اليعاسِيب[(٣)] قد أقبلتْ يكسع بعضُها بعضاً ، أمامَ كلِّ دُفْعة طائرٌ يقودها ، أحمرُ المنقار أسودُ الرأس ، طويلُ العُنق . فجاءت الجيش وألقتْ على كلّ واحد حصاة ، وكانت الحصاة تقع على بَيْضة أحدِهم فتخرِقها حتّى تقع فى دماغه ، وتخرِق الفيلَ والدّابّة وتغيب فى الأرض من شدّة وَقْعها ، وكانت تقع على رأسِ الرّجل ، وتخرُج من دبره .

وروى أنّه من أصابته منهم ، فكأنّه أصابه جُدَرىّ ، وهو أوّل جدرىّ ظهر فى الأرض ، فهلكوا .

وأمّا أبرَهة فإنّه كانت أعضاؤه تتساقط ، فسقطتْ أنملته أوّلا ، وتبعها مِدّة ودمٌ وقيح ، حتى وصل صنعاء فيمن بقى كفرْخ طير ، وما مات حتى انصدع صدرُه .

وعن بعض المفسّرين أنّه لم ينـج منهم إلاّ أبرَهة ، فسار فوق الفيل ، وهو لايشعر به حتّى أتى النجاشىّ ، فقصّ عليه القصّة ، فلما انتهَى ألقى الطائرُ عليه الحصاة ، فمات بين يدى النّجاشىّ .

وأخذ عبد المطّلب وأبو مسعود الثّقفىّ من أموالهم شيئاً كثيراً .

---

(١) الجزع : الخرز اليمانى . وظفارى : منسوب إلى ظفار من بلاد اليمن .

(٢) ط : « الرجال » .

(٣) اليعاسيب : جمع يعسوب وهو أمير النحل .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : رأيتُ قائد الفِيل وسائقة أعجميّين يَستطعِمان بمكّة .

ورُوِى أنّ أَبرهَة كان جـدّ النّجاشىّ الّذى كان فى زمن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وكانت هذه القصّة فى العام الّذى وُلد فيه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عند الأكثرين .

وقال الـكلبىّ : قبل مولده بعشرين سنةً ، أو بثلاثٍ وعِشرين ، وقال مُقاتِل : بأربعين سنة .

وهـذه القصّة دالّةٌ على شَرَف النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ومُعجِزةٌ له فى كون الله عزّ وجلّ صدّ الفيلَ وأصحابَه عن بلد سَيَظهر منه . والصحيح أنّ المعجِز يتقدّم على زمان البعثة تأسيسا للنبىّ المرسَل فيما بعد ، ولذلك كانت الغَمامةُ تُظِلُّه قَبل مَبعثِه صلّى الله عليه وسلم ، وذلك خلافاً للمعتزلة ، فإنّهم لم يجوِّزوا ذلك ، ولذلك قالوا : لابدّ أن يكون فى ذلك الزّمان نبىّ ، كخالد ابن سِنان أو قُسّ بن ساعدة .

وفى قصة أصحابِ الفيل ، قلتُ أنا من جملةِ قصيدة مدحتُ بها النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم :

والبيت صارَ حمىً إذ كان مَطهرةً ... وكلّ من رامَهُ بالسُّوءِ مخذولُ
فصانَ ساحتَهُ[1] من كيدِ أَبرهَةٍ ... لمّا أتاه وفى أصحابِهِ الفيـلُ
بادُوا بأحجارِ سجّيل وما رَجَعوا ... لمّا رمتهم بها الطّيْرُ الأبابيلُ

---

(١) ط : « صاحبه » .

٣٨ – وقوله : وعاهدتُ قريشاً على ما فى الصَّحيفةِ .

يشيرُ بذلك إلى الصحيفة التى تعاهدتْ قريشٌ على كِتابتها ، وذلك أنّ كفّار قريشٍ لمَّا رأَوْا أنّ أصحابَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الّذين هاجَروا إلى الحبشة قد نزلوا بَلدا ، وأَصابوا قدْراً وأَمْنا ، وأنّ النجاشىّ قد مَنَع من لجأ إليه منهم ، وأنّ عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه قد أسلمَ ، وأصبح هو وحمزة رضىَ الله عنهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، وصار الإسلامُ يَفشُو فى القبائل ، اجتمع المذكورون من كفّار قريش ، وائتمروا أن يَكتبوا كتابا يَتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطّلب ، على ألاّ يَنكِحُوا إليهم ولا يُنكِحوهم ، ولا يَبيعُوهم شيئاً ، ولا يَبْتاعوا منهم .

ولمَّا اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثمّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثمّ علّقوا الصحيفة فى جوْف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، فلمَّا فعلتْ قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطّلب إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شِعْبه وخرج من بنى هاشم أبو لهبٍ إلى قريشٍ فظاهرهم ، ولقى هندًا بنت عُتبة ابن ربيعة حين فارق قومه ، وظاهر (١ عليهم قريشاً ،١) فقال لها : يابنت(٢) عُتْبة ، هل نصرْتُ اللّاتَ والعُزّى ، وفارقتُ من فارقهما ، وظاهرتُ عليهما ؟ قالت : نعم ، فجزاكَ الله خيرا يا أبا عُتْبة ؛ وفى ذلك يقول أبو طالب :

ألا بلّغا عنّى على ذاتِ بَيْنِنا … لُؤَيًّا وخُصَّا من لُؤَىّ بنى كَعْبِ(٣)
ألم تعلموا أنّا وجدْنا محمّــدًا … نبيًّا كموسى خُطّ فى أوّل الكُتْبِ
وأنّ عليــه فى العبـاد محبّةً … ولا خيرَ ممّن خصّه اللهُ بالحبّ

(١ – ١) ساقط من ط (٢) م : « يا إبنة » .
(٣) ديوانه ٢٠

وأنّ الّذى ألصقتمو من كِتابكمْ   لكم كائنٌ نَحْساً كراغية السَّقْبِ(١)

أفيقوا أفيقُوا قبلَ أن يُحفَر الثّرَى   ويُصبح من لم يَجْنِ ذَنْباً كذِى الذَّنبِ

ولا تَتْبَعوا أمرَ الوُشاةِ وتقطعوا   أواصِرَنا بعدَ المَودّةِ والقُرْبِ

وتستجْلبوا حَرْباً عَواناً ورُبّما   أمرَّ على مَن ذاقه حَلبُ الحَرْبِ(٢)

بِمُعْتَرَكٍ ضَيْقٍ ترى كِسَرَ القنَا   به والنُّسُورَ الطُّخمَ يَعكُفن كالشَّرْبِ(٣)

أليس أبونا هاشمٌ شَدّ أزْرَه   وأوصَى بَنِيهِ بالطّعان وبالضَّرْبِ!

ولسنا نَمَلُّ الحربَ حتّى تَملّنا   ولا نَتَشَكَّى ما يَنُوب من النّكْبِ

ولكنّنا أهل الحفائظِ والنُّهَى   إذا طارَ أرْواحُ الكُماةِ من الرُّعْبِ(٤)

وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتّى جهدوا ألاّ يصلَ إليهم شىء إلاّ سِرّاً ، مستخفِياً به من أراد صِلَتهم من قريش .

وقد كان أبو جهل - فيما يُذكَر - لقىَ حكيمَ بنَ حِزامٍ ، ومعه غلام يَحمِل قمحا يريدُ به عمّته خديجةَ بنتَ خُوَيلد ، وهى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، فتعلَّقَ به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاء أبو البخترىّ فقال : مالك وله ! فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم ، فقال أبو البخترىّ : طعامٌ كان لعمّته عنده بعثتْ إليه ، أفتمنعه أن يأتيَها بطعامها ! خَلِّ سبيلَ الرّجل ، فأبى أبو جهل ، حتّى نال أحدُهما من صاحبه . فأخذ أبو البخترىّ لَحْىَ بعير

---

(١) السقب : ولد الناقة ، قيل إنه خاص بالذكر .

(٢) الحرب العوان : هى التى قوتل فيها مرة بعد مرة .

(٣) الطخم : السود . والشرب : الجماعة الشاربون .

(٤) الكماة : الشجعان ، جمع كمى .

فضربه فشجّه ، ووطئه وطْئاً شديداً ، وحمزة بن عبد المطّلب قريبٌ يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيشمتوا بهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم [صابرٌ] [1] على ذلك ، يدعو قومَه ليلا ونهارا ، وسِرًّا وجِهارا .

ثمَّ إنّه قام فى نَقْض الصّحيفة نفرٌ من قُريش ، ولم يُبْلِ [2] فيها أحدٌ أحْسَنُ من بلاء هِشام بن عمرو بن الحارث بن حُبَيب بن نصر بن مالك بن حسل ـ وذلك أنه كان ابن أخى نَضْلة بن هاشم بن عبد مناف لأمّه ـ وكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان يأتى بالبعير قد أوْقره طعاما ؛ حتى إذا أقبله فم الشِّعب خلعَ خِطامه [3] من رأسه ، ثم ضرب على جَنْبَيه ، فيدخل الشِّعب عليهم ، ويأتى به وقد أوقره بُرًّا [4] ، يفعل مِثل ذلك مرارًا .

ثمّ إنّه مشى إلى زُهَير بن أميّة بن المُغيرة ـ وأمّه عاتكة بنت عبدالمطلب ـ فقال : يازُهير ، أرضيتَ بأن تأكل الطعام وتلبَسَ الثّياب ، وتَنْكِحَ النّساء ، وأخوالُك حيث علمتَ ، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ، ولا يَنكِحُون ولا يُنكَح إليهم ! أما إنّى أحلِف بالله لو كان أخوالُ أبى الحكم بن هشام ، ثمَّ دعَوْتَه إلى مثلِ مادعاكَ إليه منهم ما أجابك إليه أبدا . فقال : وَيْحك ياهشام! فماذا أصنع؟ إنّما أنا رجلٌ واحد ، واللهِ لو كان معى رجل آخر لَقُمت فى نَقْضِها حتى أنقضها . فقال : قد وجدتَ . قال : ومَن هوَ ؟ قال أنا ، قال زُهَير : ابْغنا ثالثا . فذهب إلى المُطعِم بن عدىّ ، فقال له : يامُطعم ، أرضيتَ أن يهلِك بَطْنان من بنى عبدِمناف ، وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريشٍ فيه ! أما واللهِ لئن أمكنْتُموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سِراعا ، قال : وَيْحك ! ماذا أصنع ؟ إنّما أنا

---

(١) تكملة من م

(٢) فى الأصل : « لم يبتل » ، وما أثبته من م ، ط ، وابن هشام .

(٣) الخطام : حبل يشد به على فم البعير . (٤) أوقره : حمله .

رجلٌ واحد . قال : قد وجدتَ ثانيا . قال : مَن هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغنى ثالثا ، قال : قد فعلتُ ، قال : من هو ؟ قال : زهير بنُ أبى أُميَّة . قال : ابغِنى رابعا . فذهب إلى أبى البخترىّ ، فقال له نحواً ممّا قال لمُطْعِم بن عَدىّ . قال : وهل من أحدٍ يُعِينُ على هذا ؟ قال : نعم ، قال : مَن هوَ ؟ قال : زُهيرُ ابنُ أبى أميَّة والمُطعِم بنُ عَدِىّ ، وأنا معك . قال : ابغنا خامسا . فذهب إلى زَمْعة بن الأسوَد بنِ المطّلب بن أسَد ، وكلّمه ، وذكرَ له قرابتهم وحَقَّهم ، فقال : وهل على هذا الأمر الّذى تدعوننى إليه من أحد ؟ قال : نعم ، ثم سمَّى له القوم ، فاتعدوا خَطْم الحجُون(١) ليْلا بأعلى مَكة .

فاجتمعوا هنالك ، وأجمعوا أمرَهم ، وتعاهدوا على القيام فى نقضِ الصَّحيفة . قال زُهير : أنا أبدَؤُكمْ فأكونُ أوّلَ من يتكلَّم . فلمّا أصبحوا غدَوْا إلى أنديَتهم ، وغدا زُهَير عليه حُلّة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثمَّ أقبل على الناس ، فقال : ياأهل مَكَّة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنوها شم هَلْكَى لايُباعُون ولايُبْتاع منهم ! والله لا أقعد حتّى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فقال أبو جهل - وكان فى ناحية المسجد : كذبتَ والله لاتُشَقّ ! قال زمعة بنُ الأسوَد : أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها حيثُ كُتِبتْ . قال أبو البخترىّ : صدَقَ زَمْعة ، لانَرضَى ما كُتِب فيها ولانقرّ به . قال المُطْعِم بنُ عَدِىّ : صدقْتُما وكَذَب من قال غيرَ ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومّما كُتِب فيها ! وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قُضِىَ بلَيْل ، تُشوور فيه بغير هذا المكان ! وأبو طالب جالسٌ فى ناحية المسجد(٢) ، فقام المُطعِم بنُ عدىّ إلى الصحيفة ليشُقّها ، فوجد الأرَضَة قد أكلَتْها إلاّ « باسمك اللهم » . وكان كاتبَ الصَّحيفة منصورُ بنُ عِكْرِمة ، فشَلّتْ يدُه - فيما يزعمون .

---

(١) الحجون : مكان بمكة .

(٢) ط : « المجلس »

وذَكر بعضُ أهل السّيَر أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى طالب: ياعمّ ، إنّ الله قد سلّط الأرَضة على صحيفةِ قريش ، فلم تدَعْ فيها اسماً لله إلاّ أثْبتَتْه فيها ، ونفت القَطيعة والظُّلْم والبهتان . قال : أربُّكَ أخبَرَك بهذا ؟ قال : نعم ، قال: فوالله مايدخلُ عليك أحدٌ . ثم خرج إلى قريش ، فقال : يامعشرَ قريش ، إنّ ابنَ أخى أخبَرَنى بكذا وكذا ، فهلمّ صحيفتكم ، فإن كانت كما قال فانتهُوا عن قطيعتنا ، وإن كان كاذبا دفعتُ إليكم ابنَ أخى . قال القوم : رَضِينا ؛ فتَعاقَدوا على ذلك، ثمّ نظروا فإذا هى كما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شرًّا .

ولمّا مزّقت الصحيفةُ وَبَطَل مافيها قال أبو طالب فى ما كان من أمر أُولئك الّذين قاموا فى تمزيقها يمدَحهم على فِعلهم :

ألاَ هـل أتى بحريَّنا صنع ربّنا … على نأيهم ، والله بالناس أرودُ[(١)]
فيخبرهم أنّ الصّحيفةَ مُزّقتْ … وأَنْ كلُّ ما لم يرضَه اللهُ مفسَدُ
تَراوَحها إفــكٌ وسِحْرٌ مجمَّعٌ … ولمَ يُلفَ سحرٌ آخرَ الدهر يصعدُ
جزى الله رَهْطا بالحجون تتابعوا[(٢)] … على ملأ يَهـدى لحزمٍ ويُرْشِدُ
قعودًا لدى حَطْم الحجونِ كأنّهم … مَقاوِلَةٌ ، بل هم أعزُّ وأمجـدُ

---

(١) ديوانه ٦٣ ، والبحرى : المنسوب إلى البحر ، والمراد به هنا من هاجر إلى مكة من الصحابة . وأرود ، أى غالب على أمره يفعل مايشاء .

(٢) حطم الحجون : الموضع الذى حطم منه .

أعانَ عليها كلّ صَقرٍ كأنّه ... إذا ما مَشَى في رَفرفِ الدّرعِ أحرَدُ(١)
جرىءٌ على جُلِّ الخُطوبِ كأنّه ... شِهابٌ بكَفَّىْ قابسٍ يتوقدُ
من الأكرمِينَ من لُؤىِّ بنِ غالبٍ ... إذا سيم خَسْفاً وجهه يتربَّدُ
طويلُ النجاد، خارجٌ نصفُ ساقِهِ، ... على وجهِهِ يُسقَى الغمامُ ويسعد
عظيم الرماد، سيّدٌ وابنُ سيّدٍ ... يَحُضُّ على مَقرَى الضُّيوف ويحشدُ
ويَبنِى لأفناءِ العَشيرة صالحاً ... إذا نحن طُفنا في البلاد، ويَمْهَدُ
أَلَظَّ بهذا الصُّلح كلَّ مبرَّأٍ ... عظيم اللّواء، أمره ثَمّ يُحْمَدُ(٢)
قضَوا ما قضَوْا في ليلِهم ثُمَّ أصبَحوا ... على مَهَلٍ، وسائرُ الناسِ رُقَّدُ
هُم رَجَعوا سَهْلَ بنَ بَيْضاء راضياً ... وسُرَّ أبو بكرٍ بها ومحمّدُ
متى شركَ الأقوام فى جُلِّ أمرِنا ... وكنّا قديماً قبلَها نتودّدُ!
وكنّا قديما لا نُقِرُّ ظُلامةً ... وندركُ ماشئنا ولا نَتَشدّدُ
فيالَ قُصَىٍّ هل لكمْ فى نفوسِكمْ ... وهل لكمْ فيما يجىءُ به غَدُ!
فإنّى وإيّاكمْ كما قال قائلٌ ... لَدَيكَ البيانُ لو تكلّمتَ، أسوَدُ(٣)

أسود: اسمُ جَبَل، كان قد قتل فيه قتيلٌ لم يُعرَف قاتلُه، فقال أولياء المقتول هذه المقالة؛ يعنُون بها أنّ الجبَل لو تكلّم لأبانَ عن القاتل، ولعَرّف بالجانى، ولكنّه لا يتكلّم؛ فذهبتْ مقالتُهم مَثَلا.

* * *

---

(١) الأحرد فى الأصل: الذى فى مشيه تثاقل. (٢) ألظ، أى ألح.
(٣) أسود، أى يا أسود، حذف منه حرف النداء.

٣٩ — وقوله : وتاوَلتُ فى بيْعة العقَبة .

هٰكذا قاله ابنُ زَيْدون ، وهٰكذا أثبَته ابنُ بسَّام عنه فى «الذَّخِيرة» وكذا نقلتُه من خطّ ابنِ ظافرٍ رحمة الله ، فى كتاب «نفائس الذّخيرة» .

بَيْعاتُ العَقَبات ثلاث : الأولى خروجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذّى لقِىَ فيه النّفر من الأنْصار ؛ يَعرِض نفسَه على قبائل العرب ، وكانو رَهْطا من الخَزْرج ، أراد اللهُ بهم خيرا ، فقال لهم : مَن أنتم ؟ قالوا : نفرٌ من الخزْرج . قال : أَمِن مَوالى يهودَ ؟ قالوا : لا ، قال : أفلا تجلِسون أكلّمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرَضَ عليهم الإسلام . فقال بعضُهم لبعض : تعلّموا واللهِ أنّه النبىّ الّذى كان توعَّدكم به اليهود ، فلا يَسبِقَنّكم إليه أحد ، فأجابوه وصدَّقوه . وقالوا له : إنّا كُنّا تركنا قومَنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشرّ مابينهم ، فإنْ يجمَعْهم اللهُ عليك فلا رجلَ أعزّ منك . ثم انصرَفوا راجعين إلى بلادهم ، قد آمَنوا وصدّقوا ، وكانوا ستّة نفرٍ من الخَزْرج .

وأمّا العَقَبة الثانية ، فلمّا كان فى العام القابِل قَدِم مكّةَ من الأنصار اثناعشر رجلا ، منهم خمسةٌ من السِّتّة الّذين ذُكروا أوّلا ، فتَلاَ عليهمْ آية النِّساء « لاّ تُشْرِكوا به شيئا » ، ثم قال : « ومَنْ أوفَى فأجرُه على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى هذه الدنيا ، فهو طُهْرٌ له — أو قال : أو كفّارة — ومن أصاب من ذلك شيئا فستَرَ اللهُ عليه فأمْرُه إلى الله ؛ إن شاء غفَر له وإن شاء عَذّبه » .

وأمّا العَقَبة الثالثة فإنّه خرج مَن خرج من الأنصار المسلمين إلى المَوْسم مع حُجّاج قومِهم من أهل الشِّرك ؛ حتّى إذا قدموا مكّةَ ، واعَدوا رسولَ الله

صلى الله عليه وسلم العقبة ، من أوسط أيام التشريق ، فلما مضى ثلث الليل اجتمعوا في الشعب ، وهم ثلاثة وتسعون رجلا وامرأتان : أم عمارة[١] إحدى بني مازن بن النجار وأسماء بنت عمرو بن عدي ، فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ومعه العباس بن عبد المطلب — وهو على دين قومه إلا أنه أحب أن يظهر على أمر ابن أخيه ويتوثق له — فلما جلس كان أول متكلم ، فقال: يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده . فقالوا : قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم » . فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لتمنعنك [مما نمنع][٢] منه أزرنا . وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها — يعني اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ، أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا ، يكونون

(١) في عيون الأثر : « هي نسيبة بنت كعب » .
(٢) تكملة عن م .

على قومهم بما فيهم » . فأخرجوا تسعةً من الخَزْرج وثلاثةً من الأوْس .

ولمّا انتهت البَيْعة صَرَخ الشيطانُ من رأس العَقَبة : يا أهل الجباجب ، هل لكم فى مذمّم والصُّبَاة[١] معه ، قد أجمعوا على حَرْبكم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أزبُّ العَقَبة[٢] ، اتسمَعُ أى عدوّ الله ! أمَا والله لأفرُغنَّ لك . فاستأذنه العباس بن عبادة فى القتال ، فقال : لم نؤمَر بذلك . ولمَّا قدموا المدينةَ أظهروا الإسلام .

فهذه بَيْعات العَقَبات الثلاث ، حدَّثنى بها شيخُنا الإمامُ الحافظُ أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيِّد الناس اليَعْمرىّ ، مختصرا من سِيرته[٣] .

وأمّا أنا فلم أقفْ ممّا علمتُه على أنّ أحدا من أهل العِلم بالسِّيَر تأوّل فى بَيْعةٍ من البَيْعات ، أو صدرَ منه بعد المبايَعة فعلٌ يُخالِف قولَه ، ولم أعلم لقول ابن زَيْدُون وَجْها فيما ذكره مع هذهِ الوقائع الَّتى سردها ، وأشارَ إليها ، وما بقى إلاَّ أن يُتأوَّل كلامه ، فنقول : إنّه لاشكَّ أنّ الَّذى يضعُ يدَه فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبايعُه على نُصْرَته على عدوّه ، والإيمان بما جاء به ، هذه أعظم دَرَجات الإيمان ، فإذا ناقَضَ بعد ذلك وخالَفَ فِعلُه قولَه يكون قد أتَى بأمرٍ عظيمٍ ، وخطأً كبيراً ، فكأنّه قال : « أو تأوّلتُ بعد مبايَعتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وخالفتُ قولى بفعلٍ ناقضٍ ما بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم » ، وهذا ولاشكَّ من الكبائر المُوبِقات .

---

(١) الصباة : جمع صابىء ، وفى ابن هشام : « الصباء » .

(٢) أزب العقبة : اسم شيطان .

(٣) هى السيرة المعروفة بعيون الأثر ، نقل المؤلف عنها باختصار ، وانظر الجزء الأول صفحة ١٥٥ وما بعدها .

٤٠ — وقوله : ونفرتُ إلى العيرِ ببدر .

يشيرُ بذلك إلى وَقْعة بَدْرِ الكبرى ، وذلك أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سمع أنّ أبا سفْيان بن حَرْب مقبلٌ من الشام ، في عِيرٍ لقُريش عظيمة ، فندَب الناسَ وقال : هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم ، فاُخرُجوا إليها لعلّ الله يُنفّلكُموها . فانتدب النّاس(١) ، وكان أبو سُفْيان لمّا دَنا من الحجاز يتحسّس الأخبارَ من الرُّكْبان ، فأصابَ مِن بعضهم اُستنفار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ له ، فحذِر عند ذلك ، واُستأجر ضَمْضم بن عمرو الغِفاريّ ، فبعثه إلى مكّة ليُخْبِر قريشا بذلك ، ويستنفِرهم إلى أموالهم . فخرج ضَمْضَم سريعا ، ولمّا أتى إلى مكّة صرخ ببَطْن الوادى واقفا على بعيرٍ ، قد جدَعه ، وحوّل رَحْلَه وشَقّ قميصه ، وهو يقول : يامعشَر قريش ، اللَّطِيمَة اللّطِيمَة(٢) ! أموالُكم مع أبي سُفْيان قد عَرَض لها محمدٌ فى أصحابه ، لاأرَى أن تُدرِكُوها ؛ الغَوْثَ الغَوْث !

فتجهّزَ الناسُ سِراعا ، فكانوا بين رَجُلين ؛ إمّا خارج ، وإمّا باعثٌ مكانه رجلا ، ولم يتخلّف من أشراف قريشٍ أحدٌ إلاّ أبو لهب ، تخلّف وبعث مكانه العاصىَ بن هشام بن المغيرة ، وأجمع أميّةُ بنُ خلف على القعود — وكان شيخًا جليلا — فأتاه عُقْبة بن أبي مُعَيط ، وهو جالس فى المجلس بين ظَهْرانَىْ قومه وبِمِجْمَرة فيها نار ، فوضعها بين يديه ، وقال : يا أبا علىّ ، اسْتَجمِرْ ، فإنّما أنتَ من النّساء ! فقال : قَبّحك الله ، وقَبّح ماجئتَ به ! ثمّ تجهّز وخرجَ مع الناس .

وخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى ليالٍ مضتْ من شهر رمضانَ فى أصحابه ، ودفع اللّواءَ إلى مُصعَب بنِ عُمَير بنِ هشام بن عبدِ مناف بن عبد الدّار ، وكان أبيض ، وكان أمامَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رايتان سَوْداوان ، إحداهما مع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، والأخرى مع بعض الأنصار ، وجَعَل على الساقه قيس بن أبى صعصعة ، أخابنى مازن بن النجار . وكانت

(١) انتدب الناس ، أى خفوا للقتال .

(٢) اللطيمة : الإبل تحمل الطيب .

راية الأنصار مع سعد بن مُعاذٍ فى قول ابن هشام[١]، فلمّا كانوا قريبا من الصَّفْراء بعث بَسبس بن عمرو وعَدِىّ بن أبى الزَّغباء إلى بَدْر يتحسّسان له الأخبار عن أبى سُفْيان وغيره، فمضَيا حتّى نزلا بَدْرا، وتقدّم أبو سُفْيان العيرَ حذرا، حتّى ورد الماء، فأخذ من أبعارِ بَعيرَىْ بَسبس وعدىّ وفتّه، فإذا فيه النَّوَى، فقال: هذه واللهِ عَلائِفُ يثرِب، فأسرَعَ إلى أصحابه وضرب وجه عِيره عن الطّريق وساحَلَ بها، وترك بدرا بيسار.

ثم ارْتحَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتَى واديًا يقال له: ذَفِران، فجزَع فيه[٢]، ثمّ نزل. وأتاه الخبرُ عن قريش، فاختبرَ الناس واستَشارَهم. فقام أبو بكر فقال وأحسَن، ثمّ قام المِقْداد بنُ عمرو فقال وأحسن، ثمّ قال: يا رسولَ الله، امض لِما أمَرَك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذْهَبْ أنتَ وربك فقاتِلاَ إنّا ها هنا قاعدون ﴾[٣] ولكن اذهب أنت وربك فقاتِلاَ إنّا معكما مقاتِلون، فوالّذى بعَثَك بالحقّ نبيًا لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغِماد[٤] لجالَدْنا معك مِن دُونه حتى تَبلغه. فقال له خَيْرا، ودعا له، ثم قال: سيروا، أبْشروا؛ فإنّ الله تبارك وتعالى قد وعَدَنى إحدى الطائفتين، واللهِ لكأنّى الآن أنظرُ إلى مصارِع القوم.

ثم ارْتحل من ذَفِران ونَزَل قريبا من بدر. ولمّا أمسَى بعثَ علىَّ بنَ أبى طالب والزّبير وسعد بن أبى وَقّاص رضى الله عنهم يلتمسون الخبر، فأصابوا زاوية لقريش فيها غلامان لبعضِهم، فأتَوْا بهما رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أخبرانى عن قريش، فقالا: هم وراء الكثيب الّذى ترى، قال: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: كم عِدَّتُهم؟ قالا: لا ندرى، قال: كم يَنْحَرون كلَّ يوم؟ قالا: يومًا تِسْعا، ويومًا عَشْرا. فقالَ رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٥١.
(٢) جزع فيه، أى قطعه.
(٣) سورة المائدة ٢٤.
(٤) برك الغماد: موضع بناحية اليمن.

صلى الله عليه وسلم : القومُ مابين التّسعمائة والألف ، ثمّ قال : مَن فيهم مِن أشرافِ قريش ؟ قالا : عتْبة بن ربيعة وشيبةُ بن ربيعة وأبو البَختَرىّ بن هشام وحكيمُ بن حزام وَنوْفل بن خُوَيلد ، والحارثُ بن عامر ، وطُعَيمةَ بن عَدِىّ ، والنضر بن الحارث ، وزَمْعة بنُ الأسوَد ، وأبو جهل بن هشام ، وَأُميَّة بن خَلَف ، و نُبَيْه ومنبِّه أبنا الحَجّاج ، وسُهَيل بنُ عمرو ، وعمرو بن عبد وُدّ . فأقبل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على الناس ، وقال : « هذه مكّة ، ألقتْ إليكم أفلاذَ كَبِدها » .

ولمّا رأى أبو سفْيان أنه قد أحرز عِيَره ، أرسل إلى قريش : إنّكم إنّما خرَجْتم لتمنعوا عِيَركم ورجالكم وأموالكم وقد نجّاها الله ، فارْجِعُوا . فقال أبو جهل : واللهِ لانرجع حتّى نرِد بدرا ـ وكان موسما للعرب ـ فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزُرَ ، ونُطعم الطّعام ، ونَسقِى الخمرَ ، وتعزف علينا القِيان ، وتَسمَع بنا العربُ بمسيرنا وجمْعِنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدَها ، فامضوا .

وقال الأخنسُ بن شَريق : يابنى زُهرة ـ وكان حليفا لهم ـ قد نجّى اللهُ أموالكم ، وخلّص لكم صاحبَكم مَخْرمةَ بن نوفل ، وإنّما نَفرتم لتمنعوه [وماله][1] فارجعوا ، فإنه لا حاجَة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة ، لا ما يقول هذا ـ يعنى أبا جهل ـ فرجَعوا ، ولمْ يَشهَد بدرا زُهْرِىّ واحد .

ولم يكن من قريشٍ بطنٌ إلاّ وقد نفر منهم ناسٌ إلاّ بنى عدىّ بنِ كَعْب ، لم يخرجْ منهم رجلٌ واحد .

ورجع طالب بن أبى طالب إلى مكّة مع مَن رجع ، ومضتْ قريشٌ فنزلتْ بالعُدْوة القصْوَى من الوادى خلفَ العَقَنْقَل[2] ، والقَلِبُ ببدر فى العُدْوة الدنيا إلى المدينة . وَبعَثَ اللهُ عزّ وجلّ السماء ـ وكان الوادى دهْساً[3] ـ فأصابَ

---

(١) من سيرة ابن هشام . (٢) العقنقل فى الأصل : الكثيب من الرمل .
(٣) الدهس : المكان اللين لم يبلغ أن يكون رملا .

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ماء لَبَّد لهم الأرض ، ولم يَمنَعهم من المسير ، وأصاب قريشا منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . فخرَج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُبادِرهم إلى الماء حتّى إذا جاءوا إلى أدنَى ماء مِن بدر نَزَل به.

فذكَروا أنّ الْحُبابَ بنَ الْمُنذِر بن الجموح الأنصاريّ قال: يارسول الله ، أرأيتَ هذا المَنزِل، أمَنزِ لاً أنزلَكهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدّمه وَلا نتأخّر عنه ، أم هو الرأيُ والحَرْب والمَكيدة ؟ قال: « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » . قال : يارسولَ الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهَضْ بنا حتّى نأتِيَ أدنَى ماء من القوم ، فننزل به ، ثم نُغَوِّر[1] ماعَداه مِن القُلُب ، ثمَّ نَبْنى عليه حَوْضا فنملؤه ماءً ، ثمَّ نقاتِل القومَ، فنَشرب ولا يَشرَبون . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أشرتَ بالرَّأى » ، ونَهَض بمن معه من النّاس ، ونزل على أدنَى ماء من القوم ، وأمرَ بالقُلُب فغُوِّرَتْ ، وبَنَى حَوْضا على القَليب الّذى نزل به ، ومُلِئ ماء ، وقُذِفتْ فيه الآنية ، وبُنِيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عَرِيش ، فكان فيه .

وأقبلتْ قُريش حين أصبحتْ ، فلمّا رآها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تصوَّبُ من الكَثِيب الّذى جاءوا منه ، قال : « هٰذه قريش قد أقبلتْ بخيَلائها وفخرها ، تحادّك وتكذِّب رسولَك ، اللّهمّ فنصرَك الّذى وعدتَنى به ، اللّهمَّ أحِنْهم[2] الغداة » !

ولمّا نزل الناسُ أقبَل نفرٌ من قريش فيهم حكيمُ بنُ حِزام ، حتّى وَرَدوا حوضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « دَعُوهم » . فما شَرِب منه أحدٌ يومئذٍ إلاّ قُتِل ، إلاّ ما كان مِن حكيم بن حِزام فإنّه لم يُقتَل ، ثمّ أسلَم وحَسُن إسْلامه ، وكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والّذى نجّانى يوم بدر .

---

(١) نغور ماوراءه من القلب ، أى نفسدها ، والقلب : جمع قليب ، وهو البئر .
(٢) أحنهم : أهلكهم ، من الحين وهو الهلاك .

ولما اطمأن القوم بعثوا عُمَير بن وهب الجُمَحِيّ ، فقالوا : احزُرْ لنا أصحاب محمد ، كم هُمْ ؟ فدار بفرسه حول العسكر ، ثم رجع فقال : إن القومَ ثلثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلا ، ولكن رأيتُ يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموتَ الناقع[1] ، قوم ليس لهم مَلجأ ولا مَنَعة إلا سيوفُهم ، والله ما أرى أن يُقتَل رجل منهم حتى يقتُل منكم رجلا منكم ، فإذا أصابوا بأعدادِهم منكم فما خيرُ في العَيْشِ بعد ذلك ! [فروْا رأيكم] .

ولما سمع بذلك حكيمُ بنُ حِزام ، أتى عُتْبة وقال : يا أبا الوليد ، إنك كبيرُ قريش وسيِّدُها والمُطاع فيها ، هل لك إلى ألاّ تزال تُذكر فيها بخَيْر إلى آخر الدّهر ؟ قال : وما ذلك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمِل أمرَ حليفك عَمْرو بن الحَضْرَميّ . قال : قد فعلتُ ، أنت عليّ بذلك ؛ إنّما هو حليفى فعليّ عَقْلُه ، وما أُصيبُ مِنْ مالِه ؛ فأتِ ابنَ الحَنْظلية[2] ـ يعنى أبا جهل .

ثم قام عُتبة خطيبا فقال : يامعشرَ قريش ، إنكم واللهِ ماتصنعون بأن تلقَوْا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتُموه لا يزالُ الرّجل ينظُر فى وجه رجلٍ يكره النظر إليه ، قتل ابنَ عمّه أو ابنَ خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمّد وسائر العرب ، فإنْ أصابوه فذاك الّذى أردْتم ، وإن كان غيرَ ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه لما تريدون .

وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأى عُتبةَ فى النوم على جَملٍ أحْمر ، فقال : « إن يكنْ عندَ أحدٍ من القَوْم خيرٌ فعندَ صاحبِ الجمل الأحمر ، إنْ يُطيعُوه يَرْشُدوا » .

ثمّ انطَلق حكيمُ بنُ حِزام إلى أبى جَهْل ، فقال له ما قاله عُتْبة ، فقال :

---

(١) البلايا : جمع بلية ، وهى الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسق حتى تموت . والنواضح : الإبل التى يسقى عليها الماء .

(٢) قال ابن هشام : « والحنظلية أم أبى جهل ، وهى أسماء بنت مخربة ، أحد بنى نهشل بن دارم .

انتفخ والله سَحْرُه حين رأى محمدا وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبه ما قال ، ولكنه قد رأى محمدا وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه ، وقد تخوفكم عليه .

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينيك ، فقم فانشد خُفْرتك[1] ومقتل أخيك .

فقام عمرو بن الحضرمي ، ثم صرخ : واعمراه ! واعمراه ! فحميت الحرب .

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل : « انتفخ والله سَحْره »[2] قال : سيعلم مُصفِّرُ استه : من انتفخ سَحْره ؛ أنا أم هو !

وخرج الأسودُ بنُ عبد الأسد — وكان شرسا سيّئ الأخلاق — وقال : أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم ، أو لأهدمنّه ! أو لأموتنّ دونه ، فلما خرج خرج إليه حمزة ، فلما التقيا ضربه حمزة ، فأطنّ قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب[3] رجله دما ، ثم حبا إلى الحوض يريد أن يبرّ بيمينه ، فأتبعه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عتبةُ بنُ ربيعة ، بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ، ودعا إلى المبارزة ، فخرج إليه من الأنصار عوف ومعوّذ ابنا الحارث ، وعبد الله ابن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهطٌ من الأنصار ، قالوا : ما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبيدةَ بنَ الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا علىّ ، فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ فتسمّوا لهم ، فقالوا : نعم الأكفاء الكرام . فبارز عبيدةُ عتبةَ ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علىٌّ الوليدَ .

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما علىّ فلم يمهل الوليدَ أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه ، وكرّ علىٌّ

---

(١) الخفرة : العهد .

(٢) السحر : الرئة وما حولها .

وحمزةُ بأسيافِهما على عُتْبة ، فذَفّفا(١) عليه ، واحتملا صاحبهما ، فحازاه إلى أصحابه

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ألاّ يحمِلوا حتى يأمُرَهم ، وقال : إنّ اكتنفكم القوم فانضحوهم(٢) عنكم بالنَّبْل ، ورسولُ الله يومئذ فى العَريش ومعه أبو بكر . وكان شِعارُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : « أحد أحد » ، وجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُناشِد ربّه ما وَعده من النّصر ويقول فيما يقول : « اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العِصابةُ اليومَ لا تُعْبَد » ، وأبو بكر يقول : يانبيَّ الله ، بعض مُناشَدَتك لربّك ، فإنّ الله سيُنْجِز لك وعدك .

وخفق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَفْقةً(٣) وهو فى العَريش ، ثم انتبه فقال : « أبشِر يا أبا بكر ، أتاك نصرُ ربِّك ، هذا جبريلُ آخذٌ بعِنانِ فرس يقودُه ، على ثناياه النَّقْع » ـ يُريد الغُبار .

ورُمِيَ مَهجع مولى عمر بن الخَطّاب بسَهْم فقُتل ، وكان أوّلَ قتيلٍ من المسلمين ، ثمّ رُمِي حارثةُ بن سُراقه أحدُ بنى عَدِيّ بن النّجار ، وهو يشرَب من الحوضِ بسَهْم فأصابَ نَحْرَه فقتَله . وخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى النّاس يحرِّضهم ، فقال : « وَالّذى نفسُ محمّدٍ بيدِه لا يُقاتِلهم اليومَ رجل فيُقتَل صابرًا محتسِبا مُقبِلا غيرَ مُدْبِر إلاّ أدخله اللهُ الجنّة » . فقال عُمير بن الحُمام ـ مِن بنى سلِمة ـ وفى يده تَمَرات يأكُلُهنّ : بَخٍ بَخٍ ! فما بينى وبينَ أن أدخُل الجنّةَ إلا أن يَقتُلنى هؤلاء ! ثمّ قذَف التَّمراتِ من يَدِه ، وأخذَ سيفه ، فقاتل حتّى قُتِل .

وقال عوفُ بن الحارث ، وهو ابن عَفْراء : يارسولَ الله مايُضحِك الرّبَّ من عبدِه ؟ قال : « غَمْسُه يده فى العدوّ حاسِرًا » ، فنزَع دِرْعا كانت عليه فقذفها ، وأخذ سيفه وقاتَل حتّى قُتِل .

---

(١) ذففا عليه : أجهزا .　　(٢) انضحوهم : ادفعوهم .

(٣) خفق خفقة : نام نوما يسيرا .

ثم إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخذ حَفْنةً من الحصْباء ، فاُستقبل بها قُرَيشا ثمّ قال : شاهدت الوُجوه ، ثم نَفَحهم(١) بها ، وأمر أصحابه فقال : شدُّوا ، فكانت الهزيمة ، وجعل اللهُ تلك الحصْباء عظيما شأنُها ، لم تَتْرك رجلا من المشركين إلاّ ملأتْ عينيْه ، واُستولى عليهم المسلمون يُقتّلونهم ويأسِرُونهم ، فقتل الله من قتل من صَنادِيد قريش ، وَأسِر مَن أسِر أشرافهم .
وَقال رسولُ الله صلى الله عليه وَسلم : « إنّى قد عرفت رِجالا من بنى هاشم وَغيرِهم قد أُخرِجوا كُرها لاحاجة لهم بقتال، فمن لقِىَ منكم أحداً من بنى هاشم فلا يَقتُله، وَمَنْ لقِىَ أبا البَخْترىّ بن َهشام فلا يَقتُله، وَمَنْ لقىَ العبّاسَ عمّ رسولِ الله فلا يَقتُله ؛ فإنّه إنّما أُخرِج مُستكرَها » .

فقال : حُذيفة : أنقتُل آباءَنا وأبناءنا وإخوانَنا، وعشيرتَنا ونترُك العبّاس! والله لئن وجدْتُه لألْحِمنّه(٢) السيف ؛ فبلغت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفتَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى عمرَ فقال : يا أبا حفص — قال عمر : وانّه لأوّلُ يوم كَنانى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأبى حَفْص — أيُضرَب وجهُ عمِّ رسولِ الله بالسّيف ! فقال عُمر : دَعْنى يارسولَ الله أضرِبْ عُنقَه بالسيف ، فوالله لقد نافَقَ . فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمِنٍ مِن تلكَ الكلمةِ التى قلتُ يومئذ ، ولا أزالُ منها خائفا إلاّ أن تُكفِّرَها عنى الشهادة ، فقُتل يومَ اليَمامةِ شهيداً رضىَ الله عنه .

وقاتلت الملائكةُ يومَ بدر ، ولم تُقاتِل إلاّ فيه وفى يومِ حُنَين ، وإنّما يكونون عددا ومدداً لايضرِبون . وكانت سيماهم يومَ بَدْر عمائمُ بَيْضاء قد أرسلوهَا فى ظهورهم . وفى يومِ حُنين عمائمُ حمراء . وفى حديثِ علىّ رضى الله عنه : « إنّ جبريل كانت عليه عِمامة صَفْراء » . وقال بعض بنى ساعدة بعد أن ذهب بصرُه ، وكان قد شهِدَ بَدْرا : لو كنتُ اليومَ بَبدْر ، وبَصَرِى

---

(١) نفحهم بها : رماهم .
(٢) قال ابن هشام : « ويقال : لأجذمنّه » .

معى لأرينكم الشِّعب الذى خرجت منه الملائكة ، لا أشك فيه ولا أتمارَى .

ولمّا فرغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، أمَرَ بأبى جهل أن يُلتمَس فى القتلى ، وقال: « انظُروا - إن خفِىَ عليكم - فى القتلى إلى أثر جُرْح فى رُكبته ؛ فإنى ازدحمتُ يوماً أنا وهو على مأدُبة لعبد الله بن جُدْعان ، ونحن غلامان ، وكنتُ أسنّ منه بيسير ، فدفعتُه ، فوقع على رُكبتيه ، فجُحِشت إحداهما جَحْشا لم يزَل أثرُه به .

قال مُعاذ بنُ عمرو بن الجَموح : جعلتُ أبا جَهْل من شأنى ، فقصدتُ نحوَه ، وحملتُ عليه ، وضربتُه ضربة أطنّتْ قدمَه بنصف ساقه ، فضربَنى ابنُه عِكْرمة على عاتِقى ، فطرح يدى ، فتعلّقت بجِلْدةٍ من جَنْبى ، وأجهَضَنى (١) القتالُ عنه ، فلقد قاتلتُ عامّة يوْمى وإنّى لأسحبها ، فلمّا آذَتْنى وضعتُ عليها قدمى، ثم تمطّيت بها عليها حتّى طرحتُها. وعاشَ بعد ذلك مُعاذ إلى زمن عثمان.

ومرّ مُعوِّذ بنُ عفراء بأبى جَهْل وهو عقير ، فضربه حتّى أثبته وتركه وبه رَمَق (٢) ، وقاتل معوّذ حتّى قُتِل . فمرّ عبدُ الله بنُ مَسْعود بأبى جهل حين أمَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالتماسه ، فلحِقه بآخِرِ رَمَق ، فوضَع رجْله على عُنُقِه ، وقال : أخزَاك الله ياعدوَّ الله ! قال : وبماذا أخزانى ؟ أخبِرْنى لمن الدائرة ؟ قال : لله ولرسوله ، ثم جَزَّ رأسه وجاء به إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فحمِد الله تعالى . وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يُطرَحوا فى القَليب ، فطُرِحوا إلاّ ما كان من أميّة بن خَلَف ؛ فإنّه انتفخ فى دِرْعه فملأها ، فذهبوا ليحرّكوه ، فتزايل ، فألقَوْا عليه من الحجارة والتّراب ما غيّبه .

ثم إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَقَف على القَليب وقال : « يا أهل القليب ، بئس عَشيرة لى كُنتم ! كذّبتمونى وصدّقنى الناس ، وأخرجتمونى

---

(١) أجهضنى : غلبنى (٢) الرمق : بقية الحياة .

وآوانى النّاس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس . يا أهلَ القليب ، هل وجدْتُم ماوَعدَكم ربُّكم حقًّا ، فإنّى وجدتُ ما وَعدنى ربّى حقًّا ! » .

فقال له أصحابُه : يارسولَ الله ، أتُكلِّم قوماً مَوْتَى ؟ فقال لهم : لقد علموا أنّ ماوَعدَهم ربُّهم حقّ .

وقيل : إنّه قال : ما أنتم بأسْمَع لما أقولُ منهم ، ولكنّهم لا يستطيعون أن يُجيبونى .

وفى ذلك يقول حسّان بنُ ثابتٍ الأنصارىّ(١) :

عرفتُ ديارَ زَيْنبَ بالكَثِيبِ ... كخَطِّ الوَحْيِ فى الوَرَق القَشِيبِ (٢)
تداولَها الرِّياحُ وكلُّ جَونٍ ... من الوَسْمِيِّ مُنهمِرٍ سكُوبِ (٣)
فأمْسَى رَسْمُها خَلَقاً وأمستْ ... يَباباً بعد ساكنِها الحَبيبِ
فدَعْ عنك التّذكُّرَ كلَّ يوم ... ورُدّ حَرارَةَ الصَّدْرِ الكَئيبِ
وخبِّرْ بالّذى لاعَيبَ فيه ... بصدْقٍ غيرِ أخبارِ الكَذوبِ
بما صَنعَ المليكُ غداةَ بَدْرٍ ... لنا فى المشْرِكين من النصيبِ
غداةَ كأنّ جمعَهُمُ حِراءٌ ... بدتْ أركانُه جُنْحَ الغُروبِ
فلاقَيْناهمُ مِنّا بجَمْعٍ ... كأُسْدِ الغابِ مُرْدانٍ وشِيبِ
أمامَ محمّدٍ قد آزرُوه ... على الأعْداء فى لفحِ الحُروبِ
بأيديهِمْ صَوارِمُ مُرهَفاتٌ ... وكلُّ مجرَّبٍ ماضى الكُعوبِ (٤)
بنو الأوْسِ الغطارف وازرَتْها ... بنو النّجّار فى الدِّينِ الصَّليبِ
فغادَرْنا أبا جَهْلٍ صريعا ... وعُتْبةَ قد تركْنا بالجَبُوبِ (٥)
وشَيْبَةَ قدَ تركْنا فى رجالٍ ... ذَوِى نَسَبٍ إذا نُسِبُوا حَسِيبِ

(١) ديوانه ١٤ (٢) الكثيب : القطعة من الرمل . والوحى : الكتابة .
(٣) الوسمى : مطر الربيع ، والجون : السحاب الأسود .
(٤) الديوان : «فاظى الكعوب » ، أى أن كعوبه غليظة صلبة .
(٥) الجبوب : الأرض الغليظة .

يُناديهم رسـول الله لمّا قذفناهم كباكِبَ في القَليبِ[1]
ألمْ تجِدوا كلامي كانَ حقًّا وأمرُ الله يأخُذُ بالقلوبِ
فما نَطقوا ، ولو نَطقوا لقالُوا صدقتَ وكنتَ ذا رأيٍ مُصيبِ

وذكر قاسمُ بن ثابتٍ في دلائله ، أنّ قريشا لمّا توجّهتْ لبَدْر ، مرّ هاتِفٌ من الجِنّ على مكّةَ في اليومِ الّذي أوقع بهم المسلمون ، وهو يُنشِد بأنفذِ صوتٍ لا يُرَى شخصُه :

أرادَ الحَنيفيُّون بَدْرا وَقيعةً سيُنقَضُ منهارُكنُ كِسْرَى وقَيْصَرَا
أبادَتْ رجالا من لُؤَيٍّ وأبرزَتْ خرائدَ قصْرٍ بين التّرائب حُسّرَا
فياوَيْحَ من أمْسَى عدوَّ محمّدٍ لقـد حادَ عن قَصْدِ الهُدى وتَجبَّرا

فقال قائلُهم : مَن الحَنيفيُّون ؟ فقال : محمّدٌ وأصحابُه ، يزعمون أنّهم على دين إبراهيمَ الحَنيف ، ثمّ لم يَلبثوا أن جاءهم الخبر اليَقين .

وقال الصحابة رضيَ الله عنهم أشعاراً كثيرةً في يومِ بَدْر ، منهم حمزةُ بن عبد المطّلب وعليّ بنُ أبي طالب وكعبُ بنُ مالك أخو بني سَلِمة ، وضرارُ ابنُ الخطّاب الفِهريّ وحسّان بنُ ثابت وعُبيدة بنُ الحارث بن عبد المطّلب .

وكانت وَقْعـة بدرٍ الـكبرى يومَ الجمعة لسبعِ عشرةَ من شهر رمضانَ ، سنة اثنتَيْن من الهِجْرة .

وفي المَثَل : « لا في العِير ولا في النَّفير » ، أوّل من قاله أبو سفيان لبني زُهْرة ، لمّا رجعتْ إلى مكّةَ على ما تقدّم ، فلقيَهم أبو سفيان فقال : يا بَني زُهْرة أنتم لا في العِير ولا في النّفير ، فأرسلَها مَثلا .

وتلاحى يوماً خالد بنُ يزيدَ بن معاوية ، والوليد بن عبد المَلِك ، في قصّة فيها طُولٌ في هذا الموضع ، فقال الوليد لخالد : اسكت ، فوالله ما تُعَدّ لا في

---

(١) كباكب : جمع كبكبة ، وهي الجماعة من الناس .

العير ولا فى النّفير ، فقال خالدٌ لعبد الملك : اسمع ياأميرَ المؤمنين ، ثمّ أقبَلَ على الوليد وقال: وَيْحَكم ! مَن فى العِير والنّفير غير جَدّى أبى سفْيان صاحب العِير ، وجدّى صاحبُ النّفير عُتْبة بن رُبيعة ، فهذا المَثل نحنُ أصلُه من الجانبين. ولكن لو قلت : غنيمات وحُبيلات والطائف ، ورحمَ الله عثمانَ ، لقلنا : صدقتَ .

قلت : يشير بذلك إلى الحَكَم ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طرَدَه إلى الطائف ، فكان هنالك يَرعَى غُنَيمات ، ويأوى إلى حَبَلة - وهى الكَرْمة - وأنّ عثمانَ رضى الله عنه ردَّ الحَكَم إلى المدينة فى أيام خلافته .

وشِبْه هذا المَثَل قولهم : لافى أسفل القِدْر ولا فى أعلاها .

وذكرتُ هنا بيْتَين فى مليحٍ جَمّال :

أحببتُ جَمّالا كبَدْرِ الدُّجَى   يقول لمّا عادَ عنه السّفِيرْ

لا تَنتسِبْ يوماً إلى عشقتى   ماأنتَ فى العِيرِ ولا فى النّفِيرْ

وكان أميّةُ بنُ أبى الصَّلْت يُحرِّض قريشاً بعد وقعة بَدْر ، وكان يَرثى من قُتِل من قريش فى وَقْعة بدر ، فمن ذلك قولُه :

ماذا ببَــدْرٍ والعَقَنْقِلِ من مَرازِبَةٍ جَحَاجِحْ [١]

وهى قصيدةٌ نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن رِوايتها .

* * *

٤١ — وقوله : وَانخزلتُ بثُلثِ الناس يوم أُحُد .

يشير بذلك إلى عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول رأس المنافقين يومَ أُحُد ، وذلك أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، لمّا رجع من بدر إلى المدينة قفل المشركون وأبو سفيان إلى مكّة ، فى رجالٍ ممّن أصيب آباؤُهم وأبناؤُهم وإخوانُهم يومَ

(١) ديوانه ٢٠ .

بدر ، كلّموا أبا سفيان فى ذلك ، وقالوا لمن كانت له تجارة فى تلك العِير : إنّ محمّداً قد وَتَرَكم ، وقتل خيارَكم ، فأعينوا بهذا المال على حَرْبه ، لعلّنا نُدرِك ثأرَنا بمن أصاب مِنّا .

فوافقوهم على ذلك وقالوا : نحن قد طابت نفوسنا بأن تُجهِّزوا بربح هذا العِير جيشا إلى محمّد ـ وكانت ألفَ بعير ، وخمسين ألفَ دِيناراً ـ فتسلّم أهلُ العير رءوسَ أموالهم ، وأخرَجُوا أرباحَهم ، وكانوا يَربَحون فى تجارتهم فى كل دينار ديناراً ، وحرّكوا لذلك مَن أطاعهم من القبائل ، وخرجوا بخدمهم وعبيدهم وأَحابيشهم ، ومن تابَعهم من بنى كِنانة وأهلِ تهامة ، وخرجوا بالظُّعُن التماس الحفيظة[1] وألاّ يفرّوا .

ولمّا سمِع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه بَقَراً يُذبح ، ورأى فى ذُباب سَيفه ثَلْماً ، وأنّه أدخَل يدَه فى دِرْعٍ حَصينة ؛ فأوّلها أنّ البَقَر جماعةٌ من أصحابه يُقتَلون ، والثّلم رجلٌ من أهل بَيْتِه يُقتَل ، والدِّرع الحصينة المَدينة . فقصّ ذلك على أصحابه ، وذكر التأويلَ لهم ، وقال : « فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدَعُوهم حيثُ نزَلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . وكان رأيُ عبد الله بن أُبَيّ موافقاً لرأىِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجالٌ من المسلمين ممّن فاته يوم بَدْر : يارسولَ الله ، اخرُجْ بنا إلى أعدائنا ، لا يَروْن أنّا جَبُنّا عنهم وضعفنا . فقال عبدُ الله ابنُ أُبيّ : يا رسول الله ، أقم بالمدينة وَلا تخرج منها ، فوالله ماخرجْنا منها إلى عدوٍّ لنا إلاّ أصابَ مِنّا ، وَلا دخلها علينا إلاّ أصبْنا منه .

ولم يزل النـاسُ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل فلَبِس لأمته ، وذلك بعد فراغه من صلاة الجُمُعة ، وخرج الناس وقد ندموا ، وقالوا : يارسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقْعد ، فقال

(١) الظعن : جمع ظعينة ؛ وهى المرأة فى الهودج . والحفيظة : الأنفة والغضب .

صلى الله عليه وسلم : « ليس للنبيِّ إذا لبِس لأمته[١] أن يضعَها حتّى يُقاتِل » .
فخرج في ألف من أصحابه ، حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحُد ، انخزَل عنه عبدُ الله ابن أُبيّ بثُلُث الناس ، وقال : أطاعَهم وعصاني ، ما ندرى علامَ نقتل أنفسَنا هاهنا أيّها الناس ! ورجع بمن اتّبعه من أهل النّفاق والرّيب ، واتّبعهم عبدُ الله ابنُ عَمرو بن حرام يقول : ياقوم ، أذكّركم الله ألاّ تخذُلوا قومَكم ونبيَّكم عند مَنْ حضر من عدوِّهم ! قالوا : لو نعلم أنّكم تُقاتلون لما أسلمْناكم ، وأبَوْا عليه ، واستعْصَوْا ، فقال : أبعدَكم الله ! أعداءَ الله ، فسيُغني الله نبيَّه عنكم !

ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتّى سلك في حَرّة بني حارثة ، فذبّ فرسٌ بذنبه[٢] فأصاب كُلاّبَ سيف استلّه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « شِمْ سيْفك ؛ فإني أرى السيوفَ ستُسَلّ اليوم » .

وتعبّأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو في سبعمائة رجل ، وأمَّر على الرماة عبدَ الله بنَ جُبَير ، أخا بني عَمرو بنِ عوف ، وهو مُعلِم يومئذ بثياب بيض ، والرّماة خمسون رجلا ، فقال : انْضح[٣] الخيلَ عنّا بالنَّبْل ، لايأتونا من خلْفِنا إن كانت لنا أو علينا ، اثبُتْ مكانَك لانُؤتَيَنّ من قِبَلك . وظاهرَ[٤] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين درعَين ، ودفع اللِّواء إلى مُصعَب بنِ عُمَير أخى عبدِ الدار .

وتعبّأت قريش وهم على ثلاثةِ آلاف ، ومعهم مائتافرس قد جَنَبُوها[٥] ، وخالد ابن الوَليد على ميْمنة الخيْل ؛ وعلى الْمَيْسرة عِكْرمة بنُ أبي جهل ؛ واقتتَل

---

(١) اللأْمة : الدرع
(٢) ذبّ فرس بذنبه : حرك ذنبه ليطير عنه الذباب .
(٣) انضحوا الخيل : ادفعوهم
(٤) ظاهر بين درعين : لبس درعا فوق درع .
(٥) جنبوها : قادوها .

الناس، حتّى حميت الحرب . وقاتل حمزةُ عمُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قتالا شديداً في ذلك اليوم، وكان جُبَيْر بنُ مُطعِم قد وعد غلامَه وَحْشيًا بالعتق إن قتل حمزة . قال وحشيّ: فخرجتُ مع الناس ـ وكنت رجلا حَبَشيًّا؛ أقذف الحَرْبة قذفَ الحبشة قَلَّمَا أُخطئ ـ فلمّا التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزةَ حتّى رأيته في عُرْض الناس مثل الجمل الأورق؛ يهدّ الناسَ بسيفه[1] هدًّا؛ مايقومُ له شيء؛ فجعلتُ أستتر منه بشجرٍ أو حجر؛ حتى مرّ عليَّ ، فهززت حربتي حتّى إذا رضيتُ منها قذفتُها فوقعتْ في ثُنَّته حتّى خرجتْ من بين رجليه . ثمَّ إنَّ وَحْشِيًّا أسلم فيما بعدُ ؛ فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلامَه بعدما حدّثه كيف قتل عمَّه ، فقال : وَيْحَك ! غَيِّب وجهَك عنّي . وكان وَحْشيّ بموضع لايراه إلى أن قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثمَّ إنّه قتل مُسَيلمة بحرْبَته تلك ، وكان يقول : قتلْتُ خيْرَ الناسِ وشرَّ الناسِ ، بعدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وقاتل مُصعَبُ بنُ عُمير دونَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتّى قُتِل ، فأخذ الراية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفعها إلى عليِّ بنِ أبي طالب . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية الأنصار ، واشتدّت الحرب ، وأنزلَ اللهُ نصره على المُسلمين ، وصدقهم وعدَه ، بعد ماحملت خيلُ المشركين على المسلمين ثلاث مرّات . ولما أبصر الرُّماةُ الخمسون أنّ الله قد فتح لإخوانهم قالوا : والله ما نجلس هُنا ، قد أهلك الله العدوّ ، وإخواننا في عسكر المشركين ! فتركوا مَنازِلهم الّتي عَهِد إليهمْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ألاّ يتركوها وتنازَعوا وفشِلوا ، وعصوُا الرّسول ، فأوْجفَتْ الخيلُ فيهم قتْلا ، ولم تكن تنال منهم، وكان ذلك سبباً لهزيمة المسلمين بعد أن كانتْ لهم ، وصَرخ صارخٌ : ألاَ إنّ محمداً قد قُتِل ، وكان الصارخ الشّيطان ، وخَلَص العدوُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقُذِف بالحجارة حتّى وَقَع لشقِّه ، فأصيبتْ رَباعيته

---

(١) يهد الناس : يهلكهم .

وكلمت شَفَتُه ، وشُجّ فى وجهه ، وجَعَل الدَّمُ يسيلُ على وجهه ؛ فجعل صلى الله عليه وسلم يَمسَح الدمَ بيَدِه ويقول : « كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيِّهم بدَمِه ! ؛ وهو يدعوهم إلى ربِّهم » ؛ فأنزل الله فى ذلك : ﴿ ليس لك من الأمر شىءٌ أو يتُوب عليهم أو يعذِّبَهم فإنهم ظالمون ﴾(١) .

وكان الذى جرَح شفته ؛ وكسر رباعيَتَه عُتبة بن أبى وقاص . وشَجّه عبد الله بن شهاب الزُّهرى فى وجهه ، وجرح ابنُ قَمِئة وجْنَته ؛ فدخلت حلقتان من حلَق المغفر فى وجنته ؛ ووقع صلى الله عليه وسلم فى حفرة من الُحفر التى عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون . فأخذ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بيده ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائما . ومصّ مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرىّ الدم من وجهه ثم ازدَرَده ، فقال صلى الله عليه وسلم : «من خالط دمه دمى لم تُصِبْه النار » . ونزع أبو عبيدة إحدَى الحلْقتين من وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسقطت ثنّيته . ثم نزع الأخرى فسقطتْ ثنّيتُه الأخرى .

وكان سعد بن أبى وقاص يقول : والله ماحرصت على قتل رجلٍ قطّ حرْصِى على قتل عُتْبة بن أبى وقاص – وهو أخوه . ولمـا غشِيه القوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ رجل يشترى لنا نفسه ؟ » ، فقام زياد بن السكن فى خمسة نفرٍ من الأنصار – وقال بعضهم : عمارة بن يزيد بن السكن – فقاتلوا دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً بعد رجلٍ ، يُقتَلون دونه حتى كان آخرهم زياد أو عُمارة ؛ فقاتل حتى أثخنته الجراحة . ثم فاءت(٢) فئة من المسلمين فأجْهضوهم(٣) عنه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « أدنُوه منّى » . فوسَّده قدمه ، فمات وخَدُّه على قَدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترّس

---

(١) آل عمران ١٢٨ (٢) فاءت : رجعت (٣) أجهضوهم : أزالوهم .

أبو دُجانة الأنصاريّ دونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقع النَّبْل فى ظَهْره وهو مُنْحَنٍ عَلَيْهِ حتى كثر فيه النَّبْل .

ورَمَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُد عن قَوْسِه ، حتى اندقّتْ سِيَتُها ، وأصيبتْ يومئذ عينُ قَتادة ، فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن سالت على خَدّه ، فكانت أحسن عينَيْه وأنظرَهما ، وجُرح عبد الرحمن ابن عوف عشرون جراحة ، وهُتِم فمه .

وكان أول من عرَف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وتحدّثِ الناسُ بأنه قد قتل ، كعب بن مالك الأنصاريّ . قال : عرفته بعَيْنَيه تَزْهَران[1] تحتَ المِغفر ، فناديتُ بأعلى صَوْتى : يامعشرَ المسلمين، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم! فأشار إلىَّ أن أنصت ولمّا عَرَف المسلمون به نَهَضوا به ، ونَهَض معهم نحوَ الشِّعب ، معه أبو بكر وعُمر وعلىّ وطَلْحة والزُّبير والحارث بن الصِّمَّة ورهْطٌ من المسلمين . فلمّا أسند رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، أدركه أُبَىُّ بنُ خلَف وهو يقول : أين محمّد ؟ لانجوتُ إنْ نَجَا ! فقال القوم : يارسولَ الله ، أيَعطِف عليه رجلٌ مِنّا ؟ فقال : دَعُوه ، فلمّا دنا تَناوَل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحَرْبة من الحارث بن الصِّمَّة ، وانتفَضَ بها انتفاضةً تطايرِ عنه الناس تَطايُرَ الشعراء[2] عن ظهرِ البعير إذا انتفَضَ ، ثم استقْبَله بها فطَعَنه فى عُنُقه طعنَةً تداعى منها عن فرسه . وكان أُبَىٌّ يَلقَى النبىَّ صلى الله عليه وسلم بمكّة فيقول : يامحمّد ، عندى فرسٌ أعلِفُه كلَّ يومٍ فَرَقًا[3] من ذُرة أقْتُلك عليه ، فيقولُ النبى صلى الله عليه وسلم : « بل أنا أقتُلك عليه إن شاء الله تعالى » .

فلمّا رجع إلى قريشٍ وقد خُدِش فى عُنُقه خَدْشا غيرَ كبير ، فقال : قتَلَنى محمد ، فقال له : ذهب والله فؤادك ، والله مابكَ من بأس ، قال : إنه قد كان

---

(١) تزهران : تضيئان (٢) الشعراء : ذباب له لذع .

(٣) الفرق : نوع من المكاييل .

قال لى بمكة : أما أقتلك فوالله لو بصق على لقتلنى ، فمات بسرف[(١)] وهم قافلون به . وعلت عالية من قريش ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ قاعدا من الجراحة ، وصلى المسلمون خلفه قعودا .

وفى الصحيح من حديث البراء ، أن أبا سفيان قال : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال: قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

وفيه أيضا أن أبا سفيان أشرف فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه . فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ قال: لا تجيبوه. قال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فلما لم يجبه أحد قال : إن هؤلاء قد قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه ، فقال : كذبت يا عدو الله ، قد أبقى لك ما يخزيك ، فقال أبو سفيان : هلم إلى يا عمر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : آته فانظر ما شأنه ، فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ! قتلنا محمدا ؟ فقال عمر : اللهم لا ، وإنه يسمع كلامك الآن ، قال : أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر .

وانصرف أبو سفيان ومن معه ، وقال : موعدكم بدر للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : نعم ، هو بيننا وبينك موعد » .

وتوجه المشركون إلى مكة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس عمه حمزة فى القتلى ، فوجده ببطن الوادى ، قد بقر بطنه عن كبده ، وجدع أنفه وأذناه ، فقال رسول الله صلى الله علية وسلم حين رأى ما رأى : « لولا أن تحزن

---

(١) سرف : موضع على ستة أميال من مكة .

صفيّةُ ، وتكونَ سُنّة من بعدى ، لتركتُه حتّى يكونَ فى بطون السِّباع وحواصلِ الطّير ، ولئن أظهَرَنى اللهُ على قريش فى مَوْطنٍ من المواطن لأُمَثِّلَنّ بثلاثين رجلا منهم » ، فأنزَلَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن عاقَبتُمْ فعاقِبوا بمِثْل ما عُوقِبتم به ولئن صبرتُم لهوَ خيرٌ للصّابرين * واصبرْ وما صَبْرُك إلاّ بالله ولا تَحزَن عليهمْ ولاتَكُ فى ضيقٍ مّما يمْكُرون ﴾(١).

فعفا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وصبرَ ونَهَى عن المُثْلة ، ثمّ أمَرَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فسُجِّىَ ببُرْدةٍ حبَرِيَّة ، ثمّ صلّى عليه ، فكبّر سبعَ تكبيرات . ثم أُتِىَ بالقتلى يُوضَعُون إلى جَنْب حمزة ، وصلّى عليهم وعليهمعهم ، حتّى صلّى اثنتيْن وسبعين صلاةً .

وانصَرَف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة راجعا ، وكان يوم أُحُد يوم السّبت النصف من شوّال ، سنة ثلاث من الهجرة ، وكان ممّا أنزَل اللهُ عزّ وجلّ من القرآن فى شأنِ أُحُدٍ ستّون آيةً من آلِ عِمْران ، فى طاعةِ من أطاع ونفاقِ من نافَق وصفته . واستُشهِد من المسلمين فى يوم أُحُدٍ من المهاجرين أربعة ، ومن الأنصار أحدٌ وستّون رجلا ، وقُتِل من المشركين اثنان وعشرون رجلا .

وقال حسّان بنُ ثابت يجيب عبدَ الله بن الزِّبَعْرَى عن كلمة قالَها يومئذ ، وهو مُشرِكٌ قبل إسلامه :

أشاقَتْكَ مِن أمِّ الوَليد ربُوعُ	بَلاقِعُ ما من أهلِهنّ جميعُ (٢)
عَفاهُنّ صَيْفىّ الرِّياح وواكفٌ(٣)	من الدّلْو رجّافُ السّحاب همُوعُ (٤)
فلَمْ يَبقَ إلاّ موْقِد النّار حوْلَه	رواكدُ أمثالُ الحَمامِ كُنُوعُ (٥)

(١) سورة النحل ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٢) ديوانه ٢٥٧ .
(٣) الديوان : صيفى الربيع .
(٤) الدلوهنا : برج من بروج السماء .
(٥) الديوان : « وقوع » .

فدَعْ ذِكْرَ دارٍ بدّدَتْ بينَ أهلِها ... نَوًى فرّقتْ بين الجميع قَطوعُ
وقلْ إن يكن يوماً بأُحدٍ يَعُدُّه ... سَفيهٌ فإنّ الحقَّ سوف يَشيعُ
فقــد صابَرَتْ فيه بنو الأوسِ كلُّهمْ
وكان لهم ذِكْرٌ هناك رفيــعُ
وحامَى بنو النّجّار فيه وصابَروا[(١)] ... وما كان منْهُمْ فى اللقاء جَزوع
أمامَ رسولِ اللهِ لا يَخـذُلونه ... لهمْ ناصرٌ مِن ربِّهم وشفيــعُ
وفَوْا إذ كَفَرتم يا سَخينَ بِرَبِّكمْ ... ولا يستوى عبدٌ عصا ومُضيعُ[(٢)]
بأيديهمُ بيضٌ إذا حَمِشَ الوَغَى[(٣)] ... فلا بدّ أن يَرْدَى لهنّ صَريعُ
كما غادَرَتْ فى النّقْعِ عتبةَ ثاوِيا[(٤)] ... وسعداً صَريعا والوشِيجُ شُروعُ[(٥)]
وقد غادَرَتْ تحتَ العَجاجةِ مُسنَداً ... أُبيّا وقد بلّ القميصَ نَجيعُ[(٦)]
بكفّ رسولِ اللهِ حتّى تلفّفتْ ... على القوم ممّا قد يُثِرْنَ نقوعُ
أولئك قومٌ سادةٌ من فُروعِكمْ ... وفى كلّ قومٍ سادةٌ وفُروعُ
بِهِنّ يُعِزّ اللهُ حينَ يُعِزّنا ... وإن كان أمرٌ يا سخين فَظيعُ
فإنْ تذكُروا القتْلى وحمزةَ فيهمُ ... قتيلٌ ثَوَى لِلّهِ وهْو مُطيــعُ
فإنّ جِنانَ الخُلْــدِ مَنزِلةٌ له ... وأمرُ الّذى يَقْضِى الأمورَ سَريعُ
وقتلاكُمُ فى النّارِ أفضلُ رِزْقِهم ... حَميمٌ معاً فى جَوْفِها وضَريعُ[(٧)]

* * *

(١) الديوان : « وضاربوا » . (٢) الديوان : « سخين » ، أصله سخينة ، والسخينة : حساء يتخذ من دقيق وتمر ، وكانت قريش تكثر من أكلها ، فسميت به على طريق النبز .

(٣) حمش الوغى : اشتد وقوى . (٤) الديوان : « عثمان ثاويا » .

(٥) الوشيج : الرماح ، وشروع : مائلة للطعن . (٦) العجاجة : الغبرة . والنجيع : الدم .

(٧) الحميم : الحار . والضريع : نبت بالحجاز ذو شوك .

٤٢ – وقوله : وتخلّفتُ عن صَلاةِ العَصْر في بني قريظة .

يشيرُ بذلك إلى مَنْ تخلّف عن صلاةِ العَصر في بني قرَيْظَة ، لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم لمّا انصرَف عن الخَنْدَق راجعا إلى المدينة ، والمسلمون معهم وقد عَضّهم الحِصار ، ورجعُوا مجهودِين ، فوضعوا السّلاح ، فلمّا كان وقت الظهرِ أتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم معتجِرا بعِمامةٍ من إستَبْرَق(١) ، على بغلة عليها رِحالة ، وعليها قطيفَةٌ من دِيباج ، فقال : غَفَر اللهُ لك ، أوَقَدْ وضعتَ السّلاح يارسول الله ؟ قال : نعم ، قال جبريل : فما وَضَعت الملائكةُ السّلاح بعد ، وما رجعتُ الآنَ إلاّ من طَلَب القوم ، إنّ الله يأمُرُك يا محمّد بالمَسِير إلى بني قُرَيظة .

فقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليّ بنَ أبي طالب — كرّم اللهُ وجهه — برايَتِه إلى بني قُرَيظة ، وابتَدَرها الناسُ ، فسار عليٌّ رضيَ الله عنه حتّى إذا دنا من الحُصون ، سَمِع منها مقالةً قبيحةً على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع حتّى لقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال : يا رسولَ الله ، لا عليك ألاّ تدنوَ من هؤلاء الأخابث . قال : « لم ؟ أظنّك سمعتَ لى منهم أذى ؟ » قال : نعم ، قال : « لو رأوني لمْ يقولوا من ذلك شيئاً » . ولمّا دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال : « يا إخوانَ القِرَدة ، هل أخزاكم الله ، وأنزل بكم نِقْمَتَه ؟ » قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنتَ جهولا .

ومَرّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنفرٍ من أصحابه في طريقه قبل أن يصلَ إلى بني قُرَيظة ، فقال : « هل مرّ بكم أحدٌ ؟ » قالوا : يارسولَ الله ، مرّ بنا

---

(١) الاعتجار : أن يتعمم الرجل دون أن يلتحى ، أى من غير أن يضم من عمامته شيئا تحت لحيته . والإستبرق : نوع من الحرير .

دِحْية بن خَليفة الـكَلْبي على بَغْلة بيضاء عليها رحالة ، وعليها قَطيفةٌ من ديباج . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك جبريل ، بُعِثَ إلى بنى قُرَيظة يُزلزل بهمْ حصونَهم ، ويَقذف فى قلوبهم الرُّعْب » .

وتَلاحَق الناسُ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأتَى رجالٌ من بعد العشاء الآخرةِ لم يُصلُّوا العَصر ، لقولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلّينَّ أحدٌ العَصر إلاّ فى بنى قُرَيظة » ، فصلُّوا العصرَ بها من بعد العِشاء الآخرة ، فما عابَهم اللهُ بذلك فى كتابه ، ولا عنَّفَهم به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إنَّ العصر أدركتْ منهم جماعةً ، فصلاّها بعضُهم ، ولم يصلِّها بعضُهم إلاّ فى بنى قُرَيظة بعد أن غابت الشمسُ ، وذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يُعنِّف أحدا من الطائفتين .

وحاصر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنى قُرَيظة خمساً وعشرين ليلةً حتّى جهدهم الحِصار ، وقد قُذف فى قلوبهم الرُّعب . ثم إنّهم نزلوا على حُكْم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحرزوا دماءَهم وأموالَهم[١] .

* * *

٤٣ — وقوله : وَجئتُ بالإفْك عَلَى عائشةَ الصِّدِّيقيّة

يشير بذلك إلى واقعةِ الإفك على عائشةَ رضىَ الله عنها ، وكان من أمْرِها أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لمّا أقبل من غَزْوة بنى المُصْطَلِق حتّى إذا كان قريباً من المدينة ، قال أهلُ الإفك فى الصِّدِّيقيّة المطهَّرة البَرّة ماقالوا .

وحديث عائشةَ رضى الله عنها ، قالت : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد السفرَ أَقْرع بين نسائه ، فأيَّتهنَّ خَرجَ سَهْمُها خرجَ بها معه ، فلمّا كانت غزوةُ بنى المُصْطَلِق خرجَ سَهْمِى عليهنَّ معه ، فخرج بى رسولُ الله صلى الله عليه

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٢٥٢

وسلم ، وكان النّساء إذ ذاك خِفافاً ؛ إنّما يأكُلن العُلَق[١] ، لم يُهَبِّجهن اللحم فيثقلن . وكنت إذا رُحِّل لى بعيرى جلستُ فى هَوْدجى ، ثمّ يأتى القومُ ويحملوننى ؛ يأخذون بأسفل الهَوْدَج ويرفعونه ، ويضعونه على ظهر البعير ، فيشدّونه بحِباله ، ثمّ يأخذون برأس البعير وينطلقون به . فلمّا فرَغ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك ، وجّه قافلا ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً ، فبات به بعض الليل ، ثمّ أذَّن فى الناس بالرّحيل ، فارتحَل النّاس ، وخرجتُ لبعض حاجتى ، وفى عُنُقى عِقْدٌ لى فيه جَزْعُ ظَفارِىّ ، فلمّا فرغت انسلّ من عُنُقى ولاأدْرى ، فلمّا رجعتُ إلى الرَّحْل ذهبتُ ألتمِسُه فى عُنُقى فلمْ أجدْه ، وقد أخذ الناسُ فى الرَّحيل ، فرجعتُ إلى مكانى الّذى ذهبتُ إليه فالْتمسْتُه حتّى وجدتُه ، وجاء القومُ الّذين كانوا يرحّلون لى البعير ، وقد فرَغوا من رحلته ، فأخذوا الهوْدَج ، وهم يظنّون أنّى فيه كما كنت أصْنَع ، فاحتملوه وشدُّوه على البعير ، ولم يشكّوا أنّى فيه . ثم أخذوا برأس البعير وانطَلَقوا به ، ورجعتُ إلى المعسكَر ومافيه من داعٍ ولامجيب . فتلفّفْت بجِلْبابى ، ثم اضطجَعْتُ فى مكانى ، وعرَفْت أن لو افتُقِدْتُ لرُجِع إلىّ . فوالله إنّى لمُضْطجِعة إذ مرَّ بى صَفْوان بن المُعَطّل السُّلمىّ . وكان قد تخلّف عن العسكر لبعض حاجاتهِ ، فلم يَبِت مع النّاس ـ فرأى سَوادِى ، فأقبل حتّى وَقَف علىَّ ، وقد كان يَرانِى قبل أن يُضرَب علينا الحجاب ، فلمّا رآنى قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ظعينة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ! وأنا متلفّفةٌ فى ثِيابى . ثمّ قال : ما خَلّفكِ ، رحمكِ الله ! قالت : فما كلّمتُه ، فقرَّبَ البعيرَ ثمّ قال : ارْكَبى ، واستأخَرَ عَنّى فركِبْتُ ، وأخَذ برأس البعير وانطَلَق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، ولا افتُقِدتُ حتى أصبحتُ ، ونَزَل الناسُ ، فلمّا اطمأنّوا طلَع الرّجل يقودُنى فقال أهلُ الإفك

(١) العلق ، جمع علقة ، وهى ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء ؛ تريد أن طعامهن كان قليلا .

ماقالوا ، فارْتَجّ العسكر ، واللهِ ما أعلم بشيء من ذلك .

ثمّ قَدِمنا المدينة ، فلم ألبثْ أن اُشتكيتُ شَكوَى شديدةً ، ولا يَبلُغنى من ذلك شيء ، وقد انتهَى الحديثُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبوَىّ ، ولا يذْكُرانِ لى منه قليلا ولا كثيرا ، إلاّ أنّى قد أنكرتُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بعضَ لُطْفه بى ، كنتُ إذا اُشتَكَيْتُ رَحِمَنى ولَطَف بى ، فلم يَفعل بى ذلك فى شَكواى تلك ، فأنكرتُ ذلك منه ، وكان إذا دخل علىّ وعندى أمّى تُمَرِّضنى قال : كيف تِيكُمْ ؟ لايزيد على ذلك ، حتّى وجَدْتُ فى نفسى حين رأيتُ مارأيتُ من جَفائه ، فقلت : يارسولَ الله ، لو أذنتَ لى فانتقلتُ إلى أمّى فمرَّضتنى ! قال : لا عليكِ ، قالت : فانتقلت إلى أمّى ، ولا علم لى بشيء ممّا كان حتّى نقِهتُ من وجَعى بعدَ بضعٍ وعِشرين ليلةً ؛ وكنّا قوماً عربا ، لانتّخذ فى بيُوتِنا هذه الكُنُف التى تتّخذها الأعاجم ، نعافُها ونكرَهُها ، إنّما كنا نذهب فى فُسَح المدينة ، وإنما كان النّساء يخرجن فى كلّ ليلة فى حوائجهنّ ، فخرجتُ ليلةً فى بعض حوائجى ، ومعى أمّ مِسْطَح[1] ، فلمّا فرغنْا من شأننا وأقبلتُ ، عثرتْ أمُّ مِسطَح فى مِرْطِها[2] ، فقالت : تَعِسَ مِسْطَح ! قالت : فقلت : بئس ماقلتِ لرجلٍ من المهاجرين قد شَهِدَ بَدْرا ! قالت : أو مَا بَلغكِ الخبرُ يابنتَ أبى بكر ؟ قالت : قلت : وما الخبر ؟ فأخبرَتنِى بالّذى كان من قول أهلِ الإفْك . قالت : قلت : أوَكان هذا ؟ قالت : نَعَم ، والله لقد كان . قالت : فوالله ماقدرت على أن أقضىَ حاجتى ورجعْتُ ، فوالله مازلْتُ أبكى حتّى ظننتُ أنّ البكاء سيصدع كَبِدى ، وقلتُ لأمّى : يغفُر الله لكِ ! تحدّث الناسُ بما تحدّثوا به ولا تَذكُرين لى من ذلك شيئا ! قالت : أىْ بُنَيّة ؛ خَفِّضى عليكِ الشّأنَ ، فوالله لقلّما كانت امرأة حَسناء عند رجلٍ يُحبّها ، ولها ضرائرُ ، إلاّ كثّرْن وأكثر الناسُ عليها !

---

(١) أم مسطح كانت خالة أبى بكر الصديق .

(٢) المرط : الكساء .

قالت : وقد قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فخطبهم، ولاأعلمُ بذلك ، فحَمِد اللهَ و أثنى عليه ، ثمّ قال: «أيُّها النّاس، مابالُ رجالٍ يُؤذُونَنى فى أهْلى ، ويقولون عليهم غيرَ الحقّ ! واللهِ ماعلمتُ منهم إلاّ خيرا ! ويقولون ذلك فى رجل ، والله ماعلمتُ منه إلاّ خيرا ، ومايدخُل بيتا من بيوتى إلاّ وهوَ معى» . قالت: وكان كِبْرُ ذلك عند عبدِالله بن أُبَىّ ، فى رجالٍ من الخزْرج مع الذى قال مِسْطح وحَمْنة بنت جَحْش — وذلك أنّ أختَها زينب بنت جحْش كانت عند رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من نسائِه امرأةٌ تُناصِبُنى فى المَنْزِلة عنده غيرها . فأمّا زينب فعَصَمها اللهُ بدينها ، فلمْ تقُل إلاّ خيرا ، وأمّا حَمْنة فأشاعت بذلك ما أشاعَتْ تضادّنى لأختها — فشقيت بذلك . فلمّا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قام أُسَيْد بن حُضَير ، فقال : يارسولَ الله ، إنْ يكونوا من الأوْس نكْفِكَهُم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزْرج ، فمُرْنا بأمْرِك ، فوالله إنّهم لأهْلٌ أن تُضرَب أعناقُهم . فقام سعدُ بنُ عبادَة فقال : كذبتَ لَعَمْر الله ، لاتضرَب أعناقُهم ! أما والله ماقلت هذه المقالَة إلاّ أنك قد عرفتَ أنهم من الخزْرج ، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا . فقال أُسَيد : كذبتَ لعَمْرُ الله ، ولكنّك منافق تجادِلُ عن المنافقين . قالت : وتثاور[١] الناس حتّى كاد يكون بين هذين الحيَّين من الأوْس والخزْرَج شرّ .

قالت : ونَزَل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا علىّ بنَ أبى طالب وأُسامةَ بنَ زَيْدٍ واستَشَارَهما. فأمّا أُسامةُ فأثنَى علىّ خيرا ، ثمّ قال: يارسولَ الله ، أهلُك، ولا نعلَمُ إلاّ خَيْرا، وهذا الكَذِب والباطل .وأمّا علىٌّ فإنّه قال : يارسولَ الله، إن النّساء لكثير، وإنّك لَتقدِر أن تَستخلِف ، وسَلِ الجاريةَ ستَصْدُقُك .

فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بُرَيرةَ ليسألها ،فقام لها علىّ وهو يقول:

---

(١) تثاور الناس ، أى ثار بعضهم إلى بعض .

أصدُق رسولَ الله ، فقالت : والله ما أعلم إلاّ خيرا ، وما كنت أعيبُ على عائشة شيئا ؛ إلاّ أنّى كنت أعجِن عجينى ؛ فآمُرُها أن تحفَظه فتنام عنه ، فتأتى الشاةُ فتأكله .

ـــ قلتُ : نقلتُ من خطّ الشيخ شمس الدّين محمّد بن قيّم الجَوْزيَّة : أنّ بُريرةَ إنّما اشترتْها عائشةُ وأعتَقتْها بعد ذلك ـــ

قالت : ثمّ دخل علىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى ، وعندى امرأةٌ من الأنصار ، وأنا أبكى وهى تبكى معى ، فجلس ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثمّ قال : ياعائشة ؛ إنّه قد كان ما بلَغكِ من قولِ النّاس ، فاتَّقى اللهَ ، فإنْ كنتِ قارفتِ[1] سوءًا ممّا يقول الناسُ فتُوبى إلى الله ، فإنّ الله يقبَل التوبةَ عن عِبادِه . قالت : فوالله ما هو إلاّ أن قال لى ذلك ، فقَلَص[2] دمعى حتى ما أُحِسّ منه شيئًا ، وانتظرتُ أبوَىّ أن يُجيبا عنى رسول الله فلم يتكلّما .

قالت : وأيمُ الله لأنَا كنتُ أحقرَ فى نفسى وأصغَرَ شأنا من أن يُنزِل اللهُ فىّ قرآنا يُتلَى فى المساجد ، ويصلّى به ؛ ولكن كنت أرجو أن يرَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومِه شيئا يكذِّب الله به عنّى ، وبما يَعلَم من برَاءتى ، أو يخبر خبراً ، فأمّا قرآنا ينزله الله فىّ : فوالله لنَفْسى كانت عندى أحقرَ من ذلك .

قالت : فلمّا رأيتُ أبوَىّ لم يتكلّما ، قلتُ لهما : ألا تُجيبان رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ماندرى بماذا نجيبه ! قلت : والله ما أعلم أهلَ بَيْت دخل عليهمْ ما دخل على آلِ أبى بكر فى تلك الأيّام ! فلمّا استَعْجَما علىَّ استعبَرْتُ فبكَيْتُ ، ثم قلت : والله ما أتوب إلى الله ممّا ذَكَروا أبداً ، والله إنّى لأعلَمُ لئن أقررتُ بما يقول الناس ـ والله يَعلَم أنّى بريئة منه ـ لأقولنّ ما لم

---

(١) قارفت سوءا ، أى أتيت ذنبا . (٢) قلص الدمع : ارتفع .

يكن ، ولئن أنا أنكرتُ ما يقولُ الناسُ لا تُصدِّقوننى . ثمّ ألتمستُ اسْم يعقوبَ فما ذكرتُه . فقلتُ : ولكنّى أقول كما قال أبو يوسف : ﴿ فصَبرٌ جميلٌ واللهُ المستَعان على ما تَصِفون ﴾ .

قالت : فوالله ما بَرِح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مجلسَه ، حتّى تغشّاه من الله ما كان يتغشّاه ، فسُجِّىَ بثوبه ، ووُضِعتْ له وِسادةٌ أدم تحت رأسِه . فأمّا أنا حينَ رأيتُ من ذلك ما رأيتُ ، فوالله ما فزِعت ولا باَليْت ، قد عرَفتُ أنّى بريئةٌ ، وأنّ اللهَ غيرُ ظالمى ، وأمّا أبواى ، فوالذى نفس عائشة بيده ما سُرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتّى ظننت لتخرجنّ أنفسهما فرَقا من أن يأتىَ من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سُرِّىَ عن رسولِ الله وجلس ، وأنه ليتحدّر منه مِثلُ الجُمان فى يومٍ شاتٍ ، فجعَل يَمسَح العرَق عن جبينه ويقول : أبشِرى ياعائشةُ ، قد أنزَل الله علىّ من القرآن فى ذلك .

ثم أمَرَ بمِسْطَح بنِ أثاثة وحمْنة بنت جَحْش وحسّان بن ثابت — وكانوا ممّن أفصَحَ بالفاحشة — فضرِبوا حدَّهم . قال الله تعالى : ﴿ إنّ الّذين جاءوا بالإفْك عُصْبَةٌ منكمْ لا تحسَبوه شرًّا لكمْ بل هوَ خيرٌ لكمْ لكلّ امرئٍ منهمْ ما اكتَسَب من الإثْم والّذى تولّى كِبْرَه منهمْ له عذابٌ عظيم ﴾[١] .

قيل : إنّه حسّانُ وأصحابُه ، ثمّ قال : ﴿ لَوْلاَ إذْ سمِعتُموه ظَنّ المُؤْمِنون والمُؤْمنات بأنفسِهم خيراً وقالوا هٰذا إفكٌ مُبين ﴾ . أى هلاّ قُلْتم إذ سمِعتموه كما قال أبُّوبَ الأنصارىّ ، وصاحبته أم أيوب — وذلك أنها قالت لزوجها : يا أبا أيُّوب ، ألا تسمع ما يقول النــاسُ فى عائشةَ ؟ فقال : بلى ،

---

(١) سورة النور ١١ ، وما بعدها .

ذلك الكذب ، أكنتِ يا أم أيُّوبَ فاعلته ؟ قالت : لا واللهِ ، ما كنتُ لأفعلَه . قال : فعائشة واللهِ خيرٌ منكِ — ثمّ قال تعالى : ﴿ إذْ تلقَّوْنه بألسنتكم وتقولون بأفواهِكمْ ما ليس لكم به عِلمٌ وتحسَبونه هيِّناً وهو عندَ اللهِ عظيمٌ ﴾ .

فلمّا نزل هذا في عائشةَ قال أبو بكر – وكان يُنفِق على مِسطَح لقرابته وحاجتِه : واللهِ لا أُنفِق على مِسْطَح أبداً ، ولا أنفعه بنفعٍ أبداً بعد الّذي قال في عائشةَ ، فأنزَلَ اللهُ في ذلك : ﴿ ولاَ يأتَلِ أُولو الفضْلِ منكمْ والسَّعَةِ أنْ يؤتوا أُولى القُرْبى والمساكينَ والمُهاجرين في سبيل اللهِ وليَعْفُوا وليَصفحوا ألاّ تُحِبُّون أن يَغفِرَ اللهُ لكمْ واللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾ : فقال أبو بكر رضى الله عنه : بلى واللهِ ، إنّي واللهِ لأُحِبّ أن يَغفرَ اللهُ لي ، فرَجَع إلى مِسْطَح نفقتَه التّي كان يُنفِقها عليه ، وقال : واللهِ لا أنزعها عنه أبدا .

وكان حسّانُ قد عرّض بصَفْوان بن المعطّل بقوله :

أمسى الجلابيبُ قد عَزّوا وقد كثرُوا
وابن الفُرَيعةِ أمسَى بيضةَ البلَدِ (١)

فلمّا بلغ ذلك صَفْوان اعترَض حسّان فضرَبَه بالسَّيف ، ثم قال :

تلقَّ ذُبابَ السّيفِ عنك فإنَّني غلامٌ إذا هُوجِيت لستُ بشاعِرِ (٢)

قالت عائشة : ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا عائشة أما والله ، فقد برأك ؛ فقالت أمّي : قومي إليه ياعائشة ، فقالت : والله لا قمتُ إليه ، ولا أحمدَ إلاّ الله .

---

(١) ديوانه ١٠٤ . والجلابيب : جمع جلباب ، وهو الإزار ؛ كنى بذلك عن الذلة . وبيضة البلد ، أي واحدها .

(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٥٢ .

وعن أبى إسحاق ، أنّ أبا بكر قال لِمِسْطَح ، واسمه عوف :

ياعوفُ ، وَيْحَكَ هلاّ قلتَ عارفةً من الكلامِ ولم تتبع بها طَمَعا
أو أدركتْك حُمَيّا معشرٍ أُنُفٍ ولم تكن قاطعاً ياعوفُ منقطعا
أما جزيتَ من الأقوام إذ حَشَدُوا ولا تقول ولو عاينته قَذَعا
لمّا رميتَ حَصاناً غيرَ مُقرفةٍ أمينة الجَيْبِ لم نعلم لها خضعا
فيمن رَمَاها وكنتمْ معشراً أُفُكا
في سيِّءِ القولِ من لفظ الخنى سُرُعا
فأنزلَ اللهُ وَحْياً فى براءتها وبين عَوْفٍ وبين اللهِ ما صَنَعا
فإنْ أعِشْ أجْزِ عوفاً عن مَقالَتِهِ شرّ الجزاء إذا ألفيته تبعا

ولما أنزل اللهُ الآية : ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ . . . ﴾ إلى آخرها ، قال أبو بكر : بلى ، والله أُحِبّ أن يَغْفِرَ اللهُ لى ، وعاد إلى ما كان عليه من البرّ لِمِسطَح .

وما أحسنَ ما نقلتُه من خطّ أبى الحسين الجزّار مّما نَظَمَه ، وأشار إلى هذه الواقعة بقوله :

لا تقطعنْ عادةَ برٍّ ولا تَجعلْ عِقابَ المرءِ فى رِزْقِهِ
واصفَحْ عن الجانى فإنّ الذى تَرجُوه عفو الله عن خَلْقِهِ
وإن بدتْ من صاحبٍ زَلّةٌ فاستُرْه بالإغضاء واستَبْقِه
فإنَّ إثمَ الإفك من مِسْطَحٍ يحطّ قدرَ النَّجْم عن أُفْقِهِ
وقد جرَى منه الّذى قد جرَى وعُوتِبَ الصّدّيق فى حَقّه

وقد رُوِى أنّه سُئِل عن صَفْوان ، فوجِدَ رجلا حَصُوراً لا يأتى النِّساء .

وقال بعض المسلمين فى ذلك الوقت يَذْكُر حسّانا وصاحبَيْه فى فِرْيَتِهم على عائشةَ رضىَ الله عنها :

لقد ذاق حسّانُ الّذى كان أهله   وحَمْنَة إذ قالوا هجيرا و مِسْطَحُ
تعاطَوْا برَجْم الغيبِ زوْج نبيِّهِمْ
وسَخطةَ ذى العَرْش الـكريم فأبرَحوا
وآذَوْا رسولَ الله فيها فجُلّلوا   مخازىَ تَبقى عُمّوها وفضّحوا
فصبّت عليها محصِبات كأنّها
شآبيبُ قَطْرٍ من ذوى المزْن سُفَّحُ

وقد ذكر أبو عُمَر بن عبدِ البَرّ أنَّ قوما أنكَروا أن يكون حسّانُ خاضَ فى الإفك وجُلِدفيه . وروى عن عائشة رضىَ الله عنها أنّها برّأته من ذلك .

قلتُ : وحسّانُ هو القائل فى عائشةَ رضى الله عنها :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ   وتصبح غَرْثَى من لُحوم الغوافلِ (١)
عَقيلة حىٍّ من لؤىِّ بنِ غالبٍ   كرام المساعى مجدُهم غيرُ زائـل
مهذَّبة قـد طيَّب اللهُ خِيمَها   وطَهّرها من كلّ سوء وباطلِ
فإن كنتُ قد قلتُ الّذى قد زعمتمُ
فـلا رفعتْ صوتاً إلىّ أناملى !

وحُكى أنَّ القاضىَ أبا بكر الباقِلاّنىّ ، توجّه رسولا إلى بعض ملوك النّصارى ، فسأله بعضُ الأقِسّاء بحَضْرَة المَلك : ما قيل فى امرأة نبيِّكم ؟ فقال بَدِيها : هما امرتان قيل فيهما ماقيل ، أتت إحداهما بولَد ، ولم تأت الأخرى بولَد ؛ أو كما قال .

---

(١) ديوانه ٣٢٤ . والرزان : الملازمة موضعها ، ذات الثبات والوقار ، ماتزن : ماتتهم ، والغوافل : جمع غافلة ؛ يريد أنها لاترتع فى أعراض النساء

قال الشيخ تقيّ الدين بنُ تَيْمِيَّة : أراد القاضي أبو بكر بهذا أن ظهور براءةِ عائشةَ أقوَى من براءةِ مريَم ، وكلاهما بريئتان رضى الله عنهما .

وحُكِى أنّ مسلما ناظَرَ نصرانيًّا ، فقال له النّصرانيّ فى خلال كلامه : يامُسلِم ، كيف كان وجهُ زوجةِ نبيِّكم عائشةَ فى تخلّفها عن الرَّكب عندَ نبيِّكم معتذرةً بضَياعِ عِقْدِها ؟ فقال المسلِم : يا نَصْرانىّ ، كان وجهُها كوجهِ بنتِ عِمرانَ لمَّا أتت بعيسَى تَحمِله من غير زوج .

وقال الأرّجانيُّ :

ما فى جَفائِكمُ إذا أنا لمْ أخُنْ سببٌ يعاف حديثُه ويعابُ
سخط النبيّ على البرىءِ وما درَى مِمّا جَناه الآفِكُ الكذّابُ
حتّى استبانَ له بوَحْيٍ نازلٍ أنّ الذى قال الوُشاة كِذابُ

* * *

٤٤ — قوله : وأَنِفتُ مِن إمارةِ أُسامةَ بن زيد .

يشير بذلك إلى أسامة بن حارثةَ رضى الله عنهما . وذلك أنه لمَّا كان يومُ الأثنين لأربعِ ليالٍ بقِين من صفرَ ؛ سنةَ إحدى عشرة . أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناس بالنُّهوض لغَزْو الرّوم . فدعا أسامةَ بن زيدٍ ، فقال له : سِرْ إلى موضعِ مَقتَلِ أبيك ؛ فأوطِئْهم الخيلَ . فقد ولّيتُكْ هذا الجيشَ فأغزِ صباحا على أهل أُبنَى ؛ وحرِّق عليهم ، وأسرعِ السيرَ لتسبِق الأخبار ؛ فإن أظفَرك الله ، فأقِلَّ اللبث فيهم ، وخذْ معك الأدِلاّء ، وقدِّم العُيون والطلائع .

فلما كان يومُ الأربعاء بُدِىء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالوجع ، فحُمّ وصُدِع ، فلمّا كان يومُ الخميس عَقَد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأسامةَ لواءً بيده ، ثم قال : «أغزُ بآسم الله وفى سبيل الله ؛ وقاتِلْ مَن كفَربالله » ؛ فخرج

بلوائه معقودا ، فدفعه إلى بُرَيدة بن الحصيب الأسلَمىّ ، وعسكَر بالجرْف ، فلم يبقَ أحدٌ من وجوه المهاجرِين والأنصار إلاّ انتدب فى تلك الغزاة ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عُبيدة بن الجرَّاح ، وسعد بن زيد ، وقَتادة بنُ النّعمان ، وغيرهم ، فتكلم قوم وقالوا : يَستعمِل هذا الغلامَ على المهاجِرِين الأوّلِين ! فغَضِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً ، وخرج وقد عصَب رأسَه بِعصابة ، وعليه قطيفةٌ ، فصَعِد المِنبَر ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أمّا بعد ، أيُّها الناس ، ما قالةٌ بلَغَتْنى عن بعضكم فى تأميرى أُسامة ! وَلَئِن طَعنتم فى إمارة أسامةَ لقد طعنتمْ فى إمارة أَبيه من قبله . وايمُ اللهِ إنَّه كان لَخليقاً للإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليقٌ للإمارة ، وإنه كان لَمِن أَحَبِّ الناسِ إلىَّ ، وأنهما لمخلاّن لكلّ خير . فاستوصُوا به خيراً ؛ فإنَّه من خياركم » .

ثم نزل فدَخَل بيتَه ، وجاء المسلمون يَخرُجون مع أسامة ، يودِّعون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وثَقِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى المرض ، فجعل يقول: أنفِذُوا بَعْثَ أسامة . فلمّا كان يومُ الأحد اشتدّ الوجع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل أسامة من مُعسكَرِه ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم مَغمُور ، وهو اليومُ الّذِى لَدّوه[1] فيه ، فطَأْطَأَ أسامةُ فقبّله ، والنّبىّ صلى الله عليه وسلم لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السّماء ثم يَضعها ، ثمّ دخل يومُ الاثنين ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُفِيق ، فقال له : اغدُ على بركة الله ، وودّعه أسامةُ وخرج ؛ فأمَرَ الناسَ بالرحيل ، فبينا هو يريد الرُّكوب إذا أتته أمُّ أَيْمَن تقول : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يموت ، فأقبل ومعه عمر وأبو عُبَيدة ، فانتهَوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيموت ، فتُوفِّىَ حين زاغَت الشمس يوم الاثنين ، لاثنتىْ عشرة ليلةً خلتْ من شهر

---

(١) أى جعلوا الدواء فى جانب فمه .

ربيع الأوّل ، فدخل العسكر إلى المدينة ، ودخل بُرَيْدَةُ باللِّواء حتى أتى به باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغرزه عنده ، ولما بُويع أبو بكر أمر بُريدة ابنَ الحصيب أن يذهب باللّواء إلى بيت أسامة ليمضى لوجهه ؛ فلما ارتدت العرب كُلِّم أبو بكر فى حبس أسامة ، فأبى(١) .

ولمّا كان هلالُ شهرِ ربيع الآخر ، سنة إحدَى عشرةَ ، خرج أسامةُ إلى أهل أُبنَى فى عشرين ليلة ، فشَنَّ الغارةَ عليهم ، وكان شِعارهم : « يامنصور أُمت » ، فقتَل من أشرَف له ، وسَبَى من قَدِم عليه ، وحرَّق فى طوائفها بالنّار وحرّق منازلَهم وحرثَهم ونخلَهم ، وصارت أعاصير من الدَّخاخِين ، وأجالَ الخيلَ فى عَرَصاتِهم ، وأقاموا يومَهم ذلك فى تعبئةِ ما أصابوا من الغنائم ، وكان أسامةُ على فرسِ أبيه سبحة ، وقتَلَ قاتل أبيه فى الغارة ، ولمـَّا أمسَى أمرَ الناسَ بالرَّحيل ، ثمَّ أغذّ السيرَ ، فوَرَد وادى القُرَى فى تسع ليالٍ ، ثمَّ بعث بشيراً إلى المدينة بسَلامَتِهم ، ووصل إلى المدينة بعد ست ، وما أصيبَ من المسلمين أحَد ، وخرج أبو بكر فى المهاجرِين ، وأهلُ المدينة يتلقَّوْنهم سروراً بسلامتهم ، ودخل على فرسِ أبيه سبحة ، واللّواء أمامَه يحمِله بُرَيدة حتّى انتهَى إلى مسجد رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، فدخل فصلى ركعتَين ، ثمَّ انصرَف إلى بيته .

قلت: قوله: « أُبْنَى » – بضم الهمزة، وسكون الباء، وبعدها نون مفتوحة، وألف مقصورة – على وزن حُبْلَى. وبعضهم يقول: يُبْنَى – بياء آخر الحروف بدل الهمزة – قال أبو داود: وسمعتُ ابنَ أبى عمر المدنىّ، قال: سمعتُ أبا مسهَر، قيل له : أُبْنَى. قال : نحن أعلَم ، هى يُبْنَى فِلَسطين ، وهى الّتى بعث إليها رسول الله صلى الله

---

(١) انظر عيون الأثر ٢ : ٢٨٢ .

عليه وسلم زيدا أبا أسامة مع جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، فقتلوا جميعا . انتهى .

قلت : الّذى فى الحديث يردّ هذا القول ، وإنّما هى أُبْنَى البَلْقاء ؛ لأنّ لفظَ الحديثِ أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دَعَا أسامةَ بنَ زيد وقال : « سِرْ إلى أُبنىَ موضِع مقتل أبيك » .

وبعضهم قال : أُبلَى باللام مكان النون ، وليس بشىء ، وإنّما يُبْنَى بالنون ، فإنّها بساحلِ عَسْقَلان ، وهى المشهورة الآن بأن فيها قبرَ أبى هُرَيرة رضى الله عنه .

وقد ذكر المسعودىّ(١) فى شرح المقامات : أنّ المهدىّ لمّا دخل إلى البَصْرة رأى إياسَ بن معاويةَ وهو صبىّ ، وخلْفَه وقُدّامَه أربعمائة طَيْلسان من العلماء وغيرِهم ، فقال المهدىُّ : أُفٍّ لهذه العَثانين ؛ أما كان فيهم شيخٌ يتقدَّمهم غيرُ هذا الحدَث ! ثمّ قال له المهدىّ : كم سِنُّك ؟ فقال : سِنّى ــ أطال اللهُ بقاء أميرِ المؤمنين ــ سِنُّ أسامة بن زيد بن حارثة لمّا ولاّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جيشا فيهم أبو بكر وعمر . فقال : تقدّم ، باركَ الله فيك ، وكانت سنُّه سبعَ عشرةَ سنة .

قلت : هذا غيرُ صحيح ؛ لأنّ إياسا توفِّىَ فى دولة بنى أُمَيّة سنة إحدَى وعشرين ومائة ، والمهدىّ تولّى الخلافة ، وبُويِع عليها بمكّة فى المسجد الحرام عند وفاةِ المنصور فى ذى الحِجّة ، سنة ثمانٍ وخمسين ومائة ؛ والّذى يَصِحّ فى مِثل هذا أنّ يحيى بن أكثم وَلِىَ القضاء فى زمنِ المأمون ببَغْداد وله عشرون سنة ، ولمّا ولى قضاءَ البَصْرة استصْغَروه ، فقال أحدهم : كم سِنُّ القاضى ؟ فقال : أنا أكبَرُ من عتّاب بن أسيد الّذى ولاّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكّة ، وأكبَرُ من مُعاذ الّذى وجّه به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

(١) هو الإمام محمد بن عبد الرحمن بن محمد المسعودى الفنجديهى المتوفى سنة ٥٨٤ . وانظر كشف الظنون .

قاضيا على أهل اليَمَن ، وأكبَرُ من سوّار بن كَعْب الّذى وجّه به عمرْ قاضيا على اليَمَن !

* * *

٤٥ — وقوله : وزَعَمْتُ أن بيعةَ أبى بكرٍ كانت فلتةً .

يشير بذلك إلى ماورد فى كلام عمر بن الخطّاب رضى الله عنه . روى الزُّهْرىّ عن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت أُقرِئُ عبدَ الرحمن بن عوف فى خلافة عمر بن الخطاب ، فلمّا كان فى آخر حَجّةٍ حَجّها عمر ، أتانا عبدُ الرحمن بنُ عوف ذات ليلة ، ونحن بمِنًى ، فقال : لو رأيت أمير المؤمنين ؛ وقدْ أتاه رجل وقال : إنّ رجالا يقولون : لو قدمات أميرُ المؤمنين بايعنا فلانا ، فقالَ عمر : إنّى قائم فى الناس فمحذّرهم هؤلاء الرَّهط الذين يريدون أن يغصبوا الناس بيعتهم ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إن الحجّ يَجمَع رعاعَ النّاس وغَوغاءهم الّذين يَغلِبون على مجلسك ، وإن قلت قولاً فهم القومُ مقالةً لم تُحفظ ولم يَعُوها ، ولم يَضَعوها مواضعها ، فيطيرون بذلك كلّ مَطِير ، فلو أمهلت حتّى تَقدمَ المدينةَ و تنفرِد بالمهُاجرين والأنصار ، فقلتَ ماقلتَ متمكنّا ، كان أجدر بأن يحفظوا مقالتك ، وأن يعوها ويضعوها مواضعها . فقال : أما والله إن شاء الله تعالى ، لئن قدمتُ المدينة لأقومنّ بها فى أوّل مُقامٍ أقومُه بالمدينه .

قال : فقَدِمنا المدينة فى عقب ذى الحِجّة ، فلمّا جاءت الجمعة هجّرتُ للّذى حدّثنى ابن عوف ، ولا أرى أن أحداً قد سبقنى ، فوجدت سعيد بن عمرو ابن نُفَيل قد سبقنى بالتّهجير ، جالسا إلى جنب المِنبر ، فصلّيتُ ، ثم جلستُ إلى جنبه تحُكّ ركبتى ركبتَه ، فقلتُ : أما والله ليقولَنّ أميرُ المؤمنين على هذا المِنبر مقالةً لم يَقلها أحدٌ قبله ! فغضب سعيد ، وقال : أىَّ مقالة عسى

أن يقولها أميرُ المؤمنين لم يقلها أحدٌ قبله! فلمّا زالت الشمسُ خرج عمر رضى الله عنه، وجلس على المنبر، وأذّن المؤذّن فى أذانه. فلما فرغ قام عمر فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أمّا بعد، أيّها الناس، فإنى قائلٌ مقالةً قد قُدِّر لى أن أقولها، ولعلّها تكونُ بين يدى أجلى، فمن حفظها أو عقلها أو وعاها، فليحدِّث بها حيث انتهتْ به راحلته، ومن لا فإنّى لا أُحِلّ لأحد أن يكذِبَ علىّ.

إنّ الله بعث محمّدا وأنزل عليه الكتاب، وكان فيما نزل عليه آيةُ الرَّجْم، فقرأناها ووعيْناها، فرَجَم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورجمْنا بعدَه، فأخشى أن يطول بالناس زمان، فيقول قائل: لا نجد الرَّجم فى كتابِ الله عزّ وجلّ، فيضِلّوا بترْك فريضةٍ أنزلها الله. ألا إنّ الرَّجْم حقٌّ على من زنى إذا أحصِن، وقامت البَيّنة، أو كان الحَبَل، أو الأعتراف.

ألا وإنّا كنّا نقرأ: لا ترْغبوا عن آبائكم، فإنّه كفرٌ بكم، أن ترغبُوا عن آبائكم. ألا وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُطْرُونى كما أُطْرِت النصارى عيسى بن مريم، فإنّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبده ورسوله» وقد بلغنى أن قائلا يقول: لو مات عمرُ بايعتُ فلانا، فلا يَغْتَرّنّ امرؤٌ منكم أن يقول: كانت بيعة أبى بكرٍ فلْتة، وليس فيكم من تُقْطَع الأعناقُ إليه مِثل أبى بكر، وأنّه كان من خيرِنا؛ حين تُوُفِّىَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اجتمع المهاجرُون إلى أبى بكر، وتخلّف علىٌّ والزُّبير ومن معهما فى بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتخلّف الأنصار فى سقيفة بنى ساعدَة مع سعد بن عُبادة. فقلتُ: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار، فانطلقت أنا وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجَرّاح نؤمُّهم، ولقينا رجلان صالحان ممّن شهد بَدْرا: عُوَيْم بن ساعدة ومَعْن بن عَدىّ، فقالا: أين

تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلنا : نريد إخواننا الأنصار . فقالا : لا عليكم ألا تأتوهم ، وأبرموا أمركم بينكم . فقلت : واللهِ لنأتينّهم ، فأتيناهم فى سقيفةِ بنى ساعِدة ؛ فإذا هم مجتمعون على رجل مزمّل بالثّياب ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : سعد بن عُبادة ، فقلت : ماله ؟ قالوا : مريض . فجلسنا وقام خطيبهم ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإيمان ، وأنتم معاشر المهاجرين رهطٌ منّا ، وقد دَفّتْ إلينا دافّة[١] منكم .

قال عمر : وإذا هم يريدون أن يختزِلونا من أصْلنا ، ويختصُّوا بالأمْردوننا .

قال عمر : فلما سكت أردت أن أتكلم بمقالةٍ قد كانت اعجبتْنى بين يدىْ أبى بكر ، فقال أبو بكر : على رِسلِكَ ! وكنتُ أعرف منه الجدّ ، فكرهْت أن أُغضِبَه ، وهو كان خيرا منّى وأرفق ، وأوقر وأحكم . ثمّ تكلّم ، فوالله ماترك كلمةً أعجبتْنى ممّا قد زوّرتُ فى نفسى إلاّ وقد قالها ، وأفضلَ منها حتى سكت ، ثم قال :

أمّا بعد ، فما ذكرْتم من خيرٍ فهو فيكم معشر الأنصار وأنتم أهله وأفضل منه ، ولن تعرف العربُ هذا الأمر إلاّ لهذا الحىّ من قريش ، فهم أوسط العرب نسبا ودارا ، وقد رضيت لكم هذين الرّجلين ، فبايِعوا أيّهما شئتم .

وأخذ بيدِى ويدِ أبى عُبيدة بن الجرّاح ، فما كرهتُ شيئا ممّا قال غيرها ؛ وكان والله لأن أُقدّم فتُضرب عُنُقى لا يُقرّبنى ذلك إلى إثم ، أحبّ إلىّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهمّ إلاّ أن تتغيّر نفسى عند الموت .

قال : ثمّ قدم الحُباب بنْ المُنذِر (رجلٌ من الأنصار) ، فقال : أنا جُذَيْلُها

---

(١) الدافة : القوم يسيرون جماعة . وانظر اللسان .

المُحكَّك ، وعُذَيقُها المرجَّب[(١)] ، منّا أميرٌ ومنكم أمير يامعشر المهاجرين ، وإن شئتم أعَدْنا الحربَ جَذَعة[(٢)] .

قال : وكثُر اللغط ، وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف . فقلتُ : ابسطْ يدك يا أبا بكر ، فبسط يدَه ، فبايعتُه ، وبايعه أبو عُبيدة ، وبايعه المهاجِرون وبايعه الأنصار ، ونزلْنا على سعد ، فقال قائل : قتلتم سعدا . فقلتُ : قتل الله سعدا . قال عمر : فوالله ماوجدنا فيمن حضرَنا أوفقَ من مبايعة أبى بكر ، وخشينا إنْ نحن فارقْنا القومَ ولم تكن بَيْعة أن يحدثوا بعدنا بَيْعةً ؛ فإمّا بايعناهم على مالا نرضَى ، وإما خالفناهم فيكون فساد .

رواه يونُس بْن يزيدَ بن الزّهرى مطوّلا ، وزاد فيه :

قال عمر : فلا يغترّنّ امرُؤٌ أن يقول : إنّ بيْعة أبى بكر كانت فلْتة فتمّت ، فإنّها قد كانت كذلك إلاّ أنّ الله وَقَى شرّها ، فمن بايع رجلا من غير مشورة فإنه لايُبايَع هو ولا الّذى يُبايعه تَغِرّةً يُقتلا .

* * *

ومن أدلّة القرآن على خلافة أبى بكر قولُه تعالى : ﴿ أفإنْ ماتَ أو قتِل انقَلَبْتمْ على أعقابكمْ ومن يَنقلبْ على عَقِبيه فلن يَضُرّ الله شيئا وسيَجزِى الله الشاكرِين ﴾ . ظهر تأويلُ هذا حين انقلب أهل الرِّدّة على أعقابهم ، فلم يضرّ ذلك دينَ الله ولا أمّة نبيّه صلى الله عليه وسلم . وكان أبو بكر يسمّى أميرَ الشاكِرين لذلك ؛ وفى هـذه الآية دليلٌ على صحّة خلافته ؛ لأنّه هو الّذى قاتل المنقلبين على أعقابهم ؛ حتّى ردّهم إلى الدّين الذى خرجوا منه . وكان فى قوله تعالى : ﴿ وسيَجزِى الله الشاكِرين ﴾ دليل على أنّهم سيظفرون

(١) جذيل : تصغيرجذل ، وهو عود ينصب للابل الجربى تحتك به فتستشفى . والمحكك الذى كثر الاحتكاك به حتى صار أملس : والمرجب المدعوم بالرجبة ، وهى خشبة ذات شعبتين والمراد أنه من أصحاب الرأى السديد .

(٢) الجذعة : الشابة الفتية ، يريد : الحروب والغارات .

بمن ارتدّ ، وتكمل النعمة عليهم فيشكرون ، فتحريضه إيّاهم على الشكر والشكر لا يكون إلاّ على نعمة ـ دليلٌ على أنّ بلاء الرِّدّة لايطول ، وأنّ الظفر بهم سريع كما كان .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ من الأعراب ﴾(١) دليلٌ على صحّة خلافته ، لأنه هو الّذى دَعَا الأعراب إلى جهاد بنى حنيفة ، وكانوا أُولِى بأسٍ شديد ، ولم يقاتَلوا الجزيةِ ، وإنّما قوتلوا ليُسلموا ، وكان قتالُهم بأمر أبى بكر وفى سُلْطانه .

ثم قال تعالى : ﴿ فإنْ تُطيعوا يُؤْتِكم الله أجراً حَسَناً ﴾(١) ، أوجب عليهم الطاعة لأبى بكر رضى الله عنه ، وكان ذلك فى الآية كالنصّ على خلافته .

وفى زواج علىٍّ رضى الله بالحنفيّة أمّ ولده محمّد بن الحنفيّة — وهى من سَبايَا عسكر أبى بكر رضى الله عنه من بنى حنيفة — دليلٌ قوىٌ فى الرّدّ على الرافضة ؛ فإنّ عليًّا لو لم يَعتقد صحّة خلافتِه لم يتزوّج من سَبْيِه .

وقوله تعالى : ﴿ يأيّها الّذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾(٢) . وقد بيّن فى سورة الحشر مَن الصادقون ؟ فأمر الّذين تبوّءوا الدارَ والإيمان أن يكونوا معهم تبعاً لهم ، فحصلت الخلافة فى الصّادقين بهذه الآية ، فاستحقوها بهذا الاسم ، ولكن ليس فى الصّادقين مَنْ سمّاه الله تعالى الصّديق إلا أبو بكر ، وكانت له خاصّة ، ثمّ للصادقين من بعدِه .

ولابن زنجويه رحمه الله تعالى مُصنَّف كبير فى فضائلِ أبى بَكْر ، جوّدَ فيه ماشاء ، وما أحقَّ أبا بكر الصديق بقولِ مَرْوانَ بن أبى الجَنُوب فى المتوكّل :

كانت خلافةُ جعفرٍ كنبّوةٍ جاءتْ بلا طلبٍ ولا بِتبخّلِ

---

(١) سورة الفتح ١٦ (٢) سورة التوبة ١١٩

وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مثلَما وَهبَ الرسالةَ للنبيّ المرسلِ

وقال عليّ بن سراج : كان جوارى جارٌ يُتَّهم بالتشيّع ، وما بان ذلك عليه فى حالٍ من الأحوال إلاَّ فى هجاء امرأته ، فإنه قال وقد طلّقها :

ما كنتِ من شَكْلى ولا كنتُ مِن
شكلكِ يا طالقةَ البَتَّهْ
غلطتُ فى أمرِكِ أُغلوطةً فأدركتْنِى بيعةُ الفَلْتَه

وأنشدَنى لنفسه إجازةً صفىُّ الدين بن عبد العزيز بن سرايا الحلّىّ ، ما كتب به إلى صاحبه أبى بكر بن القاسم السّلامىّ :

فَلْتَةٌ كان منكَ من غيرِ قصدِ يا أبا بكرٍ عقد بَيْعةِ وُدّى
فلهذا إذا تقادَمَ عهدٌ بيننا حلتَ عن وفائى وعَهْدِى

ومما أخرجه أبو العلاء المعرّى مخرج الألغاز ، قوله :

شهدتُ بأنّ الكلبَ ليس بنابحٍ
يقيناً وأنّ الليثَ فى الغابِ ما زَأَرْ (٢)
وأنّ قريشا ليس فيها خِلافةٌ
وأنّ أبا بكرٍ شكا الحيْفَ مِن عُمَرْ

وتفسير هذا الكلام : الكلبُ نجمٌ فى السماء خلفَ الجوْزاء يسمَّى كَلْب الجبّار ، والكَلْب مسْمار فى قائم السيف ، إلى جانبه مسمارٌ آخر يقال له المَجُوز ، قال الشاعر :

وعجوز رأيتُ فى فِم كَلْبٍ جعَلَ الكلب للأمير جَمالاَ

والكلب أيضا مسمارٌ فى الرّحْل ، واللّيْث : ضَربٌ من العناكب قصير

---

(١) هذا الشعر مما لم يذكر فى الديوانين ، وذكره القفطى فى إنباه الرواة١ : ٧٩ ، وذكر بعدها :

وأنّ عليًّا لم يصلّ بصَحْبِه وما هُوَ واللهِ العظيمِ من البَشَرْ

وقال علاء الدين الكلبلى :

خَصرك يا من حَوَى بهجته   محاسنًا ما اجتمعْن فى البدْر
أضعَفُ من حجّة النواصب فى   أنّ إمامَ الهُــدى أبو بكرِ

وقال القاضى زين الدين بن الوَرْديّ ردًّا عليه :

خَصْرُك يا من حَوَى بهجَتِه   محاسناً ما اجتمعن فى عَبْدِ
أضعَفُ من حُجّة الرّوافِض فى دعـ
واهُمُ أنّ منهمُ المَهْــــــدى

* * *

٤٦ ــ وقوله : وروّيتُ رمحى من كتيبة خالد .

يشير بذلك إلى قول أبي شجرة السُّلمّى ، وهو بيتٌ قالَه فى شعرٍ له :

وروّيتُ رُمْحِى من كَتِيبةِ خالدٍ   وإنّى لأرجو بعدَها أنْ أعَمَّرَا

وذلك أنّ العرب لمّا ارتدّت بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقدّم أبو بكرٍ إلى خالدِ بنِ الوليد ، وجهّزَه فى جماعةٍ من المهاجرين والأنصار والعرب لقتال أهلِ الردّة ، وتوجّه خالدٌ إلى بنى حنيفة ، وقاسَى فى قتالهم شدائد ، وقتَل مُسيلمَةَ الكذّاب ، وقُتِل من المسلمين جماعةٌ ، وبلغت الأخبار أبا بكر ، فكتب إلى خالدِ بن الوليد :

أمّا بعد ، فإنْ أظْفَرَك الله ببنى حنيفة فأقلِل اللّبث فيهم حتّى تنحدِر إلى بنى سُلَيم ، فتطأهم بها طأةً يعرفون بها ماصَنعوا ، فإنّه ليس بطن من العرب أنا أغيَظُ عليه مِنّى عليهم ؛ قدِم قادمُهم يذكُر إسلاما ، ويريد أن أعينَه ؛ فأعنته بالظَّهْرِ والسِّلاح ، ثمّ جعَل يعترض النّاس . فإن أظْفَرَك الله فلا ألومُك فيهم أن تحرِّقهم بالنّار ، وتهوّل فيهم بالقتل حتّى يكونوا نكالاً لهم .

قالوا : فجعل ابن الوليد يَبْعث الطلائع أمامَه ، وسمعتْ بنو سُلَيم بإقبالِ خالد ، فاجتمع منهم بشر كثير يعترِضون لهُ ، وحماهم بنو عُصَيَّة فاستجلبوا من بقِىَ من العرب مرتدًّا ، وكان الّذى يجمعهم أبو شجرة بن عبد العزّى ، فانتهى خالدٌ إلى جمعهم بالجوامع مع الصُّبْح ، فصاحَ خالدٌ فى أصحابه ، وأمرهم بلبسِ السّلاح ، ثمّ صفّهم ، وصُفَّت بنو سُلَيم . وقد كلَّ المسلمون وعجف كُراعُهم وخُفهُمْ ، وجعل خالدٌ يَلِى القتالَ بنفسِه حتى أثخن فيهم القتل. ثمّ إنّه حمل عليهم حملةً واحدة فهربوا ، وأسرَ منهم كثيرا ، فجعل يضرِب أحدَهم على عاتِقه فيجزله ، ويضرِب الآخر فى وَسطه .

وفى حديث سُفيانَ بن أبى العَوْجاء : أنه حظَّر لهم حظائرَ ، فأحرقهم بالنار ، وأصابَ أبو شجرة السُّلَمى يومئذ فى المسلمين ، وجرح جراحاتٍ كثيرة ، وفى ذلك يقول شِعرَه الّذى من جُملته :

* ورَوَّيتُ رُمْحِى من كَتيبةِ خالدٍ *

ولمّا قَدم خالدُ بن الوليد على أبى بكر رضى الله عنه ، كان أوّل ما سأل عنه خبر بنى سُليم ، فأخبره خالدٌ بما اتّفق ، فحمِد الله وأثنى عليه . ثمّ إنّ أبا شَجَرة بعد ذلك أسلم ، ودخل فيما دخل فيه الناسُ ، وجعل يَعتذِر ويجحد أن يكون هو الّذى قال الشّعر المذكور .

وكان أبو شجرة السُّلَمىُّ من فُتّاك العرب ، أتى إلى عمرَ بن الخطّاب بعد الرِّدّة يستحمِله ، فقال له: مَن أنت ؟ فقال : أنا أبو شجرة السُّلَمىّ ، فقال له عمر : أىْ عدوَّ نفسه ، ألستَ القائلَ حين ارتددْت :

ورَوَّيتُ رُمْحِى من كَتيبةِ خالدٍ ... وإنّى لأرجو بعدَها أن أُعمَّرا[1]

وعارضْتُها شهباءَ تَخْطِرُ بالقنا ... تَرَى البِيْضَ فى حافاتِها والسَّنَوَّرا[2]

---

(١) من مقطوعة له فى تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٦ ، والبيتان فى كامل المبرد ١ : ٣٨٨ .

(٢) شهباء ، من الشهبة ، وهو بياض فى خلاله سواد ، وتخطر من الخطران ، وهو الاهتزاز ، والسنور : كل سلاح فيه حديد .

ثم انحنى عليه عمرُ بالدِّرّة ، فسعى إلى ناقته فحلّ عِقالَها ، وأقبلها حَرّة بنى سُلَيم ، يحُثّ السَّيرَ هَرَبا من الدِّرة ، وهو يقول :

قد ضَنّ عنَّا أبو حفصٍ بنائِلِه ... وكلّ مختبطٍ يوماً له وَرَقُ(١)

ما زالَ يَفرِ بُنى حتى خذيتُ له ... وحَالَ من دون بعض الرغبة الشَّفَق(٢)

ثمّ التفتّ إليها وهى جاثية(٣) ... مِثلُ الطريدةِ لم ينبتُ لهاوَرَقُ(٤)

أوْرَدتُهَا الخلّ من شوْران صادرةً(٥) ... إنّى لأزرى عليها وهى تنطَلِقُ

يُطيرُ مرواً خُطَاها عن مَناسِمِها ... كما تنوقّدَ عند الجهبذ الورَقُ

إذا يُعارضُها خَرقٌ تعارضُه ... وَرْهاء فيها إذا استعجَلْتَها خُرُق

يفوء آخِرها منها بأوّلِها ... مُبرِحُ اليَدْين بها ناهضةُ العُنُقِ(٦)

* * *

٤٧ — وقوله : ومزّقتُ الأديم الذى باركت يد الله عليه .

يشير بذلك إلى قتل عمر بن الخطّاب ، قال عبد الله بن الزّبير ، عن أبيه : غدوتُ مع عمرَ بن الخطّاب إلى السّوق وهو متّكىء على يدى ، فلقيه أبو لؤلؤة ، غلامُ المُغيرة بن شُعْبة ، فقال : ألا تُكلِّم مولاىَ أن يضعَ عنّى من خَراجى ؟ قال له : كم خراجك ؟ قال : دِينار ، قال : ما أرَى أن أفعل ، إنك لعامل محسنٌ ، وماهذا بكثير . ثم قال له عمر : ألا تعملُ لى رَحًى ؟ قال : بَلَى . فلمّا وَلّى قال أبو لُؤلؤة : لأعْمَلنّ لك رَحًى يتحدَّث بها ما بين المَشرقِ والمَغرِب . قال : فوقع فى نفسى قولُه ، فلمّا كان وقت النّداء لصلاةِ الصّبح ، خرج عمرُ إلى النّاس يؤذِنهم للصّلاة .

قال ابنُ الزّبير : وأنا فى مصلاىَ ، وقد اضطجع عدوُّ الله أبو لؤلؤة ،

---

(١) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٧ والخبط : ضرب ورق الشجر حتى ينحى عنه .

(٢) الشفق : الخوف وهو الإشفاق .

(٣) الطبرى : « ثم ارعويت إليها وهى جانحة » .

(٤) الطريدة : أصل العذق . (٥) حرة شوران ، من حرار الحجارة

(٦) وفى البيت إقواء .

فضربه بالسكّين ستّ طعنات ، إحداهنّ من تحت سُرّته وهى الّتى قتلَتْه ، فصاح عمر : أينَ عبدُ الرحمن بن عوف ؟ فقالوا : ها هوذا ، فأمَرَه أن يُصَلّىَ بالناس ، واحتملوا عمرَ ، فدخلوا به منزله ، فقال لابنه عبد الله : اخرج فانظُر مَن قتلنى ، فخرج فقال : من قتل أمير المؤمنين ؟ فقالوا : أبو لُؤلُؤة غلامُ المغيرة بن شُعْبة . فرجع فأخْبَرَ عُمَرَ ، فقال : الحمد لله الذى لم يجعل قَتْلى بيَدِ رَجُلٍ يحاجُّنى بـ « لا إله إلاّ الله » .

وقال غيرُه : جاءه بسكّين له طَرَفان ، وطَعَن معه اثنَىْ عشر رَجُلا . فقال عمر : دُونَكُم الكَلْب ، فإنّه قد قَتَلنى . وماجَ الناسُ بعضهم فى بعض ، فرمى عليه رجل من أهل العراق برنسا ، ثم بَرك عليه ، فلما رأى أنه لا يستطيع أن يتحرك وجأ نفسه فقتلها .

وكان أبو لؤلؤة مجوسيًّا ، وقيل : نَصْرانيّا أزرق ، واسمه فيْرُوز .

وقال ابن عبد البرّ عن عمر إنّه قال حين احتُضر ، ورأسه فى حجْر عبدالله ابنه :

ظَلومٌ لنفسى غيرَ أنّىَ مُسلِمٌ　　أُصَلِّى صلاتِى كلَّها وأصومُ

وقالت عائشةُ رَضِى الله عنهـا : ناحت الجنّ على عمرَ قبلَ أن يُقتَل بثلاث ، فقالت :

أبعد قتيلٍ بالمدينةِ أظلمَتْ　　له الأرضُ تهتزّ العضاهُ بأَسْوُق !
جَزى اللهُ خيراً من إمامٍ وبارَكَتْ　　يدُ الله فى ذلكَ الأديم المُمزّقِ
فمن يَسْعَ أو يركَبْ جناحَىْ نعامة　　ليُدرِك ما قدّمتَ بالأمس يُسبَقِ
قضيتَ أُموراً ثمّ غادَرْت بعدَها　　بوائق فى أكمامها لم تُفتَّقِ
وما كنتُ أَخْشَى أن تكونَ وفاتَهُ　　بكفّ سبنتَى أزرق العين مُطْرِقِ(١)

---

(١) السبنتى : النمر الجرىء . والمطرق : الحنق . والبيت فى اللسان منسوب إلى الشماخ . وانظر الاستيعاب ١١٥٧ .

وما أحسن ما نقلتُ من خط علاء الدّين الكِندى الوداعى ، على لسان صديق يسمّى عمر يهوى مليحاً فى أذنه لؤلؤة :

قد قلتُ لما مرّ بى مُقْرطقٌ يحكى القمَرْ
هذا أبو لؤلؤةٍ منه خذوا ثأر عمَرْ

وقالت عاتكة ابنة زيد بن عمرو بن نفيل ؛ امرأة عمر بن الخطاب ترثيه :

وأفجعنى فيروز لادرّ درهُ بأبيض تالٍ للكتاب منيبِ
رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخى ثقة فى النائبات مجيبِ
متى مايقل «لا» يكذب القولَ فعلُه سريع إلى الخيرات غير قطوب

* * *

٤٨ – وقوله : وضحّيتُ بالأشمط الذّى عُنْوان السُّجود به .

يشير بذلك إلى قتلة عثمان بن عفّان ، وسبب ذلك أنّه قد كان وفد عليه قومٌ من مصرَ ، فيهم محمّد بن حُذَيفة بن عتْبة بن ربيعة فى جُنْد ، وكنانة بن بِشْر التُّجيبىّ فى جنْد ، وابن عدس البَلَوىّ فى جُنْد ، ومن أهلِ البصرة حَكيم ابنُ جبلة العَبْدىّ ، وسَدوس بن عيسى السنىّ ، ونفرٌ من الكوفة ، منهم الأشترُ بنُ الحارث النّخعِىُّ ، فاستعتَبُوه فأعتبهم وأرضاهم ، ثم إنّهم وَجَدوا بعد أن انصرفُوا إلى مكّة كتابا مِن عثمانَ ، عليه خاتمهُ إلى أمير مصرَ : إذا أتاك القومُ فاَضرب أعناقَهم .

فعادوا به إلى عثمانَ رضى الله عنه ، فحلف لهم أنّه لم يأْمر به ولم يَعلم ؛ قالوا : إنَّ هذا عليكَ شديد ، يُؤخَذ خاتَمك من غير عِلمك ! فإن كنتَ غُلِبتَ على أمرك فاعتزل .

فأبَى أن يعتزل وأبَى أن يُقاتِلهم ، ونهى عن ذلك ، وأغلق بابَه ، فحُوصِر أكثر من عشرين يوما وهو فى الدّار ، فى ستمّائة رجل ، وقال لعبيده : من أغمد سيفه فهو حرٌّ . ثمّ إنّهم دخلوا عليه من دار بنى حَزْم الأنصاريّ ، فضرَبه نِيار بن عِياض الأنصاريُّ بمِشْقَصٍ فى وجهه ، فسال الدمُ على مصحفٍ فى حِجره ، ثمّ أخذ محمدُ بن أبى بكر بلحيته ، فقال : دع لى لحيتى ، فوالله لقد كان أبوك يكرمها ! فاستحيا وخرج . ثم دخل رُومانُ بنُ سِرْحانَ ، أزْرق قصير معه خِنْجَر ، فاستقبله به ، وقال : على أيِّ دِينٍ يا نعثَل ؟ فقال له : لستُ بنَعْثَل ؛ ولكنّى عثمان بن عفّان ، وأنّا على مِـلّة إبراهيم حنيفا مسلما وما أنا من المشركين .

قال : كذبتَ ، وضربَه فى صُدْغِه الأيسر فقتله ، وأدخلته امرأتُه نائلةُ بينَها وبين ثِيابها .

ودخل رجلٌ من أهلِ مصرَ معه السّيف مصلَتاً ، فقال : والله لأقطعنّ أنفه ، فعالج المرأة ، فكشف عن ذراعيْها ، وقبضتْ على السيف ، فقطع إبهامها ، فقالت لغلامٍ لعثمان معه سيف ، يقال له رباح : أعِنّى على هذا ، فضربه بالسّيف فقتَله . وأقام عثمان يومه ذلك مَطروحاً إلى الليل .

وقيل : إن الذى قَتَله محمد بن أبى بكر بمِشْقَص : وقيل : بل قتله سودان ابن حمران . قيل : بل رومان اليمانى ، وقيل غير ذلك .

وقال ابن عبد البرّ[١] : وأكثرهم يروى أن قطرة من دمه وقعت على المصحف ، على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾[٢] . انتهى .

وقيل : أخذَ ابنُ أبى بكر بلِحْيته يهُزّها ويقول : ما أغنَى عنك معاوية! ما أغْنى عنك ابن أبى سَرْح ! ما أغنى عنك ابن عامر !

---

(١) الاستيعاب ١٠٤٦ (٢) سورة البقرة ١٣٧ .

وقال كنانة مولى صفيّة بنت حُيَيّ : شهدتُ مَقتلَ عثمان ، فأخرج من الدّارِ أربعة من شبابِ قُرَيش ، مضرّجين بالدّماء ، كانوا يَذُبُّون عن عثمان : الحسن بن علىّ وعبد الله بن الزُّبير ومحمد بن حاطب ومروان ابن الحكمَ .

وقال أبو هريرة : إنّى لمحصورٌ مع عثمانَ فى الدّار ، فرُمِىَ رجلٌ مِنّا ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، الآن طابَ الضِّراب ، قَتَلوا منّا رجلا ، قال : عزمتُ عليكَ يا أبا هُريرة إلاّ رميتَ سيفَك ، فرمَيْته ولا أدرى أين هو حتّى الساعة !

وكان معه فى الدار ممن يُدافع عنه : عبدالله بنُ عمر وعبد الله بنُ سلاَم وعبدُ الله بنُ الزُّبير والحسنُ بن علىّ وأبو هُرَيرة ومحمد بن حاطِب وزيدُ بن ثابِتٍ ومروان بن الحكَم ، فى طائفة .

وعن مالك ، أن عثمان لما قتِل ، أُلقِى على المزبلة ثلاثة أيام ، وفى ذلك يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

من سَرّه الموت صِرْفا لامزاج به   فليأت مأدُبَةً فى دار عثمانا (١)

ومنها :

ضحّوا بأشمَطَ عنوان السجود به   يقطّع الليل تسبيحا وقرآنا (٢)
لَتَسمَعُنّ وشيكا فى ديارهمُ   الله أكبَرُ ياثارات عثمانا

وفيه يقول أيضا :

إن تمس داربنى عثمان موحشةً (٣)
بابٌ صريعٌ وبابٌ موحشٌ خربُ (٤)

---

(١) ديوانه ٤٠٩ ، وفيه : «مأسدة» . (٢) الأشمط : أبيض الشعر .
(٣) الديوان : «دار ابن أروى» . (٤) ديوانه ٢٢ ، وفيه : « وباب مخرق » .

فقد يصادف باغي الخيرِ حاجتَه ... فيها ويأوى إليها الجود والحسبُ

وقيل : إنه كتب وهو محصور إلى عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه :

أما بعد ، فقد بلغ السيل الزُّبَى ، وجاوز الحزام الطُّبيين[١] ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه ، ولم يعجزك كلئيم ، ولم يبلغك كمغلَّب ، فأقبل إليّ على أيّ أمْرَيْكَ أحببت :

فإن كنتُ مأكولا فكن خيرَ آكلٍ ... وإلاَّ فأدركني ولمّا أُمزَّقِ[٢]

ومثل هذا البيت قول الآخر :

فإن كنت مقتولا فكن أنت قاتلي ... فبعضُ منايا القوم أكرمُ من بعضِ

وقال ابن عمر : أذنب عثمان ذنبا عظيما يوم التقى الجمعان بأُحُد ، فعفا الله عنه ، وأذنب فيكم ذنبا صغيرا ، فقتلتموه .

وقال الحسن : سمعت عثمان يقول: يأيها الناس ، ما تنقمون عليّ ، وما من يوم إلا وأنتم تقتسمون فيه خيرا .

قال الحسن : شهدت مناديه ينادى : يأيها الناس ، اغدوا على أعطياتكم فيغدون ، فيأخذونها وافيةً . يأيها الناس ، اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافية ، أغدوا على أكسيتكم فيغدون ، فيأخذون الحلل . اغدوا على السمن والعسل . أرزاق دارّة ، وخير كثير .

ومن البيّن أن ما على وجه الأرض مؤمن يخاف مؤمنا إلا يوده وينصره ويألفه ، فلو صبر الأنصار على الأمر لو سعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق ، ولكنهم لم يصبروا ، فسلوا السيف فصار عن الكفار مغمودًا ، وعلى المسلمين مسلولا إلى يوم القيامة[٣] .

(١) الأطباء للخيل : موضع الأخلاف فى الناقة .

(٢) البيت للمزق العبدى ، واسمه شأس بن نهار ، وانظر المؤتلف والمختلف للآمدى ١٨٥ ، وكامل المبرد ١ : ١٧ . (٣) الاستيعاب ٤١ ١ .

قلت : يراد بهذا الكلام فى الإسلام ، وإلا فقد تزوج يعقوب عليه السلام بنتى خاله لابان بن بهرازر وراحيل هى أمّ يوسف وأخيه بنيامين .

وعثمان هو ذو النّورَين ، وزَوْج الابنتين ، وصاحب الهجرتين .

ولمّا دُفن دفن بثيابه فى دمائه لم يُغسّل ، ودُفن بالبقيع . وقيل : صلى عليه مَرْوان ، ونائلة وأمّ البنين زوجتاه ؛ وهما اللّتان دلّتاه فى حُفْرته على الرّجال الّذين نزلوا فى قبْره ، ولحدوا له ، وغيّبوا قبره .

وكانت قتْلته بالمدينة يوم الجُمُعة لثمان عشرة — أو سبع عشرة — خلت من ذى الحجّة ، سنة خمس وثلاثين للهجْرة ، وكانت ولايته اثنتىْ عشْرة سَنة إلاّ اثنتىْ عشْرة ليْلة .

وفى ذلك يقول أيمن بن خُريم بن فاتك الأسدىّ :

تفاقد الذّابحو عثمانَ ضاحيةً ... فأىّ ذَبْح حرام وَيْلَهم ذبحُوا ! (١)

ضحّوْا بعثمانَ فى الشّهر الحرام ولمْ ... يخْشَوْا على مَطْمح الكفّ الّذى طَمِحوا

فأىّ سنّةِ كُفرٍ (٢) سنّ أوّلهمْ ... وبابُ كُفرٍ على سُلطانهمْ فتَحوا !

ماذا أرادوا أضلّ اللهُ سَعْيَهمُ ... بسَفْك ذاكَ الدّمِ الزّاكى الّذى سَفَحوا

إنّ الّذين تولّوا قتْله سَفَهاً ... لقُوا أثاماً وخُسْرانا وما رَبِحُوا

وقال بعضهم :

لَعَمْرُ أبيك فلا تكْذِبَنْ ... لقد ذَهَبَ الخيرُ إلاّ قليلا (٣)

لقد سفِهَ النّاسُ فى دِينِهمْ ... وخَلّى ابنُ عفّانَ شرّاً طَويلا

ودَخل كعبُ بنُ مالك وحسّان بنُ ثابت والنّعمان بنُ بشير على أمير

---

(١) الاستيعاب ١٠٥١ وروايته : « ضحوا بعثمان فى الشهر الحرام ضحى » .

(٢) الاستيعاب : « سنة شر » .

(٣) الاستيعاب ١٠٥٢ ونسبهما إلى بعض بنى نهشل .

المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضيَ الله عنه ، فقال كعب بنُ مالك : أخبِرْنا عن عثمان : أقُتِل ظالما فنقول بقولك ، أم قُتِلَ مظلوما فنقول بقولنا ، أو نَكِلُك إلى الشُّبهة ؟ فالعَجَب من يَقِينِنا وشكِّك ، وقد زعَمت العربُ أنّ عندَك علمَ ما اختَلفْنا فيه ، فهاتِه نعرِفْه ، ثم قال :

فكفَّ يديْه ثمّ أغلَق بابَهُ   وأيقَنَ أنّ الله ليسَ بغافِل(١)
وقال لمن فى دارِه لا تقاتِلوا   عَفَا الله عن كلّ امرئٍ لم يُقاتِلِ
فكيف رأيتَ الله صبّ عليهمُ الـ   ـعَداوةَ والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبَرَ عنهمُ   ووَلّى كإدبار النعام الجوافِل(٢)

فقال لهم عليٌّ رضى الله عنه : لكم عندى ثلاثةُ أشياء : استأثر عثمانُ فأساء الأَثَرة ، وجزِعتم فأسأتُم الجزَع ، وعند الله ماتختلفون فيه إلى يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى بهذا العرب ، ولا تعذِرنا به . فقال عليٌّ رضىَ الله عنه : أتردّ علىّ بين ظَهرانى المسلمين بلا نيّة صادقة ، ولا حجّة واضحة ! اخرجُوا عنّى فلا تُجاوِرُونى فى بلدٍ أنا فيه .

فخَرجوا فى يومهم حتّى أتَوْا معاوية ، فقال : لكم الكفاية والوِلاية . وأعطى حسّان ألف دينار وكعب بن مالك ألفَ دينار ، وولّى النّعمانَ بنَ بَشِير حِمْص ، ثمّ نَقلَه إلى الكوفة بعدُ .

قال إسحاق بن عيسى : أعيذ عليّا بالله أن يكون قتل عثمان ، وأعيذُ عثمانَ بالله أن يكون عليّا قاتِله .

قلت : ذهب إلى معنى الحديث فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أشدُّ أهل النّار عذابا من قَتَل نبيًّا ، أو قَتَله نبيّ » .

---

(١) الاستيعاب ١٠٥٠ ، وقال : « وتنسب لحسان او للوليد بن عقبة » .
(٢) الاستيعاب : « كإدبار السحاب الجوافل » .

قال ياقوت فى مُعجم البلدان : وُجِد على خشبةٍ من خَشَب غُمدان لما هدمه عثمان مكتوب برصاص مصبوب فى خشبة : « اسلم غمدان ، هادِمُك مقتول » فهدمه عثمانُ فقُتِل(١) .

وحُكى أنه أُتىَ به لعبدالملك بن مروان بسكران ، فقال له : ماشربتَ ؟ فقال:

ممقّقة كانت قريشٌ تعافُها فلما استحلّت قتل عثمانَ حلّتِ

فقال : مع من شربت ؟ فقال :

شربتُ مع الشّعرا بكأسٍ رَوِيّةٍ وأخرى مع الجَوْزاء لمّا استقلّتِ

وقال له : فلِم عربدْتَ ؟ فقال :

سَقَوْنى وقالوا : لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبالَ حُنينٍ ماسقَوْنى لغنّتِ

وقال ابن عَبدون فى رائيّته :

وخَضّبتْ شيبَ عُثمان دماً
وخطّتْ إلى الزبيرِ ولم تَستحي مِن عُمَرِ(٢)

* * *

٤٩ — وقوله : وبذلتُ لقطام :

ثلاثة آلاف وعبدا وقينةٌ وضرب علىٍّ بالحُسام المسمّمِ

يشير بذلك إلى قتلة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وذلك أن عليًّا لما قاتل الخوارج بالنّهروان ، واستأصل جمهورهم ، ولم ينجُ منهم إلا اليسير ،

(١) معجم البلدان ٦ : ٢٠٣ .
(٢) البسامة ٣٠٠ .

انتدب له من بقاياهم عبدُ الرحمن بن ملجم ، وتعاقد الخوارج على قتل عليّ بن أبي طالب ومعاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهم ، وخرج منهم ثلاثة نفر لذلك ، ودخل ابن ملجم الكوفة فاشترى لذلك[1] سيفا ، وسقاه السمّ — فيما زعموا — حتى لفظه ، فقيل ذلك لعليٍّ رضى الله عنه ، فأحضره ، فقال له : لِمَ تسقى سيفك السمّ ؟ قال : لعدوّى وعدوّك . فخلّى عنه ، وكان فى خلال ذلك يأتى عليا فيسأله ويستحمله ، إلى أن وقعت عينه على قطام — وكانت جميلة رائعة — فأعجبته ، فخطبها ؛ فقالت : لقد آليتُ ألا أتزوّج إلا على مَهر لا أريد سواه ، فقال : ما هو ؟ فقالت : ثلاثة آلاف وعبد وجارية ، وقتل عليّ ابن أبي طالب ، فقال : والله ما أتيتُ إلا للفتك به ، ولا أقدمنى هذا المصر غير ذلك ؛ ولكن لما رأيتكِ آثرت تزويجك ، فقالت : ليس إلاّ الذى قلتُ لك ، فقال : وما بُغْيتى منك ! إن أنا قتلت عليا أعلم أنى لم أُفت ، فقالت : إن قتلتَه ونجوتَ ، فهو الذى أردت من تبليغ شفاء نفسى ، وتهنئك العيش منى ، وإن قُتلتَ فما عند الله خير من الدنيا وما فيها ، فقال لها : لكِ ما شرطت ، ثم قال :

ثلاثة آلاف وعبد وقَيْنَةٌ ... وضرب عليٍّ بالحُسام المسمّمِ[2]

فلا مهرَ أغلى من عليٍّ وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

فقالت : أرى من يشدّ ظهرك ، فبعثتْ إلى ابن عم لها يدّعى وردان ابن مجالد ، فأجابها . ولقى ابنَ ملجم شبيب بن شجرة الأشجعىّ ، فقال له : يا شبيب ، هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وما هو ؟ قال : تساعدنى على قتل عليّ بن أبي طالب ، فقال : ثكلتْك أمك ! لقد جئت شيئا إدًّا !

---

(١) ساقطة من ط

(٢) الاستيعاب ١١٣١ ، وفيه : «المصمم» ، وقبله هناك :

فَلَمْ أَرَ مَهْراً ساقَهُ ذو سَماحةٍ ... كَمَهْرِ قَطَامٍ فى فصيحٍ وَأَعْجَمِ

كيف تقدر على ذلك ؟ قال : إنه رجل لاحرس له ، ويخرج إلى المسجد منفردا فنتمكّن منه ، وقد كمنّا له فى المسجد فقتله ، فإن نجونا نجونا ، وإن قتلنا فقد سعدنا بالذكر فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة ؛ فقال : ويلك ! إنّ عليا ذو سابقة فى الإسلام مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ والله ما تنشرح نفسى لقتله ، فقال : ويلك ! إنه حكّم الرّجال فى دين الله ، وقتّل إخواننا الصّالحين ، فنقتله ببعض من قتل : فلا تشكّنّ فى دينك . فأجابه ، وأقبلا حتّى دخلا على قَطَام ، وهى معتكفة فى المسجد الأعظم ، فى قبّةٍ ضربتْها لنفسها ، فدعَتْ لهما ، وأخذا سيفهما ، وجلسا قبالة السّدّة التى يخرج منها علىّ رضى الله عنه . فخرج إلى صلاة الصبح ، فبدره شبيب فضربه فأخطأه ، وضربه ابن مُلجَم على رأسه وقال : الحكم لله ياعلىّ ، لا لك ولأصحابك ! فقال علىّ : فزتُ وربّ الكعبة[1] لا يفوتنكم الكلب .

فشدّ الناس عليه من كل جانب فأخذوه ، وهرب شبيب خارجا من باب كندة ، فقال علىّ رضى الله عنه : فإن متّ فاقتلوه ولا تمثّلوا به ، وإن لم أمت فالأمر لى فى العفو أو القصاص .

واختلف أهل العلم بالأخبار : هل قتله فى الصلاة ، أو قبل الدُّخول فيها ؟ وهل أُستخلف مَن أتمّ بهم الصّلاة ، أو هو أتمّها ؟ والأكثر على أنه استخلف جعدةَ بن هبيرة ، فصلّى بهم تلك الصلاة .

وعن عثمانَ بن صُهَيب أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لعلّى : « مَن

(١) بعدها فى ط : « قوله رضى الله عنه : « فزت » يحتمل أن يكون من قولهم : فاز الرجل ، إذا مات ، ويحتمل : من قولهم : فزت بالشهادة ، وأصل المفازة الهلاك ، وسميت المفازة بذلك على التفاؤل ، كما يقال للديغ : سليم » .

أشقى الأوّلين ؟ » قال : الذى عَقَر الناقة ، قال : « فمن أشقى الآخِرين ؟ » قال : لا أدرى قال : « الذى يَضرِبك على هذا[1] » ـ يعنى نافوخه ـ « فيَخضِب هذه » ، يَعنى لِحيتَه .

وكان علىٌّ رضى الله عنه إذا رأى ابنَ ملجم قال :

أريدُ حيـــاتَه ويريدُ قَتْلى   عذيرَكَ من خليلِك من مرادِ[2]

وكان علىٌّ رضىَ الله عنه كثيرا مايقول : ما يَمنَع أشقاها أن يَخضِب هذه من هذا ـ ويشير إلى لِحيته ورأسِه ـ خضابَ دمٍ لاخضابَ عِطرٍ وعنبر .

وعن سُكَين بن عبد العزيز ، أنّه سمع أباه يقول : جاء ابنُ مُلجَم يستحمل عليًّا ، فحمَله ثمّ قال :

أريدُ حياتَه ويريدُ قتــلِى   عذيرَى من خَليلِى من مُرادِ

أما إنّ هذا قاتلى ؛ قيل : فما يمنعُك منه ؟ قال : إنه لم يقتُلنى بعد .

وقال بكر بن حمّاد يرثِى عليًّا بنَ أبى طالبٍ رضى الله عنه :

وهــزّ علىٌّ بالعِراقَين لحيةً   مُصيبتُها جلّت على كلّ مسلِمِ[3]
وقال سيأتيها من الله حادِثٌ   يُخضِّبها أشقى البريّة بالدّمِ
فباكَرَهُ بالسّيف شَلّت يَمينُه   لشؤمِ قطام عند ذاك ابنُ مُلجَم
فياضربةً من خاسرٍ ضَلَّ سَعْيُه   تبوّأ منهـــا مقعداً فى جهنّمِ !

واجتمع الأطبّاء لعلىّ رضى الله عنه ، وكان أبصَرَهم بالطّب أُثيرُ بنُ عمرو السَّكُونىّ ، وكان صاحبَ كسرى يتطبّب له ـ وهو الذى تُنسَب إليه

---

(١) د : « يضرب على هذا » .   (٢) لعمرو بن معد يكرب ؛ وانظر اللآلى ١٣٨
(٣) الاستيعاب ١١٣١ .

صحراء أُثَير[١] ، فأخذ أُثَيْر رئة شاة حارّة ، فتتبع عِرقًا منها فاستخرجه ، فأدخله في جِراحة عليّ ، ثمّ نفخ العِرْقَ فاستخرجه ، فإذا عليه بياضُ الدّماغ ، وإذا الضَّرْبة قد وصلتْ إلى أمّ رأسه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، اعْهد عهدَك فإنك ميّت .

ولمّا مات عليٌّ رضىَ الله عنه ، أُحضِر ابنُ مُلجم ، وجاء الناسُ بالنِّفْط والبواريّ ، وقُطِّعت يداه ورجلاه ، وكُحلت عيناه ، ثمّ قطع لسانُه ، ثمّ أحرق في قَوْصَرة .

وقيل إنّه قُطعت يداه ورجلاه ولم يتأوّه ، بل أخذ يتلو القرآن ، فلمّا أرادوا قطع لسانِه ، امتنع عن إخراجه ، فتعجبوا في ذلك ، فقيل له : قُطِعتْ يداك ورِجْلاك ولاتألّمتَ وما امتنعت ؛ فما هذا الامتناعُ عند قطعِ لسانِك ! قال : لئلاّ يفوتَني من قراءة القرآن شيء وأنا حيّ . فشَقّوا شِدْقه ، وأخرجوا لسانه بكُلاّب وقطعوه .

وكانت قِتلة عليّ رضى الله عنه ليلةَ الأحدِ لإحدى عشرةَ ليلةً بقيتْ من شهرِ رمضانَ سنةَ أربعين من الهجرة ، عند صلاة الصّبح .

وقد اختُلف في تاريخ قتلِه وسِنّه ، فقيل : لثلاثَ عشرةَ ليلة الجمعة . وقيل : لثمان عشرةَ . وقيل : أوّل ليلةٍ من العَشْر الأواخر . وقيل : وعمره سبعٌ وخمسون سنة . وقيل : ثمان وخمسون سنة . وقيل : ثلاث وستّون ، وقيل : خمس وستّون . وقيل: أربع وستّون وتسعة أشهر وستّة أيام ـ وقيل: أربعة عشر يوما .

واختُلف في مكان قبره ، قيل : في قَصْر الإمارة بالكوفة ، وقيل : في رحبة الكُوفة ، وقيل : في نجَف الحيرة ، وقيل : إنّه وُضع في صندوق ، وأكثروا عليه من الكافور ، وحُمِل على بعير يريدون به المدينة ، فلمّا كانوا

(١) صحراء أثير ، بالتصغير ، بالكوفة ، ذكره ياقوت وأورد الخبر .

ببلاد طيِّئ أناخوا البعير، (١فأخذته طيء١)، ودفنوه بأرضهم.

وقال المبرّد عن محمد بن حبيب: أوّل من حُوِّل من قبرٍ إلى قبرٍ عليُّ بنُ أبي طالب رضى الله عنه.

وقالت عائشة لمّا بلغها قتله: لتصنع العرب ماشاءت بعده، فليس لها مَنْ ينهاها.

وكانُ ابن مُلجَم قد قرأ القرآن على مُعاذ بن جبل - وكان من العبّاد.

قيل إنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى عمرو بنِ العاص رضى الله عنه: أن قرِّب الناس إلى دار عبد الرحمن بن ملجم؛ ليعلِّم الناسَ القرآن والفقه. فوسّع مكان داره، ثم كان من شيعة علىّ، وشهد معه صِفّين، ثمّ فعل بعد هذا كلِّه ما فعله.

وعند الخوارج أنّ ابن ملجم من أفضل الأمّة، وكذلك النُّصَيْرِيَّة يعظّمونه. قال أبو محمد بن حزم: يقولون إنّ ابن مُلجم أفضل أهل الأرض؛ لأنه خلّص رُوحَ اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره.

وعند الروافض أنه أشقى الخلق فى الآخرة؛ وهو عند أهل السنة ممن نرجو له النار، ويجوز أن الله تعالى يتجاوز عنه، وحُكمه حكمُ قاتل عثمان والزّبير وطلحة وسعيد بن جبير وعمار وخارجة والحسين؛ فكلُّ هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم فى الله تعالى، ونكِل أمورهم إلى الله تعالى.

وفيه يقول عمران بن حطّان:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغَ من ذى العرش رِضوانا(٢)

(١ـ١) ساقط من ط

(٢) كامل المبرد ٣ : ١٦٩ ، وفى زيادات طبعة أوروبا : «فبلغه الفقيه الطبرى فقال : =

إني لأذكره يوما فأحسبه — أدنى البرية عند الله ميزانا

وقال بكر بن حماد :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة : — هدمت ويلك للإسلام أركانا(١)
قتلت أفضل من يمشي على قدمٍ — وأول الناس إسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالإسلام ثم بما — سنّ الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهرُ النبيِّ ومولاهُ وناصرُه — أضحت مناقبُه نورا وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له — مكان هارونَ من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفاً ماضياً ذكراً — ليثاً إذا لقيَ الأقرانُ أقرانا
ذكرتُ قاتِلَه والدمعُ منحدرٌ — فقلتُ سبحانَ ربِّ العرش سبحانا
إني لأحسبه ما كان من بشرٍ — يخشى المعادَ ولكنْ كان شيطانا
أشقى مُرادٍ إذ عُدّت قبائلُها — وأخسرُ الناسِ عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الأولى التي جلبت — على ثمودَ بأرض الحجر خُسرانا
قدْ كان يخبرهم أن سوفَ يخضبها — قبل المنيّة أزماناً وأزمانا
فلا عفا اللهُ عنه ما تحمّله — ولا سقَى قبرَ عمران بن حطّانا
لقوله في شقيّ ضلَّ مجترما — ونالَ مانالَه ظلما وعُدوانا :
يا ضربةً من تقيٍّ ما أرادَ بها — إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا

بل ضربةٌ من شقيٍ ما أراد بها — إلا ليهدمَ من ذي العرش بنيانا
إني لأذكره يوماً فألعنُه — إيهاً وألعن عمران بن حطانا

وقال محمد بن أحمد الطبيب يردّ على عمران بن حطان :

يا ضربةً من غدورٍ صار ضاربُها — أشقى البرية عند الله إنسانا
إذا تفكرت فيه ظلت ألعنه — وألعن الكلب عمران بن حطانا

(١) الاستيعاب ١٠٠

بل ضربة من غويّ أوردته لظًى   فسوف يلقى بها الرحمنَ غضبانا
كأنه لم يرد قصدًا بضربته   إلا ليصلى عذابَ الخلد ميزانا

وما أحسنَ قولَ ابن عبدونَ في قصيدته :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجةٍ   فدت عليًا بمن شاءت من البشرِ (١)

وقال البحتريّ :

ولا عجبٌ للأُسْد إن ظفرتْ بها   كلابُ الأعادي من فصيحٍ وأعجمِ (٢)
فحربة وحشيٍّ سقتْ حمزةَ الردَى   وموتُ عليٍّ من حُسام ابنِ مُلجَمِ

وقال عُماره اليمنيّ يذكر الأربعة :

أودَى عليٌّ وعثمانٌ بمخلبها   ولم يقيها أبو بكرٍ ولا عُمرُ
ومن أرادَ التأسِّي في مصيبته   فللورَى برسول الله معتبَرُ

وما أحسنَ قولَ شيخ الشيوخ شرف الدين :

أدِرْ كأسَ خمرِك صرفًا ففي   حياةِ المُدام حياةُ الفؤادِ
ولا تقتلنها تكنْ ثالثاً   لأشقى ثمودَ وأشقى مُرادِ

وأنشدَني من لفظه شيخُنا الحافظُ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبيّ فقال :

إذا قرأ الحديثَ عليَّ شخصٌ   وأخلَى موضعًا لوفاةِ مِثلي
فما جازَى بإحسانٍ لأنّي   أريدُ حياتَه ويريدُ قتلي

فغبتُ عنه وجئته فأنشدْته لنفسي :

خليلُك مالَه في ذا مُرادٌ   فدُمْ كالشمس في عُليا محَلٍّ

---

(١) قصيدته ص ٣٠٠   (٢) ديوانه ٢ : ٢٦٥

وقصْدِى أن تعيشَ مَدَى الليالى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وأنك لا تَملّ وأنت تملى

فأعجبه قولى :

* خليلُك ماله فى ذا مرادٌ *

لأنه تمام البيتِ الذى ضمّنه .

* * *

٥٠ – وقوله : وكتبتُ إلى عمر بن سعد أن جَعْجِعْ لحسين .

يشير بذلك إلى قتلة الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وذلك أنه لما أُخِذتِ البيعةُ ليزيد بن معاوية لم يُبايِعْه الحسين ، وكان أهل الكوفة كتبوا إلى الحسين يدعونه إلى الخروج زمن معاوية وهو يأبَى ، فقَدِم قومٌ منهم إليه ، ثمّ غلب على رأيه ، فخرج ومعه من أهل المدينة تسعةَ عشرَ رجلا من نساء وصبيان ، وتبِعه محمد بن الحنفيّة ، وأعلَمه أنّ الخروج ليس برأى . فأبى الحسين ، فحبس محمد ولده ، وخرج من مكة متوجِّهاً إلى العراق فى عشرِ ذى الحِجّة ، سنة [ستّين][1] .

فكتب يزيدُ إلى عُبَيد اللهِ بن زياد : إنّ حسَيْنا صائرٌ إلى الكوفة ، وقد ابْتُلِىَ به زمانُك من بينِ الأزْمان ، وبلدك من بين البُلْدان ، وعِندها تعتق أو تعود عبدا .

فندب له عبيد الله بن زياد وعمرَ [بن سعد] بنَ أبى وَقّاص ، فقاتَلَهم ، فقال الحسين: ياعمر ، اخترْ مِنّى إحدى ثلاث : اما تركتَنى أرجع ، أوسَيّرتَنى إلى يزيد فأضعَ يدى فى يده ، فيحكم فىّ بمايَرَى ؛ فإن أبيت فسَيِّرنى إلى التُّرك فأقاتلهم حتى أموت .

فأرسل[2] عمر بذلك إلى ابن زياد ، فهمّ أن يسيّره إلى يزيد ، فقال شِمر

(١) من ط

(٢) د . « فأوصل » .

ابن ذى الجوشن : لا أيها الأمير ، إلاّ أن ينزِل على حُكمك ، فأرسل إليه ، فقال الحسين : والله لا أفعل . وأبطأ عمر عن قتاله ؛ فأرسل إليه ابنُ زياد أن جَعجِع بالحسين — قال الأصمعىّ : معناه احبِسْه ، وقال ابن الأعرابىّ : ضَيِّق عليه .

وجهّز إليه شِمرًا وقال : إنْ تقدّم عمرُ وقاتل وإلاّ فاقتُله ، وكن مكانه . فقاتلوه إلى أن أصابه سهمٌ فى حَنَكه ، فسقط عن فرسه ، فنزل إلى الحسين(١) شمر بن ذى الجوشن — وقيل غيره — فاحتزّ رأسه . إنّا لله وإنّا إليه راجعون !

وقُتل معه يوم عاشوراء إخوته بنو أبيه : جعفر وعَقيل ومحمد والعبّاس الأكبر بنو علىّ ، وابنه الأكبر علىّ ، وهو غير علىّ زين العابدين ، وابنه عبد الله بن الحسين ، وابن أخيه القاسم بن الحسن ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وأخوه عون ، وعبد الله وعبد الرحمن ابنا مسلم بن عَقيل رضى الله عنهم .

وحُمِل رأسُ الحسين إلى يزيدَ ، فوضعه فى طست ، وجعل يَنكُت ثناياهُ بقضيبٍ فى يده ، ويقول : إنه كان حسَنَ الثَّغر ، فقال زيد بن أرقم : ارفع قضيبَك ، فطالَمَا رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَلثُم موضعَه ، فقال : إنّك شيخ قد خرِفْتَ . فقام زيدٌ يجرّ ثوبَه .

وعن محمد بن سوقة(٢) بن عبد الواحد القرشىّ ، قال : لمّا أُتِى يزيدُ برأسِ الحسين ، تناوله بقضيب ، فكشف عن ثناياه ، فوالله ما البَرَدُ بأبرد من ثناياه ، ثمّ قال :

---

(١) م : « فنزل إليه شمر بن ذى الجوشن » .
(٢) ط : « سراقة »

نُفَلِّقُ هاماً من رجالٍ أعزَّةٍ علينا وهمْ كانوا أعقَّ وأظلَما(١)

فقال رجل كان عندَه : يا هذا ارْفع قضيبَك ، فوالله لربما رأيتُ شفتَيْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مكانَه ، فرَفعه متذمِّما مغضَبا .

وفى ذلك يقول شرف الدين الْمبارك مستوفى إرْبل ، من جملة قصيدة :

أتَجْحَدُ قتلَه وترَاهُ إثْماً وقد أقبلته بالطَّفِّ شمرَا
وتَقرَع بالقضيب ثنيتيْهِ أرَاكَ أتيتَها نكْراء بكْرَا

وذكر ابن سعد : أنّ جَسده دُفِن حيث قُتِل ، وأنّ رأسَه كفَّنه يزيد ، وأرسَله إلى المدينة ، فدفِن عند فاطمة رضى الله عنها .

قال شيخنا شمس الدين الذّهبي : وعُلّق الرأسُ — على ما قيل — بدمَشق ثلاثة أيام ، ومكث الرأسُ فى خزائن السّلاح حتى ولىَ سليمان ، فبعث له فجيء به ، وقد بقيَ عَظما أبيَض ، فجعلَه فى سَفَطٍ وطيَّبه وكفّنه ، ودفَنه فى مَقابِر المسلمين ، فلمّا دخلت المسوِّدة نَبَشُوه وأخذوه ، والله أعلم بمكانِه الآن من ذلك الوقت .

وروى عن عمر بن عبد العزيز ، أنّه قال : لو كنتُ فى قَتلة الحسين ، وأمِرت بدُخول الجنّه لما فعلْت ؛ حياءً أن تقع عينى على محمد(٢) .

لمّا قتِل قالت مرجانة ابنة عُبيد الله من زياد : ياخبيث ، قاتل ابن بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم(٣) لا يرَى الجنّة أبدا .

وقال أعرابىٌّ : انظروا ابنَ دعيِّها ، قتَلَ ابنَ نبيِّها .

---

(١) للحصين بن الحمام المرى ، ديوان الحماسه ١٩٩ — بشرح المرزوقى .
(٢) ط : « حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقع عينى على عينيه » .
(٣) م : « ياخبيث ، قتلت ابن بنت رسول الله »

وعن رأس الجالوت أنّه قال : والله إنّ بيني وبين داود سبعين أبًا ، وإن اليهود لتَلْقانى فتعظّمنى ، وأنتم ليس بينكم وبين نبيِّكم إلاّ أب واحد ، وقتلتم ولدَه .

وقيل : إنّ الحسين رَمى بدمه[1] نحوَ السماء ، وقال : أطلُب بدم ابن بنتِ نبيِّك .

وكان قد توجّه نحوَ الفُرات ، فعرَضوا له ، وحالوا بينه وبين الماء . وأشار بذلك رجلٌ من بنى أبانَ بن دارِم ، فقال الحسين رضى الله عنه : اللهمّ أظمئه[2] ؛ فما لبث الأبانىّ إلاّ قليلاحتّى رُئىَ وإنّه ليُؤتى بعُسٍّ يُرَوِّى عدّة ، فيشربه ، فإذا نزعه عن فيه قال : اسقونى فقد قتلنى العطش ، فانقدّ بطنه كانْقِداد البعير .

وقال الزّبير : قتله سِنانُ بن أبى أنَس النَّخعىّ ، وأجهزَ عليه خولىّ بنُ يزيدَ الأصبَحىّ من حِمْيَر ، وقتل معه سبعةَ عشرَ شابًّا . قال محمد بنُ الحنفيّة : كلّهم قد ارتكضوا فى رَحِم فاطمة .

وقيل : إنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى فى نومه كأنّ كلْبا أبقَع ولَغ فى دمه ؛ فلمّا قتِل الحسين — وكان شِمر بنُ ذى الجَوْشَن به وَضَح — فسِّرتْ رؤياه .

وقال أبو الأسوَد الدُؤَلىّ — ويرُوى لغيره :

أيرجو معشرٌ قتَلوا حُسَيْنًا ... شفاعةَ جَدِّه يومَ الحسابِ

وقال بعضُ الشعراء :

عبدُ شمسٍ قد أضرَمَتْ لبنِى ها ... شم حَرْبا يشيبُ منه الوَليدُ

فابنُ حَرْبٍ للمُصطَفى ، وابنُ هندٍ ... لعلىٍّ ، وللحُسَين يزيدُ

وقال الخفاجىّ من أبيات :

يا أمّةً كفرتْ وفى أفواهها الـ ... قرآنُ فيه ضَلالُها ورَشادُها

أعلَى المنابر تُعلِنون بسَبِّه ... وبسَيْفه نُصِبَتْ لكم أعوادُها

(١) د : « رمى بديه » .
(٢) م ، ط : « أضمه » .

تلكَ الضغائنُ بينكمْ بذرِيّةٌ   قُتِلَ الحسينُ وماخَبَتْ أحقادُها

وقال أبو الحسين الجزّار :

ويعودُ عاشُورا يذكِّرُني   رُزْءَ الْحسين فليتَ لم يُعَدِ
وَلَيْتَ عَيْنا فيه قد كُحلتْ   بمسرّةٍ لم تَخْلُ من رَمَدِ
ويداً به لشماتةٍ خُضِبتْ   مقطوعةً من زَنْدِها بيَدِي
يومٌ سبيلي حينَ أذكُره   ألاّ يدور الصّبر فى خَلَدِى
أمّا وقد قُتِل الحسينُ به   فأبو الحسين أحقّ بالكَمَدِ

ولقد أحسن فى البَيْت الثالث والخامس كلَّ الإحسان .

وقال أحمد بنُ عيسى الهاشمىّ من ولد الواثق ، يَعتذِر من الكحل فى يوم عاشوراء :

لم أكْتَحِلْ فى صباحِ يومٍ   أريقَ فيــــه دَمُ الْحُسَين
إلاّ لِحُزْنِي وذاكَ أنّى   سوّدْتُ حتّى بياضَ عَيْنِي

وقال عُمارة اليمنىّ :

غصبت أمّةٌ إرْثَ آل محمد   سَفَهاً ، وشنّت غارة الشّنْآنِ
وغدَتْ تخالف فى الخلافة أهْلَهَا   وتقابل البرهان بالبهتان
لم يقتنِعْ حُكّامهمْ بركوبِهِمْ   ظهر النّفاق وغارب العُدْوَانِ
وقعودهم فى رُتْبةٍ نبويّة   لم يَبْنِها لهمُ أبو سُفْيان
حتّى أضافوا بعدَ ذلك أنّهم   أخذوا بثأر الكفر فى الإيمان
فأتى زيادٌ فى القبيح زيادةً   تركت يزيدَ يزيدُ فى الطُّغْيان

وقيل لابن الجوزىّ وهو على المنبر : كيف يقال إنّ يزيدَ قتَل الحسين وهو بدِمَشق ، والحسين قُتِل بكربلاء من أرض العِراق ! فأنشد :

سَهْمٌ أصابَ وراميه بذِى سَلَمٍ   مَنْ بالعراق لقد أبعدتِ مَرْماكِ[1]

(١) للشريف الرضى ٢ : ٥٩٣ .

وقد رثاه من المتقدّمين والمتأخّرين خَلْقٌ لا يَعلمهم إلاّ الله ، وخمّسوا فيه القصائدَ المشهورة ، فمنهم الموفّق الحكيم المعروف بالورَل ، خمّس الدريدية مرثية فيه ، والسّراج الورّاق خمّسَ فيه قصيدتَىْ أبى تمّام إحداهما قوله :

أَصَمَّ بكَ الناعِى وإن كان أسمَعَا[(١)]

والأخرى قوله :

أىُّ القلوبِ عليكَ ليس تنصدعُ[(٢)]

وقال رزق الله بن عبد الوهّاب بن عبد العزيز الحَنْبلىّ : اجتمعت بأحمد المعرّة — يعنى أبا العلاء المَعَرِّىّ — فقال لى : [(٣)] سمعت فى مَراثِى الحسين بنِ علىّ رضى الله عنهما مرثية تُكتب ؟ ، فقلت : قد قال بعض فلاحى بلادنا أبياتا تعجز عنها شيوخ تَنُوخ ، فقال : ماهى ؟ قلت : قوله [(٣)] :

رأسُ ابنِ بنتِ محمد ووصيّه ... للمسلمين على قنــاةٍ يُرفَعُ
والمسلمون بمنظرٍ وبمَسْمَعٍ ... لا جازعٌ فيهمْ ولا مسترجعُ
أيقظْتَ أجفانــاً وكنتَ أنمْتَها ... وأنمْتَ عَيْنا لم تـكن بك تَهْجَعُ
ماروضةٌ إلاّ تمنّتْ أنهـــــا ... لك تُربةٌ ويُخَطُّ قُرْبكَ مَوضِعُ

فقال المَعَرِّىّ : ماسمعتُ أرقَّ من هذه .

* * *

٥١ — قوله : وتمثلت عندما بلغنى ما بلغنى من وقعة الحرة :

ليت أَشياخى ببَدْرٍ شهدوا ... جزَعَ الخزرج من وَقْعِ الأَسَلْ

---

(١) ديوانه ٣٧٤ وبقيته :

* وأصبَحَ مَغْنَى الجودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا *

(٢) ديوانه ٣٧١ ، وبقيته :

* وأىُّ دمعٍ عليـكم ليس يَنْهَمِـعُ *

(٣ — ٣) ساقط من ط .

يشير بذلك إلى يزيد بن معاوية وما فعله بأهل المدينة في واقعة الحَرَّة، وسبب ذلك أن أهل المدينة أخرجوا عثمانَ بنَ محمد بن أبي سُفْيان، عامل يزيدَ بن معاويةَ من المدينة، وخلعوا يزيدَ، وبايعوا عبدَ الله بنَ حنظلة [الغسيل]، وحاصروا بني أمَيَّة ومَن رأى رأْيهم من قريش، وكانوا نحوا[1] من ألفِ رجل؛ حاصروهم[2] في دار مَرْوان. فكتب بنو أميّة كتابا إلى يزيد على يد حبيب بن كُرَّة، وهو: أمّا بعد، فإنّا حُصِرْنا في دارِ مرْوانَ بن الحَكَم، ومنِعنا من العَذْب، ورمينا بالجَبوب[3]، فياغَوْثاه! ياغوْثاه!

قال حبيب: فوصلت إلى يزيد، فأدخِلت عليه وهوَ على كرسيّ، واضعٌ رِجْلَيه في ماء في طست من وَجَع النِّقرِس، فقرأه وقال:

لقد بدّلوا الحِلْمَ الّذي مِن سَجِيّتي   فبدّلتُ قومِي غِلظةً بليانِ

ثم بعث إلى عمرَ بن سَعْد، فأقرأه الكتاب، وأمره بالمسيرِ إليهم، فقال: إنّما هي دماء قريش تُهراق بالصعيد، فلا أحبّ أن أتولّى ذلك؛ يتولاها من هو أبعَد منها مِنّي.

فبعث إلى مسلم بن عُقْبة ــ وهو شيخ كبير ضعيف ــ وخرج مُنادِي يزيدَ بالناس؛ أن سيروا إلى الحِجاز. وبعث مع مسلم اثْنَيْ عشرَ ألف رجل، وخرج يزيدُ يتصفّح الخيلَ ويُنشِد:

أبلغْ أبا بكرٍ إذا الليلُ سَرَى   وهَبَطَ القوم على وَادِي القُرَى
عشرون ألفا بين كهلٍ وفتى   أجَمْعَ سكران من القوم ترى
أم جَمْعَ يقظان نفِي عنه الكرى   ياعجبا من ملحد يا عجبا!
* مُخادِع بالدّين يَقْفو بالعُرى *

(١) الجبوب: الأرض الغليظة، وفي الأصول: «الحبوب»، وما أثبته من تاريخ الطبري ٥: ٤٨٢

وجهز الجيش، وقال لمسلم بن عُقْبة : أُدعُ القومَ ثلاثا ، فإن همْ أجابوك وإلاّ فقاتِلْهم؛ فإذا ظهرتَ فأبِحْها ثلاثاً بما فيهامن مالٍ أو زينة(١) أو سلاح أو طعام فهو للجنْد. فإذا مضت الثّلاث فاكففْ عن الناس، وانْظُر إلى علىّ بن الحسين فاكففْ عنه ، واستَوْصِ به خيراً ، وأدْن مجلسَه ، فإنه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه .

ولمّا بلغ الجيشُ المدينةَ ، خرج بنو أميَّة بأثقالهم ؛ حتّى لقوا مسلمَ بنَ عقْبة بوادى القُرَى ، وأتوا المدينة من قِبَل الحرَّة . ولمّا أصبح نادَى : يا أهل المدينة ، إنّ أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل ، ويقول : إنّى أكره هِراقةَ دِمائكم ، وإنى أؤجِّلكم ثلاثا ، فمن أرعوى ورجع قبلنا منه ، وانصرفت عنكم ، وسِرْتُ إلى هذا المُلْحِد الّذى كان بمكّة ، وإن أَبَيْتم كنّا قد أعذرْنا إليكم .

ولمّا انقضت المدّة قال : أتسالمون أم تحاربون ؟ قالوا : بل نُحارب ، وتقابل الفريقان ؛ فقُتِل عبد الله بن الغسيل وأخوه لأمّه محمد بن ثابت ابن قيس بن شمّاس ، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصارىّ وجماعة من كبار الصّحابة وغيرهم .

وكان مسلم بن عُقْبة ضعيفا ؛ فكان يجلس على كرسىّ ويحمله الغلمان بين الصّفين يحرّض الناسَ على القتال ، إلى أن كلّ أهلُ المدينة ، وتَفانَى أكابرُهم ، وأباح مُسلمْ بن عقبة المدينة ثلاثا ، يَقتُلون [الناس(٢)] ويأخذون الأموال . ثمّ إنه بايَعَ الناسُ ليزيد ، ومن تأبَّى أو تلكّأ قتله(٣) .

ولمّا فرغ مسلمُ بنُ عقبة من أهل المدينة ، توجّه إلى مكّة لقتال عبد الله بن الزّبير ، وخلّف على المدينة رَوْح بن زِنْباع الجُذامىّ . فوصل مكّة ، وحاصر ابن الزبير ، وأدركته الوَفاة فقال : اللّهمّ إنّى لم أعمل عملا صالحا قطّ بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له وأنّ محمدا عبدُه ورسولُه

(١) الطبرى . « أورقة » ، والرقة : الدراهم . (٢) من الطبرى .
(٣) انظر خبر الوقعة فى تاريخ الطبرى ٥ : ٤٨٢ ـ ٤٩١ .

أحبَّ إليّ من قتلِ أهل المدينة ، ولا أرجى عندى فى الآخرة . ومات ، فكانت وقعة الحَرَّة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذى الحِجّة سنة ثلاثٍ وستّين .

وقال محمد بن أسلمَ الأنصاريّ الساعديّ يومَ الحَرَّة :

إن تقتلونا يومَ حَرّةِ واقمٍ ... فنحنُ على الإسلام أوّل من قتَلْ[(١)]

ونحن تركناكمْ ببدْرٍ أذِلّةً ... وأُبْنَا بأسلابٍ لنا فيكمُ نفَلْ

فإن ينج منّا عائذُ البيْت سالما ... فما نالنا منكمْ وإن شفّنا جلَلْ

وكان يزيد قد كتب إلى أهل المدينة :

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم . أما بعد يا أهل المدينة ، فإنّى أنظرتكم حتّى لانظِرة ، ورفقت بكمْ حتّى عجزتُ عنكم ، وحملتكم على رأسى ثمّ على عينى ثمّ على نحرى . وإنّى والله إن وضعْتُكم تحتَ قدَمى لأطأنّكم وَطأةً أجعَلكم فيها أحاديث ترتّل مع أحاديث عادٍ وثمود . ثمّ قال :

أظنَّ الحِلم دَلّ عليَّ قوْمى ... وقد يُستجهَل الرّجلُ الحليمُ[(٢)]

ومارَسْتُ الرِّجال ومارَسُونى ... فمعوجٌّ عليَّ ومستقيمُ

وقيل : إنَّ هذا البيتين لمعاوية رضى الله عنه ، قالهما متمثّلا بهما فى بعض وقائعه[(٢)] .

ولمّا استكمل يزيدُ ، حرّض جنده ، وأركبهم برّيّة الحجاز ؛ وكتب ورقة لطيفة ، وأرسل بها رسولا إلى ابن الزبير مفردا ، ليسبق القومَ ، وفيها من شعره :

اِستَعْدِ ربَّك فى السّماء فإنّنى ... أدعو إليك رجال عَكٍّ وأشعَرِ[(٣)]

---

(١) معجم البلدان ٣ : ٢٦٣ ، وحرة واقم ، إحدى حرتى المدينة .

(٢) الصواب أن الشعر لقيس بن زهير العبسى من مقطوعة له فى ديوان الحماسة ١ : ٢٩٧

(٣) المسعودى ٣ : ٧٩ ، وفيه «ادعو إلهك فى السماء فإننى » .

ورجال كَلْب والسَّكون ولخمها ... وجُذام تقدمها كتائبُ حِمْيَر
كيف النجاة أبا خُبيبٍ منهمُ ... فاحتلْ لنفسك قبل بأتي عسكري

وبالغ أبو بكر الخُوارزْمى فيما كتب به إلى جماعة الشِّيعة بنَيْسابُور ، لمَّا قَصَدهم واليها محمد بنُ إبراهيم ، من جملة رسالةٍ مطوَّلة . قال أميرُ المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام : المِحَن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحُدُور[1] . هذه مَقالةٌ أُسِّسَت على المحن ، ووُلد أهلُها فى طالع الهزاهز والفِتن ، فحياةُ أهلها نَغَص[2] ، وقلوبُهم حَشْوُها غُصَص ، والأيّام عليهم متحاملة ، والدنيا عنهم مائلة ، وإذ كُنَّا شيعة أئمّتنا فى بعض الفرائض والسُّنَن ، ونتبع آثارَهم فى كلّ قبيحٍ وحَسَن ؛ فينبغى أن نتّبع آثارَهم فى كلّ المِحن .

غُصِبَتْ سيِّدتُنا فاطمةُ صلوات الله عليها ميراثَ أبيها صلوات الله وسلامه عليه يومَ السَّقيفة ؛ وأُخِّرَ أميرُ المؤمنين رضىَ الله عنه عن الخلافة ، وسُمَّ الحسن رضى الله عنه سِرًّا ، وقُتِل أخوه كرّم الله وجهه جَهْرا ، وصُلِب زَيْد بنُ علىّ بالكُناسة ، وقُطِع رأسُ يحيى بن زَيْد فى المعركة ، وقُتِل ابناه محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العبّاسىّ ، ومات موسى ابنُ جعفر فى حَبْس هارون الرّشيد ، وسُمّ علىُّ بن موسى على يد المأمون ، وهُزِم إدريس بفخّ[3] حتّى وَقع إلى الأندلس فريدا ، ومات عيسى بنُ زَيْد طريدا شَريدا ، وقُتِل يحيى بنُ عبد الله بعد الأمان والأيْمان ، وبعد تأكيد العُهود والضّمان ؛ هذا غيرُ فعل يعقوب بن اللّيث بعلَوِيّة طَبَرِسْتان ، وغير قتل محمد بن زَيْد والحسَن بن القاسم الدّاعى على أيدى آلِ سامانَ ، وغير ماصنعه أبو السّاج فى علوية المدينة ؛ حملهم بلا غطاء ولا وطاء ، من الحِجاز إلى سامَرًّا . وهذا بعد قتل قتيبة بن مُسلم الباهلىّ لابن عمر بن علىّ حين أخذه بأبويه ،

(١) الحدور : المكان ينحدر منه (٢) النغص : كدر العيش .
(٣) فخ : واد بمكة .

وقد ستر نفسَه ، ووارَى شخصَه ، يصانع حياته ، ويدافع وفاته ، ولا كما فعله الحسين بنُ إسماعيل المصعبيّ بيحيي بن عمر الزَّيدى[(١)] خاصّة ، وما فعله مزاحم ابن خاقانَ بعلوية الكوفة كافّة ؛ وحَسْبُكم أن ليس فى بَيْضة الإسلام بلد إلاّ وفيها لقتيل طالبيّ تُربة[(٢)] ، تَشارَكَ فى قتلهم الأمويّ والعبّاسيّ ، وأطبق عليهم العدنانى والقحْطانيّ .

فليس حيٌّ من الأحياء نعرفه   من ذى يمانٍ ولا بَكرٍ ولا مُضَرِ
إلاّ وهُمْ شُركاء فى دِمائِهِمُ   كما تَشاركَ أيسار على جَزَرِ

وهذا البيت الّذى أُستشهد به يزيد فى وَقْعة الحرّة ، وهو :

* لَيْتَ أشياخِى بَبدْرٍ شَهِدُوا *

قائله عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرَى .

* * *

٥٢ــ وقوله : ورجمتُ الكعبة ، وصلبتُ العائذ على الثّنيّة .

يشير بذلك إلى واقعة عبد الله بن الزّبير رضىَ الله عنه ؛ وذلك أنّه كان فارسَ قريش فى زمانه ، بُويع بالخلافة سنةَ أربعٍ وستّين ، وحَكَم الحجاز واليَمَن ومصرَ والعِراق وخُراسان وأكثر الشام ، فضاق عطن عبدِ الملك ابنِ مروان منه ، فجاء الحجّاج إليه ؛ وقال : رأيت فى نومى كأنّني علّقت عبد الله بن الزبير وسلختُه ؛ فقال : اخرج إليه ، فأنت له .

فخرج الحجّاج إلى مكّة فيمن معه من العسكر ، فأحاطَ بها ، ونَصَب المَنْجَنِيق على أبى قُبَيْسٍ . وكان ابنُ الزبير قد نَصَب فُسْطاطا عندَ البيت فاحترق ، فطارت منه شرارةٌ فاحترق البيت ، واحترق قرْنا الكَبْش الّذى فُدِى به إسماعيل ، ثمّ إنّه جدّد عمارة البيت .

---

(١) فى الأصول : « الزائدى » ، وما أثبته من الرسائل .
(٢) الرسائل : « ترة » .

ولما نصب الحجّاج المنجنيق رمى به الكعبة على ابن الزّبير وعلى من معه فى المسجد ، وجعل ابن الزّبير على الحجر الأسود بيْضة تردّ عنه ، ودام الحصار ستة أشهر وسبع عشرة ليلة .

ولما كان قبل قتله بعشرة أيام دخل على أمه وهى شاكية ، فقال لها : كيف تجدينَكِ يا أماه ؟ قالت : ما أجدنى إلا شاكية ، فقال لها : إن فى الموت لراحة ، قالت : لعلك تمنّيتَه لى ! ما أحبّ أن أموت حتى آتىَ على أحدِ طَرَفيك ، إما قُتِلتَ فاحتسبتُك ، وإمّا ظفرتَ بعدوّك فقرّت عيْنى ؛ قال عُرْوة : فالتفتَ إلىّ وضَحِك .

ولما كان فى اليوم الذى قتل فيه دخل عليها فى المسجد ، فقالت : يا بُنىَّ ، لا تقبلنّ منهم خُطّةً تخاف فيها على نفسك الذّلّ مخافةَ القتل ؛ فوالله لَضَرْبة بالسّيف فى عزٍّ خيرٌ من ضربةٍ بالسّوْط فى مَذَلّة ، فقال لها : إنّما أخاف المُثْلَة ، قالت : يابنىّ ، إنّ الشاةَ لا يَضرُّها سلخُها بعد الذّبْح .

فخرج وقد جُعِل له مِصراعٌ عند الكعبة ـ وكان تحته ـ فأتاه رجل من قريش فقال : ألا نفتح لكَ بابَ الكعْبة فتدخلها ؟ فقال عبد الله : من كل شىء تحفظ أخاك إلاّ من نفسه ، والله لو وَجَدوكم تحت أستارِ الكعبة لقتلوكم . وهل حرمة المسجد إلاّ كحرمة البيت ! ثمّ قال :

ولستُ بمبتاعِ الحياة بسُبّةٍ
ولا مُرتقٍ من خشيةِ الموتِ سُلّمَا(١)

ثمّ شدّ عليه أصحاب الحجّاج ، فقال : أين أهل مصر ؟ فقالوا : هم هؤلاء من هذا الباب ، فقال لأصحابه : اكسروا أغماد سيوفكم ولا تَميلوا عنّى ؛ فإنّى

---

(١) لابن حمام المرى من المفضلية ١٢

فى الرَّعيل الأوّل ، ففعلوا . ثمّ حَمَل عليهم وحملوا معه ، وكان يضْرب بسيفين فلَحِق رجلا فقَطع يدَه . وانهزموا ، فجعل يضربهم حتّى أخرجهم من المسجد ، فجعل رجلٌ أسود يسبُّه ، فقال : اِصْبِرْ يا ابن حام ؛ ثم حمل عليه فصرعه . ثم دخل عليه أهل حِمصَ من باب بنى شيبة ، فشدّ عليهم ، وجعل يرتجز ويقول :

لو كان قِرْنِي واحِدًا كفيتُه أوردْتُه الموتَ وقد رَكِبْتُه(١)

إلى أن أخرجهم من المسجد ، ثمّ دخل عليه أهلُ الأُرْدُنّ من بابٍ آخَر فجعل يَضرِبهم بسَيْفه حتّى أخرجهم من المسجد ، وهو يقول :

لا عهدَ لى بغارةٍ مثل السَّيْلْ لا ينجلِى قَتَامُها حتّى اللَّيْلْ

فأقبل عليه حجرٌ من ناحية الصفا ، فأصابه بين عينيه ، فنكّس رأسه وهو يقول :

ولَسْنا على الأعقابِ تَدْمَى كُلومُنا
ولكنْ على أقدامِنا تقطُرُ الدَّمَا(٢)

ثمّ اجتمعوا عليه ، فلم يزالوا يضربونه حتّى قتلوه ؛ ولمّا قُتِل كبّر أهلُ الشام ، فقال عبدُ اللهِ بن عمر : المكبِّرون عليه يومَ وُلِد ، خيرٌ من المكبِّرين عليه يوم قُتِل .

قلت : لأنه لمّا قدم المهاجرون المدينة أقاموا مُدّةً لا يُولد لهم ، فقالوا : سحَرَتْنا اليهود ، حتّى كثُرت المقالة فى ذلك ، فلما وُلِد عبدُ الله بنُ الزبير بعد الهِجْرة بالمدينة كبّر المسلمون تكبيرةً واحدة حتى ارتجّت المدينة .

وقُتِل معه مائتان وأربعون رجلا ، منهم مَنْ سال دمه فى جَوْف الكعبة

---

(١) لدويد بن زيد ، وانظر طبقات الشعراء لابن سلام ، ٢٨ ، والرواية هناك :

لَوْ كان للدّهر بِلًى أبليْتُه أو كان قِرْنِي واحدًا كفيتُه

(٢) للحصين بن حمام ، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ١٩٢ .

وأَخَذه الحجّاج وصَلَبه منكّساً ؛ وآلى الحجّاج أنّه ما يُنزِله حتى تتشفّعَ فيه أمُّه ؛ فلم تَفْعل، فبقيَ مصلوبا على الثنيَّة سنةً ، فمرت أمّه بعد سنة تحتَ جذعه ، فقالت : أما آن لهذا الراكبِ هذه المَطِيَّة أن يترجَّل! فيقال: إنّه قيل للحجّاج : إن هذا الكلام شفاعَةٌ فيه ؛ فأنزله .

وقيل : بل رحل عروةُ بنُ الزّبير إلى عبد الملك بن مَروان ، وسأله إنزاله عن الخَشَبة ؛ فأذِن له .

ولمّا بُشّرت أمّه بذلك ؛ قال ابن أبي مُلَيكة : فدعت بمَرْتَكٍ(١) وشَبٍّ يمانى ؛ وأمرتنى بغسله ، فكنّا لا نَتناوَل عضوا إلاّ جاء معنا ؛ فكنّا نَغسِل العضوَ ونضعه فى أكفانِه ، ونَتناوَل العضوَ الّذى يليه فنَغسِله ونضعه فى أكفانه حتّى فرغْنا منه . ثمّ قامت فصلّت عليه ، وما أتَى عليها بعد ذلك جمعة حتّى ماتت رضيَ الله عنها . وكانت تقول : اللّهمّ لا تُمِتْنِى حتّى تُقِرّ عينى بجُثّته .

وقيل : إنّه لمّا جىء به إليها وضعتْه فى حِجْرها ، فحاضت ، ودَرّ ثَدْيُها . فقالت : حنّتْ عليه مَواضِعُه ، ودَرّت عليه مراضِعُه .

وكانت قِتلته سنةَ ثلاثٍ وسبعين للهِجْرة .

وقيل : إنّ أمّه صلّت عليه وحملته إلى المدينة ، فدفنتْه فى المدينة فى دار صفيّةَ بنت حُيَيّ ؛ ثمّ زيدت دار صفيَّة فى المسجد ، فهو مدفونٌ مع النبىّ صلى الله عليه وسلّم ومع أبى بكر وعمرَ رضى الله عنهم .

وكان كثيرَ الصلاة ، كثير الصّيام، شديدالبأس ، كريم الجَدّات والأمهات والخالات .

قال مالك : إنّ ابن الزّبير كان أفضلَ من مَرْوان ، وكان أولَى بالأمرِ منه ومن أبيه .

(١) المرتك ، كلمة فارسية ، وهو دواء مجفف ، وانظر المعرب وحواشيه ٣١٧ .

وقال عليّ بن زيد الجدعانيّ : إلاّ أنّه كان فيه خلالٌ لا تَصلُح مع الخلافة ، لأنه كان بخيلا ، ضيّق العطن ، سيّئ الخُلق حسودا ، أخرج محمّدَ ابنَ الحنفيّة ، ونفى عبد الله بن العبّاس إلى الطائف ، وكان يسمّى حمامة المسجد لملازمته له .

وقال عمرو بن دينار : كان ابنُ الزُّبير يصلّي في الحِجْر وحجَر المنجنيق يُصيب طرَف ثوبِه ، فما يلتفت إليه .

قال ابن إسحاق : ما رأيت أحدا أعظم سجدةً بين عينيه من ابن الزبير .

وقيل : إنّه جاءته شُرْفة من شُرَف المسجد ، فوقعتْ على رأسه فصرعَتْه وهو يتمثّل :

أسماءُ يا أسماءُ لاتبكيني لم يَبْقَ إلاّ حَسَبي ودِيني

* وصارمٌ لانَتْ به يميني *

وهو أوّل مولودٍ وُلِد بالمدينة في الإسلام ، وأمّه ذات النِّطاقَين أسماءُ بنتُ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، وخالتُه عائشةُ أمّ المؤمنين ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكان يلقّب بالعائذ ـ يعني أنّه عاذ بالبَيْت ، واستجار به ، ولهذا قال محمّد ابن كثير يخاطبُه ؛ لمّا حبس محمد بنَ الحنفيّة في سجن عارِم :

تُخبِّرُ من لاقيتَ أنّك عائذٌ
بل العائذُ المحبوسُ في بَطنِ عارمِ (١)
ومَن يَلْقَ هذا الشيخَ بالخَيْفِ مِن مِنًى
من النّاس يَعلمْ أنّه غيرُ ظالِمِ

(١) معجم البلدان : ٤ : ٩ ، قال : « ولا أعرف موضعه وأظنه بالطائف » .

سَمِيُّ النَّبي المصطفَى وابنُ عَمِّهِ
وفَكَّاكُ أَغلالٍ وقاضِي مَغارِمِ

أبَى فهوَ لا يَشرِى هُدًى بضلالةٍ
ولا يَتَّقِى فى اللهِ لومةَ لائِمِ

قلت : هؤلاء أدباء العرب ؛ هم الأدباء ، وكتّابهم هم الكتاب الألِبّاء ، قد تفرّدوا بهذه الطريقة العريقة ، واستظلّوا هذه الغصون الوريقة ، واُستباحوا حِمى هذه الرياض الأنيقة ، ووصلوا من مجازات هذه الصّناعة إلى الحقيقة ، وآووا المعانى الغريبة ، وانتاشوا الألفاظَ العَريقة ، وجلسوا من الآداب على فرُشها الوَثيرة ، وتمسّكوا بعُراها الوَثيقة . ألا ترى إلى ابن زيدونَ من قوله : « وما أرانى إلّا لو أُمِرْت بالسُّجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرتُ . . » إلى آخر هذا الفصل ، كيف سرد الذّنوبَ الكائنة فى الزمان ، والوقائع المتشابهة ؛ من المَعايب كلّ نقيصة وما آخاها ، وكلّ مصيبةٍ وما والاها ، حتّى أطرب الأسماع ، وسلِم بتفرّده الإجماع .

وهكذا فعل الوزير الكاتبُ أبو بكر بن سعيد بن القبطرنّة البطليوسىّ فى رقعةٍ كتبها إلى الوزير أبى الحسين بن سراج :

ولولا عوائقُ الزّمان لطِرْتُ إليه بجناح ، أو لامْتَطيْتُ أعناقَ الرّياح ، ولاستبطأت السّلاهِب ، واُستهْجنْت الجُرْد اليعابيب ، ولم أرض بالّذى يَنفُخ فى البرى ، واُستقصرْت بريد الثُّرَى بالليل خيل بربرا ، ولارتحلتُ الكواكب ، وحملتُ إليك قلباً كقلب العقرب ، ولاتخذت المجرّة سبيلا ، وسُهيلا دليلا ، ولقدت البدر المنير ، وركبتُ الشّعْرَى العَبُور ، وتترّسْت بالثُّريّا ، وطعنت بالسِّماك ؛ هذا لو أردت البرّ ، ومُقاساة السّهل منه والوَعْر . ولاتّخذت السَّمكة سفينة ، وأقمتُ لها من النعائم ألواحا ، وعُطارِد ملّاحا ،

وشرّعتها بالغيوم ، وسمّرتُها بالنّجوم ، وجدّفتُ بالفرقدَين ، وحماتُ من آمالى فيها من كلٍّ زوْجين اثنين ، واعتصمْت بالقوة والحوْل ، وخالفتُ كلّ من سَبَق عليه القَوْل ، واستعذتُ من شيطانِ الكسل وهو رَجيم ، وقلت : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربّى لغفور رحيم ﴾ .

ومن رسالة لأبى عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، قال : فأومأت إلى الجوزاء بكفّى أنْ تأمّلى ، وإلى العوّاء أنْ أقبِلى ، وقلت : المجرّة فى عينى أن تكون لى منديلا ، وصفرُ الزِّبْرِقان عندى أنْ أتخذه وكيلا[1] .

* * *

٥٣ — وقوله : لكانَ فيما جرَى علىّ ما يَحتمِل أن يسمَّى نكالا ، ويُدعَى ولو على المَجاز عِقابا .

وحَسْبُكَ من حادث بامرِئٍ   ترَى حاسديه له راحِمينا

يريد بذلك أنه لو كنتُ أتيتُ بهذه الذنوب الّتى عدَدْتُها ؛ من تكبُّر إبليس على آدم وعدم السّجود ، وكنت مِثل ابن نوح ، ولم أركبْ معه فى السّفينة وقلتُ ماقاله ، وكنتُ مِثلَ فرعون الّذى كفر وبَنَى صَرْحا ليطّلع فيه إلى إله موسى ، وكنتُ مِثلَ الّذين عَكفَوا على العجل ، فكفروا بعد الإيمان بموسى ، ومثلَ الّذين اعتدَوْا فى السّبت من بنى إسرائيل ، وكنت مثل الذين خالفوا طالوت من بنى إسرائيل ، وشربوا من النّهر الذى نهاهُم عنه ، وكنتُ كقُدَار فى ثمودَ الّذى عقَرَ الناقة ، وكنتُ كأبرَهَة بن الصّبّاح صاحب الفيل الّذى قاده لحرب[2] الكعبة ، وكنتُ من جملة قريشٍ الّذين تعاقدوا على مهاجَرة بنى هاشم وبنى عبدِ مناف ، ومنعهم من نكاحِهم ، وبيعِهم وشرائهم ، وكتبوا صحيفةً بذلك ، وعلّقوها فى الكعبة ، وأقامَ رسولُ الله

---

(١) « إكليلا » .   (٢) ط : « لخراب » .

صلى الله عليه وسلم هو وأهله فى الشِّعب محصورين سنتين أو ثلاث ، وكنتُ ممّن تأوّل فى بيعة العقبة ، وكنتُ ممّن نفَر إلى العيرِ ببَدْر ، وكنتُ كابن أبىّ رأس المنافقين الذى انخزل بثلثُ الناسِ يومَ أُحُد ، وكنت ممّن تخلّف عن صلاة العَصْر فى بنى قُرَيظَة ، وكنتُ ممّن جاء بالإفك على عائشةَ رضى الله عنها ، وكنتُ ممّن أنِف من إمارة أُسامةَ بن زيد ، وقد جهّزه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة فيها مثل أبى بكر وعمر ، وكنتُ ممّن قال: إنّما كانت بيعةُ أبى بكرٍ فلتة ، وكنتُ مثل الذى قال : « وَرَوَّيْتُ رُمْحِى من كَتِيبةِ خالد» ، وكنتُ مِثلَ أبى لؤلؤة الذى مَزّق الأديم الّذى باركتْ يدُ الله عليه ، وقتل عمرَ بن الخطاب ، وكنتُ ممّن ضَحَّى بالأشمط الذى عنوانُ السّجود به ، فقتَل عثمانَ بنَ عفّان ، وكنتُ مثل ابن ملجم قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكنتُ مثل عبيد الله بن زياد إذ كتب إلى عمر ابن سعد أن جَعْجِعْ بالحسين ، وكنتُ مثلَ يزيد ، وقد جرى بالحَرّة ماجرى ، وتمثّل بذلك البيت ، وكنت مثل الحجاج الذى هدم الكعبة بالمنجنيق ، وصلب عبد الله بنَ الزُّبير العائذَ بالبيت . . . لكان فى الذى جرى علىَّ مافيه جزاءٌ وكِفاية ، وكان نَكالا وعِقابا ولو على المجاز .

وقد اختصر هذه الأشياءَ المعدودة ، والذنوب المذكورة ، وزاد عليها كلَّ مايمكن زيادتُه أبو الطيِّب المتنبِّى ، واختصَرَ هذا ومابعدَه فى بيتٍ واحد ، وهو :

وإن كان ذنبى كلَّ ذَنْبٍ فإنّه ‏ ‏ ‏ محا الذَّنْبَ كلَّ المَحْوِ من جاء تائبا[1]

وقال ابن المعتزّ : رُبَّ ذَنْب مقدارُ العُقوبة عليه إعْلام المُذنب به ، ولا يُجاوَز به حدّ الارتياع إلى الإيقاع .

---

(١) ديوانه ٧١ : ١

وأمّا قوله :

* وحَسْبُك من حادثٍ بامرئٍ * البيت

فهو للمُتَنَبّيّ . وقال فى مثلِ هذا ابنُ عُنَين :

ضَنِيتُ به حتّى رثَتْ لى عَواذلى وَرَقَّ لِما أَلْقَى العدوّ المناصِب
وما كنتُ ممّن يَستكين لحادثٍ ولكنّ سلطانَ الهَوَى لا يُغالَبُ

وقال أبو تمّام :

وحَسْبُك حسرةً لكَ مِن صديقٍ يكون زِمامُه بِيَدَىْ عَدُوٍّ[1]

وقال أبو الطيِّب :

كَفَى بك داءً أن تَرى الموتَ شافِيًا وحَسْبُ المَنايا أن يكنّ أمانِيا[2]

[3]ونقلتُ من خَطِّ السِّراج الوَرّاق يذُمّ عبدَه :

متلَوّن الأخلاق حِرْباوَاتُها[4] وسَوادُه يمتاز منه القارُ
ويسىءُ آدابا علىَّ ودأبِىَ الْ إغضاءُ عنه، ودأبُهُ الإصرارُ
وله ذكاء إياس فى حاجاته وإذا قضا لى حاجةً فحِمارُ
ورقادُ أهلِ الكهف دونَ رُقادِهِ ماجَنّ ليلٌ أو أضاء نهارُ
وله فُضُولٌ مالأقمارِ الدُّجى معه ولا متحدّثين سِرارُ
ومُسائلٌ : من ذا ؟ وما هذا الّذى تحتَ الغطاء ؟ ودار من ذى الدّارُ ؟
ودخولُه بين اللّذَيْن تضاربا والحُكمُ بينهما وذا مدرارُ
ومسيرُه لذوِى الفُضول لعلّه يمتازُ بين القوم أو يمتارُ

---

(١) ديوانه ٤٦٦ (٢) ديوانه ٤ : ٢٨١
(٣) من هنا إلى الآخر ساقط من ط.
(٤) جمع حرباء : يريد أن أخلاقه متلونة تلون الحرباء .

ومغيبه عنّى وإن ساءلتُه فجوابُه لى ضَجرةٌ ونِفارُ
ولكمْ أقول ولا تفيد مقالتى زنهارُ من حركاتِه زِنهارُ!

* * *

٥٤ – قوله: فكيفَ ولا ذنبَ إلاّ نميمةٌ أهْداها كاشحٌ، ونبأٌ جاء به فاسق.

يريد بذلك: فكيف يصدُر فى حقّى منك هذا كلُّه من الذلّ والإبعاد والجفاء والإقصاء والغضب والإعراض والصدّ، ولا ذنبَ لى بعد هذا كله إلا نميمةٌ أهْداها كاشح – والكاشحُ الذى يُضمِر لك العداوة – ونبأٌ أتاك به فاسق، وقد قال الله تعالى: ﴿إنْ جاءكُمْ فاسِقٌ بنَبَإٍ فتبيَّنُوا أَنْ تصيبُوا قَوْماً بجَهالَةٍ فتُصْبحوا على ما فَعَلْتُمْ نادِمين﴾(١)، وقد قرىء: «فتثبّتوا» بالثاء ثالثة الحروف، وأيضا بالثاء المثلثة، وبالباء الموحدة، وبالتاء ثالثة أيضا.

اغتاب الأعمشَ رجلٌ من أصحابه، فطلع الرّجل ففهّمه ذلك، فقال بعض أصحابه: أعلمْه بما قلت حتى لا تكون غيبة، فقال الأعمش: اسكت أنت حتى لا تكون نميمة!

وفى المثل: أنمّ من الصُّبح، وأنمّ من جلْجل، كقول الشاعر:

فإنكما يا ابنىْ جَناب وجَدْتُما كمَن دَبّ يستخفِى وفى العنقِ جُلجلُ(٢)

وأنمّ من زُجاجةٍ على ما فيها، وأنمّ من ذُكاء، وأنمّ من جوْزقِ جُوالق.

وقال الخفاجى:

أمّا الوُشاة فقد أصابوا عندكمْ سُوقا ينفِّق كل قولٍ كاذبِ(٣)

---

(١) الحجرات ٦ (٢) لأوس بن حجر، ديوانه ٧٢.
(٣) ديوانه ٩٤

فملَلْتُمُ عن صابرٍ، ورقدْتُمُ عن ساهرٍ، وزهدْتُمُ فى راغبِ
وأقلُّ ما حكم الملالُ عليكمُ سوءُ القِلَى وسماعُ قول العائبِ

وقد وضع الحريرىُّ بعض مقاماته ـ وهى الثامنة عشر ـ فى النميمة وذمها، فأجاد فيها ماشاء.

أوصت أعرابيَّةٌ ابنها، وقد أراد السَّفر، فقالت: أىْ بُنىَّ، إياك والنَّميمة؛ فإنها تزرع الضَّغينة، وتفرِّق بين المحبِّين، وإيَّاك والتعرُّضَ للعيوب، فتتَّخذ غرضاً، وخليقٌ ألاَّ يثبُت الغرض على كثرة السِّهام.

وفى المثل: النميمةُ إرثُ العداوة.

وقال عمر بن أبى ربيعة:

ولما التقينا سلَّمتْ وتبسَّمتْ وقالت مقال المُعرِض المتجنِّبِ (١)
أمِن أجلِ واشٍ كاشحٍ بنميمةٍ مشَى بيْننا صدَّقْتَه لم تُكذِّبِ
قطعتَ حبالَ الوصلِ منَّا ومن يُطعْ بذى وُدِّه قولَ المحرِّش يُعتَبِ (٢)

وأحسنَ ابن الساعاتى فقال:

أتتْ فتلاقَى كلُّ شىء ومثله وفود الدُّجى من هامَةِ الأفقِ مسوَدُّ
فجسمى وجفناها، ووجْدى وردْفُها وقلبى وقُرْطاها، ودمْعِى والعِقْدُ
لقد كتمَ الخلْخالُ والقلبُ والدُّجى فنمَّ عليها الشَّعْر والحَلْىُ والنَّهْدُ

وقال ابن التِّلمْسانىّ:

نمَّ بها حَلْيُها ومَبْسِمُها وطيبُ أنفاسِها وواشيها

---

(١) ديوانه ٤٢٧، فيه: «مقال المعرض».
(٢) يعتب، على البناء للمجهول، أى يلام.

وأرى أنا أنّ هذا كلّه مأخوذٌ من قول أبي الطّيّب :

قلَقُ المليحة ، وهي مسكٌ هَتْكُها ومسيرُها في اللّيلِ وهي ذُكاءُ(١)

قيل وما لأبي الحارث : ما تشتهي؟ فقال : أعيُن الرُّقباء ، وألسنة الوُشاة ، وأكباد الحسّاد ، أخذ هذا بعضُهم فنظمه :

قال لي عُوّدِي غداة أتوْني ما الّذي تشتهيه؟ واجتهدُوا بي
قلت : مقْلي فيه لسانُ وُشاةٍ قطّعوه فيه بصُنْعٍ عجيبِ
وأضيفت إليه كبْدُ حسُودٍ فُقِئت فوقها عيُونُ رقيب

وقال آخر :

عندي لكم يوم التّواصُل دعوةٌ يامعشر الخلطاء والنُّدماء
أشوي قلوبَ الحاسدِين بها وألْ سنة الوشاة وأعين الرُّقباء

وأنشدني لنفسه إجازةً القاضي زين الدين عمر بن الوردي ، فقال :

لي شهْوتان أحبُّ جمْعَهما لو كانت الشّهوات مضْمونَهْ
أعْناق عذّالي مدقّقةً ومفاصلُ الرُّقباء مدْفونَهْ

وقلت أنا في هذه المادّة :

بتْنا وما نُقْلُنا سوى قُبلٍ وريقُ فيه سُلافُ مشْروبي
نِمْنا وما نمّتِ الوشاةُ بنا لولا فضولُ الحُليِّ والطِّيبِ

* * *

(١) ديوانه ١ : ١٣.

٥٥ ــ قوله: وهم الهمَّازون المشَّاءون بنميمٍ ، والواشون الذين لايلبثون أن يصدعوا العصا .

هذا تفسيرٌ لما تقدَّم ، يعني أنَّ هؤلاء ذكرهم الله في القرآن العظيم في قوله تعالى : ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾(١) .

الهمَّاز المُغتاب الَّذي يأكل لحومَ الناس بالطَّعن عليهم والغيبة .

وقال الحسن: يُلَوِّي شدقيه في أقفية الناس . والنَّميم والنَّميمة واحد ، وهو نقل الكلام السيِّئ ، والمعنى أنَّه فتَّان يسعى بين الناس بالنَّميمة ليُفسِد مابينهم .

والمراد بقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾(٢) الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث والأخنس بن شريق .

وقد جاء في السنَّة النبويَّة أحاديثُ كثيرةٌ في ذمِّ النميمة ، منها ماهو متَّفقٌ عليه ، وهو مارواه حُذيفة رضيَ الله عنه ، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنَّة نمَّام » .

وعن ابن عبَّاس أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبرين ، فقال: « إنَّهما يعذَّبان ؛ وما يعذَّبان في كبير ؛ أمَّا أحدُهما فكان يمشي بالنَّميمة ، وأمَّا الأخرُ فكان لا يستبرِئُ من البَوْل » . وهذا لفظُ إحدى روايات البُخاريِّ . ومعنى « في كبيرٍ » هنا أنَّه صغيرٌ في زعمهما ، وإلاَّ فهو كبيرٌ في نفسه .

وعن ابن مسعود ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبئكم ما العضْه ؟ هي النَّميمة ، القالة بين الناس »(٣) . رواه مسلم بفتح العين المهملة ،

---

(١) سورة القلم ١١ (٢) سورة القلم ١٠ (٣) صحيح مسلم ٢٠١٢

وسكون الضاد، وبعدها هاء، على وَزْن الوَجْه. ورُوى العِضَة بكسر العين، وفتح الضّاد على وزن العِدَة، وهى الكَذِب والبُهْتان.

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم: « لعن الله المثلث »، فقيل: يارسول الله، وما المثلث؟ قال: « الّذى يَسعَى بصاحبِه إلى السلطان فيُهلِك نفسَه وصاحبَه وسلطانَه ».

وقولُ ابن زيدون رحمه الله تعالى: « والواشون الذين لايلبثون أن يصدعوا العصا »؛ الأصل فيه قول كُثَيِّر عَزّة:

لَعَمْرُ أبى الواشِين لاعَمْرُ غيرِهِمْ … لقد كَلّفونى خُطَّةً لا أُرِيدُها
ولا يَلبثُ الواشُون أن يصدعوا العَصَا … إذا هىَ لم يَصلُبْ على البَرْى عُودُها

كان الخلنجىّ القاضى عبدالله بن محمد، ابن أخت علّويه المغنّى، تيّاهًا صَلِفًا، تقلّد القضاء للأمين. وكان علّويه عدوًّا له، فجرت له قضيّة فى بغدادَ، فاستعفى من القضاء، وسُئل أن يولّى بعضَ الكُوَرِ البعيدة، فتولّى قضاء دِمَشْق أو حِمْص، ولما تولّى المأمونُ الخلافةَ غنّاه يوما علّويه بشعرِ الخَلَنجىّ، وهو:

برِئتُ من الإسلام إن كان ذا الذى … أتاكِ به الواشُون عنّى كما قالوا
ولكنّهم لمّا رأوكِ غريّةً[1] … بهَجْرى تواصَوْا بالنّميمة واحْتالوا
فقد صِرْتِ أذنًا للوشاة سَميعةً … ينالُون من عِرْضِى ولو شئتِ ماقالوا

فقال المأمون: مَن يقول هذا الشعر؟ قيل: قاضى دمشق، فأمر المأمون بإحضاره، فأشخِص، وجَلس المأمونُ للشُّرب، وأُحضِر علّويه، ودعا بالقاضى، فقال: أنشدْنى قولَك: « برِئتُ من الإسلام .. » الأبيات، فقال: يا أمير

---

(١) غريّة: مولعة، وفى تاريخ الطبرى: « سريعة ».

المؤمنين ، هذه أبيات قلتُها منذ أربعين سنةً ، وأنا صَبِيٌّ ، والذى أكرمك بالخلافة ، ووَرَّثك ميراثَ النبوّة ، ماقلتُ شعراً منذُ أكثرَ من عشرين سنةً إلاّ فى زهدٍ أوعتاب صَديق. فقال له : اجلس، وناوله قدحَ نبيذ كان فى يدِه[1]، فارتَعدَ وبَكى ، وأخذ القدح من يدِه وقال : واللهِ يا أميرَ المؤمنين ، ماغيّرت الماء بشيءٍ قطّ مما يُختلف فى تحليله ، فقال : لعلّك تريد نَبيذَ التَّمْر ، أو نبيذ الزَّبيب ! فقال : واللهِ يا أميرَ المؤمنين لا أعرف شيئا من ذلك . فأخذَ المأمونُ القَدَحَ من يدِه ، وقال : أما والله لو شربتَ شيئاً من هذا لضربتُ عنقك ، ولقد ظننتُ أنك صادقٌ فى قولك كلّه ، ولكن لا يتولى لىَ القَضاءَ رجلٌ ، بدأ فى قوله بالبراءة من الإسلام ؛ انصرِفْ إلى منزلك . وأمرَ علّويه فغيّر هذه الكلمة ، وجَعَل مكانها : « حُرِمْتُ مُنَاىَ منكِ[2]» .

قلتُ : ماجَرَى للمأمون مع هذا القاضى المسكين على خلافِ المَعْهود من حِلْمه ، ومكارم أخلاقه ، وكان غير هذا الفعل أولى به وبرياسته ، ولكنّه صانَ مَنصِب القضاء ووَقّره وأجَلّه ، فعفا الله عنه . وأمّا هذا القاضى الخلنجىّ رحمه الله فقد اختَلَج فى خاطره من الوُشاة ما أضرّ به عند محبوبته وعند الخليفة ، وهذا من كهانة الشعر ، ومما يتفق للشاعر وقوعه بعد مدّة مَديدة . وأمّا علّويه فأعَلّه الله ، ولا أعلى له كعبا ، لقد أضرّ بحالِه ، وعَطّله مِن حَلْىِ القَضاء .

قال الواثق يوما لابن أبى دُواد : قد سعى بك عندى قوْم ، قال : فماقلتَ لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : ماقال صاحبُ عزّة :

وَسَعَى إلىّ بعَيْبِ عَزّةَ نِسوَةٌ   جَعَل الإله خُدُودَهنّ نعالَهــا

(١) فى الأغانى : « قدح نبيذ التمر أو الزبيب » .

(٢) الخبر فى الأغانى ١١ : ٣٣٩ ، ٣٤٠ . وتاريخ الطبرى ٨ : ٦٥٦ .

ونقلتُ من خطّ القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله :

يامن يَنِمُّ ولا يُقسمُ الله منه ماخشى
مافى اقتدارِك أنْ تشا ء، وفى اقتدارك أنْ تشى

وقال أبو سعيد الرُّستمى :

مالى وللواشينَ ، لا يَهديهمُ مانمنموه من النميم وزخرفوا
أعياهُمُ سببُ التهاجرِ بيننا فتفاءلوا لى بالفراق وأرجفوا!

وقال ناصر الدين حسن بن النقيب :

صدّتْ وعلّمتِ الصدودَ خيالها فحُرِمْتُ حتى فى المنام خيالها
مازالَ واشيها بزُورِ حديثهِ فأصدَّها عن عهدِها وأحالها
وسعَى فغيّرها وغيّر فى الهوى أخلاقها وطباعها وخلالها

وقال غيرُه :

يانازحاً بودادهِ لمّا وشَى واشٍ ، وليس من الفؤاد بنازحِ
ما كان أحسنَ شملَنا ونظامَه لو لم تكن تُصْغِى لقولِ الكاشح
إنّى لأعْجبُ كيف يعزبُ عنك ما أضمرْتُ فيكَ وأنت بينَ جوانحى

وقال ابن الساعاتى فأحسن :

ثلاثةٌ منعتْها مِن زيارتِنا إذا دَجى الليلُ خوفَ الكاشحِ الحَنِقِ
ضوءُ الجبينِ ، ووَسْواسُ الحُلىّ ، وما تُبديه من عَرَقٍ كالعنبرِ العَبِق
هَبِ الجبين بفضلِ الكمّ تستره والحَلْىَ تنزعُهُ ، ما الشأنُ فى العَرَق !

وقال عمارة اليمَنىّ :

واهاً لِما نطقَ الواشون كمْ أذنٍ سعَى إليها بترْداد المُحالِ فَمُ

ونقلتُ من خطّ السِّراج الورّاق :

كَتَمَ الزيارةَ فى الدُّجى فضياؤه وحُلِيُّه وشَذاه؛ كلٌّ قد وَشَى
وكتمتُ وَجْدِى فيه لولا أدْمُعٌ نَمَّتْ بما أُخْفِيه حتّى قد فشَا

* * *

٥٦ — وقوله : والغُواة الَّذِين لا يتركون أدِيما صَحِيحا .

يشير بذلك إلى قول القائل :

ولاتفْشِ سرّك إلاّ إليكَ فإن لكلِّ نَصيحٍ نَصيحَا
فإنى رأيتُ غُواةَ الرِّجا ل لا يَتْركون أدِيماً صَحِيحا

وبعضُ النّاس يَزْعُم أنَّ هذين البَيْتين لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، والصحيح أنه كان يتمثّل بهما كثيراً .

والغواة : جمع غاوٍ ، وهو اُسمُ فاعلٍ من الغَىّ ، وهو ضدّ الرُّشْد .

وقوله : « لا يتْركُون أدِيماً صحِيحا » ، أى لا يدعون جِلْدا صَحِيحا ، بل يفرونه ويُمزِّقونه .

وقد جمع الأمير تميم بن المعزّ جماعة ممن ينكر على المحبّ ، فقال :

أوانسُ فى أثوابهنّ وفى المُلاَ غصونٌ ، وفى تَنْقِيبهنَّ بدُورُ(١)
فهنّ المُنَى لولا رقيبٌ وحاسدٌ عدوٌّ وواشٍ كاشحٌ وغَيورُ

وقال أمير المؤمنين القائم بأمر الله :

جُمِعتْ لدىّ من الغرامِ عَجائبٌ خلّفن قلبى فى إسارِ مُوحِشِ
خِلٌّ يَصُدّ ، وعاذِلٌ متنصِّحٌ ، ومعاندٌ يؤذِى ، ونمّام يَشِى

---

(١) ديوانه ١٢٢ .

وما أحسن قول ابن الخيّاط :

فلا تعدل إلى الواشين سَمْعاً   فإنّ كلامَ أكثرِهم كِلامُ[1]
وإنّ الودّ عندهمُ نفاقٌ   إذا طاوعْتَهم والحمدَ ذامُ
وللأقوالِ إن سُمِعتْ سِهامٌ   تُقصِّر عن مواقِعِها السّهامُ
فما نُصْحًا لمجْدِك بل مرادًا   لما قد ساءنى قَعدوا وقامُوا
فليتَكَ تَسمعُ القولَين حتى   يُبيّنَ فِي مَن الحقُّ الخصامُ

وقول ابن عطية :

لاتسمعنّ من الحسودِ نَميمةً   فكلامُه ضَربٌ من الهَذَيانِ
إن كان قد أَوْحَى إليكَ تخرّصًا   فالناسُ قد كَذَبوا على الرّحمٰنِ
سلْ غَيره عنّى لتعْلَمَ إفْكَهُ   واسخَطْ عليه ، فبالمُحالِ رَمانى
لا يثْبت الحق المبين لحاكمٍ   فى الحقّ حتّى يَنطِقَ الخصْمانِ

* * *

(١) ديوانه ١٧٩ ، ١٨٠

٥٧ ــ وقوله : والسُّعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس ، فقال : ما ظنّك بقومِ الصدق محمود إلا منهم !

السُّعاة : جمعُ ساعٍ ، مِن السَّعى ، وهو الحركة مطلقا ، ولكن قد غلَب هذا في العُرْف على مَنْ يَذكُر النَّاس بالسُّوء ، وهو الّذى يريد للناس المواقع .

أَنشَدَنى لنفسه إجازةً شيخُنا الإمام شهاب الدين أبو الثَّناء محمود رحمه الله تعالى ، من قصيدةٍ مَدَح بها الصاحب تاج الدين محمد بن حنا :

خَرِسَ السُّعاةُ وكان قبلَ زَمانِه ... لِكلا مِهِمْ بينَ الضُّلوعِ كِلامُ
وتجنّبوا سُوقًا إلى سوقٍ به ... نَفَق الصَّلاح وبارَتِ الآثام

وما أحسنَ قولَ القائل :

سعَى إليكَ بىَ الواشِى فلم تَرَنِى ... أهلًا لتكذيبِ ما ألقى من الخَبَرِ
ولو سَعَى بكِ عِندى فى ألذِّ كَرًى ... طَيْفُ الخيالِ لبِعْتُ النومَ بالسَّهَرِ

وقد وَضَع لهذين البيتين شيخُنا شهاب الدِّين محمود رحمه الله بيتين أوّلَين وهما قولُه :

يا مُلزِمى بذنوبٍ ما أحطْتُ بها ... عِلمًا ، ولا خَطَرتْ يومًا على فِكَرِى
صدَّقْتَ فىَّ أباطيلَ الظنون وكم ... كذَّبتُ فيكَ يقينَ السَّمْعِ والبصرِ

وأمَّا قولُ الأحنف بنِ قيس : «ما أقولُ فى قومِ الصدْقُ محمودٌ إلاّ منهم» فهذا قول (١ فى غاية البلاغة الجامعة لضروب من المعانى ، لأن هذا غاية فى ١) الذمّ للسُّعاة ، لأنهم يُذمّون بما يُحْمَد به الناس ؛ لأنَّ هؤلاء لمّا تعاطَوا هذا

(١ ــ ١) ساقط من ط .

الصدْق الّذى أجمع الناسُ على مدحِه ، ومدَحَه اللهُ ورسوله[1] وأكابرُ النّاس وعلماؤهم ؛ وتلبّس به هؤلاء الأنذال الأوْباش صار مَذموما عند العقلاء والرُّؤساء ؛ وصِدْق هؤلاء السعاة مذموم ، وكَذِب الشعراء محمود .

قال بعضُهم فى وصف الشعراء : ما ظنُّك بقومٍ الاقتضاء[2] محمودٌ إلاّ منهم ، والكَذِب مذمومٌ إلاّ منهم .

ودَفَع بعضُ السُّعاةِ إلى الأمير[3] السّفّاح قصّةً بسعاية على بعضِ عُمّالِه ، فوقّع فيها : «هذه نصيحةٌ[4] لم ترِدْ بها ما عندَ الله ، ونحن لا نَقبَل قولَ من آثَرَنا على الله » .

وكَتَب بعضُ شُهود الأهْواز إلى الوزير أبى الفَرَج محمّد بن جعفر : قد مات فلان ، وخلّف خمسين ألفَ دينار عَيْنا ، ولم يُخلِّف غيرَ طِفْلة ، فإنْ رأى استعراضَ المالِ إلى أن تبلُغ الطِّفلة ، ففى عَقارِها وأملاكِها كفاية ! فوقّع على ظَهر كتابه : « الطفلةُ جبَرها الله ، والمالُ ثمّره الله ، والساعِى لعنَه الله ، لا حاجَة للسُّلطان إلى المال » .

ولما وُلّىَ عبد العزيز بن عبد الملك دِمَشق ، ولم يكن فى بنى أميّة ألبُّ منه فى حَداثةِ سِنّه ؛ قال أهلُ دمشق : هذا غلامٌ شابٌّ ولا عِلمَ له بالأمور ، وسيَسْمع مِنّا . فقام إليه رجلٌ فقال : أصلَح الله الأمير ! عندى نَصيحة ، فقال : ليتَ شِعرى ، ما هذه النّصيحة الّتى ابتدأتنى بها من غير يدٍ سبَقَتْ منّى إليك ! قال : جارٌ لى عاصٍ ، مختلف معه[5] . فقال : ما اتقيْتَ الله ، ولا أكرَمْتَ أميرَك ، ولا حفِظْتَ جارَك ، إن شئت نظرْنا فيما تقول ،

---

(١) ط : « رسله » .
(٢) م : « الاقتصاد » .
(٣) ط : « أمير المؤمنين » .
(٤) ط : « النصيحة » .
(٥) م : « فيه » .

فإن كنتَ صادقا فيما قلتَ لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن شئتَ أقلْناك ؛ قال : أقِلْنى ، قال : اذهبْ حيثُ شئتَ ، لاصحبك الله ! إنّى أراكَ شرَّ رجل . ثمّ قال : يا أهلَ دِمَشق ؛ لولا أنه لا ينبغى للوالى أن يُعاقِب (١) قبلَ أن يعاتِب ، كان لى فى ذلك رأى ، فلا يأتنى أحدٌ منكم بِسعايةٍ على أحدٍ بشىء ؛ فإن الصادق فيها فاسق ، والكاذبَ فيها بهّات .

وحُكِى أنّ أميرَ المؤمنين القادرَ بالله أحمد ، بينما هو ذاتَ ليلةٍ يمشى فى أسواقِ بغدادَ إذْ سمِع شخصا يقول لآخر : قد طالت علينا دولةُ هذا المشئوم ، وليس لأحدٍ منّا عندَه رِزْق . فأمر خادما كان بين يديه أن يتوكّل به ، ويجهِّزَه بين يديه ، فسأله عن صفته (٢) فقال : إنّى كنتُ من السُّعاةِ الّذين يستعين بهم أربابُ هذا الأمر على معرفةِ أحوالِ النّاس ؛ فمذ وَلِىَ أميرُ المؤمنين أقْصانا ، وأظهر الاستغناء عنّا ، فتعطّلتْ معيشتُنا ، وانكسر جاهُنا عند الناس ؛ فقال : أتعرِف من فى بغدادَ مِن السُّعاة ؟ قال نعم : فأحضر كاتبا فكتبَ أسماءهم ، وأمر بإحضارهم . ثم إنه أجرى (٣) لكلّ واحد معلوما ، ونفاهم إلى الثُّغور القاصية ، ورتّبهم هنالك عيونًا على أعداء الناس ، ثم الْتفت إلى مَن حولَه ، وقال : اعلموا أنّ هؤلاء ركّب اللهُ فيهم شرًّا ، وملأ صدورَهم حِقْدا على العالم ، ولا بدّ لهم من إفراغ ذلك الشرّ ؛ فالأَوْلى أن يكون ذلك فى أعداء الدِّين ، ولا يُنغَّص بهم على المسلمين .

قلتُ : وأعرِف نظيرَ هذه الواقعة [واقعة] (٤) ، اتفقتْ للسلطان المَلِك

---

(١) كذا فى ط ، م ، وفى الأصل : « يعاقب » .
(٢) ط : « صنعته » .
(٣) ط : « وأجرى » .
(٤) من ط .

الناصرِ محمد بنِ قَلاوون رحمه الله ، وهو أنَّه حضر فى سنة ثمانٍ وعشرين وسبعمائة تاج الدين كاتب الفتاح أو غيره ، إلى الأمير علاء الدين مُغْلطاى الجَمالى ، لمّا كان وزيرا ، وذكر عنده أناسا [معروفين] (١) بكلّ قبيح ، والتزم (٢) فيهم جملةً من الذهب إذا صُودِروا ، وأُخِذَتْ منهم وظائفهُم . فدخل الجَمالىّ إلى السلطان وحَكى له ماقاله ، فقال : أحضِره ، فلمَّا استحضَرَه سَمِع كلامه ، وقال له : هل لك عِلمٌ بأحدٍ فى القاهرة يَعرف شيئا من هذه الأحوال؟ فقال : نعم ، جماعة ، وعدّهم . فقال للوزير : خذ هذا عَندَك واستحفظ به (٣) ، وأَحسِن إليه ، وإذا أَحْضَرَ إليك كلَّ هؤلاء الّذين ذكَرَهم عَرِّفْنى بهم . فخرجا من عنده ، وذكر له جماعةً وهو يُحْضرهم إلى أن لم يَبق منهم أحد ، ودخل على السلطان وعَرَّفه بهم ، فقال : اخرج الآنَ فى هـذه الساعة ، وجَهِّز الجميع إلى قوص ، ولا تدَعْ أحدا منهم فى القاهرة فإنَّ هؤلاء مَناحيس ، يرافعون الناس ، فنفاهم أجمعين .

قال معاويةُ يوما للأحنف بن قيس فى أمرٍ بلغه عنه ، فأنكَرَ الأحنف ؛ فقال له معاوية : الثِّقَة بلّغنى عنك ، فقال : الثِّقة لا يبلِّغ .

ووقّع ذو الرياستين فى رقعة ساعٍ (٤) : « نحن نَرَى قَبولَ السِّعَايةِ شرًّا منها ؛ لأن السِّعاية دلالة ، والقبولَ إجازة ، وليس من دلَّ على شىء وأَخبَرَ به ، كمن قبِلَه وأجازَه ، فاتَّقوا السَّاعِىَ ؛ فإنّه لو كان فى سِعايته صادِقًا لكان فى صِدْقه آثما إذ لم يحفظ الحُرْمة ، ولم يستر العَوْرة » .

ولمَّا قبضَ أميرُ المؤمنين المستظهر بالله على الوزيرِ أمينِ الدَّولة بن

---

(١) من د

(٢) م : « ألزم » .

(٣) ط ، د : « واحتفظ به »

(٤) ساقطة من ط .

جُهيد ، كتب إليه بعضُ الأشرار سِعايةً فى الوزير ، وأغراه به غايةَ الإغراء ، فكتَب المستظهرُ على الرقعة :

غير ما طالبين ذَحْلا ولكن مالَ دَهرى على أُناسٍ فمالُوا

وقال رجل المهدىّ : عندى لك نصيحةٌ ياأميرَ المؤمنين ، قال : لمن هىَ؟ لنا أمْ لعامّة المسلمين أم لنفسِك ؟ قال : لك يا أمير المؤمنين ، قال : ليس الساعى بأعظَمَ عورةً، ولا أقبح حالا من قابلِ سِعايته ، ولا تَخلو من أن تكون حاسدَ نعمة ، فلا نَشفِى غَيْظك ، أو عَدُوًّا فلا نُعاقِب لك عدوَّك . ثمّ أقبَل على النّاس فقال: لا يَنْصحُ لنا ناصحٌ إلاّ بمافيه رِضَا الله ، وَللمسلمين فيه صلاح ، فإنّما لنا الأبدان ، وليس لنا القلوب ، ومن استَتَر لم نكتشف له [1] ، ومن أخطأ أقَلْنا عَثْرَتَه ، إنِّى أرَى التّأديب بالصّفح أبلَغَ منه بالعقوبة ، والسّلامة مع العَفْو أكثر منها مع المُعاجَلة ، والقلوب لا تبقى لوالٍ لا ينعطف إذا استُعطف ، ولا يَعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفِر ، ولا يَرحَم إذا استُرحم .

قلت : وقد كان الأمير سيف الدين سلار رحمه الله إذا جاءه أحد راتع فى كتّابه والمباشرين الذين فى بابه ، قال : هؤلاء قد أخذوا وشبعوا ، لاتغيّروهم ؛ فإن الذى يأتى من بعدهم يكون جوعان . وما ألطف قول البهاء زهير وأرقّه ! قال :

حبيبىَ ما هذا الجفاء الذى أرَى وأين التغاضِى منكمُ والتعطُّفُ [2]
لكَ اليومَ أمر ـ لا أشكّ ـ يَريبُنى فما وَجْهُك الوجهُ الذى كنتُ أعرف
نعم نَقَل الواشُون عنِّىَ باطلا وملتَ لِما قالوا ، فزادوا وأسرَفوا
كأنك قد صدّقتَ فىّ حديثَهم وحاشاكَ من هذا ، فخُلْقُك أشرف

---

(١) ط : « نكشفه » (٢) ديوانه ٩٧

وقد كان قولُ الناسِ في الناس قبلنا فكذّب يعقوبٌ، ومُزّق يوسفُ
بعَيْشِكَ قل لي ما الذي قد صنعْتُه فإنك تدري ما أقولُ وتُنصِفُ
فإن كان قولا صحّ أنّيَ قلتُه فللقول تأويلٌ، وللقول مَصرفُ
وهبْ أنه قولٌ من الله مُنزَلٌ فقد[1] بدّلوا التوراةَ يوماً وحرّفوا[2]
وها أنا والواشي وأنت جميعنا يكون لنا يومٌ عظيمٌ وموقفُ

وما كلُّ ساعٍ ولا كلُّ نمّام مثل ساعي سيف الدين بن المشدّ بن قِزِل حيث يقول:

ومجالسٍ راقَ من واشٍ يكدّرُه ومن رقيبٍ له في اللوم إيلامُ
مافيه ساعٍ سوى الساقي وليس به على الندامى سوى الريحان نمّامُ

وأنشدني صفيّ الدين لنفسه إجازة:

أقول وطرف النرجس الغضّ شاخصٌ إلينا، وللنمّام حولىَ إلمامُ
يارُبّ حتّى في الحدائق أعينٌ علينا وحتّى في الرياحين نمّام!

وقلتُ أنا:

قلت وقد أصبحتُ في روضةٍ بها حبيبي قد قضى دَيْني
بالله يا منثورَنا لا تشرْ بإصبعٍ قطُّ إلى البَيْنِ
وأنتَ يا نرجسُ غمّضْ ولا تُغامِزِ النمّامَ بالعَيْنِ

وقد ذكر ابن المعتز أمثالَ هذه الجماعة الذين ذكرهم ابن زيدون في هذا الموضع، فقال من أبيات:

قومٌ همُ كدَرُ الحياة وسقمُها عرض البلاء بهم عليّ وطالا[3]
يتآكلون ضغينةً وخيانةً ويرَوْن لحمَ الغافلين حلالا
وهمُ فراش الشرّ يومَ مُلمّةٍ يتهافتون تعاشيا وخبالا

---

(١) الديوان: « وقد ». (٢) ط: « وحذورا ».
(٣) ديوانه ٢: ٢٠ (مطبعة المحروسة).

وهمُ غرابيلُ الحديثِ إذا وعَوْا سِرًّا تقطَّر منهمُ أو سالا

ولمَّا اتَّصل ابنُ زيدون بخدمةِ المعتمد بن عبَّاد، وتمكَّن منه، وحَسُنت حالُه عنده، ألقى إليه بعضُ الحَسَدة رقعةً فيها مكتوب:

لا تتركَنْ للناس موضعَ شُبْهةٍ واحزِمْ فمثلُك في العظائم يَحزِمُ (١)

قد قال شاعرُ كِندةٍ فيما مضى بيتًا على مَرِّ الليالي يُعلَمُ:

لا يَسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبِه الدَّمُ

فوقَّع المعتمد على ظهرها:

كذَبتْ مُناكم، صرِّحوا أو جَمْجِموا الدِّينُ أمتَنُ، والسجيَّةُ أكرَمُ (٢)

حاولتُمُ تضييقَ صدرٍ لم يَضِق والسُّمْرُ في ثُغَرِ الصدورِ تُحطَّمُ

وزحفتُمُ بمحالِكُمْ لمجرَّبٍ ما زال يَثْبُتُ للمُحالِ فيَهزِمُ

أنَّى رجوتُمْ غدْرَ من جرَّبتُمُ منه الوفاءَ وجَوْرَ من لا يظلِمُ!

أنا ذلِكُمْ، لا البغْيُ يُثمِرُ غرسُه عندي، ولا مَبْنَى الصنيعةِ يُثلَمُ

وبلغ ذلك ابن زيدون، فصنع قصيدةً للمعتمد رحمه الله يشكره فيها، منها:

قلْ للبُغاةِ المُنتضِينَ قِسيَّهم ستَرَوْن من تُصْمِيه تلك الأسْهُمُ (٣)

أسررتُمُ فرأى نَجِيَّ غُيوبِكمْ شَيْحانُ مدلولٌ عليه مُلهَمُ (٤)

وهذا الفصل من قوله: «فكيف إلاَّ نميمةٌ أهداها كاشح ...»، إلى آخره، قد استعملَ مثلَه ابن زيدون في رسالةٍ أخرى، كتب بها، وهي طويلة (٥)، جاء منها: «واللهِ ما استجزتُ هذا بعد أن هَتكَ من سِتْري ما هَتَك، وانتهك

(١) من قصيدة في ديوان ابن زيدون ٣٠٦، ٣١١.
(٢) قلائد العقيان ١٧.
(٣) ديوانه ٣١٤.
(٤) الشيحان: الحازم الشجاع.
(٥) من رسالته البكرية التى كتبها إلى أستاذه وصديقه أبي بكر مسلم بن أحمد عاتبا، وشارحا موقفه؛ وهي في الذخيرة ١ : ٣٠٥، وهي أيضا في ملحق ديوانه ٧٤٣.

من حُرُماتِي ما انتهك ، إذ كنت أقولَ معذورا ، وأنفثُ مَصْدورا[١] ، فكيف ذاك ، ولم يَحْدث سبب ، ولا عَرَض من موجِب !

* ومالى وإهداء الخَنى ثمَّ ماليا *[٢]

و ﴿ ستُكتَب شهادتهم ويُسألون ﴾[٣] . وليست هذه ببكرٍ من الفمائم التى دُخِلَ بها بين العصا ولِحائها[٤] .

فإنِّى رأيت غُواةَ الرجا ل لا يَترُكون أديمًا صحيحًا[٥]

* * *

ومَنْ يأذَنْ إلى الواشِين تُسلقْ مَسامِعُه بألسنةٍ حِدادِ[٦]

ويا سيدى :

لو بغير الماء حَلْقِي شَرِقٌ كنتُ كالغَصَّان بالماء اعْتِصارِى[٧]

واللهِ ما توهّمتُ أنى أولى ممّن يَزعُم أنى أتيت منه ، مع اتصالى به وانقطاعى إليه ، وارتسامى بالتأميل له ، والتعويل عليه .

---

(١) المصدور : المريض بصدره .

(٢) لصخر بن عمرو ، أخى الخنساء ، وصدره :

* وَقَالُوا ألاَ تهجُو فوارسَ هاشمٍ *

وبعده :

أبىَ الهَجْوَ أنى قدَ أساءوا كريمتِي وأنْ ليس إهداء الخنا من شِماليَا

(٣) سورة الزخرف ١٩ .

(٤) اللحاء : القشرة ، وأصله من المثل : « لاتدخل بين العصا ولحائها » ، أى قشرتها.

(٥) قبله :

ولا تُفْشِ سرّكَ إلاَّ إليكَ فإنّ لكل نصيحٍ نصيحا

والبيتان ينسبان لعلى بن أبى طالب .

(٦) لأبى تمام ، ديوانه ٨١ .

(٧) لعدى بن زيد ، وانظر الأغانى ٢ : ١١٤ .

* إنَّ المعارفَ في أهل النُّهى ذِمَمُ * (١)

وقال ابن زيدونَ من جملة قصيدة :

كأنَّ الوُشاةَ وقد بُليتُ بإفكِهِمْ أسباطُ يعقوبٍ وكنتَ الذِّيبا (٢)

* * *

٥٨ — وقوله :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ رِيبةً وليس وَراءَ الله لِامرءٍ مَذهَبُ

هذا البيتُ من جملةِ أبياتٍ قالها النّابغةُ الذُّبيانيّ ـ واسمهُ زياد بن مُعاوية ـ يَعتذِر فيها إلى النعمان ويَمدَحه ، أوّلُها :

أتاني أبيتَ اللّعنَ أنك لُمتَني وتلكَ التي أهتمُّ منها وأنْصَبُ (٣)

فبتُّ كأنَّ العائداتِ فَرَشْنَ لي هَراساً به يُعلَى فِراشي ويقشَبُ (٤)

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذهَبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّي خيانةً لَمُبلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكذَبُ

ولكنّني كنتُ امرَأً لي جانبٌ من الأرض فيه مستَرادٌ ومَذهَبُ (٥)

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما مدحتُهُمْ أُحكَّمُ في أموالهم وأقرَّبُ

كفعلِكَ في قومٍ أراكَ اصطنعتَهم فلم ترَهُمْ في شكر ذلك أذنَبوا

عن الشّعبي : قال عمرُ رضي الله عنه : من أشعَرُ الناس ؟ قالوا : أنتَ أعلمُ يا أميرَ المؤمنين ، قال : من الذي يقول :

---

(١) للمتنبي ، ديوانه ٣ : ٣٧٠ ، وصدره :

* وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفةٌ *

(٢) ديوانه ٣٣١ .

(٣) ديوانه ١٢ . وأبيت اللعن : أبيت أن تأتى أمراً تلعن عليه ، والنصب : الإعياء .

(٤) العائدات : الزائرات الإنسان في المرض . الهراس : نبت له شوك كثير . ويقشب : يخلط ويجدد .

(٥) مستراد ومذهب ، أي إقبال وإدبار .

إلاّ سُليمانَ إذ قال الإلهُ لهُ ... قمْ فى البريّة فاحددْها عن الفَنَدِ (١)
وخَيِّسِ الجِنّ إنّى قد أذنتُ لهم ... يَبْنُون تدمُرَ بالصُّفّاح والعَمَدِ (٢)

قالوا : النابغة ، قال : فمَن الذى يقول :

أتيتُكَ عارياً خَلَقاً ثيابى ... على خوفٍ تُظَنُّ بىَ الظُّنونُ (٣)

قالوا : النابغة ، قال : فمَن الّذى يقول :

حلفتُ فلَم أترك لنفسِك ريبةً ... وليس وراء اللهِ للمرءِ مَذهَبُ

قالوا : النابغة ، قال : فهو أشعَر العَرب .

وقد سَمّى الجاحظ هذا النوعَ من البديع بالمَذْهب الكلامىّ .

وزعم ابنُ المعتزّ أنه لا يوجد منه شىء فى الكتاب العزيز . وهو كثيرٌ فيه إلى الغاية ، ومنه قولُه تعالى : ﴿لو كانَ فيهما آلِهةٌ إلاّ اللهُ لفَسَدَتا﴾ (٤) ، وقولُه : ﴿ما اتّخَذَ اللهُ من وَلَدٍ وما كانَ مَعَه مِن إلهٍ إذاً لَذهَب كلّ إلهٍ بما خلق...﴾ (٥) الآية ، وقوله تعالى : ﴿وهو الّذى يَبْدأ الخلْقَ ثمَّ يُعيدُه وهوَ أهْوَنُ عليه﴾ (٦) ، وقوله تعالى : ﴿وحاجَّهُ قوْمُهُ﴾ إلى قوله : ﴿وتِلْكَ حُجّتُنا آتَيْناها إبراهيمَ على قَوْمِه﴾ (٧) .

والنابغة كانَ يَتحدّث مع النُّعمان فى هذه الأبيات ، فيقول : أنتَ أحسنتَ إلى قومٍ فَمَدحوك ، وأنا أحسَنَ إلىَّ قومٌ فمدَحْتُهم ، فكما أنَّ مَدْح أولئك لا تعدّه ذَنْباً ، فكذلك مَدحى لمن أحسنَ إلىَّ لا يكون لى ذَنبا عندَك .

---

(١) ديوانه ٢١ . والفند : الظلم ، وفى بعض روايات الديوان « فازجرها عن الفند » .
(٢) خيس ، أى ذلل ، ومنه سمى السجن « مخيساً » .
(٣) ملحق ديوانه ، العقد الثمين ١٧٦ .
(٤) سورة الأنبياء ٢٢ .
(٥) سورة المؤمنين ٩١ .
(٦) سورة الروم ٢٧ .
(٧) سورة الأنعام ٨٠ ـ ٨٣ .

ألا جَعَل الله الفِدَى كلّ حُرَّةٍ   لفوز المُنَى إنّى بها لَمُعذَّبُ[1]
فما دونَها فى النّاس للقَلْب مَطْلَبٌ
ولا خلفَها للقَلب فى النّاس مذهَبُ

* * *

٥٩ — وقوله : والله ما غششتُك بعد النصيحة .

الغِشّ خلاف النُّصح ، كأنَّه شىء غَطَّى عليه . والنُّصح ضد ذلك . والنصح : الإخلاص ، والناصح : الخالصُ من العَسل . والغِشّ أمرٌ مذمومٌ منهىٌّ عنه ؛ وعن أبى هُرَيرة رضى الله عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من حَمَل علينا السِّلاح فليس منّا ، ومن غَشَّنا فليسَ مِنّا » رواه مسلم[2] .

وفى رواية : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على صُبْرة طعام ، فأَدخَلَ يدَه فيها ، فنالت أصابعُه بَلَلا ، فقال : ما هذا ياصاحبَ الطَّعام ؟ قال : أصابَتْنا السماء يارسولَ الله ، قال : « أفلا جَعَلْتَه فوق الطَّعام حتَّى يَراه الناس ! من غَشَّنا فليس منَّا »[3].

والنصيحة أمرٌ واجب ، قال الله تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام : ﴿ وأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾[4] ، وعن هود عليه السلام : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[5] .

---

(١) ديوانه ١٣ .
(٢) صحيح مسلم ٩٩ . والصبرة : الكومة المجموعة من الطعام .
(٣) م : « فأصابت »   (٤) الأعراف ٦٢ .   (٥) الأعراف ٦٨ .

وفى مُسلِم عن أبى رُقَيَّة تميم بن أوْس الدارىّ رضىَ الله عنه ، أنَّ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « الدين النَّصيحة » ، قلنا : لِمَن؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم »[١] .

وفى البخارىّ ومسلم ، عن جرير بن عبد الله رضىَ الله عنه ، قال : بايعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، والنُّصْح لكلّ مُسلم .

وفيهما عن أنَس رضىَ الله عنه ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « لا يُؤمن أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه »[٢] .

حُكِى أن القاضىَ الفاضلَ رحمه الله توجَّه يوما إلى دار العِماد الكاتب ، فوجد آثارا أنْكرها الفاضل من آلات مجالِس الأُنْسِ ، فأنشده :

ما ناصَحَتْك حنايا[٣] الوُدِّ من أحد
ما لَمْ يَنَلْكَ بمكروهٍ من العَذَلِ
محبّتى فيكَ تأبَى أن تسامِحَنى بأن أراكَ على شىء من الزَّلَلِ

فاستحيَا العمادُ الكاتب رحمه الله ، ولم يعاوِدْ ما كان عليه من تلك الحال .

حُكى عن محمد بن المثنى بن الأجدع الهَمْدانىّ ، قال : دفع لى الحجاج أزاد مرد بن الهربد ، وأمَرَنى أن أستخرج منه مالا وأُغلِظ عليه ، فلمّا انطلقتُ به قال : يامحمّد ، إنَّ لك شرفا ودِينا ، وإنى لا أُعطِى على القَسْر شيئا ، فاستأدِنى وارفق بى . قال : ففعلتُ ذلك ، فأدّى إلىّ فى أسبوع واحدٍ

---

(١) صحيح مسلم ٧٤ .
(٢) صحيح مسلم ٩٧ .
(٣) ط : « خبايا » .

والغِشُّ فى مِرْآةِ ذِهْنِكَ كيف لا يَبْدو وأنت الجوهرُ الشفَّافُ

وقال :

أنتَ عَيْنى وليس مِن حَقِّ عَيْنى غَضُّ أجفانِها على الأقْذاء(١)

. . .

٦٠ — وقوله : ولا انحرفتُ عنك بعد الصّاغية.

الانحراف : المَيل ، يقال : انحرَفَ عنه وتحرَّفَ واحرَوْرَفَ ، إذا مال ، أو عدَلَ عنه .

والصاغية كأنَّها مصدر صَغَى ، يَصغُو صَغْواً وصاغِيَةً ، تقول : أصغَيْتُ إليه إذا مِلت بسَمْعِك نحوَه ، وأصغيت الإناء إذا أملتَه ، وأصغتِ الناقة إذا مَيَّلت رأسها للرحْل .

قال الرَّشيد يوما ليزيد بن مزيد ، فى لعب الشَّطرنج : كن علىّ مع علىِّ بن عيسى ، فأبى ، وقال : إنى حلفتُ ألاّ أكونَ عليك فى جِدّ ولا هزْل .

ومن هذه المادّة قولُ الرشيد أيضاً : قلبُ العاشِق عليه مع مَعشُوقتِه .

قال الأصمعىّ : فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قولُك هذا أحسَنُ من قول عُروَةَ بن حِزام :

وإنى لَتَعرُونِى لِذِكْراكِ رَوْعَةٌ لها بين جِلْدِى والعظامِ دَبيبُ(٢)
وما هوَ إلاَّ أنْ أَرَاها فُجاءَةً فأُبهتَ حتّى ما أكاد أُجيبُ
وأُصرَفُ عن رَأْيِى الذى كنت أرْتَئى وَيَقـــرُب منّى ذكرُها ويغيبُ

(١) لابن الرومى ، نقله فى مختارات البارودى ١ : ٣١٧ .
(٢) انظر الأغانى ٢٠ : ١٥٤ (ساسى) ، واللآلى ٤٠٠ ، ومصارع العشاق ٢٠٩ .

وَيُضمِر قلبي ذِكرَها فيعينُها ... عليَّ، فمالي في الفؤادِ نَصيبُ

فقال الرشيد: من قال ذلك وَهْما، فقد قلته عِلْما.

وما أحسنَ قولَ الحماسيّ:

ولقد أردتُ الصبرَ عَنْكِ فعاقني ... عَلَقٌ بقلبي من هواكِ قَديمُ

يَبقَى على حَدَثِ الزمانِ ورَيْبِهِ ... وعلى جفائك إنّه لكَريمُ

وقوله: «ولا أنحرفتُ عنك بعدَ الصاغية»، أنشدَني في هذه المادّة لنفسه الشيخُ صفيّ الدين عبد العزيز الحِلّي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، قال:

لِلتُّركِ مالِيَ تَرْكُ ... ما دِينُ حُبّيَ شِرْكُ

سَوالِفٌ وعُيونٌ ... تُشكِي المُحِبَّ وتَشكو[1]

يشير بذلك إلى قول ابن الرُّوميّ:

تشكِي المُحِبَّ وتشكو وهي ظالمةٌ

كالقَوسِ تُصمِي الرَّمايَا وهي مِرْنانُ

وقلت أنا في هذه المادّة الثانية:

تُشكِي المُحِبَّ وتَشكو ... فالقلب لا يَطمَئِنُّ

كالقَوسِ تُصمِي الرَّمايا ... وبَعْدَ هـذا تَئِنُّ

* * *

٦١ — وقوله: ولا نصَبتُ لك بعد التشيُّع فيك.

النَّصْب في اللغة: مَصدَر نصبْتُ الشيء إذا أقمْتَه، ونَصَبت لِفلان إذا عادَيْته، وناصبته الحربَ مُناصَبةً، والتشيُّع هو الدُّخول في الشِّيعة، وهم كل

---

(١) يقال: أشكيت فلانا، إذا فعلت به فعلا أحوجه إلى أن يشكوك.

قومٍ أمرُهم واحدٌ غيرُ مُختلف. وتشيّع الرجل إذا ادّعى دَعْوَى الشّيعة، وقال بمقالَتِهم. وقد جرى العُرْف بأن كلّ من انحرف عن عليٍّ وبنيه يسمّى ناصبيًّا، وكلّ من أحبَّ عليًّا وبَنِيه يسمّى شيعيًّا، فالناصبيّ ضدّ الشّيعيّ، وما أحسَنَ قول الحظيريّ الورّاق في ناصبيّ اسمُه الفتح:

يافتح، يا أشهرَ كلّ الوَرَى ... باللُّؤْمِ والخسّة والكذبِ (١)
كم تدّعى شيعةَ آل النبي ... واسمُك يُنبِينا عن النصْبِ

وكان إبراهيم بنُ المهديّ منحرفا عن عليٍّ رضى الله، ولمّا مات إبراهيمُ ركبَ المعتصم حتّى صَلّى عليه، ثم قال للواثق: قمْ يابنيّ حتّى تدفِنَه، وقيل: بل لم يُصلِّ عليه تحرّجا، وأمرَ الواثقَ بالصلاة عليه، وسأل عن وصيّته، فوجده قد أمر بمالٍ عظيمٍ أن يفرّق على أولاد الصّحابة كلّهم إلا أولادَ عليٍّ رضى الله عنه. فقال الواثق: والله لولا طاعةُ أميرِ المُؤْمنين لما وقفْتُ عليه، ولا انتظَرْت دفنَه. ثم انصرَفَ وهو يقول: منحرفٌ عن شرَفه وخيرِ الأهل، والله لقد واريْتُه في قبرِه كافراً. وأمر الواثق أن يفرّق في أولاد عليٍّ رضى الله عنه مالٌ فاضل، فأصابَ كل رجل منهم أضعافَ ما أصابَ غيرهم من وصيّة إبراهيم.

قال يحيى بن أكثم: لو يُحسِن أحدٌ من بَنى العبّاس إلى آل أبي طالب إحسانَ الواثق؛ ماماتَ فيهم فقير.

وكان المتوكّل منحرفا عن العَلَويّين، فأمر في سنة ست وثلاثين ومائتين بهَدْم قبرِ الحُسَين رضى الله عنه، وهَدْم ماحولَه من الدُّور، وأن يُعمَل مَزارعَ،

---

(١) ط: « هذا الورى »

ومنع الناسَ من زيارته ، وحُرِث وبقى صَحْراء ، فتألَّم الناسُ لذلك ، وكتبوا سَبَّه على الحِيطان ، وهَجاه الشُّعَراء : دِعْبِل وغيرُه ، وفي ذلك يقول يعقوبُ ابن السِّكِّيت — وقيل : لعلىّ بن أحمد البسّامى :

تاللهِ إن كانت أُمَيَّةُ قد أتَتْ ... قتلَ ابنِ بنتِ نبيِّها مظلوما

فلقد أتاهُ بنو أبيه بمثلِهِ ... هذا لَعَمْرُكَ قبرُه مَهْدوما

أسِفُوا على أن يكونوا شاركوا ... في قتْلِه ، فتتبَّعوه رَميما

ودخل ابنه المنتصر رحمه الله عليه ليلةً ، وقدّامه رجلٌ قد تزَيَّا بزىّ علىّ ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد كبر بطنه ، فتبيَّن الغضب في وجه المنتصر ، فنال منه المتوكّل(١) . وكان ذلك أحد الأسباب الباعثة للمنتصر على قتل أبيه المتوكِّل ، على ما هو مذكورٌ عند أهل العِلْم بالتّواريخ وأيام الناس .

ولمّا تولّى الخلافةَ المنتصرُ دفَع إلى أحمد بن الخصيب مالا جَزيلا ، وقال : فرِّقْه في العلويِّين ، فقد نالهم جَفْوة ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، سوف ترى ما أفعل معهم ، فقال : إذاً تسعد عند الله وعندى ، فإني ما وليتُك الوَزارةَ إلاّ لتخلُفَنى فيهم ، وتتفقَّد أحوالَهم ، وتَقضِىَ حوائجَهم ، فقال يزيد ابن المهلب :

ولقد بَرَرْتَ الطالبيّةَ بعدَ ما ... ذمّوا زماناً بعدهم وزَمانا(٢)

ورددتَ أُلفةَ هاشمٍ فرأيتَهم ... بعدَ العداوة بينهمْ إخوانا

لو يعلمُ الأسلافُ كيف بررْتَهُمْ ... لرأوكَ أثقلَ منهمُ ميزانا

وكان عبد الله بنُ المعتزّ منحرفا عن العلويِّين ، وله فيهم قصيدة مطوّلة أولها :

---

(١) كذا في م ، وهو الصواب ، وفي الأصل ، ط « فقال المتوكل » وهو خطأ .
(٢) المسعودى ٣ : ١٣٥ .

ألاَ ما لِعَيْنى وتَسْكابِهـا　　تَشَكَّى القَذَى ، وبِها ما بِها

وأجابه عنها صفىُّ الدِّين الحِلّى من أهل عصرِنا . ولابن سُكَّرةَ الهاشمىّ قصيدةٌ ميميَّةٌ ، يَفخرَ بها على الطالبيِّين ، فردَّ عليه أبو فِراس بن حَمْدانَ بقصيدة فى وَزْنها ورَوِيِّها . ولابن المعتزّ غير قصيدة يذمُّ فيها الطالبيِّين ، وهى موجودةٌ فى ديوانه .

وكان المَلِك الأفضل علىّ بن السلطان صلاح الدِّين يوسف ابن أيّوب كاملَ الفضائل ، يتظاهر بالتشيُّع لأجل الإمامِ الناصر ، صاحبِ بغداد ، فمن ذلك أنّه كَتَب إليه لما تغضَّب عليه عمُّه العادلُ أبو بكر وأخوه العزيزُ عُثْمان ، قال :

ذِى سُنَّةٌ بين الأيام قديمةٌ　　أبدا أبو بكْرٍ يجورُ على علِى

وكتب إليه أيضا :

مولاى إنَّ أبا بكر وصاحبَه　　عثمانَ قد غَصَبَا بالسَّيفِ حَقَّ عَلِى
وهو الذى كان قد ولاَّه والدُه　　عليهما ، فاستقام الأمرُ حينَ وَلِى
فخالَفَاه وحَلاَّ عَقْـــدَ بيعتِه　　والأمرُ بينهما ، والنَّصّ فيه جَلِى
فانظر إلى حَظِّ هذا الإسمِ كيف لَقِى
من الأواخِرِ ما لاقَى مِن الأُوَلِ

فكتب الإمامُ الناصر إليه جوابا :

وافَى كتابُكَ يابن يوسفَ مُعلِنًا　　بالحقِّ يُخبِر أنّ أصلَكَ طاهرُ
غَصَبوا عليًّا حقَّه إذ لم يكُنْ　　بعد النبيِّ له بيَثْربَ ناصرُ
فاصبِرْ فإنَّ غدًا عليَّ جزاءَهم　　وابشِرْ فناصرُكَ الإمامُ الناصرُ

وكتب الصاحبُ شرفُ الدين بن عُنَين من الهند قصيدةً يقول فيها :

هيهاتَ أن آتي دمشقَ ومُلكُها يعزَى إلى غيرِ المليك الأفضلِ
ومِن العجائبِ أن يقومَ بها أبو بكرٍ على علم الوصيَّة في علي
مهلا أبا حسنٍ فتلك سَحابةٌ صيفيَّةٌ عمّا قليلٍ تنجلي

على أنه لمّا عاد إلى الشام ووجد العادلَ في دمشق ، كتب له قصيدة أوّلُها :

ماذا على طَيْفِ الأحبّةِ لو سَرَى وعليهمُ لو سامحوني بالكَرَى

وقال في جملتها :

ما في أبي بكرٍ لمن رامَ الهُدَى شكٌّ يريبُ بأنّه خيرُ الورَى

ومن نظم المَلِك الأفضلِ نور الدين عليّ بن السُّلطان صلاح الدين يوسف ابن أيُّوب رحمهم الله تعالى يقول :

أما آن للسَّعْدِ الَّذي أنا طالبٌ لإدراكه يوماً يُرَى وهو طالبي
وهلاَّ يُريني الدهر أيْدِيَ شيعتي تمكّنَّ يوماً من نواصِي النواصبِ

وما أحسنَ قولِ أبي الفتوح نصر بن قلاقس رحمه الله تعالى :

وفي كَبِدي ـ أستغفرُ اللهَ ـ لَوْعةٌ إلى مُولَعٍ عنى بما هوَ مُولَعُ
يناصبني في الحُبِّ والحبُّ حاكم يجوِّزُ لي في الناصبيِّ تشيُّعي

وكان الصالح بن رُزّيك قد ألزم الأثيرَ بن بُنان بمالٍ دفع عليه لكونه كان يتولَّى أموالا له ، فأرسل إليه يَمُتُّ بقديم الخدْمة ، والتشيُّع الموافقِ لمذْهبه ، فقال الصالح :

أتى ابن بنان بهتانهِ يحصّن بالدّين ما في يدَيْهِ

برئت من الرَّفض إلاَّ لَهُ ... وتُبتُ من النَّصْبِ إلاَّ عَلَيْه

وكان قدر المال ستّين ألف دينار ، فأخذ منه اثنَيْ عشَرَ ألفا ، وترك له الباقى . وقال نصير الدين محمد بن الإخميمىّ فى شيعىٍّ صُفِع بدمشق فى سوق علىّ :

تحبُّ عليًّا كما تدَّعى ... كذبتَ وخالقِ مخلوقِهِ

فلو كنتَ تَصدُق فى حُبِّه ... حماكَ من الصَّفْع فى سُوقِهِ

قيل : إنَّ جُعَيْفِران المُوَسْوِس كان يتشيَّع ، فقيل له يوما : أتشتُم فاطمة وتأخذ لك دِرهما ؟ فقال : لا ، إلاَّ أنِّى أسبّ عائشةَ وأباها ، وأعطونى نصفا .

وقيل يوما لبهلول : أيُّما أفضل ، أبو بكر أو علىّ ؟ فقال : أمَّا وأنا فى كِنْدةَ فعلِىّ ، وأمَّا وأنا فى بنى ضَبَّة فأبو بكر ؛ وكِنْدة فى الكوفة من غُلاةِ الرَّوافِض ، وبنو ضَبَّة أهلُ نَصْبٍ ، وهم أصحاب الجَمَل .

قال سليمان بن زبر[1] : اجتمعتُ أنا وعشرة من المشايخ فى جامع دِمَشق ، فيهم أبو بكر بن أحمد بن سعيد الطائىّ ، فقرأنا فضائلَ علىِّ بن أبى طالب رضىَ الله عنه ، فوثب علينا قريب من مائة يَضْربوننا ، ويَسْحبوننا إلى الوالى ، فقال لهم أبو بكر الطائىّ : يا سادة ، استمعوا لنا ، إنّما قرأْنا اليوم فضائلَ علىٍّ ، وغداً نقرأ فضائلَ أميرِ المؤمنين معاويةَ رضى الله عنه ، وقد حضرتْنى أبياتٌ فإن رأيتم أن تَسْمَعوها ، فقالوا له : هاتِ ، فقال[2] بَدِيهاً :

حُبُّ علىٍّ كلّه ضَرْبُ ... يَرْجف من خيفتِه القَلْبُ

ومَذهَبى حبُّ إمامِ الهُدَى ... يزيد ، والدِّين هو النَّصْبُ

مَن غيْرُ هذا قال فهوا مرؤٌ ... ليس له عَقْلٌ ولا لُبُّ

---

(١) م : « بن زيد » .   (٢) ط : « فأنشأ » .

والناس من يَنْقَدْ لأهوائهم يَسلَمْ ، وإلاَّ فالقفــا نَهْبُ

قال : فخلَّوا عنا ، فقال أبو بكرٍ الطائىّ : والله لا أقمتُ فى بلدٍ يجرى فيها ما جَرَى ، ثمَّ إنَّه خرج منها وسكن حِمْص .

قال الباخَرْزِىّ رحمه الله مصنِّف دُمْيَة القَصْر ، فى ترجمة علىِّ بن محمد الجَزَرىّ : وقع من بعض الجزائر إلى باخَرْز ، فارتبطَ بها للتأديب ، وبقىَ بين كُبَرائها موفورَ النّصيب ، وبلغ من الغلوّ فى التشيُّع مَبلَغًا حفزه حتى ادَّرَع الَّليل ، وشمَّر الذَّيل ، وشدَّ الأقْتاد ، وطَوى البلاد ، وأقام فى مُجاوَرة قبرِ معاويةَ بالشام سنةً جرداء [٢] ، يطوف ببُنيانه ، ويتبرّك باستِلام أركانه ، ووراء تملّقه ذلك أمر ، وخَلَل رِماده وَمِيضُ جَمْر ، ولم [يزل] [٣] ينتهز الفُرْصة حتى خلا وجهُه يوماً من الأيَّام ، وانقضَ عنه بعض هؤلاء الأقوام ، فنفَض على القبر عيابه ، وأسال فوقه مزرابه [٤] ، وألقى به جَنِيئَه ، وخَلَط بذى بطنِه طينَه ، وخرج منها خائفا يترقَّب ، قال ربِّ نجنى من القَوْم الظالمين . وفى هذا المعنى يقول :

رأيتُ بنى الطوامثِ والزَّوانى بَمَقْتٍ يَنظرون إلىَّ شَزْرَا
لأنِّى بالشآمِ أقمتُ حَوْلا على قبرِ ابنِ هند كنتُ أخْرَى

انتهىَ ما أوْرَده الباخرزِىّ .

وقلت أنا ردًّا على هذا الشاعر الأحمق أخزاه الله تعالى :

أتَحْسَب أن ذا يُرْضِى عليًّا عليك وقد خَرِيتَ جُزِيتَ شَرًّا
وكيف يكونُ وَجْهُك يوم تأتى غداً ، ويقالُ هذا وجه خَرَّا

---

(١) دمية القصر ٥٢ .
(٢) فى الأصل ؛ د : « جوداء » وما أثبته من الدمية
(٣) من الدمية
(٤) كذا فى الدمية .

ولكن كانَ هذا نقصَ عقلٍ ودينٍ ، من تحرّى ماتجرّا

* * *

٦٣ — وقوله : ولا أزمعتُ يأساً منك ، مع ضمان تكفّلتْ به الثقة عنك .

قال الخليل : أزمَعْت على أمرٍ فأنا مُزمِعٌ عليه ، إذا ثبّتَّ عليه عزمَكَ .

وقال الكسائىّ : يقال : أزْمَعت الأمْر ، ولا يقال : أزمَعْت عليه .

واليأس ضدُّ الطمع . وتكفّل تفعّل من الكفالة ، وما أحسنَ قولَ أبى العتاهية :

ولربّما استيأستُ ثمّ أقولُ لا إنّ الذى ضَمِن النّجاحَ كَريم

وقولَ آخر :

لا زلت أسمع كَمْ من واثق خجلٍ
حتّى ابتليتُ فكنتَ الواثقَ الخجِلا

وقال أبو بكر الخوارزْمىّ :

رمَيْتُ بك الأعداء عن قوْسٍ غنيةٍ
وأصبح حبّ الناسِ منّى مطلّقا
وصغّرت عندى الخلقَ حتّى حسِبْتَنى على كلّ من خاطبتُه متصدّقا
وكنتُ متى أنقل إلى أهل مجلسٍ ثنا مجلسٍ من فيك قمت مصدّقا
وكنت متى ما أروعتك قصيدة غدوتُ بها أصفى نشيداً وأحذقا
وكنتُ إذا استفتحتُ باسمِك سفرةً
تطايرَ عنّى نحسُهـــا وتفرّقا

وكنت متى أذكرك والكأس فى يدى
صفت ، وغــــدا الداذىّ فيها معتّقا[1]
وكنت متى أحسُدْ غنيًّـا على الغنى
ذكرتُك سرًّا واستطلْتُ لك البقـا

وقال ابن الخيّاط الدّمشقى :

أبعد تمسّكى بنداك دهراً وحبلُ نداك ليس له انصرامُ[1]
وكونى من دفاعك فى حصون منيعات الذّوائب لا تُرامُ
وأخذى منك ميثاقاً كريماً وعهدا ما لعُروته انفصامُ
ينال مُرادَه منى حسُودى ويمكن عادياً فىّ اهتضامُ

* * *

٦٣ — وقوله : وعَهْدٍ أخذه حُسنُ الظنّ عليك .

العهد لغةً الأمان ، واليمين والمَوْثِق والذّمّة والحفاظ والوصيّة ؛ والمراد به هنا المَوْثِق ، وقد استعار هنا الأخذ لحسن الظنّ عليه ، كأنّه تناول حسنَ ظنّه فيه ، وأخذه عليه ، واقتطعه منه ، وصار عندَه فى قبضته . وحُسنُ الظنِّ بالله أمرٌ قد ندَب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليه ، وحَثّ عليه ، فمن ذلك يقولُ الله تعالى : « أنا عندَ حسن ظنِّ عَبْدِى بى فليظُنَّ بى خيْرا » .

وقد روَى أبو نواس الحسنُ بنُ هانِئ عن حمّاد بن سلَمة ، عن ثابت البُنانىّ عن أنس بن مالك قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «لا يموتَنَّ أحدُكم حتّى يُحسِن الظنَّ بالله ، فإنّ حُسنَ الظّنّ بالله ثمن الجَنّة » .

ورُوِى عن بعضِ أهلِ البيت رضى الله عنهم أجمعين ، أنّه قال عند نزاعه ،

---

(١) الداذى : نبت له حب مثل الشعير يتخذ منه شراب مسكر .

يابنيّ ، اقرءوا عليّ شيئاً من الرُّخَص حتى ألقى الله تعالى ، وأنا أُحسن الظن به .

وقوله تعالى : ﴿ وأَوْفُوا بالْعَهْد إن العهد كان مَسْئُولاً ﴾[١] كلّ عَقْد من العقود مِثل عقد البَيْع والشّرِكة ، وعَقْد النَّذْر واليَمين ، وعَقْد الصُّلح ، فإنّه يَجب الوفاء بأيّ شيء وَقَع من هذه العقود ممّا يَجْرِى ذلك بين إنسانَيْن ، إلاّ إذا دلّ دليلٌ منفصِلٌ على أنه لايَجِب الوفاء به .

وقولُه : ﴿ إنّ الْعَهْدَ كان مَسْئُولا ﴾ ، أى مطلوباً من المُعاهد ألاّ يُضَيِّعه ، وقدأخرجَه مُخْرج ﴿ وإذا الْمَوْءودَةُ سُئِلَتْ ◉ بأىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[٢] ، هذا سؤال لها ، هو تقريع لِمَنْ وأَدَ البَنات .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإذ قالَ اللهُ ياعيسَى بنَ مريمَ أأَنْتَ قلتَ للنّاسِ اتَّخِذونِى وأُمِّىَ إلَهيْن مِن دُون الله قال سُبْحانك ﴾[٣] هذا سؤال له ، وهو تقريعٌ فى الباطن لمن اعتقَد ذلك وتوبيخٌ له ، فكذلك سؤالُ العَهْد نفسه إنّماهو توبيخٌ لمن لم يَفِ به ومَن نَكَثه ، وإلاّ فالعَهْد نفسُه غيرُ مسئولٍ قَطْعا .

أنشدَنى لنفسِه إجازةً شيخُنا العلاّمةُ شهابُ الدِّين محمود رحمه الله ، ومِن خطِّه نقلتُ :

قيل ما أعْدَدْتَ للحَتْفِ ، وقد جئْتَ مَحَلَّهْ
قلتُ أعددتُ مع التوحيدِ حُسنَ الظَّنّ باللهْ

وقلتُ أنا فى ذلك :

ثمَنَ الجنّة حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالَى
فهوَ عندى رأسُ مالِى أشترِى ممّا تَعالَى

(١) الإسراء ٣٤ . (٢) التكوير ٨ .
(٣) سورة المائدة ١١٦ .

وقال عبد الصمد[١] بن بابك :

أصبحتُ ذائقةً بالوفرِ منك وإن قال العواذلُ ظَنٌّ ربّما كذبا
إنّ المنى ضَمِنت عنكَ الغنى فأجبْ
فالبحرُ يمنح فضلَ الرّىّ من شَرِبا
فحُسْنُ ظنّىَ[٢] استوفى مدى أملى وحُسنُ ذلك لم يُبقِ لى أربَا

وما ألطفَ قولَ السّراج الورّاق :

أقولُ وكَفّى على خَصْرِها وقد كاد يخفى سَقاماً عَلَىّ
أخذتُ عليكَ عهودَ الهوَى وما فى يدى منكَ يا خَصْرُ شَىْ

ومن قول ابن زيدونَ رحمه الله تعالى : «ووالله ماغشَشْتُك بعد النصيحة ..» إلى قوله : «وعهد أخذه حُسنُ الظّنّ عليك» ، ممّا تسميه العرب وأربابُ البديع : الاستقصاء ، وهو أن يتناول البليغ معنًى فيستقْصيه ، ويأتى فيه بجميع عوارضه ولوازمِه ، وأوصافِه الذاتيّة ، ولا يترُك فيه لمن بعدَه ممّن يتأمّله فضلة . وكذا فعل ابنُ زيْدون رحِمه الله تعالى لما أراد أن يتبرّأ عند ابنِ جهْوَر من الذّنوب ، فقال : ماغشَشْتُك ، ولا انحرفْت عنك ، ولا نصبتُ لكَ ، ولا أزمعْت يأسا منك ، مع ثقتى بك ، وحُسْنِ ظنّى بك .. فقد استقصى فى التبرّى من الذّنوب التى يتوهّم وقوعها ، ولم يرض بذلك حتى قال : ومع براءتى من ذلك أنا لم أيأس منك لحسن ظنى فيك ؛ وهذا [كمال الاستقصاء][٣] لذلك ، حتى يقرر وجوب الرحمة له ، والعاطفة عليه . ومن أحسن ماورد فى الاستقصاء ، قوله

---

(١) ط : «عبد الملك» (٢) ط : «ظن» .
(٣) من ط و د

تعالى: ﴿أيودُّ أحدُكُمْ أن تكونَ لَهُ جَنّةٌ من نخيلٍ وأعناب﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿فاحترقتْ﴾؛ لأنه بعد قوله: ﴿جَنّةٌ﴾، لو اقتصر على ذكرها لكان كافيا، فلم يقف عند ذلك حتّى قال: ﴿مِنْ نَخيلٍ وَأعناب﴾، لأنّ الجنّة تُطلق على كلّ شجرٍ يستر بظلّ ورقِهِ الأرض. فإذا قال: ﴿مِنْ نَخيلٍ وَأعناب﴾ كان مُصابُ ربّها أعظم. ثمّ لم يقف عند ذلك حتّى قال: ﴿تَجري مِن تحتِها الأنهارُ﴾، متمما لوصفها بذلك، ثمّ كَمّل وصفَها بعد التتميمين، بأن قال: ﴿لَهُ فيها مِنْ كلِّ الثّمراتِ﴾؛ وذلك لمّا عَلِمَ أنّ الاقتصار على وصفها بالنّخيل والأعناب، لا يكون ذلك وصفاً كاملا، فأتى بكل ما يكون فى الجنّات ليشتد الأسف على فسادها. ثم قال فى وصف صاحب الجنّة: ﴿وأصابه الكِبَرُ﴾. ثمّ استقصى المعنى فى ذلك بما يُوجِبُ تعظيمَ الجنّات بقوله بعد وصفه بالكبر: ﴿وله ذُرّيّةٌ﴾. ولم يقف عند ذلك حتّى وَصَفَ الذّرّيّة بالضّعف. ثم ذكر استئصال تلك الجنّة ـ التى ليس لهذا الّذى أصابه الكبر وليس لذرّيّته الضّعفاء غيرُها ـ بالهلاك فى أسرع وقتٍ، حيث قال: ﴿فأصابها إعصارٌ﴾؛ فلم يقتصر على ذكر الإعصار للعلم بأنه لا يحصُل به سرعةُ الهلاك، فقال: ﴿فيه نارٌ﴾. ثمّ لم يقف عند ذلك أيضاً حتّى قال: ﴿فاحترقَتْ﴾؛ لاحتمال أن تكون النارُ ضعيفةً لا تقوم بإحراقها لما فيها من الأنهار ورُطوبة الأشجار، فاحترز عن هذا الاحتمال بقوله: ﴿فاحْتَرَقَتْ﴾.

ومن أحسن ما وقع فى الاستقصاء قول ابن الرومىّ:

وحديثُها السِّحرُ الحلالُ لو أنّهُ ... لَمْ يَجْنِ قَتْلَ المُسلِمِ المتحرّزِ[2]

---

(١) سورة البقرة ٢٦٦.

(٢) أمالى القالى ١ : ٤٨.

إنْ طالَ لم يُمْلَلْ وإنْ هِيَ أوْجَزَتْ ... وَدَّ المحدَّث أنها لم تُوجِزِ

شَرَكُ العُقُولِ ونُزْهَةٌ ما مِثْلُها ... للمطمئنّ وعُقْلَةُ المستوفِزِ

ومن الاستقصاء قصيدةُ ابن الرُّوميّ القافيّة ، التى يصف فيها الجاريَةَ السَّوْداء ، منها قوله :

أكسبها الحبُّ أنها صُبِغَتْ ... صبغةَ حَبِّ القلوبِ والحَدَقِ

فإنّه استقصى فيها جميع ما تُوصَف بهِ السَّوْداء من المحاسن .

ومنه[1] قصيدةُ القاضى ناصح الدين أبى بكر أحمد الأرّجانيّ فى الشَّمْعة التى أوّلها :

نَمَّتْ بأسرار ليلٍ كان يُخْفِيها ... وأَطْلَعَتْ قَلْبَها للناس مِن فيها[2]

فإنّه اسْتَقْصى فيها جميعَ ما تُوصَف به الشَّمعةُ من المَحاسِن .

* * *

٦٤— وقوله: فَفِيمَ عَبَثَ الجفاء بأذمّتى .

ففيمَ أصلُه : «ففي ما» ، وهذه ما الاستفهاميّة ، إذا دخلتْ عليها حروفُ الجرّ حُذِفَتْ ألفُها ، فيقال: علامَ ، وإلامَ ، وعَمَّ ، ومِمَّ .

قيل : إنّ بعضَهم قال لبعض الأفاضل : بِمَ تُوصِيني ؟ فقال : بتَقْوَى الله ، وإسقاطِ الألف .

وقوله : «أذِمّتي» جمعُ ذِمام ، مِثْل زِمام وأزِمّة ، وسِنان وأسِنّة ، والذِّمام والذِّمّة : الحُرْمة .

---

(١) ط « ومن الاستقصاء » .

(٢) ديوانه ٤٢٥ .

وكانت العربُ تُراعِي أمرَ الذِّمّة ، وتُحافِظ عليه ، ويتوخَّوْن الوفاءَ به ، ولو جَرَت الدِّماء ، وقامت الحُروب ودامتْ ؛ فمن ذلك أمرُ كُلَيْب وائل ، فإنّه كان يقول : قد أجَرْتُ وَحْشَ صحراءَ كذا وكذا ، فلا يَتعرّض له أحد ، ولا يُقدِم على صَيْد ذلك الوَحْش أحدٌ أبدا ، وكان يَمنَع أن ترد إبلُ أحدٍ مع إبلِه حتّى تَصدُرَ إبلُه ، ثمّ تَرِد إبلُ الناسِ بعد ذلك ، ولذلك قال عبد الله ابنُ محمد بن ورقاء الشَّيْبانيّ من قصيدته المشهورة :

وعِزُّ كُلَيْبٍ كان أحدوثةً بها ... تَبَنَّى من العِزِّ الأصيلِ المبانيا
يُجيرُ وحوشَ البِيدِ من أن تَصيدَها ... رجالٌ ويَحمِي للوُحوش الصَّحارِيا
ويَختَصِر الوِرْدَ المُباح فتنْتَهي الـ ... جماعةُ عمّا عنه صَرّح ناهيـــا

وعمرو بن سكن بن سليمان ، قَتَل أخاه وفاءً لجاره[1] الكلابيّ ، حتّى قال شاعرُ بني شَيْبان :

قَتلْنـا أخانا بالوَفاء لجارِنا ... وكان أبُونا من تجير مقابِرُهْ

وقال غيرُه يردّ عليه بما فعلوا :

تَعُدُّ معاذراً ليست بشيء ... ومن يَقْتُلْ أخاهُ فقـد ألاما

وقصة السَّموءل بن عادياء مع الحارث بن أبي شمر وقتْل ولده بسببه أَدْرُعَ امرئ القيس ، ولم يَدْفَع الأَدْرُع ، وذبح ولدَه ، وهو يشاهده من الحصن .

---

(١) ط : « بجاوره » .

ومن ذلك ما ذكره صاحبُ الأغانى[1] ، قال : كان المهلّب بن أبى صُفْرة بخراسان ، فخرج إليه زياد الأعجم فمدحه ، فأمر له بجائزة ، وأقام عنده أياما ، قال : فإنّا العشيّة نشرب مع حبيب بن المهلّب فى دارٍ له وفيها حمامةٌ ، إذ سجعَتْ الحمامة ، فقال زياد فيها :

تَغَنَّىْ ، أنتِ فى ذِمَمِى وعهدِى ‏ ‏ ‏ وذِمّةِ والدى ألاّ تُضارى[2]

وبيتِكِ أصلِحيه ولا تَخافِى ‏ ‏ ‏ على صُغْرٍ مُزَغّبةٍ صِغارِ

فإنكِ كلّما غنّيْتِ صَوْتا ‏ ‏ ‏ ذكرتُ أحبّتى وذكرتُ دارى

فإمّا يقتلوكِ طلبتُ ثأراً ‏ ‏ ‏ له نبأ لأنكِ فى جِوارِى

فقال حبيب : ياغلام ، هاتِ القَوْس ، فقال له زياد : وما تصنع بها ؟ قال : أرمى جارتَك هذه . قال : والله لئن رمَيْتَها لأستعدينّ عليك الأمير ، فأُتِىَ بالقوس فنزعَ فيها سَهْما فقتلها ، فوثبَ زياد ، ودخل على المهلّب ، فحدّثه الحديثَ وأنشدَه الشعر . فقال المهلّب : علىّ بأبى بِسْطام ، فأُتِىَ بحبيب ، فقال له : أعطِ أبا أُمامةَ دِيَةَ جارتِه ألف دينار ، فقال : أطالَ الله بقاء الأمير ! إنما كنت ألعب . فقال : أعطه كما أمرْتُك[3] ، فأعطاه ، فقال زياد :

فللهِ عيْنَا من رأَى كقضيّةٍ ‏ ‏ ‏ قضى لى بها قَرْم العِراق المهلّبُ

رَماها حبيبُ بنُ المهلّب رَمْيةً ‏ ‏ ‏ فأثبتَها بالسَّهم والسّهم يَغرُبُ[4]

فألزَمه عقلَ القتيل ابنُ حُرّةٍ ‏ ‏ ‏ وقال حبيبٌ : إنما كنتُ ألعبُ

فقال : زيادٌ لا يُرَوَّعُ جارُه ‏ ‏ ‏ وجارةُ جارى مثلُ جارى[5] وأقربُ

قال : فحمَل حبيبٌ إليه ألف دينار على كُرْه منه ؛ وإنه ليشرب يوماً مع حبيب إذ عربد عليه حبيب — وقد كان حبيب اضطغن عليه مما جرى

(١) الأغانى ١٥ : ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٢) الأغانى : « إن لم تطارى » .

(٣) الأغانى : « آمرك » .

(٤) أثبتها : « قتلها فى مكانها » .

(٥) الأغانى : « مثل جلدى » .

فأمر بشق قَباءِ ديباج كان عليه ، فقام وقال :

أَعَمْرُكَ ما الدِّيباجَ خَرَّقْتَ وحدَهُ ولكنّما خَرَّقْتَ جِلدَ المهلَّبِ

فبعث المهلّب إلى حبيب فأحضره ، وقال : صدَق زياد ، ما خَرَّقتَ إلاّ جلدى ، فدعه يهجونى[1] ! ثمّ طلب زيادا ، وسَلّ سَخِيمَتَه ، وأمرَ له بمالٍ وصرَفَه .

وقال أبو هلال الحسنُ بنُ عبدالله بن سهل العَسكرىّ : أخبرنا أبو أحمد ، أخبرنا أبو الحسن البَرْمكىّ ، أنبأنا أحمد بن جعفر : حدّثنى محمد بن ناجية الرُّصافِىّ ، قال : كنتُ أحدَ من وقع عليه التُّهمة أيام الواثق بمالِ مصر ، فطلبنى السلطانُ طلبا شديدا حتّى ضاقت علىّ الأرضُ برَحْبِها ، فخرجتُ إلى البِلاد مُرْتادا رجلاعزيزاً ، منيعَ الدّار ، أعوذُ به ، وأَنْزِل عليه ، حتّى انتهيتُ إلى بنى شيبان بن ثعلبة ، فدفعت إلى بيت مشرف بظهر رابية ، وإلى جانبه فَرَسٌ مَرْبوط ، ورُمْح مركوز ، يَلمَع سنانُه ، فنزلتُ عن فرسى ، وتقدّمتُ فسلّمتُ على أهلِ الخِباء ، فردَّ علىَّ نساءٌ مِن وراء السِّجْف يرمقْنَنِى من خَلَل السّتور ، بعيونٍ كعيونِ أَخْشاف الظِّباء . فقالت إحداهنّ : اطمئنّ ياحَضَرِىّ . فقلت : وكيفَ يطمئنّ المطلوب ، أو يَأْمَن المَرْعوب ، وقلّما يَنْجُو مَنِ السُّلطان طالِبُه ، والخوفُ غالبُه ، دون أن يأْوِىَ إلى جبلٍ يَعصِمه ، أو مَعقِل يَمنعُه ! فقالت : ياحَضَرِىّ ، لقد ترجم لسانُك عن قلبٍ صغير ، وذَنْب كبير ، وقد نزلتَ بفِناء بيتٍ لا يُضامُ فيه أحد ، ولا يَجُوع فيه كَبِد ، ما دام لهذا الحىّ سَبَدٌ أو لَبَد . هذا بيتُ الأسوَد بن قنان ، أخوالُه كَلْب ، وأعمامه شَيبان ، صُعْلوكُ الحىِّ فى مالِه ، وسيّدُهم فى فعالِه ، لا ينازَع ولا يدافَع ، له الجُوار ،

---

(١) الأغانى « تبعث هذا على أن يهجونى » .

وموقد النار ، وطَلَب الثار ، وبهذا وصفته أمامةُ بنتُ الجُلاح الكلبيّة حيث تقول :

إذا شئت أن تلقى فتى لو وَزنْتَهُ بكلِّ مَعَدِّيٍّ وكلِّ يمانِ
وَفَى بِهِمُ جُوداً وحلْما وسُؤدَدًا وبأساً ، فهذا الأسودُ بن قنانِ
فتى كالفتاةِ الرُّؤدِ يُسفر وجهُه كأنّ تلألي وجهه القمرانِ
أغرُّ أبرُّ ابنَيْ نِزارٍ وبعرُبٍ وأوثقهم عَقْدا بكلّ مكانِ
وأوفاهمُ عَهْدا وأطولهُمْ يَداً وأعلاهمُ فعْلا بكلّ مكان
وأضربُهُمْ بالسّيف من دونِ جارِه وأطعنهم من دونِه بسنانِ
كأن العطايا والمنايا بكَفِّه سَحابانِ مقرونانِ مُؤْتلفان

فقلت : الآن ذهبتْ عنّي الوَحْشة ، وسكنتْ عنّي الرّوعة ، فأنّى لى به ! فقالت : ياجارية ، اخرجي فنادِي مولاك . فخرجَتِ الجارية ، فما لبثتْ إلا هنيهةً حتّى جاءت وهوَ معها فى جَمْع من بنى عمّه ، فرأيتُ غلاما قد اخضرّ شاربُه ، واختطّ عارضُه ، وخَشُن جانبُه ، فقال : أىّ المقيمين علينا أنتَ ؟ فبدرت المرأةُ فقالت : يا أبا مرهف ، هذا رجلٌ نَبَتْ به أوطانه ، وأزعجه سُلطانُه ، وأوحشَه زَمانُه ، وقد أحَبّ جِوارَك ، ورَغب فى ذمّتك . وقد ضَمِنّا له ما نَضْمَن لمثله على مثلك . فقال : بَلْ اللهُ فاكِ ! قال : فأخَذَ بيدِي ، وجلس وجلستُ ، ثم قال : يابنى أبى وذوِى رَحمى ، أُشهدكم أنّ هذا الرجلَ فى ذِمّتى وجِوارى ، فمن أرادَه فقد أرادَنى ، ومن كادَه فقد كادنى ، وما يلزمنى فى أمرِه من حالٍ إلاّ ويَلزمُكم مثله . فليَسمع الرَّجلُ منكم ما يَسكُن إليه قلبُه ، وتطمئنُّ إليه نفسُه . فما سمعتُ جوابًا قطُّ أحسنَ من جوابهم ، قالوا بأجمعهم : ما هى بأوّلِ مِنّةٍ مَنَنتَ بها علينا ، ولا أوّل يدٍ بيضاء طوّقتنا بها ، وما زال أبوكَ قبْلَك فى

بناء الشّرَف لنا ، ودَفْع الذّمّ عنّا ، فهذه أنفسنا وأموالنا بين يديك ، ثم ضرب لى قُبّة إلى جانب بيته ، فما زلتُ عنده عزيزا مَنِيعا حتّى صنح لى من السلطان ما أمّلت ، فانصرفتُ إلى أهْلى .

وكان حارثة بنُ مُرَّة يُسمّى مُجيرَ الجَراد ، وذلك أنّه نزل بِفنائه جراد ، فغدا الحىّ[1] إليه ليدْفعوه عنهم ، فمَنعهم ، وقال لهم : ما تريدون منه ؟ قالوا : قتْله ، لأنّه نزل بجوارك ، فقال لهم : أمّا إذ سمّيْتموه جارى ، فوالله لا تصِلون إليه أبدا ، وطرَدَهم عنه .

وكان ثَوْرُ بن شَحْمَةَ العَنْبَرىّ يسمّى مُجيرَ الطَّيْر ، وكانت الطّير لا تُصاد بأرضه ولا تُثار .

والّذى وقع فى عصرِنا أيضا ، وهو أنّ الأمير شمسَ الدين قَراسُنْقُر لمّا هَرَب من المَلِك الناصر محمد بن قلاوون ، ترك رفاقه وجماعته لما وصل إلى قريب من بيوت مُهنّا بن عيسى ، وقال : قفوا هنا ، ولا يَجِئ منكم أحد . وتوجّه هو إلى البيوت ، فقصَد بيتَ مهنّا ودخل إلى كاملة أمّ أحمد ، زَوج مهنّا ، فرفع ثوبَها برأسه ، ودخل برأسه تحته ، وقال لها : الجِيرة ! فقالت : من أنتَ ؟ قال لها : قَراسُنْقُر ، فقالت : يا أبا محمد ، إنّ الله أجارك . ولم يزل عندها إلى آخِر النهار ، فحضر مهنّا من مصيده[2] ، فتلقّته أمُّ أحمد ، وقالت : ترى أبا محمد قد وصل إلينا وأنّنى قد أجرْته ، فقال : يا كاملة ، إنّ الله أجار من أجرْتِه . واجتمعوا وتلقّاه بكلّ بِشْرٍ وطيِّب خاطرَه . فلمّا حضر محمد أخو مهنّا ، ووَجَد قراسُنْقُر ، قال : يا مهنّا ، أبشر بالخير والسّعادة من المَلِك الناصر .

---

(١) ط : « فعدَى الحى عليه » .

(٢) فى الأصل : « تصيده » ، وما أثبتة من ط ، م

والله لنأخذنّ منه كلما أردنا ، فظهر لقراسُنْقر مَيْلُ مهنّا إلى كلامِ محمد ، فقال : يا كاملة ، إنى فى جيرتك ! فقالت : يامهنّا ، وأيش تتحدّث عنكَ العَرب غداً إلى يوم القيامة ، تجيرُ مِثْل قراسُنْقر ومن معه من الملوك ، وتَغْدِر بهم ! والله العارُ ولا النار . فقال : معاذَ الله ! إنِّى أجرْت من أجرته ، والله ماعاد يصل إليه أحدٌ بعدَ اليوم . فقال أخوه محمد : الأحدِ حرَمتَنا يا مهنّا نسيم الشام وبلادَه وخيرَه ! والله ما عادَ أحدٌ منّا يَرى الشامَ . فقال مهنّا : صار هذا الأمرُ وكان . فعندها عادَ قراسُنْقُر إلى جماعته ، وأحضر الأقرم والزَّردكاش ومن معهم ، وجاءوا ونزلوا فى بيُوت مهنّا ، وكتب من وقته إلى جرابند ملك التّتـار ، وقال : أحضرتُ ثلاثةَ ملوكٍ من ملوك الشام ، فجهِّز لهم الأمانات لأحضرَهم إليك ، فجهز ذلك ، وتوجّه بهم مهنّا ، وسلمهم لجرابند ، وبقىَ مهنّا لا يَدخُلُ الشام مدّة أربعٍ وعشرين سنة ، إلى أن توجّه بنفسه إلى السلطان الملكُ الناصر . ووَفَى بذمّته لقراسُنْقر ، وجرى عليه ماجرَى فى هذه المدّة من قَطْع إقطاعهم وإنعامه ، ومُنَا بَذْته لصاحب مصرَ .

* * *

٦٥ — وقوله : وعاثَ العقوق فى مواتّى .

عاث يعيث عيثا ، إذا فسد ، والعُقوق ضِدُّ البرّ ، يقال : عقّ والدَه وبَرّه . والمَواتّ بتشديد التاء ، جمع ماتّة ، وهى الحُرْمة والوسيلة ، يقال : فلان يَمُتّ إليكَ بقَرابة ، فالمواتّ : الوسائل .

يُروَى أنّ الحجاج جلس يوما لقَتْل أصحابِ عبدِ الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، فقام رجلٌ منهم فقال : أصلحَ الله الأمير ! إنّ لى عليك حقّا ، قال : وما حقُّك ؟ قال : سَبَّكَ عبدُ الرحمن يوما ، فرددتُ عنك ؛ فقال :

مَن يعلم ذلك؟ فقال: أنشُد اللهَ رجلاً سَمِع ذلك إلاّ شَهِد، فقام رجلٌ من الأسْرَى فقال: قد كان ذلك أيُّها الأمير، فقال: خَلُّوا عنه. ثمّ قال للشاهد: ما منَعَك أن تُنْكِر كما أنكَر؟ فقال: لقديم بُغضِى فيك! فقال الحجّاج: وليُخَلّ عنه لصِدْقِه.

دَخَل على الفَضْل بن يحيى يوما حاجِبُه، فقال: إنّ بالباب رجلاً يزعُم أن له سَبَبا يَمُتّ به إليك، فقال: أدخِلْه، فدَخَل شابٌّ حَسَنٌ رثُّ الهَيْئة، فسلّم، فأومى إليه بالجلوس فجلس، فقال له بعدَ ساعة: ما حاجتُك؟ قال: أعلمَتْك بها رَثاثةُ حالِي، قال: نعم، فما الذى تَمُتّ به؟ قال: وِلادَةٌ تقرب من وِلادتِك، وجِوارٌ يَدْنو من جِوارِك، واسمٌ مشتقٌّ من اسمِك، فقال: أمّا الجِوار فيُمكِن، وأمّا الاسم فقد يُوافِق الاسمُ الاسمَ، ولكنْ مَن أعلمَك بالوِلادة؟ قال: أخبرَتْنى أمى أنّها لمّا وَلَدَتْنى، قيل لها: وُلِد فى هذه الليلة ليَحيَى بن خالدٍ غلام، وسمّاه الفَضْل، فسمّتنى أمّي فُضَيلاً إكباراً لاسمِك أن تُلحِقَنى به، وصغّرَتْه لصِغَر قَدْرِي عن قَدْرِك. فتبسّم الفَضْل وقال: كم أتَى عليكَ من السِّنين؟ قال: خمسٌ وثلاثون سنة؟ قال: صدقتَ هذا القدر أعدّ، قال: فعلت أمُّك؟ قال: ماتتْ، قال: فما منَعك من اللحوق بنا قديما؟ قال: لم أرَ من نفسى للقائك لأنّها كانت فى عاميّةٌ معها حَداثة تمنعُني من الانحاق[1] بالملوك، وعَلِق هذا بقلبي منذُ أعْوام، فشُغِلت بما يَصلُح للقائك حتّى رضيتُ عن نفسى، قال: فما تَصلُح له؟ قال: للكبير من الأمر والصّغير، قال: يا غلام، أعطِه لكلّ سنةٍ مضتْ من سنيه ألف درهم، وأعطِه عشرةَ آلاف دِرهم، يَتحمّل بها إلى وقتِ استعماله. وأعطاه مَرْكوبا سَرِيًّا.

---

(١) ط: « اللحوق ».

وقد رُوِى عن جابر بن عبدالله، أنه قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يارسولَ الله، إنّ أبى أخذ مالى، فقال صلى الله عليه وسلم: اذهبْ فأتنى بأبيك. فنزل جبريلُ عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يُقرِئك السلام، ويقول لك: إذا جاءه الشيخُ فَسَلْه عن شىء قالَه ما سمعتْه أذُناه، فلمّا جاء الشيخُ قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: ما بالُ ابنِك يَشْكوك؟ أتُريد أن تأخُذَ مالَه! فقال له: سَلْه يارسولَ الله: هل أنفقْتُه إلاّ على عمّاته أوخالاته، أو على نفسى! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: أيُّها الشيخ، دعْ عنك هذا، أخبِرْنى عن شىء قُلتَه فى نفسِك ماسمعتْه أذُناك! فقال الشيخ: يا رسولَ الله، ما زالَ اللهُ يزيدُنا بكَ يقينا، لقد قلتُ فى نفسى شيئا ما سمعتْه أذُناى، فقال: قل: فأنا أسمع، فقال:

غذَوْتُك مولوداً وعُلْتُك يافعاً ... تُعَلُّ بما أحنو عليكَ وتَنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضافَتْك بالسُّقْم لم أبِتْ ... لسُقْمِك إلاّ ساهِراً أتَمَلْمَلُ
كأنى أنا المطروقُ دونَك بالذى ... طُرِقْتَ به دُونى، فعَيْنِى تَهْمُلُ
تخافُ الرَّدَى نفسى عليكَ وإنّها ... لَتَعلم أنّ الموتَ وقتٌ مؤجَّلُ
فلمّا بلغتَ السّنّ والغايةَ الّتى ... إليها مَدَى ما كنتُ فيك أُؤمِّل
جعلْتَ جزائى غِلْظَةً وفَظاظَةً ... كأنّكَ أنتَ المنعِمُ المتفضِّلُ
فَلَيْتَك إذْ لم ترْعَ حَقَّ أبُوّتى ... فعلتَ كما الجارُ المُجاوِرُ يَفعَلُ

قال: فحينئذ أخذ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بتَلابيبِ ابنِه، وقال: «أنتَ ومالُكَ لأبيك» (١)

* * *

(١) الحديث والخبر والشعر فى كشف الخفا ومزيل الإلباس ص ٢٠٧، نقله عن البيهقى فى الدلائل.

٦٦ — وقوله: وتمكّن الضّياعُ من وسائلي!

الوَسائل: جمع وسيلة، وهى ما يُتقرّب بها إلى الغَيْر، وما أحسَن قوله: «وتمكّن الضّياع»، كأنّ الضياع شيء ثبت واطمأنّ وشَدّ أواخيه، وأحكمَ عَقْده، حتّى لم يَعد يُرجى زَوالُه، ولا يُطمَع فى مَحْوِه. وما أحسن قولَ ابنِ الخيَمىّ:

كلّ الشدائد دونَ ما يُفضِى إلى إسخاطِ مثلِكَ، فهو ممّا يَسهُلُ
لستَ المَلومَ إذا هَجَرتَ ولا أنا أيضا على طلبى وصالك أُعذَلُ
إنْ لم يكن منك الحُنُوُّ وسيلةً منّى، بأيّةِ حالةٍ أتوسّلُ!

وقول أبى سعيد محمد بن محمد الرُّسْتَمىّ:

إذا لم تكنْ لى أنتَ عَوْنا ومُعديًا
على الزّمنِ العادِى علىّ فقلْ مَنْ لِى!
فمالى رجاءٌ فى سواكَ ولا يُرَى يُمِرُّ قَريضى عند غيرك أو يُحْلِى
وهل بارقٌ يُشتَامُ إلاّ من الحَيَا وهل عَسَلٌ يُشتَارُ إلاّ من النّحْلِ!

وما أحسنَ قولَ ابن التّعاويذىّ يمدح القاضى الفاضل:

فاستجْلِ أبكارَ المديح عَرائساً أبدَيْنَ زينَتهنّ غَيْرَ عواطلِ (١)
أبرزْتُهنّ على عُلاكَ سَوافِرا وجَعلْتُهُنّ إلى نَداكَ وَسائلى
فاجلسْ لها وارفع حجابَك دونها واسْمعْ إلى إنشادها وتطاولِ
واعرف لها تأميلها يامن يرى كرماً على المأمول حق الآمل

وقد خالفت الناس فى التوسّل وقلت:

أردتُ حِلْمَك يبدُو إذْ كانَ ذنبِىَ هائِلْ
فهل رأيت خلافى خلّى الذّنوب وسائِلْ

* * *

(١) ديوانه ٣٣٥.

٦٧ — وقوله : ولِمَ ضَاقتْ مذاهبي، وأكْدَتْ مطالبي !

لِمَ ضاقت ، استفهامٌ عن العِلّة فى ضيق مذاهبِه ، كأنه قال : ولأىّ علة ضاقتْ بِيَ السُّبُل ، حتى ما أجد مضطربا !

والمذاهب : الطُّرُق ، واحدها مذهب . وذهب فلانٌ مذهبا حسنا ، أى اختار طريقًا حسنًا. وأكْدَتْ ، الإكْداء المَنع ، من قوله تعالَى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾[١] ، أى ومنع القليل . وأكْدَى الحافر ، أى بلغ الكُدْية من الأرض ، فلم يمكنه أن يحفِره بعد ذلك ، وأكْدت الأرضُ إذا أبطأ نباتُها .

وقال بعضُ الأعراب :

لقد بَخِلَتْ حتّى لو أنّى سألتُها
قذَى العَيْن من ضاحِي التُّراب لَضنّتِ
فإنْ بَخِلَتْ ، فالبُخْل منها سجيّةٌ
وإن بَذَلَتْ أعطت قليلاً وأكْدَتِ

وما أحسنَ قول شرفِ الدين بن عُنين :

وأقبلتُ أجتابُ البلادَ كأنني
قَذًى حالَ دونَ النَّوم فى أعينِ الرُّمْدِ
أكُدُّ ويُكْدِى الدهرُ لى كلَّ مطلبٍ
فيابؤسَ دَهْرِي ، كم أكُدُّ وكم يُكْدِي !

---

(١) سورة النجم ٣٤

وقال محمد بن أحمد الخيّاط الدّمشقيّ :

نفضتُ يدى من الآمالِ لمّا رأيتُ زِمامها بيدِ القضاءِ
وما تنفكّ معرفتى بحظّى ترينى اليأسَ فى نفسِ الرّجاء

وقال أبو إسحاق الغزّىّ :

فكيف على بخْتِى غفلتُ ولَمْ تشِمْ
غوادِيك غُفْلا ، وهى كاشفةُ المحْلِ
وما غاظنى إلاّ اطّراحُك حرمةً
شَكَتْ منك صدَّ العاشقين عن العَذْلِ

وممّا يناسب هذه الكلمات على الجملة دون التفصيل قولُ أبى العتاهِيَة :

تذكّرْ أمينَ اللهِ حقّى وحُرْمتى وما كنتَ تُولينى، لعلّك تذكُرُ
ليالىَ تُدْنِى منكَ بالقُرْب مجلسِى ووجهُك من ماء البشاشة يقطرُ
فمن لىَ بالعيْن التى كنتَ مرّةً إلىَّ بها فى سالِف الدّهر تنظُرُ !

وقال عبد الصّمد بن بابك :

ألاَ ياعامرَ الآمالِ مالِى أشيمُ الطّرفَ فى أملٍ خَرابِ !
أفوتُ مَطارِحَ الأمَلِ انتظاراً وأسرَحُ بين سُقْمى واغترابى
أُراعُ ولا أُراعِى والأمانى لَقًى بين اكتئابٍ وارتيابِ
وكم كسْرٍ جَبَرتَ فكان طَوْقاً على نَحْرِ الدُّعاء المُستَجابِ

* * *

٦٨ – وقوله : وعلام رضيتُ من المركَبِ بالتعليق ، بل من الغنيمةِ بالإياب !

هذان مثلان أوردهما يستفهم عن حالِه ، فقال ذلك . والمَثَل الأوّل لفظه : « ارضَ من المَرْكَب بالتّعليق »[١] . معناه أرضَ مِن عظيمِ الأمرِ بصَغيره ، وهو يُضرب فى القناعة بإدراك بعضِ الحاجة . والمَركَب هنا يجوز أن يكون بمعنى الرُّكوب ، أى أرضَ بدَلَ رُكوبك بتعليق أمتعتِك عليه ، ويجوز أن يراد به الركوب ، أى أرضَ منه بأن تتعلق به أمتعتك .

والمَثَل الثانى ، وهو قولهم : « قنِعت من الغنيمة بالإياب » ، أوّل من قالَه امرؤُ القيس نَظْما ، وهو :

وقد طَوّفْتُ فى الآفاقِ حتّى ... قَنِعْتُ من الغَنيمةِ بالإيابِ[٢]

وهو من قصيدةٍ أوّلها :

أرانا موضِعين لأمرِ غَيْبٍ ... ونُسحَرُ بالطّعامِ وبالشّرابِ

والإياب هو العَوْد والرُّجوع ، وهو مثل قولهم : قَنِع من الغنيمة بالسّلامة ، ومنه قول الطُّغرائىّ :

والدّهر يَعكِس آمالِي ويُقنِعنى ... من الغنيمة بَعْدَ الكَدِّ بالقَفَلِ

وهو أحسَن من الأوّل ؛ لأنّه زاد فيه قوله : « بعد الكَدّ » ، يعنى أنى قَنِعت من الغنيمة بعد ما كَدَدْت نفسِى وأتعبتُها بالقَفلِ ، وهو الرُّجوع . وقلتُ أنا ردًّا على الطُّغْرائىّ :

تقولُ « يَعْكِسُ آمالِي » وأنت كما ... تراه فى عالَمٍ فى التُّرْب مُستَفِلِ

أمَا ترَى الشمسَ تَلقى عكسَ مَقصِدِها ... فى كلّ يوم ، ولولا ذاك لم تقُلِ

(١) الميدانى ١ : ٣٠٠ ، قال : « أى ارض من عظيم الأمور بصغيرها ، يضرب فى القناعة بإدراك الحاجة » .

(٢) ديوانه ٩٩ .

وقلتُ في ذلك أيضا :

لا يَعجَب المرءُ لِعَكْسِ المُنى ما فِكْرُه في مِثلِ ذا نافِعْ
والأنجمُ السَّبعُ العُلا ما نجتْ من عكسِها بالفلكِ التاسِعْ

وقال عبدُ الله بنُ أبي عُيَيْنة :

إذا نحن أبْنَا سالِمين بأنفُسٍ كِرامٍ رجَتْ أمراً فخابَ رَجاؤها
فأنفُسُنا خيرُ الغنيمةِ أنها تئوب ، وفيها ماؤُها وحَياؤُها

وما أحسنَ قولَ أبي الطيِّب :

أغَرُّ ، أعداؤه إذا سَلِموا بالهرب استكثروا الذى فعلوا(١)

وقول البُحتريّ :

ولكنّني أغْلِي مَحَلّكَ أن أرَى مدِلاً ، وأستحيِيك أن أتعظَّما(٢)
وكان رَجائى أن أعودَ مُملَّكا فأضحَى رَجائى أن أعُودَ مسلَّما

وقلت أنا في معنى قول امرئ القيس : « قَنِعت من الغنيمة بالإيابِ » :

قنِعْتُ بالعَوْدِ إلى مَنزِلى وذاكَ دأبُ المرءِ في خيبَتِهْ
كالحجَرِ المُلقَى إلى صاعِدٍ ليس له همٌّ سِوَى عَوْدَتِهْ

وقد أخذتُه من قول أبي الطّيِّب :

وما أنا غيرُ سَهمٍ في هواءٍ يَعُود ولم يَجِد فيهِ امتِساكا(٣)

وقد اختلف أهلُ النظر في هذا الموضع ، فقال قوم : إنّ السّهم والحَجَر وغيرها إذا رمى به ، وصعد وتناهَى صعودُه ، كان له في آخِرصعوده لَبثة ، ثمّ يتصوّب منحدِرا .

(١) ديوانه ٢ : ٢١٣ ، وأغر خبر لمبتدأ محذوف ، أى هو أغر . (٢) ديوانه ٢٢٨
(٣) ديوانه ٢ : ٣٩٦ .

وقال آخرون: لا لُبث له هناك، وإنما أوّل وقتِ حُدوره آخرِ وقتِ صُعوده. والأوّل ذَهب إليه الرئيس أبو عليّ بن سينا، وقد أوضحتُ هذا في شرح لاميّة العجم في قوله: « والدّهر يَعكِس آمالي » ... البيت

* * *

٦٩ — وقوله: وأنّى غابني المغلّب، وفخر عليّ العاجز الضّعيف، ولطمتني غيرُ ذاتِ سِوار!

وهذه ثلاثة أمثلة من أمثلة العرب، فالأوّل من بيت شِعرٍ لامرئ القيس، وهو:

وإنّكَ لم يَفخَرْ عَلَيْكَ كفاخرٍ ضعيفٍ، ولم يَغلِبْكَ مِثلُ مُغلَّبِ (١)

يريد بذلك أنه أشدّ ما على الإنسان أن يَفخَرَ عليه فاخر ضعيف، وأن يغلبه مُغلّب، وهو المغلوب، وهذا من قصيدته التي أوّلها:

خليليّ مُرّابي على أمِّ جُنْدُبِ نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المعذَّبِ (٢)

وبعد البيت الأوّل:

وإنّك لم تَقطَعْ لُبانةَ عاشِقٍ بمثلِ غدوٍّ أو رواحٍ مؤوِّبِ (٢)

والبيت الأوّل كذا رويناه عن شيخنا العلّامة أثير الدين أبي حيان رحمه الله تعالى، صحّفه ابنَ زيدون، فقال: « وفخَر عليّ العاجز الضعيف »، فجَعَل ألفَهُ عينا مهملة، والخاء المعجمة جيما، والرّاء زايا، وهو تصحيف حَسَن، أفادَ المعنى قوّة لقوله: « العاجز الضعيف ».

---

(١) ديوانه ٤٤ . (٢) ديوانه ٤٠ .

وقول امرئ القيس :

وإنك لم يَغلِبْك مِثلُ مُغَلَّبِ .... البيت

قيل لأنّ المغلّب والعاجز الضعيف إذا قدَرا لم يُبقيا . وقيل: إنّ ذلك أشدُّ ذُلاًّ على المغلوب ، وهو الأقرب . وكان فى الشُّعراء الأقدمين ومَن بعدهم جماعةٌ غلبَهم مَن دُونَهم ، فإنّ نابغة بنى جَعْدة غَلَبَ عليه أوسُ بنُ مغراء القُريعىّ وليلى الأخيليّة ، ولم يكونا قريبين منه .

ومنهم الزِّبْرِقان بنُ بَدْر ، غلبه عَمرو بن الأَهتَم ، وواقعتُهما بين يدىْ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم مشهورة(١) .

وقال يونس بن حبيب : وكان الكميت مغلَّبا فى الشِّعر ، غلاَّبا فى الخُطَب .

ومن المغلَّبين فى الإسلام أيضا بَشَّار بنُ بُرْد ، غَلَبه حَمّاد عَجْرد ولم يكن من أكفائه ، وقد هجاه وأنكاه ، وممّا قال فيه :

له مُقلةٌ عَمْياء واسْتٌ بَصيرةٌ ... إلى الأَيرِ من تحتِ الثِّياب تُشيرُ
على ودِّه أنّ الحمير تَنيكُه ... وأنّ جميعَ العالَمين حَميرُ

وغلَبه أيضا أبو الشَّمَقْمَق ، وليس بقريبٍ منه ؛ وكان يُصانِعه فى كلّ سنة بمائتىْ دينار ، ومن قوله فيه :

هَلِّلِينَهْ هلّلِينه ... طعنُ قِثّاةٍ لتينَهْ(٢)
إنّ بَشّار بنَ بُرْدٍ ... تَيْسُ أعمى فى سفينَهْ

ومنهم علىُّ بنُ الجَهْم ، هجاه أبو السِّمْط مَرْوان بن أبى الجَنوب فغلبه ، وهو دونه ، وهجاه البُحترىّ أيضا ، فغلبه البُحترىّ ، وكان علىٌّ أقذع لسانا منه .

(١) انظر الخبر فى الميدانى ١ : ٢٧ (٢) الأغانى ٣ . ١٩٥ .

وأبو تمّام هجاه ابن المعذّل فغلبه ، وأبو تمام هو ما هو . وهجا ابن حجاج أبا الطيب ، فغلبه وأخرجه من بغداد .

وقولُ امرئ القيس : « ولمَ يَغلِبْكَ مِثل مُغلَّب » أخذه أبو تمّام الطائىّ فقال يصف الخمرْ :

وضعيفةٍ فإذا أصابتْ قُدْرةً فتكتْ كذلِكَ قُدرةُ الضُّعفاءِ (١)

وقال عُمارةُ اليَمَنىّ :

وارْحمتا منّى لِذِى جلدةٍ صحيحةٍ تحكّ بالأَجْرَبِ
من سَفَه الدّنيا ومِن لؤمِها جُرْأةُ مَغْلوب على أغْلَبِ

والمَثَل الثالث هو قولهُم: «لو غيرُ ذاتِ سِوَارٍ لطَمَتْنى» .

قال الأصمعىّ : هذا المثل يروَى على هذا الوجه ، وذلك أن حاتماً الطائىّ مرّ ببلاد عنَزة فى بعض الأشهر الحرُم ففاداه أسير لهم : يا أبا سَفّانة ، أكلنى الإسار والقَمْل ، فقال : ويحك ! أسأت أن نوّهت باسمى فى غير بلاد قومى . فساوم القوم فيه ، فقال : أطلقوه وحطُّوا يدَىّ فى القيد مكانه ، فجاءته امرأة فلطمته ، فقال : لو غيرُ ذات سوار لطمتنى ! يعنى أنّى لا أقتصّ من النساء ، فعرِف ، ففَدَى نفسه فِداءً عظيما . ومعنى المَثَل : لو لطمَنِى من كان كُفئاً لى لهَانَ علىّ ، ولـكن لطمَنى من هو دونى . وقيل: فى تفسيره : لو لطمتْنى حُرّة ، جَعَل السِّوار علامةً للحُرّة ؛ لأنّ العرب كانت قلّما تَلبس الإماءُ السِّوارَ ، ومن قول الشاعر :

ولو أنّى بُليتُ بهاشمىّ خُئولَتُه بنو عبدِ المَدانِ (٢)
لهَانَ علىّ ما ألقَى ولـكنْ تعالَوْا فانْظُروا بمَن ابتلانِى

---

(١) ديوانه ٣ .
(٢) لدعبل الخزاعى ، وانظر ديوانه ١٥٧

وقال الفرزدق :

وإنّ حرامًا أن أسُبّ مقاعِسًا ... بآبائىَ الشُّمِّ الكِرامِ الخضارِمِ
أولئك آبائى فجئنى بمثلِهمْ ... وأبعد أن أهجُو عبيدًا بدارِمِ
ولكنّ نصفًا لو سببتُ وسبَّنِى ... بنو عبدِ شمسٍ من مَنافٍ وهاشمِ

* * *

٧٠ — وقوله : وَمَالَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنِّى قَبْلَ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وتُدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمزَّقْ .

هذا الاستفهام معناه الإغراء والحضّ والحثّ على إنجاده ، والسّرعة إلى إنقاذه من هذه الشدّة .

وما أحسنَ قَول بعضِ العرَب يرثى قومَه :

وقدغادرونى بعدَهم لُحمَةَ العِدَى ... وطُعْمة ما تبغى الخُصومُ العوابِثُ
أُضامُ فلا يأوِى لضَيْمِىَ مانِعٌ ... وأُظلَمُ لا يأتى لصَوْبِىَ غائثُ
وأُعطى بِكَفِّى للقليلِ من الأذَى ... وقد كان يخشانى الألدُّ الماغثُ(١)
وحيدٌ بنفسى لا الأيامُ منزلا
كما أعتزَلَ النُّسكَ الإماءُ الطَّوامِثُ(٢)

وقال أبو سعيد محمّد بن محمّد الرُّستُمىّ :

فَخُذْ لىَ من أنيابِ دَهْرِى بعاجلٍ ... من النّصر دانٍ أكرمُ النّصرِ عاجلُه

وقوله : «وتُدرِكنى ولمّا أمزَّق» مأخوذٌ من بيت الممزّق العَبْدىّ ، وهو :

---

(١) الماغث : الرجل الذى يلاح الناس وبلادهم .
(٢) الطامث : المرأة الحائض .

فإنْ كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ
وإلا فأدرِكْني ولمّا أمزَّقِ(١)

وقد تقدّم في قصة عثمان بن عفّان رضى الله عنه ما كتب به إلى علىّ ابن أبي طالب رضى الله عنه، ومن جملته هذا البيت. وهذا البيت لشأس بن نهار العبديّ، وبه لقّب الممزّق، ولذلك قال عبّاد بن شأس بن نهار:

أنا المزِّقُ أعراضَ اللئام كما كان الممزّقَ أعراضَ اللّئام أبي

ومن كلام القاضي الفاضل رحمه الله تعالى: فلولا أنّ الأيلَ كان يستغيث بدُجاه، وأدرَكني بالرّجاء ولمّا أمزّق، والنّهار أنضجني بالنِّداء ولمّا أُخَرّق، لكان الزمن في زمنه قد خلَع الجديدين، ولم تميّز العينُ فيه بين الخيطين.

وحُكي أن المُجَيرَ السَّلُولي هجا قوما من بني حنيفة، فأقاموا عليه البيّنة عند نافع بنِ علقمة الكِنانيّ، فأمَر بطلبه ليقيم عليه الحدّ وقال لهم: إن وجدتموه فأقيموا عليه في ملإٍ من الناس يشهدون، لئلا يدّعى عليهم تجاوُزُ الحدّ، فهرب المُجَير ليْلا حتى أتى نافعا، فوقَف له متفكرا حتى خرج من المسجد، ثم تعلّق بثوبه، وقال:

إليك سبَقْنا السَّوْط والسِّجنَ تحتَنا حِيالٌ يُسامِين الظِّلالَ ولُقَّحُ(٢)
إلى نافعٍ لا نرتجى ما أصابَنا تحومُ علينا السّانِحاتُ وتبرح
فإن كنتُ مجلودا فكنْ أنتَ جالدي
وإن أكُ مَذْبوحا فكنْ أنتَ تذْبَحُ

فقال له: انجُ بنفسك، فإني سأرضِي خُصومك. ثمّ إنه بعَث إليهم وأرضاهم عنه.

---

(١) طبقات الشعراء ٢٣٢، واسم الممزق شأس بن نهار بن أسود.
(٢) الأغاني ١٣: ٦٠. حيال جمع حائل، والحائل: الناقة التي ضربها الفحل فلم تحمل. ولقح: جمع لاقح، واللاقح: الناقة الحامل. ويسامين الظلال: يبارينها.

وحُكِيَ أنّ الصاحب شمس الدين بن السّلعوس، كانَ يَكرَه الأميرَ شمس الدين قراسُنْقر؛ فحضر الملك الأشْرَف إلى دِمَشق، وبلغ قراسُنْقر عمل الوزير عليه، فحَصّل من التقادُم شيئا كثيرا من الأكاديش[1] المليحة، والنّياق الغريبة، وحضر ليلا إلى دِمَشق، وما أصبحَ السلطان الملك الأشْرف بالقصر الأبلق إلاّ وقراسُنْقر قد مَلأَ المَيْدان الأخضَر بالأكاديش والنّياق والهُجْن، وهذا أخذ بعنان إكديش، وعلى رأسه كُوفِيّة الأوشاقيّه[2]، فلما رآه السّلطان قَبّل الأرض، وقال: ياخوند[3]، قد رَجَع المملوك إلى ما كان عليه من خدمه الإصْطَبْلات السعيدة، كما كان أوّلا في أيّام الشّهيد، وهذه التّقدِمه قد سُقْتُها إلى الإصْطبلات والمناخات السّعيدة. فقال السلطان: لأيّ شيء فعلتَ هـذا؟ فقال: ياخوند، بَلَغنى أنّ ابن السّلعوس يحمِل علىّ، ويغيّر علىّ خاطر مولانا السلطان، وقد جئت أنا بنفسى، ويأكُلُنى السّبع، ولا يأكلنىُ الكَلْب! فأعجب السلطان ذلك منه، وقَبِل تقدمته، وعفا عنه، إلا أنه تولّى نيابة حَلب الأمير سيف بَلَبان الطباخىّ، وتوجّه هو مع السّلطان إلى مصر.

وما أحسنَ قولَ الصّابى في أبى الوَرْدِ البغدادىّ:

ومن عَجَب الأيّام أن صُروفَها تَسوء امْرأً مثلي بمثلِ أبى الوَرْدِ
فياليتَها اُختارتْ نظيراً وأنّه رَماني بشنعاء الدّواهى على عَمْدِ
فكم بين مَعْقور الكلابِ وإنْ نَجا ذليلاً ومقتولِ الضّراغمَةِ الأسْدِ

(١) الأكاديش: جمع أكديش، وهى ضرب من الخيل. وانظر دوزى.
(٢) كوفية أو قاشية، منسوبة إلى الأوقاش، وهو الذى يتولى ركوب الخيل للرياضة. صبح الأعشى ٩: ٤٥٤.
(٣) خوند: لفظ تركى، ومعناه السيد أو الأمير، وانظر حواشى السلوك ٤٥٤.

٧١ – وقوله : أمْ كيْفَ لا تتضرَّمُ جَوانِحُ الأكْفاءِ حسَداً لِي عَلَى الخصوص بِكَ .

تتضرّم : تتوقد . والجوانح : جمع جانِحة ، وهى الأَضْلاع التى تحت التّرائب مما يلى الصّدْر .

والأَكفاء : جمع كافٍ ، وهو الرّجل الّذى يكفيك ما أهمّك من الأمور ، والّذى هو كُفْءٌ لغيرِهِ فى الحسَب والنّسَب وغيرِ ذلك ، فهو عديله . وقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم » ، ولذلك قيل : إنّ أن أبا الرّبيع الغنَوىّ ، قيل له : أيسُرك أنّ تحتَك ابنة يزيد بن المهلّب ؟ قال : لا والله ؛ قيل : ولك ألف دينار ، قال : لا والله ، قيل : ولك الجنّة . فأطرق مَلِيًّا ثمّ رَفَع رأسَه وقال : على ألاّ تَلِدَ منى ، وأنشدَ :

تأبى لِيَعْصُرَ أعراقٌ مُمَهّدةٌ … من أن تناسِبَ قوماً غيرَ أكْفاء[(١)]
فإن يكن ذاكَ حتماً لا مردَّ له … فاذْكر حُذَيفَ فإنّى غيرُ أَبّاء

ويقال : فلان كفْءُ فلانٍ ، وكُفُؤه بضم الكاف والفاء . وقد قرئَ بهما فى قوله تعالى : ﴿ ولم يكن له كفوا أحدٌ ﴾ . والكفاءة فى النّكاح عند الإمام الشافعىّ رضى الله عنه واجبة ، فلا يجوز لأحدٍ من الأولياء أن يزوّج المرأة من غير كفء إلاّ برضاها ، ورضا سائر الأولياء ، فإذا رضُوا بإسقاط الكفاءة صحّ النكاح ، خلافاً للإمام أحمدَ بنِ حنْبَل رضى الله عنه ، حيث ذَهَب إلى أنّ الكفاءة شرْط فى الصّحة ، وقال الأصحاب : وسبيلُ من سلَك الطريقَ القطْعى فى بُطلان مَذْهبه ، واضمحلال رأيه أن يقول رادًّا على الخصْم : فقد تزوّج علىُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه فاطمةَ بنتَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم

(١) الشعر والخبر بتفصيل أوسع فى الكامل للمبرد ٢ : ٢٠٥ .

وأبوه كافر، وأبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والكفاءة سبعة أمور، وهى: الدِّين، والنَّسب، والصناعة، والحُرِّية، والنقاء من العيوب، واليَسارُ على أحد الوَجْهين، وألاَّ يكون الزَّوْج مولىَ الزَّوْجة أو أهلها؛ فموالى قريش ليسوا بأكفائهم. وفى وجه أنّهم أكفاء، لأنَّ مواليَ القوم منهم، وقد نَظَم ذلك بعضُ الأفاضل فقال:

شرطُ الكفاءة ستّةٌ قد حُرِّرَتْ ... ينبيك عنها بَيتُ شِعْرٍ مُفْرَدُ

نَسَبٌ ودينٌ صَنْعةٌ حُرِّيةٌ ... فَقْدُ العُيوب وفى اليَسارِ تردّدُ

وما أحسن قول القائل:

إنْ يَحسُدونى فإنِّى غيرُ لائمهمْ
قَبْلِي من النّاس أهلِ الفَضْلِ قد حُسِدُوا (١)
أنا الّذى وَجَدونِي فى حُلوقِهِمُ
لا أرتَقِي صَدَراً مِنْها ولا أرِدُ

ويقال: إنَّ بعض الفضلاء حسده جماعة من أهل عصره، واتفقوا أن كتبُوا فيه مَحضرا، وشَهِدوا عليه فيه بشهاداتٍ تؤدِّى إلى تكفيره، واستَفْتَوْا عليه أهلَ العَصْر فى ذيْل المكتوب، وأحضروه إلى الشيخ تقىّ الدين ابن دقيق العيد ليَكْتُب فيه بالتّكفير، فأخَذَه وكَتَب:

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لم يَنالُوا سَعْيَه ... فالكلُّ أعداءٌ له وخُصُومُ (٢)

فلما رأوا ما كَتَب به الشيخُ رحمه الله تعالى توقّفوا، وتفلّلتْ شَوْكَتُهم وعزائمُهم، وبَطَل ما كانوا يَصْنعون.

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ٤١٤ ونسبهما إلى الكميت بن زيد، وهما أيضاً فى شرح المختار من شعر بشار ٦٧ وشرح نهج البلاغة ١ : ٣١٨ من غير نسبة.
(٢) لأبى الأسود الدولى، ملحق (ديوان) ٥

وقال الشاعر:

إنّ المُقدَّم في حِذْقٍ بصَنْعَتِه   أنَّى توجّه منها فهو محسودُ

وأنشدني لنفسه إجازةً الشيخُ صَفِيُّ الدين عبد العزيز الحِلّيّ:

مولايَ دعوةَ عبدٍ غيرِ مفتتنٍ   بشعره، وله الحُسّاد قد شَهِدُوا

قد صُنْتُ شعري وكلُّ النّاس تَخْطُبُه
وذاكَ لولاكَ لم يَهْنأْ به أحَـــــدُ

بك انتصرْتُ على الأيام منتصِفاً
وصار لي فوقَ أيدِي الحادِثاتِ يَدُ

وكيف تَعجز كَفِّي أنْ أنالَ بها
هامَ السِّماكِ، وأنتَ الباعُ والعَضُدُ

وكتبت أنا إلى من أحسن إليّ، أحسنَ الله إليه:

تُبالِغ في جبْرِي إذا كنتُ حاضِراً   فأزدادُ إسْعافاً بذاك وإسْعادَا
وأنتَ تُثْني بالّذي أنتَ أهلُهُ   فيزداد قَدْرِي بالمراتب إصْعادَا
وكان الورَى من قبلِها يرحمُونَنِي   فَصيرتَهمْ لي بعد ذلك حُسّادَا

* * *

٧٢ــ وقوله: وَتَنْقَطِـعُ أنفاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الْـكَرَامَةِ عَلَيْكَ.

أنفاس جمع نَفَس، وقد تنفَّس الصُّعَداء، وكلُّ ذي رِئة يتنفّس، ودوابّ[(١)] البحر لا رئات لها. والنُّظَراء جمع نظير، وهو المماثل.

(١) ط: «وذرات الماء لا رئة لها».

والمنافسة : غاية الرّغبة فى الشىء على وجه المباراة لغيرك .

كتب القاضى الفاضلُ رحمه الله إلى الملكِ الناصر صلاح الدّين يوسف بن أيّوب ، وقد بلغه كلامٌ عن الملكِ العادل : قد بلغ المملوكَ ما أنكره المولى العادل من الإكرام ، وتوالى الإنعام بعد الإنعام ، ونسىَ أنّ آثار السيوف طاحتْ وبقيتْ آثارُ الأقلام . وكم للخادم من موقفٍ مشكور ، يعجز عنه السّيف المشهور ، والعلَم المنشور . والعادل يُمنّى نفسَه ؛ فأدامَ اللهُ أيامَ مولانا ما دامت السموات والأرض ، وإن تقدم المملوك فهو أكبر مُرادِه ، وإن تأخر لشقوته فما يخرج الأمر عن السادة الملوك من أولاده .

قلت : إنّما كتب القاضى الفاضل بهذا الفصل لأنّ العادلَ قال وقد بلغه تواتُر الإنعام على القاضى الفاضل : وكم القاضى الفاضل ، القاضى الفاضل ! أيشٍ يعمل الفاضل حتّى يستحقّ هذه الإنعامات !

وكان الملكِ الناصر صلاح الدّين رحمه الله يقول : والله ما فتحتُ البلادَ إلاّ بأقلام القاضى الفاضل .

وقال أبو الطيّب فى مدْح كافور :

وغيرُ كثيرٍ أن يزُورَكَ راجلٌ ... فيرجعَ مَلْكا للعراقين واليا[1]

* * *

(١) ديوانه ٤ : ٢٩٠

٧٣ — وقوله : وقد زانني اسمُ خِدمتِك ، وزهاني وَسمُ نِعمتِك

زَهى : الزَّهْوُ : المنظر الحسن ، يقال: ذُهِيَ الشيءُ لعَينِك ، وزُهِيَ الرجلُ فهو مَزْهُوّ ، أى تكبّر ، والعرب لا تنطق بهذا الفعل إلاّ مُغيَّرًا لِما لم يُسَمّ فاعِلُه .

والوسم : العلامة ، هذا من باب المُغالَطة والمكابرة ، وهو ضربٌ من سِحر الكلام ، وهو أن يقول المخاطب لمن يريد استمالته للحنو عليه ، والانقياد له مغالطا : أتفضل لى هذا ، ومازلْت فى بِرّك وحُسْن صنيعك ، وجميلِ معروفك ! وما أحسنَ قولَ أبي جعفر الخرّاز فى المعتمد بن عبّاد :

ومازلتُ أجْني منك والدهر مُمْحِلٌ ... ولا ثمرٌ يُجني ولا زرعَ يُحصَدُ
ثمارَ أيادٍ دانياتٍ قُطوفها ... لأغصانِها ظِلٌ علىَّ ممدَّدُ
يُرَى جاريًا ماءُ المكارمِ تحتها ... وأطيارُ شكرى فوقهن تغرِّدُ

وقول البُحترىّ :

ألَنتَ لىَ الأيّامَ من بعد قسْوَةٍ ... وعاتبتَ لى دَهْرى المسىء فأعْتَبا[(١)]
وألبَسْتنى النُّعمى التى غيّرتْ أخى ... علىَّ ، فأمسَى نازحَ الوُدِّ أجنبَا

وقال أبو فراس بن حَمْدان :

أمّا أياديكَ عندى فهىَ واضحةٌ ... ما إن تزالُ يدٌ منها تسوقُ يدَا
لِمْ لا أمُدّ يدى حتّى أنالَ بها ... مَدَى النُّجوم ، إذا ما كنتَ لى عَضُدا

وقال أيضاً :

وإنّك لَلمولَى الّذى بكَ أقتدى ... وإنّك لَلنّجمُ الّذى بك أهتدِى[(٢)]

---

(١) ديوانه ١ : ٥٦
(٢) ديوانه : ٨٠ نشرة الدهان

٧٤ — وقوله : وأَبْلَيْتُ البَلاءَ الجميلَ فِي سِمَاطِكَ ، وقُمتُ المَقامَ المَحْمُودَ فى بساطك .

أبليت : جرّبت وأختبرت ، والبَلاء : الاختبار ، والمقام بين السِّماطين من المقامات الزّلقة الدّاحضة ، حتّى قال أعرابىٌّ :

بَرِئْتُ إلى الرّحمٰن من كلّ صاحبٍ
أصاحبُه إلاّ حِمَــاسَ بن نائِلِ[1]
وظَنّى به بين السِّماطَين أنّه سيَنْجو بحَقٍّ أو سيَنْجو بباطِلِ

وقال أبو سعيد محمّد بن محمّد الرُّسْتُمىّ :

وما كنتُ ـ لولا طِيبُ ذكرك ـ شاعراً
ولا مُنشِــداً بين السِّماطين فى حَفْلِ
ولـكِنّنِي أقْضى به حَقَّ نِعمةٍ سَرَتْ مَثَلاً لمّا وَسمت به عَقْلِى

وقال كمال الدين بن النَّبِيه :

ألمْ ترَنى بين السِّماطَين مُنشِداً كأنّى على شاهَ أرْمَنٍ أنثر الدُّرّا[2]

فقوله : « وأبلَيْتُ البَلا الجميلَ » أى بعد صبرِه عليه ، واختبارِه له ، وتجرِبته له فى مَواطِنِ البَلاء .

وما أحسَنَ قولَ الأمير شديدِ المُلْك بن مُنقِذ :

يَجنِي فأعرِف مايَجنِي فأنْكِرُهُ ويدّعى أننى الجانى فأعترفُ
وكَم مُقامٍ لمـا يُرضِيه قمتُ على جَمْرِ الغَضى وهو عندى رَوْضةٌ أُنُفُ

---

(١) العقد ٣ : ١٥ من غير نسبة ، وفيه « عراك بن نائل » .
(٢) ديوانه ٥١ .

٧٥ — وقوله :

أَلستُ المُوالى فيكَ غُرَّ قَصائدٍ ... هى الأنجُم اقتادتْ مع الليلِ أنجُما
ثَناءٌ يُظَنُّ الروضُ منه منوَّرًا ... ضُحًى ويخالُ الوَشْيَ فيه منمنَما

المُوالى : اسمُ فاعل ، من وَالَى الشىء ، إذا اتبعه بعقبه .

واُقتادت : « افتَعَلَتْ » من القَوْد . منوّرا « مفعّلا » من النَّوْر الموشّى ، وهو الزَّهر .

والوشْى هو ضَرْب من حُلَل الحرير ذو ألوان ، والمنمنم هو الثوب الموشّى ، وهو ذو الألوان ، ولا بدّ فى تلك الألوان من لون البياض .

وهذان البَيْتان من قصيدةِ لِلْبُحتريّ ، يعاتِب بها الفَتْحَ بن خاقانَ أولها :

يَهُون عليها أنْ أَبيتَ مُتيّمًا ... أعالِجُ وَجْداً فى الضّميرِ مكتَّما(1)
وقد جاورَتْ أرض الأَعادِى وأصبحتْ
حمًى وصلُها مذْ جاوَرَت أبْرَقَ الحمَى

وقبل هذين البيتين من هذه القصيدة ، يليق بهذه الرّسالة لو أورده ، وهو :

أُعيذُك أن أخشاكَ من غيرِ حادثٍ ... تَبَيَّن أو جُرْمٍ إليك تقدَّما

---

(١) القصيدة فى ديوانه ٢ : ٢٢٧ — ٢٣٠

وبعد البيتين اللذين في الرّسالة يقول البُحتريّ :

ولو أنّني وقّرتُ شعري وَقارَه ... وأجللتُ مَدْحي فيكَ أن يُتَهضَّمَا
لأكبرتُ أن أومي إليكَ بإصبعٍ ... تضرّعُ ، أو أُدْنِي لِمَعْذِرةٍ فَمَا
وكان الّذي يأتي به الدهرُ هَيِّناً ... عليَّ ، ولو كان الحِمامُ المقدَّما
أعِدْ نظراً فيما تسخّطتَ هل ترى ... مقالاً دَنِيًّا ، أو فعالاً مذمّما
حياءً فلم يَذْهَبْ بِيَ الغيّ مَذْهباً ... بعيداً ، ولم أركَبْ من الأمرِ مُعْظَما
ولمْ أعرفِ الذّنبَ الّذي سؤْتَني به ... فأقتلَ نفسي حسْرةً وتَنَدُّمَا
ولو كان ما خُبِّرْتَهُ أو ظننتَه ... لَما كان غَرْوًا أن ألوم وتَكرُمَا

وهذا البيتان لأبي عُبادةَ البُحتُريّ مأخوذان من قولِ أبي تمّام [1] :

ووالله لا أنفكّ أهْدِي شوارداً ... إليك تحملنَ الثناء المبجّلا
تَخالُ به بُرْداً عليك مُحَبَّرا ... وتحسَبها عِقْدا عليكَ مُفَصَّلا
ألذَّ مِنَ السَّلْوى وأطيبُ نفحةً ... من المسكِ مَفْتوتاً وأيسر مَحمِلا
أخفّ علَى قلبٍ وأثقل قيمةً ... وأقصر في سَمْعِ الجليسِ وأطوَلا

وقوله : « هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما » أخذه البحتريُّ أيضا منه في قوله :

أصِخْ تَسْتَمِعْ حُرَّ القَوافِي فإنّها ... كواكبُ إلاّ أنّهنّ سُعُودُ
ولا تُمكِنِ الإخْلاقَ منها فإنّما ... يَلَذُّ لِباسُ البُرْدِ وهوَ جديدُ

إلاّ أنّ البُحتريّ قصّر عن أبي تمّام كلّ التقصير .

---

(١) ديوانه ٢٥٥ .

٧٦ — وقوله: وهل لَبِسَ الصباحُ إلا بُرْداً طرزتَه بفضائلك.

قد جرت العادةُ بين البُلغاء وفُرْسان البيان وأرْباب النَّثْر والنَّظم أن يستعيروا للثناء — وهو شيء يُدرَك بالسمع — أشياء تُدرَك بحاسَّتَي البَصر والشَّمِّ، فيقولون: ثناءٌ كأنَّه المِسْك الأذفر، أو زَهْر الرَّوْض الأنْضَر، أو كالنجوم الزاهرة، أو البرود المَرْقومة، أو كأنفاسِ النَّسِيم السَّحَريَّة. ومن هذا وأمثاله، لأنَّهم يريدون المبالَغة فيما وَصَفوه(١).

قال الإمام فخر الدين: الاستعارة ذِكْرُ الشيء باسم غيره، وإثبات ما لغيره له لأجل المبالَغة في التشبيه، ووجهُ تشبيه الثَّناء بالمِسك، وبأنفاس الرِّياض في السَّحَر، هو أنَّ الثناءَ الحَسَن يقال فيه: فلانٌ طيِّب الثَّناء، فاستعاروا له رائحةَ المِسْك، وأنفاسَ الرِّياض، فقالوا: ثناءٌ كالمِسْك، ووجْهُ تشبيهِ الثَّنايا بالكواكب وبالصَّباح وبغير ذلك، هو أنَّ الثَّناء الحَسَن يقال فيه: إنَّه لا يَخْفَى وصفُ فلانٍ على أحد، ولا أوضحَ للعَين من النجوم، ومن الصَّباح. ووجه تَشْبيه الثَّناء بالبُرود المرقومة هو أنَّ الثَّناء الحسَن يقال فيه: فلانٌ يحوك أوصافَ فلان، ويَنسِجها على مِنوالٍ غريب، ويَرقُم بُرودَها؛ وما يريدون بذلك إلاَّ المبالغة، لأنَّه صار بحيث يدرَك بعد حاسَّة السَّمع بحاسَّتَي البَصَر والشَّمّ.

وما أحسنَ قول محمّد بن غالب الرُّصافيّ:

أجرِي حديثَك ثمَّ أعلمُ أنه   قولٌ يقال وعَرْفُه مشمومُ

أمَّا إذا قالوا: ثناءٌ يَهُزّ الأعطاف، ويُطرِب الأسماع، فهو على أصلِه فيما يدرك بحاسَّتي السمع؛ نعم يَستعيرون له سَجْع الحمَام وتغريده، وأصواتَ المَثاني والمَثالث، ونَغمات الألحان.

---

(١) م: «وصف».

فقول ابن زيدون رحمه تعالى : « وهل لَبِس الصُّبح إلاَّ بُرْداً طرّزته بفضائلك » ، من هذا الباب الّذى قدّمته ، وكذلك مابعده إلى قوله: « وبثّ إليك إلاّ حديثا إذعتُه عن محامِدِك » .

وما أحسنَ قولَ ابنِ عُنين :

يُهدِى إليك من الثناء مَلابساً تَضْفو وتَضْفُو من قذى الأطماع (١)
مصقولَةَ الألفاظِ يَلقاها الفَتَى من كلّ جارحةٍ بسمعٍ واعِ

* * *

٧٧ — وقوله : وتَقلّدتِ الجوْزاءُ إلاّ عِقْداً فَصّلتْه بمآثرِكَ .

الجَوْزاء أحد البُروج الاثنَى عشر ، وهى عدّة كواكب ، ومن صورته ثلاثةُ كواكبَ ، صُفّت على قَدْرٍ واحدٍ فى الهيئة والبُعْد يسمّى منطقة الجَوْزاء ، وإيّاها قصد أبنُ زَيْدون .

وفصّلته : جعلتُه فصُولا .

والمآثر جمعُ مأثُرة ، وهى المَكْرُمة ، لأنّها تُؤْثَر ، أى يُتحدّث بها وتُذكَر فى النّاس .

وما أحسَنَ قولَ أبى بكر يحيى بن بقىّ الأندلسىّ :

عليكَ أبا عبدِ الإلهِ خلعتُها لها البدرُ طَوْقٌ والنجُوم دلائلُ
وماهىَ إلاّ الدّهر فى طُول عُمرِها وإن لم يكن فيها الضّحى والأصائلُ

قلت : إلاّ أنّه هجّن البيت الثانى بنفْى الضّحى والأصائل عنها ؛ ولو قال :

---

(١) ديوانه ٢٥ .

* وحُسْن الثنا فيها الضُّحَى والأصائلُ *

لكان قد كمل نسجُه، وجمُل نهْجُه.

وقال شرف الدين بن عُنين:

ومقصّرٍ عن بعض ما أثنيتُهُ
شُكْرِى وإن كنتُ الفصيحَ المُسْهِبَا (١)
ولو أنّنى نظّمتُ فيك قلائد الْـ
جَوْزاء كنتَ أجلَّ منها منصبا

وقال حسّان بن المصّيصى الشبلىّ:

وجدتُ مَعاليك أصلاً لشِعرى
وهل يُنْظَمُ الدُّرّ لولا النِّصَاحْ (٢)
لك الفَضْل إنْ طابَ شُكْرِى ونَشْرِى
بطِيبِ الرّياضِ تطيبُ الرِّياحْ

* * *

٧٨ — وقوله: واستملَى الربيع إلا ثناء مَلأْتَهُ من محاسنك.

تقول: أمليتُ الكتابَ أمليه، وأملَلْتُه أملّه؛ لُغَتان جيّدتان جاء بهما القرآن المجيد. واُستَمْلَيْتُه الكتابَ، سألتُه أن يمليَه علىّ، أى يقول لك بما فيه، وقد أتَى بالجِناس بين قوله: «ملأْته» و «اُستملى»، وهو جناس اُشتقاق على قولٍ، واستعارَ الاستملاء للرّبيع، والمَحْل للمحاسن، فأحسَنَ فى كلّ ذلك.

وما أحسَن قولَ أبى فِراس بنِ حَمْدانَ:

وما زالَتْ رِياحُ الشِّعْر شتَّى
فمِن ريَّا الهبوب ومن سَموم
منَحْتُك من محاسِنها بَديعاً
مقيم الزّهر سيّار النّسيم

(١) ديوانه ٤٠. (٢) النصاح: السلك الذى ينظم الخرز.

وقال أبو سعيد محمّد بن محمّد الرُّستمى :

وَرِيضٌ كساهُ المُزْنُ أثوابَ رَوْضَةٍ
فراقَتْ أعاليه ورَقَّتْ أسافِلُهْ
يطيبُ على الأيّام رَيّا نَسِيمِهِ وأطيبُ من رَيّاه ما أنتَ فاعلُهْ

وقال ابن المعلِّم :

ولَم يكُ إلاّ عاطلاً فكسَوْته حُلَى بيواقيتِ العلاءِ ترصّعُ
كذاكَ اكتسى من نَشْرِك الشّعر نَفحةً
وها هىَ فى أعطافِه تتضوّعُ

وقال بعضهم :

حدّثتُ عنكَ غصُونَ البانِ فانعطفَتْ
ومَال بالشُّكرِ منها كلُّ ميّادِ
لَم يَبْقَ فى الرَّكْب من لا هزّه طَرَبٌ
إلى لقائكَ حتّى سَرْحة الوادى

* * *

٧٩ — وقوله : وبثّ المسكُ إلا حديثا أذعتُه فى محامدِك .

بثّ الخبرَ وأبثّه بمعنى نشره، يقال بثثتك سرى ، أى أظهرته لك وبثثت الخبر فانبَثّ ، أى انتشر . وذاعَ الخبرُ ، يذيع ذَيْعا وذُيوعا وذيوعة وذيعانًا ، أى انتشر ، وأذاعه غيرُه ، أى أفشاه . وفى الحديث « ليسُوا بالمذاييع البُذْر » .

والمحامِد جمعُ محمَدَة ضدّ المَذمّة ، وقد استعارَ الحديثَ لرائحةِ المسك ، وهى استعارةٌ حسَنة .

(١) البذر : جمع بذور ، يقال : بذرت الكلام بين الناس كما تبذر الحبوب ، والحديث فى ابن الأثير ١ : ١١٠ .

وما أحسنَ قول أبي عبدالله محمد الرُّصافي رحمه الله :

هذي مساعي ابن حربون وكيف بها
فبارِها شرقًا بأنجم أو سارِ

فهل نسائمُ مسك تنشرون معي ... أم تقطفون معي أكمام أزهارِ

حتى لقد خِلتُني شَمشَمت بينهم ... خمرًا فمن بين مخمورٍ وخمَّار

وقوله أيضا :

أجرى حديثك ثم أعجب أنه ... قولٌ يقال وعَرْفُه مشمومُ

فبكلِّ أرضٍ من ثنائك شائعٌ ... عَبِقٌ كما وَلَجَ الرياضَ نسيمُ

يسري فلا يخفى على مُستنشِقٍ ... ولو أنه عن أذنِه مكتومُ

يُطوى فينتشر الثناء بطيِّه ... ذكرُ الكريم بعنبرٍ مختومُ

وقال ابن حيّوس :

وطيبُ ثناء طبّق الأرضَ فاكتست
مشارقها من عَرْفه والمغارب(١)

وقوله أيضا :

أعانت على إدراك ما تستحقه ... طريقتك المُثلى وهمتك البكرُ(٢)

والثناء هو العمر الثاني المديد الباقي الخالد .

وقال الحادرة :

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم ... بإحساننا إنّ الثناء هو الخلدُ(٣)

وقال الشاعر :

وإذا الفتى لاقى الحِمامَ وجدته ... لولا الثناء كأنه لم يولدِ

---

(١) ديوانه ١ : ٢٦ .
(٢) ديوانه ١ : ٢٤٥ .
(٣) البيان والتبيين ٣ : ٣٢٠ .

وقال عُمر بنُ الخطّاب رضى الله عنه لابنة هَرِم بن سِنان المُرّىّ : ماوَهَب أبوكِ لزُهَير ؟ قالت : أعطاهُ مالاً وأثاثا أفناه الدّهر ، فقال عمر رضى الله عنه ، لكنّ ماأعطاكُموه لا يُفنيه الدهر .

وقال الشّريف الرّضِيّ :

أودَى وما أودَتْ مَناقِبُه ومِنَ الرّجال معمَّرُ الذّكْرِ (١)

وقال معاوية رضى الله عنه لابن الأشعث بن قيس : ما كان جدُّك قيس بنُ مَعدِي كَرِبَ أعطَى الأعشى ؟ فقال : أعطاه مالا وظَهْرا ورَقيقا وأشياءَ نسيتُها ، فقال معاوية : لكن ما أعطاكم الأعْشَى لايُنسَى .

وقال أبو الطّيّب :

ذِكْرُ الفتى عُمرُه الثّانى وحاجتُه ما قَاتَهُ ، وفُضُول العَيْش أشغالُ (٢)

وقال المفسّرون فى قوله تعالى: ﴿واجعَلْ لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخِرين﴾ (٣): أى ثَناءً حسَنا .

وقال أبو إسحاق الغزّىّ :

المالُ يُفْنِيه الزمان وإنّما يَبقَى لكم ماخلّدَتْه شَوارِدِي

وقوله أيضا :

فشُهْبُ الدّرارِى للأُفولِ طُلُوعها وشُهْبُ القَوافِي مالهنّ أفُولُ

وقد خالف الناسَ أبو تمّام الطائىّ فى هذه الطريقة ، فقال :

لئن بَقِيتْ لِى فيكَ آثارُ مَنطقٍ لقد بقيتْ آثارُ كَفّيكَ فِى دَهرِى (٤)

---

(١) ديوانه ٣٧٣
(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٨
(٣) سورة الشعراء ٨٤
(٤) ديوانه ١٤٤

لقيتَ صُروفَ الدّهر دونيَ تابعــا
لأمر العُلا واخترتَ شُكري على عُذري
فأوليتني في النّائبات صنائعاً كأنّ أياديها فُجرنَ من البَحْرِ
خــلائق لو كانتْ من الشعر سَمّجت
بدائعُها ما أُستحسن الناسُ من شعري
فعلّمتني أن ألبسَ الحمدَ أهلَه وذكّرتني ماقد نسيت من الشُّكر

وقال عُمارة اليَمَني في المــادّة الأولى :

وأين الثّياب المُذْهَبات قشيبةً ولى مُذْهَبات فيك ليست بأسمالِ
سيَبْلَى على قُرْبٍ جديد فَعالـكمْ وتبقى على مرّ الجديدَينِ أقوالي
ويُعْطَلُ جِيدى من حُليِّ نَداكمُ وجيدُ مَعاليـكمْ بها أبداً حالي

وقال ابن درّاج القَسْطَلّى :

أبا الأَصبغ المغنىّ هل أنت مُصْرِخى؟
وهل أنتَ لِي مغنٍ وهل أنتَ لِي مُغْلِ (١)
فأكسُوَ لكَ الايامَ من خَزِّ ماأشِي وأملا سَمْعَ الدهرِمِنْ سِحرِماأُملِي!

* * *

٨٠ — وقوله : مايومُ حليمةَ بِسِرٍّ .

هذا مَثَل من أمثال العرب ، وأصلُه أنّ حليمةَ بنتَ الحارث بن أبي شمِر ، كان أبوها قد وَجّه جيشا إلى المُنذرِ بنِ ماء السّماء ، فأخرجَتْ لهم طِيبا في مِرْكَن فطيّبَتْهُمْ .

قال المبرّد : هو أشْهَرُ أيام العرب ، يقال : أرتفعَ في هــذا اليوم من

---

(١) ديوانه ٤٦ ، ٤٧ .

العجاج ماغطَّى عين الشّمس ، حتّى ظهرت الكواكب . وهو يُضرب فى كلّ أمرٍ متعاظمٍ مشهور ، قال النّابغة فى وصف السُّيوف :

تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يوم حليمةٍ
إلى اليومِ قد جُرِّبْنَ كلَّ التّجارِبِ (١)

تَقُدُّ السّلوقىَّ المضاعف نَسْجُه   ويُوقِدْنَ بالصُّفّاح نارَ الُحباحِبِ

وذكر عبد الرحمن بن المفضّل عن أبيه ، قال : لمّا غزا المنذر بنُ ماءِ السّماء غزاتَه التى قُتِل فيها ، وكان الحارث بن جبلة الأكبر مَلكُ غسّان يخافه، وكان فى جيش المُنْذِر رجلٌ من بنى حنيفة يقال له : شمِر بن عمْرو ، وكانت أمُّه من غسّان ، فخرج يتوصّل بجيش المنذر ، يريد أن يَلحق بالحارث بن جَبَلَه ، فلمّا تدانَوْا سارَ حتّي لحق بالحارث ، فقال : أتاك ما لاتُطيق ، فلمّا رأى ذلك الحارث ، نَدَبَ من أصحابه (٢) مائة رجل اختارهم رَجُلا رجلاً، فقال : انطلِقوا إلى عسكر المُنذر فأخبروه أنّا نَدين له، ونُعطيه حاجَته، فإذا رأيتم منه غِرّةً فاحملوا عليه . ثمّ أمرَ ابنته حليمةَ بنتَ الحارث فأخرجتْ لهم مِرْكَناً فيه خَلوق (٣) ، فخرجتْ إليهم فخلَّقَتْهم ، وهى من أجملِ النساء ، حتّى مرّ عليها فَتًى منهم ، يقال له : لَبيد بن عمرو ، فذهبتْ لتُخَلِّقَه ، فلمّا دنَت منه قبّلها ، فلطمَته ، وأتت أباها فأخبرته الخبر ، فقال لها : وَيْلَكِ ! اسكُتِي عنه ، فهو أرجاهُمْ عِندى ، وأكفؤُهم. ومَضَى القومُ ومعهم شَمِر بن عمرو الحَنَفى ، حتّى أتوا المُنذِر ، فقالوا : له أتيناك من عند صاحِبنا ، وهو يَدينُ لك ، ويُعطيك

---

(١) ديوانه ٦ .
(٢) ط : « رجاله »
(٣) المركن : إناء يتخذ الماء وغيره ، والخلوق : ضرب من الطيب ؛ قيل: هو الزعفران .

حاجَتك ، فتباشر أهل عسكر المُنذر بذلك ، وغَفلوا بعضَ الغفلة ، فحملوا على المُنذر فقتَلوه ، فقيل : ليسَ يومُ حليمةَ بسِرّ ؛ فذهبت مَثَلا .

قال أبو الهَيْثم : «[1] إنّ العرب تسمّى بلقيسَ حليمةَ العَرب[1]» .

* * *

٨١ — وقوله : وإن كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَلِيباً ، وَلاَ حَلَّيْتُكَ عَطِلاً ، وَلاَ وَسَمْتُكَ غُفْلاً .

أَكْسُكَ : أصلُه أكسُوكَ من الكِسْوَة ؛ ولكن حُذِفت الواو لدخول الجازم على الفعل المضارع ، تقول : لم أغزُكم ، ولم أجفُكم ، ولم أنحُكم ، وأصلُه : أغزوكم ، وأجفوكم ، وأنحوكم .

سليباً أى مَسْلوبا ، تقول : سَلَبتُ الشىء أسلُبه سَلْبا إذا أعريتَه[2] عمّا كان عليه . وقولُهم : نخل سَليب لا حَمل عليه ، وشجرٌ سَليب لاورقَ عليه ، وسَليب « فَعيلٌ » بمعنى مَفْعول ، مِثْل : قَتِيل وجَرِيح ، بمعنَى مَقْتول ومَجْروح .

حلّيتك ألبَسْتُك الحَلْى ، [والعُطْل المَصدَر من العطل ، تقول : عُطّلت المرأةُ إذا خلا جيدُها من القَلائد[3]] فهى عَطِل ، وعاطِل ، ومِعطال .

والوَسْم : العلامة ، تقول : وسَمْته وسْماً وسِمَةً ، إذا أثرتَ فيه بِسِمَةٍ أوكَىّ .

والغُفْل ، يقال : أرضٌ غُفْل لا عَلَمَ بها ؛ ولا أثَرَ عِمارة ، ودابّة غُفل

(١—١) ط : « إن بلقيس تسمى حليمة العرب » .

(٢) ط : عريته .

(٣) تكملة من ط .

لابسةٌ عليها ، وقد أغفلتها إذا لم تَسِمْها . وقد أستعار الكسوة والتّحلية للنّساء ، والمُطْلة والإغفال له ، وهى أستعارةٌ جيّدة . وما أحسَنَ قول أبى الحُسَين الجزّار رحمه الله تعالى :

ولقد كسوتُكَ من قَريضى حُلةً جَلّتْ عن التضييق والتّرفيعِ
حسُنَت برَقْمٍ من خلالِك فاُغتَدَتْ
كالرّوض فى التّسهيم والتوشيع

والأصل فى هذه المادة كلها قولُ أبى الطّيّب :

وأخلاق كافورٍ إذا شئتُ مَدْحه
ـ وإن لم أشأ ـ تُملِي عليّ وأكتُبُ[1]

وقوله أيضا :

وما أنا وَحْدى قلتُ ذا الشِّعْرَ كُلَّهُ
ولكنْ لشِعْرى فيك من نفسِه شِعر[2]

وقول الغزّيّ :

يداىَ تكتُبُ ما تُملِى مَناقِبُه
فى خاطِرى قبلَ كَتْبِ المَدْح فى صُحُفِهْ

وما أحسَنَ قول الأمير تميم ابنِ المُعِزّ :

وسارَ بمَدْحى فيكَ كلُّ مهجّرٍ
وغَنّى به فى السّهل والوَعْر من يَغْدُو[3]

---

(١) ديوانه ١ : ١٨١
(٢) ديوانه ١ : ١٥٨ .
(٣) ديوانه ١٠٥ .

وصاغَتْ له عَلْياك حُسْنا وزِينةً
وحيكَ لهـــا من حَلْى ألفاظه بُرْدُ
وليسَ لِكل الناس يُسْتحسَن الثَّنا
كما ليسَ فى كلّ الطُّلَى يَحسُن العِقْدُ (١)

ومن هذه المادّة قولُ أبى الطيّب :

أنت يافَوْقَ أَن تُعزَّى عن الأَحْبابِ فوقَ الّذى يُعزّيك عَقْلا (٢)
وبألفاظك اهتَـــدَى فإذا عزّاكَ قالَ الّذى له قلتَ قبلا

وقال :

لك الحمدُ فى الدرّ الذى لِيَ لفظُه فإنّك مُعطِيه وإنّىَ ناظِمُ (٣)

وهو مأخوذٌ من قولِ ابن الرُّومىّ :

ودُونكَ من أقاوِيلِي مَديحا فَـدًا لك دُرُّه ولِيَ النِّظامُ

وقول ابن المعلِّم :

مَجدُه صاغَ حُلَى المَجْدِ له فالحُلّى بلآليه المُحَـــلِّى
أىّ فَضْل لى بِشِعْرى عندَ مَنْ فضلُه عِندىَ أَغْلى سِعْرَ فَضْلى

وقال أبو تمّام الطائىّ :

أنا من كَساكَ محبّة لا حُلّةً حِبرَ القَصائد فُوِّفَتْ تفْويفا (٤)
متنخِّلٌ حَلاَّكَ نظم قصائدِ صارَتْ لآذانِ الملوك شُنوفا

---

(١) الطلى : جمع طلية ، وهى العنق .
(٢) ديوانه ٣ : ١٢٣ . (٣) ديوانه ٣ : ٣٩١ .
(٤) ديوانه ٢٠٨ .

وقوله أيضا :

لقد زِدْتَ أوضاحِى امتداداً ولم أكُنْ
بَهِيماً ولا أرضَى من الأرض مَجْهَلاَ (١)
ولكنْ أيادٍ صادفَتْنِى جِسامُها أغرَّ فألفَتْ بى أغَرَّ مُحَجَّلا

وقال أبو إسحاق الغزى :

والواصفوك بما خُوِّلْتَ من شِيَمٍ مثُّوا إليك بشىء منك مسترق (٢)

وقوله أيضا :

معانيكَ فى الأشعار تنظِم نفسَها ومن لم يخنه السَّجْل والشَّطْن أُسقَى

وقوله أيضا :

وما أنا فى مَدْحِيك إلاَّ كماسِحٍ بكفّيه مَتْنَ السَّيفِ وهو صَقيلُ

وقال أبو نُخَيلة فى مَسلَمة بن عبد الملك :

وأُلقيتَ لمّا أن أتيتُك زائراً علىَّ رداءً سابغَ الطُّولِ والعَرْضِ (٣)
ونوَّهْتَ من ذكرى وما كان خاملاً
ولكنَّ بعض الذِّكرِ أنبهُ من بعضِ

وقال أبو الفِتْيان بن حَيُّوس :

وهل بالذى يأتى إلى الوصف حاجةٌ وأخباره فى الغرب والشَّرقِ تُشْهَرُ (٤)
ولكنّه بالشِّعر يزْداد بهجةً كما ازداد حُسْنُ الرَّوض وهو منوَّرُ

وقال أيضا :

يا عاطفَ النُّعمَى علىَّ أصِخْ لما يَهْتزُّ من طَرَبٍ له عِطفاكَا

---

(١) ديوانه ٢٥٢ ، والأوضاح : الغرر .
(٢) أمالى القالى ١ : ٣٠ .
(٣) ديوانه ٢٧٣ .
(٤) ديوانه ٤١٩

مِدَحًا إذا نشِرت تَضوّع نَشرُها قد كِدْتُ أطوى ذكرَها لولاكا
كرهت بدائعها سواكَ وأقبلت تنثالُ فيك لأنّها تهواكا
فاليومَ ألفَى درُّ وصفك ناظمًا منّى ، وصادف دُرّه سِبّاكا

وقال أبو عبد الله محمّد بن أحمد الخازن :

ومِن سُقْيَا سَحابك جادَ طَبْعِى ولولا الغَيْثُ لم يَنْبُع قَلِيبُ

وما أحسنَ قولَ ابنِ سَناء المُلْك :

حُلِيُّها مِن حلاها وهى عاطِلَةٌ وأحسنُ الحَلْيِ حَلْيٌ صِيغَ من عُطُلِ
وإن تحلّت فوسواسُ الحُلِيِّ بها خِصامُ ما بين ذاك الخَصْرِ والكَفَلِ

وقول ابن الشِّبل البغدادىّ :

مَلِكٌ تُبِين المادحينَ صِفاتُه فيصيبُ قائلُهم بغير تقوُّلِ
والسَّيْف لولا جَوْهَرٌ فى حدّه لم تَبْدُ منه فَضِيلةٌ للصَّيْقَلِ

* * *

٨٢ — وقوله : بَلْ وَجَدْتُ آجُرًّا وجِصًّا فبنيتُ ، ومكانَ القولِ ذا سعةٍ فَقُلْتُ .

يعنى أنّه لافضل لى فى مدائحك ، لأنّنى فيها كَمَنْ وَجَد آجُرًّا وجِصًّا فبَنى بيتًا(١) من ذلك ، وشيّد مكانا ، ولكنّ لى فى ذلك بعض فضل ، كما قال الخفاجىّ :

ولِى فيكَ مِن غُرِّ القوافى قصائدٌ تُقبِّلُ أفواهُ الرُّواة لها رشْفا(٢)
يَنِمّ بها طيبُ النّسيم إذا هفا وينشرها نور الرياض إذا رَفّا
وما أدّعِى هذا الكلامَ لأنّه صِفاتك إلاّ أنّنى أحسِن الوَصْفا

---

(١) من ط. (٢) ديوانه ٧٣

وقول ابن المعلم :

أخذتُ منكَ الّذى أُثنِي عليك به ... فأنت لا أنا بالنُّعْمَى مؤلِّفُهُ

فما أمتُّ بشِعرٍ فيك أنظِمُه ... للمَدْح فيك ؛ ولا سَجْعٍ أُصنّفُهُ

وقوله : « وجدتَ آجرًّا وجِصًّا فبَنيت » . جاء مِثل هذا لأبى حَفْص ابن بُرْد الأكبر المغربى ، فقال من جملة رسالة : وأبو الرّبيع مِن علم لسانه قال ، وبنى بهِ صرحا وطال ، وأنه أشد بناةِ الكلام حِرْصا ، ماوجَد آجُرًّا وجِصًّا ، فمن أوثقه برًّا ، طوّقه تِبْرا ، ومن خَلَع عليه ثياب الفضل من طراز الإكرام ، نزع إليه بجِياد الحَمْد من مَرابِط الكلام .

وقوله : « ومكان القول ذا سَعةٍ » هو معطوفٌ على قوله : « بل وجدتَ آجرًّا » ، وهو يشير بهذا إلى قول أبى الطيِّب :

وقد وجَدْت مكانَ القول ذا سعةٍ ... فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقلِ

وهذه من قصيدته الّتى مَدَح بها سيفَ الدّولة ، وأوّلها :

أجابَ دَمْعى وما الدّاعى سِوَى طَلَلٍ ... دَعَى فلبّاه قبلَ الرَّكْب والإبلِ (١)

وقبل البيت الّذى أشار إليه :

ليت المدائحَ تستوفِي مَناقِبَه ... فما كُلَيْبٌ وأهلُ الأَعْصُر الأُوَلِ

خذ ماتراهُ وَدعْ شيئاً سمعتَ به ... فى طلعةِ الشّمس ما يُغنيك عن زُحَلِ

وكنتُ قد كتبتُ جواباً إلى شيخِنا الإمام الحافظ ، فتح الدين محمّد ابن محمّد بن سيّد النّاس رحمه الله تعالى ، عن كتاب بعثه إلىّ من الديار المصريّة ، وأنا يومئذ مُقيمٌ بصَفَد ، فجاء من جُملةِ جوابى إليه (٢) :

---

(١) القصيدة فى ديوانه ٣ : ٧٤ ـ ٨٨

(٢) من رسالة له ذكرها فى الوافى بالوفيات ١ : ٢٩٩

وقد أثنيتُ على تلك الرّوضة ، ولو وفِّقْتُ لأثنَيْتُ وما أثنيت ، ووقفت عند قدرتى فما أجَبْت ، ولكنّ اتّقحْتُ وما استحييت ، على أنّى لو وجدت لساناً قائلاً لقلت : فإنّى وجدتُ أوّلَ البيت .

ومن مادة ابن زَيْدون ماقاله ابنُ المعلِّم :

أرَتْنِي ما أصوغُ عُلاكَ مَدْحِي ... وعلّمنى سماحُك ما أقولُ
فجئتك بالّذى أوليتَ أُثْنى ... بِمَا أنا عن سواكَ بِهِ بخيلُ

وقوله أيضاً :

علّمتْنا أيّامُكم مَذْهَب الشُّكْـ ... ـرِ فها نحنُ بينَكمْ وفدُ شُكْرِ
وأرَتْنا طرْقَ المديح مَعاليـ ... ـكُمُ ، ومنها جاءتْ معانِي الشِّعْرِ

وقول أبي إسحاق الغزّى :

ولمّا جالَ فى علياكَ فِكْرِى ... وجدتُ القولَ مُتّسِعَ المَجالِ
وسابقنى المَديحُ وصار لفْظِى ... به أجْرَى من المالِ الزّلالِ

وقول ابن حَيوس :

ولو فِي غير بَحْرِك غُصْتُ عاماً ... لأعْوَزَ فيه ذَ الدّرّ الثّمينُ(١)

وقوله أيضاً :

لمّا اعتمدتُك بالقَريض أطاعَنى ... ولو اعتمدْتُ به سِواكَ عَصانى(٢)

وقول الرُّسْتَمى :

وإذا مادعوتُ شِعْرِىَ فيه ... طرب المدحُ واستهلّ النسيب

---

(١) ديوانه ٦٦٢
(٢) ديوانه ٦٤١

وقال عُمارة اليَمَنى :

مَلَكَ الجوارح فاللسان بحَمْدِهِ مستخدَمٌ وكذا الفؤاد لودِّهِ
وقفتْ مدائحُنا عليه لأنّها ماعندَها إلاّ الّذى مِن عندِهِ

وقال ابن قَلاقِس :

ومنكَ وفيكَ تنتظِم القَوافى ومَن وَجَد المَقالَ الرَّحْبَ قالا

وأنشَدنى لنفسه أجازةً الشيْخُ صفىُّ الدين عبدُ العزيز الحلِّى :

استجلِ دُرًّا أنت لُجّةُ بحرِهِ والبس ثناء أنتَ ناسجُ بردِهِ
يَزْداد حُسْنًا كلّما كرّرتَه كالتِّبر يَظهر حُسْنُه فى نَقْدِهِ

وأنشَدَنى له أجازةً أيضاً :

لافَضْلَ لى فى نظامى دُرّ فَضلِكمُ بقيمةِ الدّرّ لا بالسِّلْكِ يُفتَبرُ
لَم تُزه صنعتُه إلاّ بصنعتكمْ تَزْهى الخمائلُ أنّى يهطِل المَطَرُ

وأنشَدَنى له إجازةً أيضاً :

ليس لى مِنْ صِفاتِ مَجدِكَ فخرٌ هىَ أبدتْ انما بديعَ المعانى
كلّما أبْدعتْ سَجاياكَ معنًى نظمتْ فكرتى وخطَّ بنانِى

وقول ابن حَيُّوس :

ولئن شعرتُ فإنّ آثرَ ما أرَى من مأثُراتِك يُنطِقُ الجلمودا[(1)]
ألفيتهنّ جواهراً منثورةً وعلى القوافى أن يصِرْنَ عُقودا
فلكَ الفَريدُ وقد وجدت نظامَه ولىَ النِّظامُ وقد وجدتُ فَريدا

وقال محمّد بنُ الحدّاد المغربىّ :

ومنكَ أخذْنا القولَ فيك جلالةً وما طاب ماء الوَرْد إلاّ من الوَرْدِ

---

(١) ديوانه ١٧١ ،

٨٣ — وقول : وَحَاشاكَ أن أُعَدَّ من العاملة الناصِبَةِ

يقال : حاشاكَ ، وحاشا لك ، ويقال : حاشا لله ، وقرىء ﴿ حاشَ لله [١] ﴾ بلا ألف اتباعاً للكتاب ، والأصل «حاشا» بألف ، وحاشا كلمةٌ يُستثنَى بها .

وقوله : « أُعَدَّ من العاملة الناصبة » يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وُجوهٌ يومَئذٍ خاشعة عاملةٌ ناصِبَة ﴾[٢] ، المراد بذلك وجوهُ اليهود والنّصارى ، أو جميع الكفّار ، وجوه عملت في الدنيا ونَصِبتْ ، أي تَعِبتْ في أعمال لا تنفعها في الآخرة ؛ لأنّ الرُّهبان ينصبون بصيام النّهار وقيام الليل ، وَيَترُكون مَلاذّهم .

وقيل : عاملة ناصبة في النار ، تجرّ سلاسلها وأغلالها في النار كخوض الإبل في الوحل .

وقال الحسَن : لم يعمل لله في الدنيا ، فأعمَلَهم وأنصَبَهم في الآخرة ، ينقلهم من عذابٍ إلى عذاب ، أو يَجرُّون على وجوههم ، ويكلَّفون ارتقاء جبلٍ من حديد في النار . أو تكبّروا في الدّنيا عن طاعة الله ، فأعمَلَهم وأنصَبَهم في الآخرة بأنواع العذاب .

وما أحسن قول هبة الله بن الفضل الطّبيب :

أمْدَحُه طَوْراً ، وأهْذِى به　　　طَوْراً ، ولا أطمَعُ في رِفْدِهِ
مِثل إمامٍ بين أهلِ القُرَى　　　صَلّى بهم والنَّيْتُ مِن عِنْدِهِ

وما أحسنَ قولَ القائل :

ذاكَ الّذِى قرحتْ بُطُونُ جفونِهِ　　　مرهًا وَتربةُ أرضِهِ مِنْ أثمدِ

وقول البحتريّ :

وبدرًا أضاء الأرض شرقاً ومغرباً　　　وموضع رجلى منه أسود مُظلِمُ[٣]

(١) سورة يوسف ١٣　　　(٢) الغاشية ٢ ، ٣
(٣) ديوانه ٢ : ٢٧٢

وقول الآخر :

أنا فى ذمّة السّحاب وأظْمى ! إنّ هذا لَوَصْمَةٌ فى السّحابِ

وقد ذكرتُ بهذا البيتِ مالى فى هذه المادّة :

يا حبيبى الّذى أرَى فيه عُمْرِى ضاعَ منّى وضاقَ بالصّدِّ صَدْرِى
أنتَ أظلمْتَنى ووَجْهُك بادٍ أفهذا يليقُ قطّ ببدرِ !

وقال أبو سعيد محمد بن محمد الرُّسْتُمى :

من النّاس من يعطى المَزِيدَ على الغِنَى
ويُحرَم مادونَ الغِنَى شاعرٌ مِثْلِى
كما ألحقتْ واوٌ بعمرٍو مَزِيدةً
وضُويِقَ بسمِ اللهِ فى ألفِ الوَصلِ

* * *

٨٤ — وقوله : وأَكُونَ كالذُّبَالَةِ المَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ .

الذُّبالة : الفَتيلة ، والجمعُ الذُّبال ؛ ويشير بذلك إلى قول العبّاس بنِ الأحنَف :

أُحْرَم منك ما أُقولُ وقد نالَ به العاشقونَ ماعَشِقُوا(١)
صرتُ كأنّى ذُبالةٌ نُصِبتْ تضىءُ للنّاس وهىَ تحترقُ

---

(١) ديوانه ١٩٧

قال الرِّياشيّ ـ وقد ذُكِر عنده العبّاس بنُ الأحنف : والله لو لم يَقُل إلاّ هٰذَين البَيْتَين لَكفاه .

وقال الشاعر :

وفَتيلة المِصباح تحرِق نفسَها ... وتضيء للسَّارى وأنتَ كذا كا

ومن هذه المادّة قولُ أبي الحُسَين الجزّار :

أحمِّل قلبي كلَّ يوم وليلةٍ ... هموماً على من لا أفوزُ بخَيْرِهِ

كما سَوَّد القصّارُ في الشَّمس وجهَه ... حريصاً على تَبْييض أثوابِ غَيْرِهِ

ويَقرُب من هذا :

ومِن أينَ لي صبرٌ وفي كلِّ ساعةٍ
أرَى حَسَناتي في موازينِ أعدائي

ومنه أيضاً :

إذا محاسِنيَ اللاتي أمتُّ بها
عُدّتْ مَساوىءَ قُلْ لِي كيفَ أعتذِرُ !

وما أحسَنَ ما قاله أبن المظفّر محمد بن عليٍّ الواعظ الدوريّ :

يتوبُ على يَدِي قومٌ عُصاةٌ ... أَخافَتهم من البارى ذُنوبُ

وقلبي مُظلِمٌ من طُولِ ما قَدْ ... جَنَى ، فأنا على يدِ مَن أتوبُ !

كأنّي شمعةٌ مابين قومٍ ... تُضيءُ لهم ويحرِقها اللهيبُ

كأنّي مُخْيَطٌ يَكسو أناساً ... وجِسْمي من ملابِسهم سليبُ

وقال أبو طالب بن زيادة :

تستضيئون بي فأهلِكُ وَحْدي ... فكأني ذُبالةٌ في سِراجِ

وقد ذكر الحافظ شهريار بن شيرويه فى كتاب الفردوس الأعلى : أنبأنا أبى رحمه الله تعالى ، أنبأنا أبو علىّ بن البنّاء البغدادى ، حدثنا أبو علىّ بن شاذان، حدثنا محمد بن الحسن بن مِقْسم العطَّار ، حدثنا إدريس بن عبد الكريم المقرى ، حدثنا الحكَم بن موسى ، حدثنا محمد بن مسلمة الحرّانىّ ، عن جعفر بن مُخارِق ، عن إبراهيم ، عن الحسن ، عن جُندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «العالِم بغير عَمَل كالمِصباح يحرِق نفسَه ويضىء للنّاس» .وقال: « مَثَل العالم الذى يُعلِّم النّاسَ الخيرَ ويَنسَى نفسَه كمَثَل السِّراج يضىء للنَّاس ويَحرِق نفسَه ». رواه الطَّبَرانىُّ عن أحمد بن المعلّى الدِّمشْقى ، عن هشام بن عمار ، عن علىّ بن سُليمان الكلبىّ، عن الأعمش ، عن أبى تميمة ، عن جُنْدُب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . الحديث .

* * *

٨٥ — وقوله: فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَهُوَ بِكَ وَبِى ـ فيكَ ـ أَوْلَى .

يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١) . والمَثَلُ الأعلى الصِّفة العُليا ، قال ابن عبَّاس رضى الله عنهما : هى أنْ ليس كمِثلِه شىء ، أو هى أنّه لا إله إلاّ هو .

وما أحسنَ قولَه : « وهوَ بكَ وبى فيك أوْلى » ؛ كأنّه يقول : هو بكَ أَوْلى وهو بى كذلك إذا كان فيك ، فكِلاَ الحالَيْن مخصوصٌ بك .

---

(١) سورة الروم ٢٧

وما أحسنَ ما يُنسب إلى الإمام الشافعىّ رضى الله عنه :

قالوا يزورُك أحمدٌ وتزورُه ... قلتُ الفضائلُ لا تُفارِق منزِلَهْ
إنْ زرتُه فلِفضله ، أو زارَنى ... فبِفَضْلِه ؛ فالفضلُ فى الحالَيْن لَهْ

وقال ابن صردرّ :

لكَ المثَل الأعلى بكلّ فضيلةٍ ... إذا ملأ الرّاوى بها الفورَ أتْهمَا
لآلئُ من بحرِ الفضائِل إنْ بدت ... لغائصِها صلّى عليها وسلّما

وقال أبو بكر بنُ عمّار :

لكَ المثَلُ الأعلَى وما أنا حادثٌ ... ولا أنا ممّن غيّرتْه الحوادثُ
أظنُّ الّذى بينى وبينَك غيّرتْ ... حلاوتَه عنى الرجالُ الأخابِثُ

وقال الوزير أبو حفْص عُمر بنُ شُهَيد :

لكَ المثَل الأعلى إذا ذُكِر النّدَى ... ودَعْ هَرِماً فيما سمعتَ وحاتِماً

وقلتُ أنا من جملةِ أبيات :

كريمٌ تخطّى الناسَ من أهل عصره ... أجلُّهمُ قولاً ، وأحلامُهُمْ فِعْلاَ
إذا عُصْبةٌ ما بينَها ذُكِر النّدَى ... يكون له من جُودِه المثَل الأعْلَى

* * *

٨٦ — وقوله : وَلَعَمْرُكَ مَاجَهِلْتُ أَنَّ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ ، إذا بَلَغَتْنِي الشَّمْسُ وَنَبَا بِيَ الْمَنْزِلِ .

لَعَمْرُكَ ، اللامُ لتأكيد الابتداء ، وتقديرُه « وحَياتِك قَسَمى » .

نَبَا بفلانٍ مَنزلُه إذا لم يُوافِقْه ، وكذلك فِراشُه ، وهو يشير بذلك إلى قول أبي تمّام من قصيدةٍ مَدَح بها محمد بْنَ عبد الملك الزّيّات ويُعاتِبه :

وإنّ صَريحَ الرأى والحَزْم لامرئٍ
إذا بَلَغتْه الشمسُ أن يتحوّلاَ[1]

وهذا من قصيدةٍ عاتَبَ فيها ابنَ الزّيّات ، وأوّلها :

لَهانَ علينا أن نَقُول وتَفْعَـــلا
ونَذكُرَ بعضَ الفَضْل منكَ فتفضُلا

ومنهـا :

سأَقْطع أَمطاءَ المَطايا برِحْلةٍ إلى الوطنِ القُربى هجراً ومَوصِلاَ

وقف بُهلُول على رَجُل فقال له : خبِّرْنى عن قول الشاعر :

* وإذا نَبا بكَ منزلٌ فتحوّلِ *

كيفَ هوَ عندكَ ؟ قال : جيِّد ، قال : فإن كان فى الحَبْس كيف يتحوّل ؟ فانقطَع الرّجل ، قال بُهلول : الصوابُ قول الآخَر :

إذا كنتَ فى دارٍ يسوءكَ أهلُها
ولم تكُ مَكبُولاً بهـا فتحَوّلِ

(١) ديوانه ٢٥٤

غير الرَّحيل كفى البلا د برحلة الفُضلاء هُجْنَه

وقال ابنُ المنير الطّرابُلُسِيّ من أبيات طويلة في هذا المعنى :

وإذا الكريمُ رأى الخُمولَ نزيلَهُ في منزلٍ فالحَزْمُ أن يتحوَّلاَ
كالبَدْر لمّا أن تضاءَلَ جَدَّ في طلب الكمالِ فحازَه متنقِّلاَ
سَفَها لحلمك إن رضيت بمَشْرَب
رَنْقٍ ، ورِزْقُ الله قد ملأ الفَلاَ
فارِقْ تَرُق كالسَّيفِ سُلَّ فبانَ في
مَتْنَيْه ما أخفَى القِرابُ وأخملا
للقَفْرِ لا للفقر هَبْها إنما مَغْناك ما أغناك أَنْ تتوسّلا
لا ترض من دُنياك ما أَدْناك من دَنَسٍ ، وكن طَيْفا جلاَ ثم انجَلى

وقال أبو بكر الخُوَرَازمِيّ :

لِمْ لا أجانِس دَهْرى في تقلّبه لم لا أُبادِلُ إنساناً بإنسانِ
لمْ لا أحاكى حَبِيباً في مَقالته
ما اليومُ أوّلَ توديعى ولا الثّانى
لِمْ لا أُقارِض ما قد قاله حَسَنٌ
وَصْلا بوصلٍ وهِجرانا بهِجْران

وأنشد أبو محمد غانم من شعراء الذّخيرة هذين البيتين :

وإذا الدِّيار تنكّرتْ عن حالها فذَرِ الدّيار وأسْرِعِ التَّحويلا[١]
ليس المُقامُ عليكَ حتْما واجباً في بَلْدةٍ تدَعُ العزيزَ ذليلا

وسئل الزيادة عليهما فقال :

لا يرتضِي حُرٌّ بمنزلِ ذِلّةٍ لو لم يَجِدْ في الخافِقَين مقِيلاَ

(١) الذخيرة ٢ : ٣٤٦

فاخصُصْ لودّك من خبرتَ وَفاءهُ ... لا تتّخِذْ إلاّ الوفيَّ خَليلاَ
فلقد خبرتُ النّاسَ منذ عرفتُهمْ ... فرأيت جِنْس الأوْفياء قَليلا

وقلتُ أنا :

سافِرْ تَنَلْ عزّاً فما مِثلُكَ الوَرَى ... إلاّ دماً فى سُرَّةِ الغِزْلانِ
والرّمحُ لمّا فارَقَ الوَطَنَ اغتدَى ... بذُؤابة خفَقَتْ وتاجِ سِنانِ

وقلت أيضاً :

سافِرْ تَنَلْ رُتَبَ المَفاخِرِ والعُلاَ ... كالدُّرّ سارَ فصار فى التيجانِ
وكذا هِلالُ الأُفْقِ لو تَرَكَ السُّرَى
ما فارَقَتْه مَعَرَّة النُّقْصانِ

وقلتُ أيضاً :

سافِرْ فإنّ الليثَ لمّا غاب عن ... غابٍ حَواهُ أشْبَعَ الأشْبالاَ
والسيفُ لو لَزِم المُقامَ بجَفْنِه ... ما راعَ أعداءً وراقَ صِقالا
وكذاك بَدْرُ التّمِّ لو تَرَكَ السُّرَى
أبصرْتَه طولَ الزّمان هِلالاَ

* * *

وبايعتُ لَيلى فى الخلاء ولم يَكُنْ
شهودى على ليلى عدولٌ مَقانِعُ

وقال الأصمعىُّ : سمعتُ أعرابيًّا يقول : إنّ الآمال قطَّعتْ أعناقَ الرِّجال ؛ كالسَّراب غرّ مَن رآه ، وأخلفَ مَن رجاه .

وقال الشريفُ الرَّضِىُّ :

لم يَشتمِل قلبي الرّجاء ولم يكنْ طَرْفى جنيبة كلِّ برقٍ نائرٍ (١)
وأبَيْتُ أن تردَ المَطالِبَ هِمّتى
أوْ أن يسفّ إلى المَطامِع طائِرى

وقال أبو الفتح البُستىّ :

يامن عقدتُ به الرّجاء ولم يكنْ لى منهُ إرْفادٌ ولا إيناسُ
إن كان قد جَرَح المَطامِع عِفّتى
فوراءَ ذاكَ الجرح يأسٌ ياسُو

ومما يُنسَب إلى أمير المؤمنين علىٍّ رضى الله عنه :

إذا عُوفىَ المرءُ فى جِسمِه وخوّله اللهُ قَلْبًا قَنوعا
وألقى المطامعَ عن نفسِه فذاكَ الغَنِىُّ ولو ماتَ جُوعا

وقال ابنُ نُباتة السّعدىّ :

أرْضى وأقنَع بالآمال كاذِبَةً فما يَضُرُّك لو أَلْقَيْتُ أطماعِى
قدكان يُعرَف وجهُ الذُّلّ فى نظَرى ويَظهر العجزُ والتّقصير فى باعِى

وقال أبو رَوْح ظفر الهَرَوىّ :

ولو أنّ أطرافَ الرماح وفَيْنَ لى لأخذتُ حقّ الدّهر مِن أبنائه

---

(١) ديوانه ١ : ٣٧١

هَمٌّ مؤرِّقةٌ جفونى كلما أرخَى الظلام علَى ذيلَ خِبائِه
هِمَم النّفوس مَنوطة بعنائها والمرء يَخدَعه لسانُ رَجائِه

وقال الأمير أبو الفضل المِيكالىّ :

دَعِ الحرصَ واُقنعْ بالكفافِ مِنَ الغِنَى
فرزقُ الفَتَى ما عاش عنه بعَيْشِه
وقد يُهلِكُ الإنسانَ كثرةُ ماله
كما يُذبَح الطاوسُ مِن أجلِ رِيشِه

وعن عبد الله بن الحَسَن قال : أُنشِد المأمونُ بيتَ أبى العتاهية يخاطب سَلْمًا الخاسر :

تعالَى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عَمرٍو أذلّ الحِرص أعناقَ الرجالْ

فقال : إنّ الحِرص لمَفسَدة للدّين والمروءة ، والله ما عرفتُ من رجل قطّ حِرْصا ولا شرها ، فرأيتُ فيه مُصطَنَعا ؛ فبلغ ذلك سَلْمًا فقال : وَيْلى على المخنَّثِ الزِّنْديق ، جَمَع الأموال فكنزها ، وعبّأ البِدَرِ فى بيته ، ثمّ تزهّد رياء ونِفاقا ، وأخذ يَهتِف بى إذا أنا تصيّدت للطّلب .

قال المدائنىّ : كان أبو الأسوَد يَدخُل على عُبيد الله بن زيادٍ ويشكو أنّ عليه دَيْنا لا يجد إلى قضائه سَبيلا ، فيقول له : إذا كان غداً فارفعْ إلىّ حاجتَك ، فإنّى أحبُّ قضاءها ، فيَدخل عليه من غدٍ فيُذكِّره وعدَه ، فيتغافَل عنه ، ثمّ يعاوِدُه فلا يَصنع فى أمره شيئا ، فقال أبو الأسوَد :

دعانى أميرى كى أقولَ بحاجتى فقلتُ فما رَدّ الجوابَ ولا استمعْ[1]

(١) ديوانه ٣٠ ، وروايته : « ماصين » .

فقلتُ ولم أحسُس بشيء ولم أصُن
كلامي ، وبعضُ القَوْلِ ماضَرّ أو نَفَعْ
وأجمعتُ يَأْساً لا لبانةَ بعدَه ولَلْيأْسُ أدنى للعَفافِ من الطَمَعْ

وفى المَثَل : الطّمع الكاذب يدُقّ الرّقبة ، قاله خالد بن صفوان لأنّهُ كان قد بنَى دكّانا مربّعا لا يسَع غيرَه ، ولا يصل الراجلُ إليه . وكان إذا تغدّى قَعد عليه وحيداً يأ كل لِبُخْله ، فجاء أعرابىّ على جَمَل ساوَى الدّكان ومدّ يدَه إلى طعامه ؛ فبينما هو يأ كل إذ هبّت ريحٌ فحركت شيئا هنا لك ، فنَفَر البعيرُ فانْدَقت رقبتُهُ ، فقال خالد : الطّمَع الكاذب يدقّ الرّقبة .

* * *

٨٨ — وقوله : فلا أستوطىء العجْز ، ولا أطمئنّ إلى الغرور .

استوطأتُ المركَب إذا وجدتَه وطيئا ، أى ليّنا سَهْلا .

والعَجز ضدُّ القُدْرة ، والطُّمأْنينة : السّكون ، والغُرور : ما اغتُرّ به من مَتاعِ الدُّنيا . وفى المثل : العَجْزَ وطىء ، أى وثير ، يُضرَب لِمن استوْطأ مركَب العجز ، وقَعد عن طلَب المكاسب ، ولمنْ ترَكَ حقّه مخافةَ الخصومة .

وفى المَثَل أيضا : العَجْز رِيبة ؛ يعنُون أنّ من أقرّ بالعجز على نفسه ، فهو مُريب ، قال بعضُ الشعراء :

خاطرْ بنفسِك لاتقعد لمَعْجزَةٍ فليس حُرٌّ على عَجْزٍ بمعذور
إن لَمْ تَنَلْ فى مقامٍ ماتطالبه فأبْلِ عُذْرًا بإدْلاج وتَهْجير
لَمْ يَبلُغ المرء بالإحجامِ همّتَه حتّى يُباشِرها منه بتغْرير
حتّى يواصَل فى أنحاء مَطلَبِها سَهْلا بحَزْنٍ وإنجاداً بتغْوِير

وفى المَثَل : أغرّ من الدُّباء فى الماء . الدُّباء : القرْع .

ويقال أيضا : لا يَغُرّنّكَ الدُّبّاء ، وإن كان فى الماء .

قال حمزة الأصفهانىّ : لا أعرفُ معنَى هذين المَثَلين .

قال المَيْدانىُّ : معنى الأوّل منتزَع من الثانى ؛ لأنّ أعرابيًّا تناول قرعا مطبوخا ، وكان حارًّا فأحرقَ فمَه ، فقال : لا يَغُرّنّك الدُّبّاء ، وإن كان [نشوه] فى الماء[1] .

ويقال أيضا : أغرُّ من سراب .

ويقال أيضا : أغرّ من الأَمانىّ .

وقال الشاعر :

إنّ الأمانىّ غَرَرْ والدَّهرُ عُرْفٌ ونُكرُ

* مَن سابَقَ الدهرَ عثَرْ *

ويقال أيضا : أغرُّ من ظبي مقمر ، لأنّ الخِشْف[2] يغترُّ باللّيل القمر ، فلا يحترز حتى تأكله السباع .

وقال ابن سناء الملك :

ولكم وجدتُ الموتَ حلـ ـواً حين ذُقتُ الذّلّ مرّا

ولكم أعيِّر بالغرور نَعَمْ فَفَطِنْتُ وكنت غِرّا

سأسيرُ عنهم طائعاً فعسى الهلالُ يعودُ بدْرا

وأجِدُّ لى رزقًا وإخوا نا ومنزلةً وعمرا

---

(١) الميدانى ٢ : ٦٤

(٢) الخشف : الظبى أول مايولد .

٨٩ – وقوله : ومن الأمثال المضروبة : خامرى أم عامر

وهذا من الأمثال المضروبة تقول العرب : خامرى حضاجرُ ، أتاكِ ماتُحاذر[١]. وحضاجر اسمٌ للضَّبُع يقع على الذَّكر والأنثى . ومن أسجاعهم فى مثل هذا : لِمْ تُرَعْ ياحضاجر ، كفاكِ ما تُحاذِرُ ، ضُبارِمٌ مُخاطر ، ترهبهم القَساور – يعنى الأُسُود – وهذا جعل مَثَلا لمن عَرَف الدُّنيا فى نقْضها عقودَ الأمورِ بإيراد البلاء عقيبَ الرَّخاء . ثمّ يسكن إليها مع علمه بأنَّ من عادتها أن تسلب ما وهبتْ كما تغترّ الضَّبُع بقول القائل : خامِرى أمّ عامِر[٢] ، وأمّ عامر كُنْيَة الضَّبُع ، وهى من أشهر كُناها .

وقوله : «خامِرى أمّ عامر» : هذا من الأمثال المضروبة للغافل المغرور .

وفى المَثل أيضا : لا أكون كالضَّبُع تسمع اللَّدْم فتخرج حتّى تُصاد .

وقوله : « خامرى » ، أى تسترّى ، كأنّه من الخمار ، وزعموا أنّها أحمق الدّوابّ ؛ لأنّهم إذا أرادوا صيدها رموا فى جحرها بحَجَر ، فتحسبه شيئا تَصيدُه ، فتخرُج لتأخذَه فتُصاد . ويقال لها : أبشرى بجرادٍ عظالٍ[٣] ، وكَمَر الرّجال ، فلا يزال يقال لها ذلك حتّى يدخُل عليها رجل ، وهو يقول : خامِرى أمّ عامر ، فيَربط يديْها ورجليها ، ثمّ يجُرّها إلى خارج الجُحْر .

وما أحسَنَ قولَ البهاء زُهَير :

يا هذه لا تغْلطى واللهِ مالى فيكِ خاطر[٤]

---

(١) الميدانى ١ : ٢٣٩

(٢) الميدانى ١ : ٢٣٨

(٣) الجراد العظال : الذى ركب بعضه بعضاً كثرة .

(٤) ديوانه ٧٤

خدعوكِ بالقول المُحـا ... لِ فصَحّ أنَّكِ أمُّ عامِرْ

وذكرتُ هنا لى بَيْتَيْن نظمتهما فى معنى اقتضَتْه الحالُ ، وهما :

وغانيةٍ عُلِّقْتها ظبيـةً ومذْ ... غدت ضَبُعًا سلبتُها من ضمائرى

فبالأنس كانت أم عمرو جميلةً ... فما بالُهـا قد أصبحتْ أمّ عامِرِ !

* * *

٩٠ — وقولُهُ : وإنّى مع المَعرفة بأن الجلاء سِباء ، والنقلة مُثْلَة

ومَن يَغترِبْ عن قومِهِ لم يزَلْ يَرَى
مصارِعَ مَظْلوم مجرًّا وَمَسْحَبًا
وتُدفن منه الصَّالحاتُ وإن يُسِأْ
يكنْ ما أساء النّار فى رأس كبكبا

الجلاء : الخروجُ من البلد والوَطن .

والسِّباء والسَّبْي والإصباء كلّه بمعنى الأسر ، تقول منه : سَبَيْتُ العدوَّ سَبْيا ، وسبأ ، واستباء . والنقلة : الانتقال من مكانٍ إلى مكان . والمُثْلة التنكيل ، مَثَّل بالقتيل جدّعه .

وكبكب : اسم جبل عالٍ ، وقد صرّفه امرؤُ القيسِ فى قوله :

فريقان منهمْ جازعٌ بطن نَخْلةٍ ... وآخَرُ منهمْ قاطعٌ نجد كبكبِ

وقوله : الجلاء سِباء ، أخرجه مخرج المثل .

وأما قوله : النَّقلة مثلة ، فليس هو من أمثال العرب ، وإنما هو من أمثال المولدين .

وابتلاء من الأمور الشاقة التى لا تُقبل عليها النُّفوس ولا تتجرع مرّ مذاقها ، وقد قرنه الله بالقتل فى قوله : ﴿ ولَوْ أنَّا كتبْنا عليهم أن اقتلوا أنفسَكم أو اخرجُوا من دِيارِكم ما فعَلوه إلاَّ قليلٌ منهم [١] ﴾ : وقوله تعالى : ﴿ كتبْنَا ﴾ أى أوْجبْنا وفرضنا . كما أمر بنى إسرائيل من قبل بقتل أنفسِهم وبخروجِهم من دِيارهم . وهذه الآية نزلت فى ثابت بن قيْس ابن شمّاس ؛ لأنه كان قد سَمِع يهوديًّا يقول للمِقداد : قاتل الله هؤلاء ، يزعمون أنَّه نبِىٌّ ، ويتّهمونه فى الحكْمْ بينهم ، واللهِ لقد أذنبنا مرة فى حياة موسى ، فدَعانا إلى التوبة ، فقال : ﴿ اقتلُوا أنفسكم ﴾ ، فبَلغ قتْلانا سبعين ألفًا فى طاعة ربِّنا حتّى رضى عنّا . وقال اليهودىُّ ذلك لما رأى الأنصارىّ قد سَخِط من حُكمْ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم . فقال شمّاس عند ذلك : والله لو أمَرنى محمد أن أقتُل نفسى لفعلتُ .

ولما نزلتْ هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم القليل : والله لو أمرنا بذلك لفعلنا ، فالحمد لله الذى عافانا ؛ فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أمتى رجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » .

وما أحسن قول القاضى الفاضل رحمه الله تعالى : الخروج من الديار مقرونٌ بالقتْل فى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الناس كما قال الشاعر نفوسُ الدِّيار ، فخروجهم منها قتلُها ، وانتقال ولا يتهمْ عنها عزْلُها .

وأمَّا المثل الأوّل المولّد وهو قولُه : النُّقلة مُثلة ، فقد قلت أنا : النوى توى ، الأول بالنون ، والثانى بالتاء ثانية الحروف وهو الهلاك ، والغربة كربة ، والشتات ممات ، والافتراق احتراق .

ومن كلام الحكماء : الغريب كالفرس الذى زايل أرضه ، وفقد شربه ،

---

(١) سورة النساء ٦٦

ما مِن غريب وإنْ أبدَى تجلُّدَه ... إلاّ سيَذكر عندَ الغُربة الوَطَنا

وهذان البَيْتان اللّذان أورَدَهما ابن زيدون ، من شعر عُرْوة بنِ الوَرْد ، وبعضُهم يَنسبهما إلى الأعشى ، والغُرْبة عندهم في نظير الفقْر .

قال شاعر باهلة(١) :

سأَعمِل نَصَّ العِيسِ حتّى يكفَّنى ... غِنَى المالِ يوماً أو غِنَى الحَدَثانِ
فلَلموتُ خيرٌ من حياةٍ يُرَى لها ... على الحرِّ بالإقلال وَسْمُ هَوانِ(٢)
متَى يتكلّمْ يُلْغَ حرُّ كلامِه ... وإن لم يَقُل قالوا عَديمُ بيانِ
كأنّ الغِنَى في أهْله بُورِكَ الغِنَى ... بغيرِ لسانٍ ، ناطقٌ بِلِسانِ

وقلت أنا مضمِّنا :

تمتّع من الأوْطان بالظّلّ بالذُّرَى ... فلَم يَلْقَ رِفْقاً من تجافَى رَفيقَه
ولا تَنْأَ عن أرضٍ أَلِفتَ رُبُوعَها ... فمن يَغترِبْ يَحْسَبْ عدوًّا صَديقَه

* * *

٩١ — وقوله : عَارِفٌ بِأَنّ الأَدَبَ الوَطَنُ لا يُخْشَى فِرَاقُه ، وَالخَلِيطُ لا يُتَوقّع زِيالُه .

الخليط : المُخالِطُ ، كالنَّديم والمُنادِم ، والجَلِيس والمُجالِس ، وهو واحد وجَمْع ، وقد يُجمَع على خُلَطاء وخُلُط . والزِّيال : مصدرُ زايَله مُزايلةً وزِيالاً إذا فارَقه .

(١) الكامل للمبرد ١ : ٣١٥ (٢) الكامل : « مس هوان » .

وقوله : «عارفٌ»، خبر «إنّ» فى قوله: «وإنى مع المعرفة بأنّ الجلاء سِباء» وما بعده إلى آخر البيتين . وقوله : «بأنّ الأدب» إنّ واسمها .

وقوله : « الوَطن لا يُخشى فراقهُ » ، هذه الجملة من المبتدأ والخبر فى موضع الخبر ؛ لـ«إنّ» فى قوله: «بأنّ الأدب» كأنه قال: الأدب ألاّ يخشى فراقُ الوَطن ؛ وهذا كثير فى كلامِهم .

* * *

٩٢ — وقوله : والنَّسيب لا يُجفَى ، والجمالُ لا يخفى .

النَّسيب : ذو النَّسَب . وفى المَثَل : القريبُ من تقرّب لا مَن تنسّب ، أى ادّعى أنه نَسيبُك . هذه الجُمَل كلُّها معطوفة على قوله : الوطنُ لا يُخشى فِراقُه » .

وقال المغيرة بن حَبْناء :

ليسَ العزيزُ بِمَن تُغشَى محارمُه ولا الكريمُ بِمَن يُجْفَى ويُحتقَرُ

* * *

٩٣ — وقولُه : ثمّ مَا قِرانُ السَّعْد للكواكب أبهى أثرًا ، ولا أسنَى خَطرًا ، مِن اقترانِ غِنَى النَّفسِ به ، وانتظامِهَا نَسَقًا معه .

اقترن الشىء بغيره وقارنتُه قِرانًا: صاحَبْتُه ، ومنه قِران الكواكب ، والقرانُ أن تجمع بين تمرتين فى الأكل .

أبهى ، أفعل من البهاء، وهو الحُسْن . والسَّناء، ممدود: الرِّفعة . والشرف.

إذا صديقٌ نَكِرْتُ جانِبَه لم تُعْيِنِي في فِراقِهِ الحِيَلُ(١)
في سَعةِ الخافِقَين مُضطرَبٌ وفي بلادٍ مِنْ أُختِها بَدَلُ

وقال عمرو بنُ أوْس :

شَرِّقْ وغَرِّبْ تَجدْ مِن غادِرٍ بَدَلا
فالأرضُ من تُرْبةٍ والناسُ من رَجُلِ

وقال محمّد بنُ شَرَف القيْرَوانيّ :

وصَيِّر الأرضَ داراً والوَرَى رَجُلاً
حتّى ترى مقبِلا في النّاس مقبولا

ومن هذه المادّة قولُ أبي تمّام الطائيّ :

وَمَا رَبْعُ القطيعةِ لي بِرَبعٍ ولانادِي الأَذَى منّي بنادِ(٢)

وقول أبي الطّيب أحمد بن عبد العزيز المَقدِسيّ :

ياواقفاً بين الفرات ودِجْلةٍ عَطْشانَ يطلُب شَرْبةً من ماء
إنّ البلادَ كثيرةٌ أنهارُها وسَحابُها وغزيرةُ الأنواء
ما اختلّت الدنيا، ولا عُدِم النّدَى فيها ولا ضاقَتْ على العُلَماء
أرضٌ بأرضٍ والّذي خَلَق الوَرَى قد قَسَّم الأرزاقَ في الأَحْياء

وقال الشريف الرّضيّ :

مالِيَ لا أرْغَبَ عن مَنزلٍ يُكْثِرُ فيه الدّهرُ حُسّادِي(٣)

---

(١) ديوانه ٣ : ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) ديوانه ٨٠ .

(٣) ديوانه ٢٢٩ ، وروايته :

مالِيَ لا أرغبُ عَنْ بلدةٍ ترغبُ في كثرةِ حسادِي

ما الرِّزقُ فى الكَرْخِ مقيمٌ ولا طَوْقُ العُلا فِي جِيدِ بَغْدادِ

قال أيضاً :

أبغدادُ مالِى فيكِ نَهْلَةُ شاربٍ من العَيْشِ الاّ والخُطوبُ مِزاجُها(١)

وقال ابنُ سناء المُلْك :

لِمَ لا أهِـــينُ كِبارَهم وصِغارَهم تيهـاً وكِبْرَا
ما النِّيل من ماء الحيا ةِ ولا جميعُ الأرضِ مِصرَا

كلّ هذا مستمدٌّ من قولِ ابن أخى أبى دُلَفٍ العِجْلىّ ، وهو :

دَعِينِى أجوبُ الأرضَ فى طَلب الغنى
فما الكَرْخ بالدُّنيا ، ولا النَّاسُ قاسِمُ

* * *

٩٦ — وقوله :

وضُوحِكَ قبلَ إنزالِ رَحْلِه ، وأُعطِىَ حكم الصّبىّ على أهْلِه .
وقيلَ لَهُ أَهْلًا وسَهْلًا ومَرْحَباً فهذا مَبيتٌ صالحٌ ومَقيلُ

ضُوحِكَ قبل إنزالِ رَحْلِه، إشارةٌ إلى قول عَمْرو بن الأَهْتم المِنْقَرِىّ .
والّذى أعرِفه من هذا البيت أنّه :

فقلتُ له : أهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَباً فهذا مبيت صالحٌ وصَديقُ(٢)

وقوله : «وضُوحِكَ قبلَ إنزالِ رَحْلِه» من قول عَمْرو بن الأَهْتم ـ وقيل

---

(١) ديوانه : ١٨٢ (٢) الذى فى مفضليته ٢٣

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحبا فهذا صبوحٌ راهنٌ وصديقُ

لحاتم الطائى :

أضاحكُ ضَيفى قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ
ويُخصِبُ عندى والزَّمانُ جَدِيبُ

وما الخِصْبُ للأضْيافِ أن تُكْثِرُ القِرَى
ولكنما وَجهُ الكريمِ خَصِيبُ

كانوا يَعُدّون تلقى الأَضياف بالبِشْر وتَهلُّل الوجه وإظهار السرور به من كمالِ مروءتهم ، ولهذا قال :

بَشاشةُ وجهِ المرءِ خيرٌ من القِرى
فكيفَ إذا أهدَى القِرَى وهو ضاحكُ !

وقال القزّى :

يا بنت من يَقرى الضيوفَ تبسّمى
إنّ التبسُّمَ من قِرَى الأضيافِ

وقال أبو تمّام الطائى :

فتطلّق مع السنايةِ إنّ البِشْ ... رَ فى أكثرِ الأمورِ بشيرُ (١)
إنّما البِشْر رَوْضةٌ فإذا كا ... نَ ببذلٍ فروضةٌ وغديرُ

وقال أبو الأسود :

إذا ما أتاه السائلون توقّدتْ ... عليه مَصابيحُ الطّلاقةِ والبِشْرِ

وقال أبو تمّام الطائى :

يعطى عَطاءَ المُحسِنِ الخَضِلِ النَّدَى ... عَفْواً ويَعتذِرُ اعتذارَ المُذنِبِ (٢)

---

(١) ديوانه ٣٩٧   (٢) ديوانه ١٣

ومرحّب بالزّائرين وبِشْرُه يُغْنيك عن أهلٍ لديه ومَرْحَبِ

وقال أيضا :

إذا أمّه العافُونَ ألفَوْا حِياضَه مِلاءً وألفَوْا رَوضه غيْرَ مُجدِبِ (١)
إذا قال أهلاً مَرْحبا نَبعَتْ لهم مِياهُ النَّدَى من تحْتِ أهْلٍ ومَرحبِ

وقد ضمّنتُ أنا صدرَ ذلك البيتِ فى المجون ، فقلت :

وجاريةٍ تُلهى النّديم إذا علا عليها بطول الدّهر فى حالِ فِعلِهِ
تقول كذا لى عادَة مستمِرّة أُضاحِك ضَيْفى قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ

وقوله : « وأُعطِى حُـكْمَ الصّبىّ على أهلِه » ، كانت العَرَب تقول : نَزَلْنا على فلان ، فجَعَل لنا حُـكمَ الصّبىّ على أهلِه .

وقال ابن القبطرِيّة فى رُقْعةٍ كتبَها :

يحِقّ لى أن أَذْهب شَطَطا ، وأتـكلّمَ مَنبَسِطا ، وأبين غرضى كلّه وَمذهبى ، وأتحـكّمُ على مكارِمِك تحـكُّمَ الصّبى ، وأبلُغ بك كلَّ أمَلٍ وأرَب ، وأملأ دلْوى من جاهِك إلى عَقْد الـكَرَب (٢) .

وكان أبو سُفيان إذا نزل به جار قال له : يا هٰذا إنّك قد اخترْتنى جاراً ؛ واخترتَ دارى دارا ، فجناية يدك علىّ من دُونك ، وإن جَنتْ عليك يدفاحتـكم حكم الصبىّ على أهلِه .

قال الشاعر :

ولا تحكُمَا حُكمَ الصّبىّ فإنّه كثيرٌ على ظَهْر الصديقِ مجاهِلُهْ

---

(١) ديوانه ٢٤ .
(٢) الـكرب : الحبل الذى يشد على الدلو .

وقال أبو تمّام الطائىّ :

ظِلّ عُفاةٍ يحبّ زائِرَه حبّ الكبير الصغير من وَلَدِهْ (١)
إذا أناخُوا ببابه أخذُوا حَقّهم من لِسانه ويَدِهْ

وقال أبو فِراس :

ونفتدى الكومَ أشتاتاً مروّعة لا نأمن الدهرَ إلاّ مِن أعادِينا (٢)
ويصبح الضيف أولانا بمنزلنا نرضَى بذاكَ ويُمضِى حُكمَه فِينا

وقال شاعرُ الحماسة :

نزلتُ على آل المهلّب شاتِياً غريباً عن الأوطان فى زَمَنِ المَحْلِ (٣)
فما زالَ بى إحسانُهُمْ وجميلُهُمْ وإلطافُهُمْ حتَّى حَسِبْتهُمُ أَهْلِى

أخذَه القاضى الرّشيد بن الزّبير فقال :

فلما نزلنا فى ظِلال بُيوتِهِمْ أمِنّا ونِلْنا الخِصْبَ فى زمَن مَحْلِ
ولولم يَزِد إحسانهم وجميلهم على البرّ من أَهْلِى حسبتهمُ أَهْلى

وأنشدنى لنفسه إجازةً الشيخُ صَفِىّ الدّين الحِلّى :

وكيف بِعادى مِن مَغانٍ أَلِفتُها وأفنَيْتُ عُمرى بينها وشَبابِيا
وقضّيتُ فيها الأربعينَ مُجاوِراً مُلوكَ البَرايا والبُحورَ الطّوامِيا
أصيف وأشتُو بينهمْ فكأنّنى نزلتُ على آلِ المهلّب شاتِيا

---

(١) ديوانه ٩٢ (٢) ديوانه ٣٩٥ .
(٣) لبكير بن الأخنس ، وهما فى ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٣٠٣ .

٩٧ — وقوله : غيرَ أنَّ الوطن محْبُوب ، والمنشأَ مألُوف .

أخذَ الآن فى نقض ماقرَّر من أنه الأدب ، ألاّ يَخْشى من فِراق الوطن ، وما عُطِف عليه من تِلك الجُمَل ، فقال : غيرَ أنَّ الوطن محبوب ، لِما طُبِعت النفسُ عليه . وقد جاء فى الحديث : « حبُّ الوطنِ من الإيمان » .

وتأوّلَه بعضُ العارفين بأن قال : المراد بذلك حُبُّ النفسِ وَطَنها الأوّل وعالمها القديم من الإيمان ، فأخرَجه بذلك عن المعنى المتعارَف به ، وما يُفهَم من ظاهرِه .

وقال بعضُ الأدباء : كان الناسَ يتشوّقون إلى أوطانهم ، ولا يَفهمون العلّةَ فى ذلك إلى أن أوضحها ابنُ الرُّوميّ فى قصيدته لسليمانَ بن عبدِ الله ابن طاهر يَستَعْدِيه على رجلٍ من التّجّار ، يُعرَف بابن أبى كامل ، أجْبَرَه على بيعِ دارِه ، واغتصَبه بعضَ حُدودِها ، فقال :

ولى وطنٌ آليتُ ألاّ أبيعَهُ وألاّ أرَى غيرِى له الدّهرَ مالِـكا
عَهِدتُ به شَرْخَ الشّباب ونعمةً كنَعمةِ قومٍ أصبَحوا فى ظِلالِكا
وحبّبَ أوطانَ الرّجال إليهمُ مآربُ قضّاها الشّبابُ هُنالِـكا
إذا ذكروا أوطانَهمْ ذكّرتْهمُ عهودَ الصِّبا فيها فحَنُّوا لذلِـكا

وقال أيضاً يتشوّق إلى بَغْداد :

بلدٌ صَحِبتُ به الشّبيبةَ والصِّبـا ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جَديدُ
فإذا تمثّل فى الضّمير رأيتُه وعليه أغْصانُ الشّبابِ تَميدُ

وقال رجاء بنُ هارونَ المَـكّيّ :

أحنّ إلى وادِى الأَراكِ صَبابةً بعَهدِ الصِّبا فيه وتذْكارِ أوّلِي

كأنّ نسيمَ الرّيح في جَنَباتِه ... نسيمُ حَبيبٍ أو لقاء مُؤمّلِ

وقال أبو سَرْح : سَمِع أبو دُلَف قولَ القائل :

لا يمنعنّك خفض العَيشِ في دَعةٍ ... نزُوع نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ
تلقى بكلّ بلادٍ إن حَلَلتَ بها ... أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيران

فقال : هذا ألأمُ بيتٍ قالته العرب ، وإنّما قال ذلك لأنّه يدلُّ على قِلّة رعائه ، وشدّة قَساوتِهِ ، وحنينُ الرّجلِ إلى وطَنِه إحدى مَناقِبِه التى يعتدّ بها ، وهذا مِن الأدلّة على كَرَم الطّينة ، ووُفور العقل .

قالت الحُكماء : حَنينُ الرّجل إلى وطَنِه من علاماتِ رُشْدِهِ .

وقال بُزُرْجُمهر : من علامات العاقلِ بِرُّه بإخوانِه ، وحَنينُه إلى أوطانِه ، ومُداراتُه لأهلِ زمانِه .

وقال أبو هلالٍ العَسكريّ :

إذا أنا لا أشتاقُ أرضَ عَشيرتى ... فليس مكانى فى النُّهى بمَكِينِ
مِن العَقلِ أن أشتاقَ أوّلَ مَنزِلٍ ... غَنيتُ بخَفْضٍ فى ذَراهُ وَلِين
وروض رعاهُ بالأصائل نَاظِرى ... وغُصْنٍ ثنَاهُ بالغداةِ يمينى
وإنّ لا أنسى العهودَ إذا أتتْ ... بَناتُ النّوى دونَ الخَليطِ دُونى
إذا أنا لم أرْعَ العهودَ على النّوى ... فلستُ بمأمونٍ ولا بأمينِ

* * *

٩٨ — وقوله : واللّبيبُ يَحِنّ إلى وطَنِه ، حَنينَ النّجيب إلى عطنِه .

اللّبيب ، فَعيلٌ من اللُّبّ ، وهو العَقل ، وأُولو الألباب : أصحابُ العقول .

والحَنِينُ : الشَّوق وتَوَقان النَّفْس ، تقولُ : حَنَّ يَحِنّ حنيناً فهو حانٌّ .
والحَنِين : ترجيعُ النَّاقة صَوْتَها إثْرَ وَلَدِها .

والوَطن: مَحلّ الإنسان ، وأوطنْتُ الأرضَ ووَطَّنْتُها توطيناً ، واستوطَنْتُها ؛ إذا اتّخذْتَها وَطناً .

والنجيب : الواحدُ من الإبِل ، والجمع النُّجُب والنَّجائِب . والنَّجيب من الإبل ، هو الفَحْل الكريم .

والعَطَن والمَعطِن واحد الأعْطان والمَعاطِن ، وهى مبارك الإبِل حولَ الماء لِتَشْرَب عَلَلاً بعدَ نَهَل ، فإذا رَوِيَتْ رُدَّت إلى المَرْعى . وفى المَثَل : لولاَ حُبّ الوَطَن لخرب الوطن السوء .

وفيه أيضا : مَيلُك إلى مَولِدِك ، من كَرَم مَحْتِدِك .

ويقال : إنّه ليس فى الحيوان الطائر أشدّ وَفاء من الفاخِتة ؛ فإنّها إذامات إلْفها ؛ لا تزَالُ تَنْدُبه ، ولا تألفُ غيرَه حتّى تموت . وما أرَقّ قولَ مُرار بن هَبّاش الطائىّ :

سَقَى اللهُ أطْلالاً بأخْبِيَةِ الحِمَى ... وإنْ كُنّ قد أبْدَيْنَ للنّاس مابِيَا
منازل لو مَرّتْ بِهِنّ جَنازَتى ... لقال صَدَاىَ : حامِلَىَّ انزِلا بِيَا

* * *

٩٩ — وقوله : والكريمُ لا يَجْفو أرضاً فيها قوابِلُهُ ، ولا يَنْسَى بلداً فيها مَراضِعُهُ ، قال الأول :

أَحَبُّ بلادِ اللهِ ما بَيْنَ مَنْعِجٍ　　إلَيَّ وَسَلْمَى أَن يَصُوبَ سحابُها
بلادٌ بها عَقَّ الشَّبابُ تمائمي　　وأوَّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِي ترابُها

وهذان البَيْتان يُشْبِهان قولَ الآخر :

ذكرتُ بلادي فاستهلَّت مَدامِعي　　لِشَوقي إلى عَهْدِ الصِّبا المُتقادِمِ
حننتُ إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربي　　وقُطِّع عنّي قبل حلِّ التّمائمِ

وقال ابن ميادة :

ألاَ ليتَ شِعْرِي هلْ أبيتَنَّ ليلةً　　بحرَّة ليلَى حيثُ رَبَّتْنِي أهْلي
بلادٌ بها نيطتْ عليَّ تمائمي　　وقُطّعن عنّي حين أدركني عَقْلي

وقال محمد بن غالب الرُّصافيّ :

بلادي التي رِيشَتْ قُوَيْدِمَتِي بها　　فُرَيخاً وآوتْنِي قرارَتُها وَكْرا
مِهادي لِينَ العَيْشِ في رَوْنَقِ الصِّبا　　إلى اللهِ أن أنسى اغتراري بها غِرّا
لبِسْنا بها ثَوْبَ الشَّبابِ لِباسِها　　ولكنَّ عَرِينا مُن حلاه ولم يَعْرا

وهذان البَيْتان اللّذان أوردَهما ابنُ زَيْدون رحمهُ الله تعالى لهما أوّل، وهو :

ألم تَعلمي يادارَ مَلْحاءَ أنّني　　إذا أخْصَبَتْ أو كان خِصْباً جَنابُها

وقوله : « والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابِلُه » . في الأمثال المَضروبة : لا تَجْفُ أرضاً بها قوابِلُك ، ولا تَنْسَ بلداً فيها قبائلُك .

وقال ابن عُيَين :

ولوَ أنّي خُيِّرت في هٰذه الدُّنـ　　ـيا لَمَا اخترتُ غيرَ قومي وداري

---

(١) أمالي القالي ١ : ٨٢ ، واللسان (نوط) وياقوت .

وقوله : « ولا يَنسَى بلداً فيها مَراضعهُ » الرَّضاع له حقٌّ وذِمّة تَجب رِعايَتها . لمّا قدِم زُهير بن صُرَد الجُشَمىّ السّعْدىّ على رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم يوم حنين وهو بالجعرانة قال : يارسولَ الله ، إنّما سُبِيتْ منّا عمّاتك وخالاتُك وحَواضِنُك اللاتى كَفلْنَكَ ، ولو أنّا ملحنا[1] للحارث ابن أبى شمِر أو للنُّعمان بن المُنذر ، ثم نَزَل منّا أحدهما بِمثل ما نزلت به ، رجَوْنا فضلَه وعائدتَه ، وأنت خيرُ المكفولين ، ثمّ أنشد :

اُمْنُنْ علينا — رسولَ الله — فى كَرَمٍ
فإنّك المرء نَرْجـوهُ ونَنْتَظِرُ[2]
اُمْنُنْ على بَيْضةٍ قد عاقَها قَدَرٌ مُشَتّتٌ شَمْلُها فى دَهرِها غِيَرُ
إذ أنتَ طفلٌ لأمّ كنتَ تَرضَعُها إذْ فُوكَ تَملؤُها من مَحْضِها الدِّرَرُ
لا تجعلنَّا كَمَن شالتْ نَعامَتُه واستَبْقِ مِنّا فإنّا مَعشَرٌ زُهُرُ
فالبِسِ العفوَ من قد كنتَ تَرضِعهُ من أمّهاتِكَ ، إنّ العفوَ مُشتهرُ

فى أبياتٍ أكثرَ من هذه ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : «ما كان لى ولِبَنِى عبدِ المطّلب فهو لكم » ، وقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله . وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسولِه .

وما أحسَنَ قولَ ابنِ سَناء المُلْك :

وكم حَنَّ صبرى خشية لتمائمى وكم مَسَّ جِلْدِى مسكه ، لا ترابُهُ
وفى غرْبِ ذيّاكَ العُذيب وبارِقٍ وما ذاكَ إلاّ ثغره ورُضابُهُ

* ٥ *

(١) ملحنا : أرضعنا .
(٢) عيون الأثر ١ : ١٩٦ .

١٠٠ — وقوله : هذا إلى مُغالاتى بعَقد جوارِكَ ، ومُنافستى لِلخُلطة مِنْ قُرْبِك .

المُغالاة ، مُفاعَلة من الغُلُوّ . والمُنافَسة ، مُفاعَلة من المنافسة .

كان عند العَرَب فى رعاية الجَوار ما هو أعجب العَجَب ؛ وذلك أنّ الإنسان إذا لَمس طُنُبَ بَيْته طُنُبَ بيتٍ آخَر لزمهَ حُرْمة الجوار والذِّمة ، وإذا علق له دلوٌ بدلوِ آخَر فى بئرٍ لزمه حُرْمة الجِوار والذِّمة ، وإلى هاتين الفَضيلَتين أشارَ أبو تمّام يُخاطِبُ ابْنَ الزّيّات :

لى حُرْمَةٌ بكَ لولاَ ما رَعَيْتَ وما أوجَبْتَ من حَقِّها ما خِلْتُها تجِبُ[1]
بَلَى لقد سَلَفَتْ فى جاهِليّتِهِمْ للحق ليس كحقّ نصرةٌ عَجَبُ
إن تَعلَق الدَّلْوُ بالدَّلْوِ الغَريبة أو
يلامِسُ الطُّنُبُ المستحصِدَ الطُّنُبُ

وقال أبو إسحاق الغَزّىّ :

ما بعتُ فيك الخَلْق حتى زُرْتُهمْ فعلِمْتُ أنّكَ فوقَهم متيقّنا
وتَخافتى ألاّ يكون لرَغبتى أثرٌ فأبقَى ، لا هُناكَ ولا هُنا
لا ترمنى رَمْىَ القُلامةِ وارْمِ بِى فى مَطلَبٍ رمْىَ الجمار إلى مِنَى
إنّى أعوذُ بما حَوَيْتَ من العُلاَ من أن يجرّب فىّ رأيك ما بنَى

* * *

(١) ديوانه : ٥٥

١٠١ — وقوله : وٱعتقادى أنّ الطمع فى غيرك طَبَع ، والغِنى مِن سِواكَ عَناء .

الطَّبَع بتحريك الباء : الدّنس . والعناء بالمدّ : التّعب ، وفى المَثل : ربّ طمعٍ يُدْنى إلى طَبَع ، قال الشاعر :

لا خيرَ فى طمعٍ يُدنِى إلى طَبَعٍ ‏ ‏ وغُفّةٌ من قوام العَيْشِ تكفِينِي (١)

الغُفّة : القوت ، وأصْلها الفأرة ، سُمّيت بذلك لأنّها قوتُ السِّنّوْر ، وهى بالغَيْن المعجمة والفاء . ويجوز أن تكون بالعَيْن المهملة ، وهو تصحيف حَسَن وأليَق بالبيت ، لأنّ العُفّة والعُفافة بالضم فيهما : بقيّة اللّبن فى الضّرْع .

قال الأعشى :

ماتعادى عنه النّهار ولا يعـ ‏ ‏ ـجوه إلاّ عُفافة أو فُواقُ(٢)

وقولُه : «واعتقادى أنّ الطّمع فى غيرك طَبَع» . هذا يَعُدّه بعضُ أربابِ البديع من الجناس المُطمِع ، وهو متَى فرَغ من ركنه الأوّل وابتدأ بالثانى أطمَع السامعَ أنّه موافق لحروف الأوّل ، فإذا كمَلَ الرُّكن الثانى خالفَ الأوّل ، كقولِه تعالى : ﴿ وإذا جاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأَمْنِ ﴾(٣) ، وكقولِه صلّى الله عليه وسلّم : « الخَيْلُ معقودٌ بنواصِيها الخَيْر » .

وهذا النّوعُ من أعلى هذا الجناس . ودونه أن يُخالفَ الرُّكنُ الثاني الأوّلَ بحرْف فى وَسَطه ، كقوله تعالى : ﴿ وإنّه على ذلك لَشهيد * وإنّه لِحُبِّ الخير

---

(١) البيت فى اللسان (غفف) من غير نسبة .

(٢) ديوانه ٢١١ . تعادى : تباعد . تعجوه : تؤخر رضاعته . الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت . (٣) سورة النساء ٨٣ .

لشديد ﴾(١) . وكقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عنه وينأونَ عَنْهُ ﴾ (٢) .

وقوله : « الطّمع في غيرك طبع » من هذا القسم .

ومن مادة قول ابن زيدون قول الأول :

وإنّي وتركي ندى الأكرمين ... وقدحي بكفّيَ زنداً شحاحا
كتاركةٍ بيضها بالعرا ... ء وملحفةٍ بيض أخرى جناحا

وقال ابن حيّوس :

وها أنا ثاوٍ في جنابك لم أمِلْ ... إلى أملٍ يُمحى ولا مِنّة تُسْدَى (٣)
يعافُ ورودَ الطّرقِ مَن وَجَدَ الحيا
ويأبى الرّضا بالرّشحِ من جاور العِدّا ؟ (٤)

وقال أبو هلال العسكري :

كأنّي إذا أمسكتُ منك بعُرْوةٍ ... أخذتُ بأهدابِ النّجومِ الثّواقِبِ

وقال أبو الطيّب المتنبي :

ولم أرجُ إلاّ أهل ذاك ومَن يُرِدْ
مواطرَ مِنْ غيرِ السحائبِ يَظْلِمِ (٥)

* * *

(١) سورة العاديات ٧ ، ٨ . (٢) سورة الأنعام ٢٦ .
(٣) ديوانه ١٥٠ (٤) والطرق : الماء الذي خوضته الإبل . والحيا : المطر . والرشح : تحلب الماء . والعد : الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع .
(٥) ديوانه ٤ : ١٣٩ .

١٠٢ — وقوله : كلُّ الصَّيْدِ في جوفِ الفَرا

الفَرا حِمارُ الوَحْش ، وأصلُ المَثَل أنَّ ثلاثةَ نفَر خرَجوا متصيِّدين فاصطادَ أحدُهم أرنَبا ، والآخر ظَبْيا ، والثالث حِمار وَحْشٍ ، فاستبشَر صاحبُ الأرنبِ وصاحبُ الظَّبي بما نالا ، وتطاولا[(١)] عليه ، فقال الثالث : « كلُّ الصَّيد في جَوْف الفَرا » ، أي هذا الذي رُزِقتُ وظَفِرتُ به يشتمل على ما عِندَكما ، وذلك أنه ليس مما يَصيدُه [الناسُ][(٢)] أعظم من حِمارِ الوَحْش.

وقد تألَّف النبي صلى الله عليه وسلم أبا سُفْيان بهذا القول حينَ استأذن على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فحَجَبَه قليلا ، ثمّ أذِن له ، فلمّا دَخَل قال : « كِدْتَ تأذَن لحِجارة الجَلْهَتَين » . قال أبو عُبَيدة : الصواب « الجَلْهَتَين » وهاجا نِبَا الوادِي ، فقال عليه السلام : « يا أبا سُفْيان ، أنتَ كما قيل : كلُّ الصَّيْد في جَوْف الفَرا » ، يتألَّفه على الإسلام . وقال أبو العبّاس : معناه إذا حجبتُك قنِع كلُّ محجوب ؛ يضرب لمن يفضل على أقرانِه .[(٣)]

وقال العميد أبو بكر عليّ بن الحُسَين القُهِسْتانِيّ :

أمّا ما قنِصتَ[(٤)] عبودِيّتك عدِّ عن غيْرِي ، فكلُّ الصَّيدِ في جوْفِ الفَرا

وقال الصاحبُ شرفُ الدّين بن عُنَيْن :

نَسَخَتْ خَلائِقَهُ الكريمـــــةُ ما أتى
في الكُتْبِ عن كِسْرَى الملوكِ وقَيْصَرا[(٥)]
لا تسمَعنَّ حديثَ مَلْكٍ بعـــــدَه
يُرْوَى ، فكلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرا

---

(١) م ، ط : وتطولا » .
(٢) تكملة من ط
(٣) الميداني ٢ : ١٣٦ .
(٤) ط : « قبضت » .
(٥) ديوان ٦ .

وقال أبو إسحاق الغزّى :

لا تسألنّ سوى السدادِ ... سَبباً ، فكلُّ الصيد فى جَوْف الفَرَا

وقال ابن المعلّم :

طوى الورى شمرىَ عنّى وانثنى ... يقولُ كلُّ الصَّيْد فى جَوْفِ الفَرَا

وقال أحمد بن حسن المتصوّف الدُّوَيْنى :

لو كان ظُلْمُ الشَّيْب ظُلْما يُتَّقى ... لرَجوْتُ للعَدْوى الوَزيرَ الأكْبرا
إنّى اكتفيتُ من الوَرَى بلقائه ... إذ كان كلُّ الصيد فى جَوْف الفَرَا

وقال أبو الحسين الجزّار يمدح كمال الدين بن العَديم :

وطالمَا حدّثتُ نفسي بالغِنَى ... منكَ وما كانَ حديثاً يُفترَى
ولستُ أختارُ كريماً بَعدها ... عنكَ؛ وكلُّ الصَّيدِ فى جَوْف الفَرَا

وذكرتُ هنا ما أنشدَنى لنفسه الشيخُ صفىّ الدين الحِلّى رحمه الله فى مليحٍ لابسٍ شمل فَرْوَة .

بَصُروا بفَرْوِكَ فازْدَرَوْكَ لحالةٍ ... أضحَى بهامَعروفُ حُسْنِك مُنْكَرا
كلٌّ أدارَ الطَّرف عَنْكَ مُحاوِلاً ... صَيْداً، وكلُّ الصيدفى جوف الفَرا

وكنتُ أنشدْتُه لبَعض الناسِ فأنكره، وقال : الفرا حِمارُ الوَحْش — بفتح الفاء — وكلام الصفىّ لا يصحّ معه التورية إلاّ بكسر الفاء؛ فقلتُ : الفرا مفتوحُ الفاء ، مقصورٌ مَهموز — هو الحِمارُ الوَحْشى ، ويُجمَع على فِراء مَمدود، مكسور الفاء، كجبل وجبال .

قال الشاعر(١)

(١) البيت لمالك بن زغبة ، وبقيته :

* بِضَرْبٍ كآذانِ الفِرَاءِ فضوله *

* * *

١٠٣ — وقوله : والبَدَل منك أعوَر ، والعِوَضُ لَفاء .

وإذا نظرتُ إلى أميري زادَني
ضَنًّا به نَظَرِى إلى الأمَـــراءِ

بَدَلٌ أعوَر ، أصلُ هذا المَثَل أنْ يَزيدَ بن المهلّب لمّا صُرِف عن خُراسان بقُتَيبةَ بن مُسلم الباهليّ ـ وكان شَحِيحًا وشَيْخًا أعوَر ـ قال الناس : هذا بَدَلٌ أعوَر ، فصار مَثلا لـكل من لا يُرتَضَى به بدلا من الذّاهب ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كانت خُراسانُ أرْضًا إذْ يَزيدُ بهـا
وكلُّ بابٍ من الخَيْراتِ مَفتـوحُ (٢)
حتّى أتانا أبو حَفْـــصٍ بأسْرتِهِ
كأنّما وجهُه بالخَلّ مَنْضـــوح

واللَّفاء : الشىء الخسيس، يقال: فلانٌ رضىَ من الوَفاء باللَّفاء ، أى عن حَقِّه الوافِر بالقليل الحقير .

ومن مَقاماتِ الحريرىّ : أرْضَى من الوَفاء باللَّفاء وأقنع من الجَزاء

---

* وطعن كإيزاغ المخاض تبُورُها *

(٢) الشعر والمثل فى الميدانى ١ : ٩٠ .

بأقلّ الأجزاء ، ولا أتظلّم حين أُظلَم ، ولا أنعم ولو لدغنى الأرقم (١) .

والأصل فى هذا قولهم فى المَثَل : أعطانى اللفاء ، بضرب لمن يبخسك حقك ، ويظلمك فيه .

وقال أبو الطيب :

وما لاقنِى بـــــلدٌ بَعْدكُم
ولا اعتَضتُ من رَبِّ نُعْماى رَبّا (٢)

ومَنْ رَكِبَ الثَّورَ بعدَ الجـــوا
دِ أنكَـــــرَ أظلافَهُ والغَبَبْ (٣)

وقال ابن حَيُّوس :

وما المرء إلّا من يضنّ بنَفْسه إباءً ولا يَرْضَى من العزّ باللَّفا

ومَنْ لا يَبِيتُ الطّيرَ إن ْ مُنِحَتْ له وإن خالط الماءَ امتنانٌ تعيّفا

يبوء بخُسْرٍ بائع العِزِّ بالغِنَى وأخسَرُ منه مُشترِي القَدْرِ بالوفا

وهذا البيت الذى أورده ابن زَيْدُون رحمه الله تعالى ، هو لعدىّ بن الرِّقاع ، وبَعدَه :

بل ما رأيت جبالَ أرضٍ تستوى
فيـــها غشِيتُ ولا نجومَ سَماء (٤)

---

(٢) المقامة الرابعة ص ٣٤ . والأرقم : الثعبان .

(١) ديوانه ١ : ٩٨ . وما لاقنى ، أى ما أمسكنى .

(٢) الغبب من الثور : ما تدلى تحت حنكه .

(٣) ديوانه ٢٩٢ .

(٤) الشعر والشعراء ٦٠٣ ، والذى بعده هناك :

تَسْمو العيونُ إليه حِينَ يرَوْنَهُ كالبدرِ فَرَّجَ بُهمةَ الظَّلماءِ

والأصلُ ينبتُ فرعُه متأثلًا والكفُّ ليسَ بنانُها بسواءِ

كالغيم منه وابلٌ مُتتابعٌ[١]
غدقٌ وآخرُ لا يجودُ بماء[٢]
والحرُّ يورثُ مجدَه أبناءه[٣]
ويموتُ آخرُ وهو في الأحياء

* * *

١٠٤ — وقولُه: وفي كلِّ شجرٍ نارٌ، واستمجدَ المَرْخُ والعَفارُ

استمجد استفعل، من المجد.

والمَرخ، بالراء الساكنة والخاء المعجمة: شجرٌ سريعُ الوَرْيِ. والعفار بالعين المهملة والفاء وبعده الألف راء: ضربٌ من الشجر كثيرُ النار. والمَرْخ الزَّنْدَة، والعفار هو الزَّنْدُ الأعلى، وإذا حُكَّ الأعلى بالأسفل خرج منها النار، قال الكميت:

إذا المَرْخُ لم يُورِ تحتَ العفا ... رِ ضَنَّ بقَدْحٍ فلم يُعقِبِ[٤]

وقال أبو زيد: ليس في الشجر كلِّه أورَى ناراً من المَرْخ، وربَّما كان المَرْخ متجمّعاً ملتفّاً، وهبَّت الرِّيح فاحتكَّ بعضُه ببعض، فأوْرَى النَّار واحترق كلُّه، ولم يُرَ ذلك في سائر الشجر.

قال الأعشى:

زِنادُكَ خيرُ زنادِ الملو ... كِ خالطَ فيهنَّ مَرْخٌ عفارا[٥]

والقوم أشباهٌ وبين حلومهم ... بَوْنٌ، كذلكَ تفاضُلُ الأشياءِ

(١) في الشعر والشعراء: « والبرق منه وابل ».
(٢) في الشعر والشعراء: « جود وآخر ما يض بماء ».
(٣) الشعر والشعراء: « والمرء »
(٤) اللسان — مرخ، من غير نسبة.
(٥) ديوانه ٥٣

ولو بتَّ تقدح فى ظُلمةٍ حصاةً بنبعٍ لأوريت نارَا

ومعنى «استمجَد المرخ والعفار» ، أنَّ كلَّ شجر أُخِذ منه عُودان وحُكّا ، خَرَج منهما نار ، ولكن تفرّد بالمجد فى هذا الشأن المَرْخ والعفار . وقال أبو القاسم علىّ بن جلباب :

ولا تحسَبَن كلَّ عُودٍ بِرِه ك ما أنتَ مُورٍ من القَدْح نارَا
فما كلُّ وَحْشٍ يُرى ضَيْغَمًا ولا كلّ عودٍ يُسمَّى عفارَا

* * *

١٠٥ — وقولُه : فما هذه البَراءة ممّن يتولاّك ، والمَيْلُ عمّن لا يميلُ عنك !

البراءة : مصدر من برِئ من الدَّيْنِ والعيب ، يبرأ براءةً .

ويتولاّك : فعلٌ مضارعٍ من تولاّه ، أى صار وليّه ، والميل ضِدُّ العدول .

وما أحسَنَ قول علىّ بن أحمد الجوهرى :

وأُقسِمُ لو رَوّيتَ سيفَك من دَمِي لأَوْرَقَ بالوُدِّ الصّريح وأثمَرَا
فكم مُدْبرٍ بالوُدّ تلقاه مُقبِلاً وكم مُقبِلٍ بالوُدّ تلقاه مُدْبِرًا

وما أحسَنَ قول السراج الورّاق :

ومهفهَفٍ عنّى يَميلُ ولم يَمِلْ يومًا إلىّ ، فَصِحتُ من ألم الجَوَى :
لِمْ لا تَميلُ إلىّ ياغُصنَ النَّقا فأجاب : كيف وأنتَ من جهة الهَوَى !

وقال آخر :

أقولُ له : علامَ تتيه عُجْبًا على ضَعْفى ولِى قلبٌ سقيمُ ؟
فقال : تقول عنّى : فِيّ مَيْلٌ فقلتُ له : كذا نقلَ النَّسيمُ

وقلتُ أنا في هذا المعنى ، وهو من قديم نظمى[1] :

كَلامُ العِدا ريحٌ إذا ما سَمِعْتُه　　أقول: وكم مالَتْ مع الرِّيح أغصانُ

وقريبٌ من هذه المادّة قولِي أيضا :

أقولُ ياغُصْن ، هلاَّ مِلْت نحو فتى　　فُؤادُه طارَ حتّى ليس يألَفُهُ

فقال: مَن قال قَدِّى مِثْل غُصْنِ نَقًا　　قلتُ النَّسيم الّذى مازالَ يَعطِفُه

وقلتُ أيضاً :

لمّا تثنّى ثَمِلاً قلتُ لا　　تَمِلْ فهذا المَيْلُ مَنْقولُ

وأنت تَدْرى أنَّ قولَ الصَّبا　　فى حرَكات الغُصْنِ مَقْبولُ

وقلتُ أيضا :

قال لِي لا تَفُهْ بمَيْلِ قَوامِي　　إنْ تَثَنّى واستُرْه خوفَ العُيونِ

قلتُ قُلْ للصَّبا الّتى قد أشاعَتْ　　عنكَ هَذا الحديثَ بَيْنَ الغُصونِ

* * *

١٠٦ — وقولُه : وهلاَّ كانَ هَواكَ فيمن هَواهُ فيكَ ، ورِضاكَ لِمَنْ رِضاهُ لَكَ !

هلّا كلمةُ تحضيض . والهوَى : مَيْلُ النَّفس إلى الشيء إذا كان مَقْصورا . والهَواء ، ممْدود : الرِّيح التى تتموّج فى البَحْر . وما أحسَنَ قولَ أبى إسحاق :

إذا جاستِ الرِّيحُ البليلِ دِيارَكُمْ　　وصِحْتُ فَـقُمْ النَّازحِ البُرَحاء

فكلّ هواءٍ يستثيرُ الجوى هوًى　　وكلُّ هوًى يَشفِي النفوسَ هَواء

ومن السعادة والتوفيق أن يكون هَوَى الإنسان فيمن هَواه فيه ، ورِضاه لمن رِضاه له ، ومن الشَّقاوة والحِرمانِ عكْس القضيَّة .

---

(١) ط : « من شعرى القديم » .

وقال الحجاج يوماً لرجل من الخوارج : والله إنى لأبغضكم ؛ فقال : أدخل الله أشدنا بغضاً لصاحبه الجنة . وقال :

لا تطمعوا أن تهينونا و نكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
كل له نية فى بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وقال الشريف الرضى :

يا قلب ليتك حين لم تدع الهوى علقت مثل هواك من يهواكا[1]
لا بل شجيت بمن يبيت مسلماً خالى الضلوع ولا يحس شجاكا
يا ليت شغلك بالأسى أعدائم أولا ، فليت فراغهم أعداكا
أهوى وذلاً فى الهوى وطاعة أبداً ، تعالى الله ما أشقاكا !

وقال شرف الدين شيخ الشيوخ بحماة رحمه الله :

ومغرم قبح سلوانه حسناء تهواه ويهواها
عانقها مرتشفاً ثغرها يبكى فحلته وحلاها

قلت : الأول من الحلاوة ، أى ريقها حلو ، والثانى من الحلى ، أى ودمه عقيق أو مرجان أو ياقوت أحمر .

وقال أبو العتاهية :

المرء ما لم ترزه لك مكرم فإذا ازدريت له تهون عليه
وكذا يكون لذيك من عاشرته فكذاك فارض بأن تكون لديه

* * *

١٠٧ — وقوله :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شىء بعدكم عدم

---

(١) ديوانه ٥٩٤ .

هذا البيتُ من قصيدة(١) لأبي الطّيّب أوّلُها :

واحرَّ قلباه ممّن قلبُه شَبِمُ ... ومَن بجسمي وحالي عنده سقَمُ

وكان سيفُ الدّولة بنُ حمدانَ إذا تأخّرت عنه مدائحُ أبي الطّيّب ، شقّ ذلك عليه وأقلقه ، وأكثرَ معاتبته إذا حضر ، وتقدّم إلى مَن بحضرته بالتّعريض بالمكروه ، ومخاطبته بما لا يحسُن ، فكبُر ذلك على أبي الطّيّب ، وآلمه غايةَ الإيلام ، فأنشده هذه القصيدةَ بمحضَر من العرب والعجم ، وكان سببَ الوحشة بينهما وفساد الحال . وبعد البيت الّذى أورده ابنُ زيدون :

ما كان أخلقنا منكم بتكرمةٍ ... لو أنّ أمرَكُمُ من أمرِنا أمَمُ

إن كان سرَّكُمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ ألَمُ

ومنها قوله :

يا أعدلَ النّاس إلاّ في مُعاملتي

فيك الخصام وأنتَ الخصْم والحكَمُ

أعيذها نظراتٍ منكَ صادقةً

أن تحسَب الشّحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ

وما انتفاعُ أخي الدّنيا بناظرِه

إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ !

ولم أورِدْ هذه الأبيات إلاّ لأنّها يليقُ بهذه الرّسالة أن تُدرَج في أثنائها ، وتنخرِطَ في سِلكها .

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٢ ـ ٣٧٤ .

وما أحسنُ ما أنشدَنيهِ لنفسهِ إجازة الشيخُ العلاَّمة شهابُ الدّين أبو الثّناء محمود صاحب ديوان الإنشاء بالشّام :

قل للّذين رَجَونا والأمورُ لهـا
حُـكْمٌ بأنّا سنحظَى أن نرافِقَهمْ

أوحَشْتُمونا وعزَّ الصّبرُ بعدَكُمُ
يا مَنْ يَعزُّ علَينا أن نفارِقَهُمْ !

* * *

١٠٨ – وقولهُ : أعيذُك ونفسِى أن أشيمَ خُلّبا ، أو أستمطر جَهاما .

شام البرْق ، إذا نظر إلى سَحابتِه أينَ تُمطِر .

والخُلّب : البرْق الّذى لا غيْث معه كأنّه خادع .

والجَهام : السّحاب الّذى لا ماء فيه .

وَفد بشّار بنُ بُرْدٍ على خالدِ بن بَرْمك وهو بفارِسَ ، فمدَحَه ، فوعده ومَطَله ، فوَقَف على طريقه يوماً وأخَذَ بلِجام بغلته ، وأنشدَ فى الحال :

أظَلّتْ علينا منكَ يوماً سَحابةٌ أضاءتْ لنا برْقاً ، وأبطا رشاشُها
فلا غَيْمُها يُجلَى فييئسَ طامعٌ ولا غَيْثُها يَهمِى فيروَى عِطاشُها

وقال المغيرةُ بن حَبْناء :

أرانى إذا استمْطرْتُ منك سحابةً لتُمطِرَنى عادَتْ عَجاجاً وسافِيا
وأدْلَيْتُ دَلْوِى فى دِلاء كثيرةٍ فأبْن مِلاءً غيرَ دَلْوِى كما هِيا

وقال عمرُو بن معد يكرب :

لا تُمنِّى بعد إكرامِكَ لى فشَديد عادةٌ منتزَعَهْ
لا يَكُنْ برْقُك برْقاً خُلّباً إنّ خيرَ البرْق ما الغيْثُ معَهْ

وما أحسنَ قول الحسين بن الضحّاك وقد تقدّم :

أنا فى ذِمّة السّحابِ وأظمَى ! إنّ هذا لوَصْمَةٌ فى السّحابِ[1]

(١) ديوانه ٧٩

وقال شرف الدين بن عنين :

يا كعبة الفضل الذي نادرته بالحج أقدمني إليها محرما
ما كان برقك خلبا إذ شمته فعلام بت وقد ظمئ أشكو الظما

وقال أبو الطيب :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون محبا غير محبوب (١)

وقال ابن المعلم رحمه الله :

ولقد دعوت فكن مجيبا إنني بك عائذ من خيبة المردود

وقال السراج الوراق – ومن خطه نقلت :

مضى الناس الذين عهدت قدما وقدما قيل إن الدهر قلب
فلا يخدعك بشر من وجوه فكم برق يروقك وهو خلب

وقال ابن حيوس :

راموا المودات من أعدى عداتهم وذاك رأي إلى غير الصواب صبا (٢)
وفارقوا عارضا عمت مواطره ويمموا اللمع برق طالما كذبا
كطارد إبله والأرض مخصبة تبغي سباخا يرجى الغيث والعشبا

* * *

(١) ديوانه ١ : ١٧٦ (٢) ديوانه ٥٥

١٠٩ — وقوله : وأكرم غير مكرّم ، وأشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم.

هذا عجزُ بيت لأبي الطيّب ، وصَدرُه :

* ولا تَشَكَّ إلى خَلْق فتُشْمِتَهم *

وهذا من قصيدته(١) التي أولها :

حتّام نحنُ نُسارى النّجمَ في الظُّلَمِ ومامُسراهُ على ساقٍ ولا قَدَمِ

قال أبو الطيّب هذه القصيدة عند قدومه من بغدادَ إلى الكوفة ، ويذكر مَسيرَه من مصرَ إلى العراق . وقبلَ البيت الذى أوردَ عجزه ابن زَيْدون :

هوِّن على بَصَرٍ ماشَقّ مَنْظَرُه فإنّما يَقَظاتُ العَيْن كالحُلُمِ

وبعده :

وكُنْ على حَذَرٍ للناس تَسْتُرُه ولا يَغُرّكَ منهم ثغرُ مُبْتَسِمِ
غاضَ الوَفاءُ فما تَلْقاه فى أحَدٍ وأعوزَ الصِّدقُ فى الأخبار والقَسَمِ

وقوله : « وأكرَم غير مُكرَّم » هو مأخوذ من قولِ زُهير بن أبي سُلْمَى :

ومن يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوّاً صديقَهُ ومن لا يُكرِّم نفسَه لا يُكرَّمِ

وهذا البيتُ من قصيدته المعلّقة(٢) ، وأوّلها :

أمِنْ أُمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ بحومانةِ الدَّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

---

(١) ديوانه ٤ : ١٥٥ — ١٦٣ (٢) ديوانه ١ : ٤ — ٣٢ .

وفى هذه القصيدة أبيات حِكم، وهى :

ومن لم يُصانِع فى أمورٍ كثيرةٍ ... يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمِنْسَمِ
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبْخَل بفضْلِه ... على قَوْمِه يُستغْنَ عنه ويُذْمَمِ
ومن يجعلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِه ... يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ
ومن لمْ لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه ... يهدم، ومن لا يظلم الناسَ يُظلَم
ومن هابَ أسبابَ المَنَايا ينَلْنَهُ ... ولو رام أسبابَ السَّماء بسُلَّمِ
ومن يعْصِ أطْرافَ الزِّجاج فإنّه ... يُطيعُ العوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ
ومن يُوفِ لا يُذمَمْ ومن يُفْضِ قلبُه ... إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يتَجَمْجَمِ

ومن يَغترب يحسب عدّوا صديقه .... البيت، وبعده :

ومَهْمَا تكنْ عند امرىءٍ من خليقةٍ ... وإنْ خالَهَا تخفَى على النّاس تُعلمِ
ومن لا يزَلْ يَستحمِلُ الناسَ نفسَه ... ولمْ يُغْنِها يوماً من الدّهر يُسْأَمِ

هذا الّذى ظهر لى من قول ابن زَيْدون، ويحتمل أنه أراد : كَدمت غيرَ مَكْدَم. الكَدْم: العضّ، والمَكْدَم موضع العَضّ؛ يضرب لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه.

* * *

١١٠ — وقولُه : فما أبسسْتُ بك إلاّ لتَدِرّ، وحرّكْتُ لك الحُوار إلاّ لتحِنّ

الإبساس عند الحَلْب أن تقولَ للناقة الحلوب: «بِسْ بِسْ» وهو صوت الرّاعى يُسكِّن به الناقة عند الحلْب. وناقةٌ بَسُوسٌ، إذا كانت لا تدِرّ على الإبْساس.

وقال أبو عُبيدة: بَسَسْت الإبِل وأبْسَسْت، لُغتان. وفى المَثَل: الإيناس قبلَ الإبْساس. الإيناس من الأُنس وهو ضِدُّ الوَحْشة، والإبْساس الرِّفق بالنَّاقة عند الحَلْب، وهو أن يقول: بِسْ بِسْ؛ قال الشاعر:

ولقد رَفَقْتُ فما حَظِيت بطائلٍ ... لا يَنفَع الإبْساسُ بالإيناسِ

تَدِرّ، فِعل مُضارع، من دَرّ اللّبنُ يَدِرّ.

والحُوار: وَلَد الناقة، وفى المَثَل «حرِّك لها حُوارَها تَحِنّ»(١)، ولا يزال الحُوار حُوارا حتّى ينفصل عن أمّه، فهو فَصِيل. وهذا المَثَل قالَه عَمرو بنُ العاص لمعاويةَ حين أراد أن يستبصر بأهلِ الشام. ومَعنَى المَثَل: ذَكِّره بعض أشجانه يهيج لها، وقال الحُطيئة:

لقد مَرَيْتُكمُ لو أنّ دِرَّتكمْ ... يوماً يجيء بها مَسْحِى وإبساسى(٢)

لمّا بدا لى منكم عَيبُ أنفسِكمْ ... ولم يكن لجراحى منكمُ آسِ

أزمعتُ يأساً مريحاً مِن نَوالِكمُ ... ولن تَرَى طارِداً للحُرِّ كاليأسِ

وما أحسنَ قولَ أبى الفَتح البُسْتى:

قالتْ وقد راوَدْتُها عن قُبلةٍ ... تَشفِى بها قَلْبا كَئيباً مُغرَما

قَدِّمْ يداً من قبل أن تُدْنِى يداً ... ومَبَرّة من قبل أن تُدنى فَما

* * *

---

(١) الميدانى ١ : ١٩١

(٢) ديوانه ٥٣

١١١ — وقوله: وما نَبَّهْتُكَ إلاّ لأَنام، وما سريتُ لك إلاّ لأحمد السُّرَى إليك.

هذا فيه إشارةٌ إلى المَثَل السائر، وهو: «نَبِّهْ لها عَمْراً ثم نَمْ».

وقال بَشّار بن بُرْد في أبي عمرو العلاء:

إذا أيقظَتْك حُروبُ العِدَا فنَبِّهْ لهــا عُمَراً ثُمّ نَمْ
فَتىً لا يَنـــــامُ على غِرّة ولا يَشرب الماءَ إلاّ بدَمْ

وقال شَرفُ الدين مستوفي إرْبِل:

إذا أيقظَتْك صِعابُ الامورِ فنَبّه عَلِيّــا لها لا عُمَرْ
ونادِ به مُسْتَجِيرا يُجِبْكَ فَتىً عزْمُه كاليَماني الذَّكَرْ

وما أحسَنَ قولَ ابن قَلاقس:

ووَزيرِ مَمْلَكـةٍ غــدَا وَزَراً لها وسِواهُ وِزْرَا
يقظــانُ إن نبهتَـــــه عُمَــراً، أو استَنْجَدْت عمْرا

ونَقَلْتُ من خَطِّ السِّراج الوَرّاق:

سُيوفٌ لهـا ناظِرٌ نامَ عَنْ حَـــديثي وأيقَظَني للألَمْ
كأنّ ابنَ بُرْد له قائلٌ فنَبّه لهـا عُمَراً ثم نَمْ

وقال ابن قَلاقس أيضاً:

واخْدُم بتقبيل البِساطِ لمن باتَ الزّمانُ له من الخَدَمِ
واعرض عليه حال خادِمه سِرّا ونَبِّهْهُ لهـــــا وَنَمِ

وعَكَسَه فقال:

فما استعارَتْ بعمرٍو حال مظلمةٍ بل حين جاءتك تَسْعَى صادَفَتْ عُمَرا

وما أحسَنَ قولَ مُجير الدِّين بن تميم:

يا طالباً حاجةً قد عزَّ مطلبُها ... وفعلها فى مبادى نُجحها عسِرُ
نَبِّه عليها أبا بكرٍ فقد قُضِيَتْ ... وما عليك إذا لم يَقْفُهُ عمرُ

وقول ابن شمس الخلافة يمدح العزيز عثمان :

صبرتُ على رَيْبِ الزمان ولم أزلْ
عليه أخا صبرٍ ومثلى مَنْ صَبَرْ

ونَبَّهتُ عثماناً لدفع خطوبه ... وأعرضتُ عمّن قال نَبِّهْ لها عمر

وقال أبو الطيّب :

لا أستزيدُك فيما فيك من كَرَمٍ ... أنا الذى نام مذ نَبَّهتُ يقظانا(١)
فإنّ مثلك باهيتُ الكرامَ به ... وردَّ سخطى على الأيام رِضوانا

وكتب الرشيد الفارقى إلى الصاحب بهاء الدين :

وقائلٍ قال لى نَبِّهْ لها عُمراً ... فقلتُ : إنّ عليّاً قد تَنَبَّه لِى
مالِى إذا كنتُ محتاجاً إلى عُمَرٍ ... فى حاجةٍ فليَنَمْ حسْبِى انتباهُ علِى

وقال السلطان صلاحُ الدين بن يوسفُ بنُ أيُّوبَ بخطّه ، من إملاء القاضى الفاضلِ عليه ، كتاباً إلى أخيه للملك العادل أبي بكر :

عظيمةٌ قيلَ لِى نَبِّهْ لها عُمراً ... فقلتُ إنّ أبا بكرٍ تَنَبَّهِ لى
زمانُنا عُمَرِيُّ الفتح لا سِيَمَا ... والدِّينُ من سَيْفه قد هزَّ سَيْفَ عَلِى

وقال الخفاجى :

سللت منها على الأعداء مرهفةً ... لمثلهم كنت تقناها وتدخر(٢)
يقظان ما علِقت بالنوم مقلتُهُ ... ولا تنبّهَ فى حرب العدا عمرُ

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٣٠ . (٢) ديوانه ٤٥ .

وقال شيخُ الشُّيوخ :

لولا تلاف الطَّيْفِ أن يَسْرِيا سَلَلْتُ من جفني غرارَ الكرى
لكنني أمَّلتُ من زَوْرَةٍ تجفيفَ أجفانيَ إنْ زوَّرا
لولا سُرى طَيْفِكُمُ لم أَكُنْ أحمدُ من قِبل الصَّباح السُّرى

وأنشدني لنفسه إجازةً شيخُنا الإمامُ شهابُ الدِّين أبو الثَّناء محمود :

ولقد حمدتُ ببابه صُبْحَ السُّرى فغدا وراء الشَّوْق وهو إمامُ
وحَلَلْتُ عن أنضاء عَزْمي عِنْدَهُ فظهور رهنَّ على الرِّجالِ حرامُ

وقوله : « وما سَرَيْتُ لك لأَحْمد السُّرى لديك » .

هذا المثل أصلُه من قول خالد بن الوليد رضي الله عنه ، لمَّا بعث إليه أبو بكر رضيَ الله عنه ، وهو باليمامة أن سر إلى العراق فأراد سُلُوك المَفازة . فقال له رافع الطائيّ : قد سلكتُها في الجاهليّة ، هي خِمْس للإبل الواردة ، ولا أظنُّك تقدِر عليها إلاّ أن تحمِلَ من الماء . فاشترى مائة شارِفٍ فعطَّشها ، ثمَّ سقاها الماء حتى رَوِيَتْ ، ثمَّ كَتَبها وكَعَم أفواهها ، ثمَّ سَلَكَ المفازة ، حتَّى إذا مضى يومان وخاف العَطَشَ على النَّاس والخيلِ نَحَر الإبلَ ، واستخرجَ الماء ممَّا في بطونها فشربوا ، ومضى . فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع : انظُروا هَلْ ترَوْنَ سِدْرا عظاماً ، فإن رأيتُموها وإلاَّ فهو الهلاك ، فنظر الناسُ ، فرأوا السِّدْر ، فأخبروه ، فكبَّرَ وكبَّر الناسُ ، ثمَّ هجموا على الماء ، فقال خالد :

لِلّه درُّ رافعٍ أنّى اهتدى فَوَّزَ من قُراقِرٍ إلى سُوَى
خِمْساً إذا سارَ به الجَيْشُ بَكَى ما سارَها من قبله إِنْسٌ يُرى
عند الصَّباح يَحمَد القومُ السُّرى وتنجلي عنهمْ غياباتُ الكرى

وقال ابن قلاقس :

حَمِدَ السُّرَى من كان وَجْهَ صَباحِهِ ... من بعد ذم غُدُوِّهِ ورَواحِهِ

ورأى النّجاح مؤمِّلا ألحقته ... من حُسن رأيك فيك ظلّ جَناحِهِ

وما أحسن ما استعمل القاضى الفاضل هذا المثل :

ركبْنا رياحاً من كَرائمِ خيلِه ... نَؤُمُّ سَحاباً من سَماء سَماحِهِ

فقلْ لليالى الخطبِ : طُولِى أو اقْصِرِى

فإنّا على طُولِ السُّرَى من صبـــاحِهِ

وقال ابن قلاقس :

وإلَى أحمدٍ حمِدْتُ السُّرَى ... حينَ طارَحْتُ الصَّبا والشَّمْألا

أبَتِ الآمالُ منه راحةً ... تُبغِضُ الرَّيْثَ وتَهْوَى العَجَلا

وخالفَ الناس ابن سَناءِ الملك فقال :

آنستُ نارَ المجدَ لا نارَ القِرَى

وحَمِدتُ صُبْحَ الثّغر لا صُبْحَ السُّرَى

* * *

١١٣ — وقوله : وإنّكَ متى سَنّيْتَ عقدَ أمْرِى تيسّر ، ومتى أعذرت فى فك أسْرِي لم تتعذّر .

سَنّيْتَ بمعنى سَهّلْتَ ، وأعذَرْتَ بمعنى بالَغْتَ فى طَلَب العذْرِ . لم تتعذر : لم يكن فيه عُذْر ، أى لا صُعوبة .

وأصلُ قوله : « سنّيت عقدَ أمرِ » قولُ بَشّار بن بُرْد :

فباللهِ ثِقْ إنْ عَزّ ما تَبْتَغِى وقُلْ ... إذا اللهُ سَنّى عَقْدَ أمْرٍ تيسّرا

على أن هذا العَجُز وَقَع فى كلام معاوية رضىَ الله عنه ، أعنى قولَه : « إذا الله سَنّى عَقْد أمرٍ تَيَسّر » . وأخَذَه محمدّ بنُ شَرَف الدين القَيْروانىّ فقال :

لا يُؤْيِسَنّك من أمرٍ تَصعُّبُه فالله قد يُعقِب التصعيبَ تسهيلا

كان أميرُ المؤمنين المأمونُ سَيِّءَ الرّأى فى الحسين[1] الخَليع لمُنادَمَته لمحمد المخلوع ، واختصاصِه به ، فاُختَلّت لذلك حالُه ، وكان بينه وبَين عمرو بن مسعدة حالٌ ، فكَتَب الحسين إلى عمرو[2] :

أنتَ طَوْدِى مِن بين هذى الهِضابِ
وشِهابِى مِن دون كلِّ شِهـــابِ

أنتَ رُكْنى وساعِدِى وَحياتِى واسانِى وأنتَ ظُفرى ونابِى
أتراني أَنسى حُقوقَ أيادِيـ ـكَ ورُوحِى من بعضِها وثِيابى
أين عَطْف القريبِ فى بَلَد الغُرْ بَةِ جُوداً على ذَوِى الآداب !
أين أخلاقك الظّريفة حالت عنكَ ، أم أينَ رِقّة الـكتّابِ
أنا فى ذِمّة السّحاب وأظمى إنّ هذا لَوَصْمَةٌ فى السّحابِ
حُرْمة سَقْفها السّماء ودارٌ حُلوة الأرض مُرّةُ الأَرْبابِ
أنا فيها عبدُ الزّمان ولو شئْـ ـتُ لكان الزّمان عبدَ رِكابِى

وقال عُمارة اليَمَنىّ :

أنتَ الزمانُ فمَنْ ترَفَعْه يَعْلُ ومَن تَخفض مِن الناس لَمْ يُرفَعْ له عَلَمُ
ومن تَغافَلْتَ عنه فهو مُطَّرَحٌ ومن نظَرتَ إليه فهو مُحْتَشِمُ

وقال ابن المعلِّم :

فما ضاقَ صدرٌ باتَ يَرجُوك قلبُه
ولا راعَ من أضْحيتَ بغيتَه الدهرُ

(١) ط : « الحسن » تحريف ، وهو الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع .
(٢) ديوانه ٢٧ .

وقال راويه العتابى :

وفى راحتيك الندى والردى ... وكلتاهما وع مختارها
وأقضية لله محتومة ... وأنت منفذ أقدارها

وبالغ أبو العلاء إذ قال :

ولو أن الرياح تهب غربا ... وقلت لها هلا هبت شمالا[1]
وأقسم لو غضبت على ثبير ... لأزمع عن محلته انتقالا
وأنك لو تعلقت الرزايا ... بنعلك ماقطعن لها قبالا
ومر بفراق شيمتها الليالى ... تجبك إلى إرادتك امتثالا

وبالغ أيضا فى وصف ممدوحه فقال :

لشرفت المعانى والقوافى ... بلفظك والأخلة والخليلا[2]
إذا المنهوك فهت به انتصارا ... له من غيره فضل الطويلا

قلت : لأن المنهوك أقصر الشعر ، والطويل أطوله ، إذ المنهوك إذا سلم من الزحاف أربعة عشر حرفا ، لأنه مركب من « مستفعلن مستفعلن » مرتين ، قال :

* يا ليتنى فيها جذع *

فإذا لحقه الخبل ، وهو اجتماع الخبن والطى كان على عشرة أحرف ، كقوله :

* أغضبوا فرحلوا *

وأما الطويل فإذا سلم من الزحاف ، وكان مصرعا ولا علة ، كانت

---

(١) سقط الزند ٩٣ .   (٢) سقط الزند ١٣٩٤ .

حروفه ثمانيةٌ وأربعين، لأنه مركَّب من أربعة أجزاء خماسيّة، وهى: فعُولن أربع مرّات، وأربعة أجزاء سباعية، وهى مفاعيلن أربع مرات، كقول امرىء القيس بن حُجْر:

قِفا نَبْكِ من ذِكْرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ
بِسقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُول فحَوْمَلِ (١)

* * *

١١٣ — وقوله: وَعِلْمُكَ مُحيطٌ بأنّ المعروفَ ثمرةُ النّعمة، والشّفاعة زَكاة المروءة.

المعروفُ ضدُّ المُنكر، وهو اسمٌ جامعٌ لكلِّ خير.

ومن كلام الحكمة: بَذْلُ الجاهِ أحدُ المالَين، وشفاعةُ اللّسان أفضل زَكاة الإنسان. وبَذْل الجاه رِفْدُ المُستعين، والشفيعُ جَناحُ الطّالب، والشّفاعة أمرٌ مندوب إليه، نَطَق القرآنُ بذلك، وجاءت عليه السُّنّة، قال الله تعالى: ﴿من يَشْفَعْ شَفاعةً حَسنةً يكنْ له نَصيبٌ منها ومن يَشْفَعْ شفاعةً سيئةً يكنْ له كِفْلٌ منها﴾ (٢).

وعن أبي موسى الأشعريّ قال: كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أقبَلَ على جُلسائِه، فقال: «اشفَعوا تُؤجَرُوا ويَقضِى الله على لسانِ نبيِّه ما أحبّ»، مُتّفقٌ عليه. وفى رواية: «ما شاء».

---

(١) ديوانه ٨ (٢) سورة النساء ٨٥

وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما فى قصّة بُرَيْرَة وزَوْجها ، قال : قال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم : لو راجَعْتِيه ! فقالت : يا رَسولَ الله ، تأْمُرنى ؟ قال : إنما أشفع ، قالت : لاحاجة لى فيه .

وفى هذه الآية الكريمة سؤال ، وهو : ما الحِكْمَة فى قوله : « فى الشفاعة الحَسَنة نصيبٌ ، وفى الشَّفاعَة السَّيِّئة كِفلٌ منها » فالجواب : أنَّ النصيب الحظ ، والكِفْل مشتقٌ من قولك : كَفَلْت البعيرَ إذا رددتَ على سَنامِه كِساء ، وركبتَ عليه ، فأنتَ تَستعمِل جانباً من ظَهره لأنَّك تَحمِى سَنامَ البعير بالكِساء الذى وضعتَه عليه من الآفة دون باقى ظهره ، ويحمى الرَّاكب بَدَنَه بذلك ، ومنه قيل للضامن : كفيل ؛ لأنه يعتمد عليه ، فكان الكَفيلُ ذخيرته التى يعتمد عليها ، فجاء الكَفيلُ فى الشَّفاعة السيِّئة بهذا اللفظ ؛ لأنّ الشافع قد أدّخر ما يَعتمد عليه فى يومِ القيامة . وهذا الكلامُ قد خَرَج مَخرَج التهكّمِ ، كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهم بعذابٍ أليم ﴾[1] .

والمقصود أنَّ الشفاعة الحَسَنة للشافع منها نصيب ، وشَفاعة السَّيئة عِقابُها عَظيم ، ووِزْرُها كبير ، فهى مُغلَّظة الأمرِ بخلافِ غيرها .

وقولُه : المعروفُ ثمرةُ النِّعمة ؛ يشير إلى قول الخفاجىّ رحمه الله :

فدًى لمن لايَزال نائلُهُ ... تخلف جُودا سحائب الدِّيَمِ[2]

يمنح حتّى تدومَ نِعمتــه ... إنّ العطايا تمائمُ النِّعَمِ

وأمّا الشفاعة فحُكِىَ أنّ عبد الله بن خارجةَ أمتدَح عبدَ الملك بن مروانَ

---

(١) سورة التوبة ٣٤ (٢) ديوانه ١٠٠

فأعطاه عشرةَ آلافِ دِرْهم ، وعشرة تُخوت من الثياب وعشرَ قلائصَ من الإبِل ، وأقطعه ألفَ جَرِيب ، وقال له : امضِ إلى زيد الكاتب يكتُب لك بها ، وأجرَى له على ثلاثين عائلاً ، فأتى زيداً فقال : ائتني غداً ، فتردّد إليه ، وكَتَب له شعرا ، فما أفادَه شيئا ، فأتى سفيان بن الأبرد الكلبيّ ، فكلّمه سُفيان ، فأبطأ عليه ، فعاد إلى سُفْيان وقال له :

إذا بدأْتَ أبا يحيى فأنتَ لها ... ولا تكنْ حينَ هابَ الناسُ هَيّابَا

واشفعْ فإنك أنْفٌ لم تكنْ ذَنَبًا ... فإنّ من شُفَعاء الناسِ أذْنابَا

فأتى سُفيانُ إلى زيد الكاتب ، ولم يُفارِقْه حتّى قَضَى شُغْلَه . وقضيّة الفَرَزدق والنَّوار امرأتِه حين قال :

أمّا بنوه فلم تُقبَل شفاعتُهمْ ... وشُفِّعتْ بنتُ منظورِ بنِ زَبّانا(١)

ليسَ الشَّفيعُ الّذي يأتيك مؤتزِرًا ... مِثلَ الشَّفيعِ الذي يأتيك عُرْيانَا

مشهورةٌ فلا فائدةَ في ذِكرِها .

وقال قيس :

وُنبِّئتُ ليلَى أرسلتْ بِشفاعةٍ ... إليّ ، فهلاّ نفْسُ ليلَى شفيعُها(٢)

أأكرم من لَيْلَى علَيّ فتبتغِي ... به الجاهَ ، أمْ كنتُ امرَأً لا أُطيعُها !

وقال شرفُ الدِّين بن عُنَين :

ومِن عَجَبِ الأشياء أنّ شفاعتِي ... تُرجّى لمن في وَجهِه ألفُ شافِعِ

لأبلَجَ عَسّالِ النَّدَى مهذَّبِ الـ ... خَلائقِ معسولِ الثّنايا مُطاوِعِ

(١) ديوانه ٨٧٢ (٢) البيتان ينسبان للمجنون . ديوانه ١٩٤

يرومُ شفيعاً مِن سِواه جَهالةً ... ولاشافعا غير الحبيب المُضاجع

وقال ابنُ القَيْسَرانىّ رحمه الله تعالى :

ومستشفع بى إلى من يحبه ... وقد وَقَفَ الوَجْدُ مِنّى عَلَيْهِ

فكنتُ شفيعا له فى الهَوَى ... فَمَن ذا يكونُ شَفِيعى إليهِ !

وما أظرَفَ قولَ دِعْبِل الخُزاعىّ :

جِئنا به يَشفعَ فى حاجةٍ ... فاحتاجَ فى الإذن إلى شافِعِ[(١)]

وما أظرَفَ قولَ القائل :

خَرجُوا ليستَسْقُوا وقد نَشأَتْ ... بَحْرِيَّةٌ قِمنٌ بها السَّيْحُ

حتّى إذا اصطفّوا لدَعْوتِهم ... وبَدا لأعينهم بها رَشْحُ

كُشِفَ السّحابُ إجابةً لهمُ ... فكأنّما خَرَجوا ليَسْتَصْحُوا

وقال القاضى أبو علىّ التَّنُوخىّ :

خرجْنا لنَستَسْقِى بيمْنِ دُعائه ... وقد كادَ هُدْبُ الغَيْمِ أن يَلحَقَ الأرضا

فلمّا بدا يدعو تـكشَّفتِ السّما ... فما تَمَّ إلاّ والغَمامُ قد انفضّا

ومن رسالة للجاحظ ممّا أتى فيها بالحِكمة قولُه : فكُنْ شفيعا إلى أُذُنِك حتى تستَمِعَها ، وشفيعَ أُذُنِك إلى قلبِك حتّى يضمّها ، وشفيعَ قلبِك إلى نفسك حتّى تعمَل بها .

حَكى بعضهم قال: جُعْتُ يوما ، فقلت : أذهبُ إلى صديقى فلان ، فأتغدّى عنده ، فلمّا أتيتُ إلى دارِه وجدتُ ابنَه ، فقلت له : أين أبوك ؟ فقال : أعطانى كِسْرةً حتى أقولَ لك أينَ هو ؟

وعلى ذِكْرِ الشفاعة ، فما أحسَنَ قولَ الأرّجانىّ يمدَح المُسترشِد بالله العبّاسىّ :

---

(١) ديوانه ١٣٦

أبِى شفيع القَطْرِ صِنْوَ أبى شفيـ ... ـعِ الحشر لا زالتم عماد السؤدد(١)

من أهلِ بيتِ شفاعَتَين أعدَّتا ... لليَوم واحدة ، وأُخرَى للغدِ

والناسُ يستحسنون قولَ القائل :

وإذا المَليحُ أتَى بذَنْب واحدٍ ... جاءتْ محاسنُه بألفِ شفيعِ

وهذا إذا اُعتُبِر وجد ذمًّا ؛ لأنَّ مليحا يأتى بذَنْب واحدٍ ويحتاج فى العَفو عن ذلك الذّنب إلى ألفِ شفيع ، ليس بمديح طائل ، والمَدْح الوافى أن يكون المليحُ إذا جاء بألف ذَنْب جاء شافعٌ واحدٌ مِنْ حسنه ، فمحا تلك الذنوبَ المتعدِّدة ، والأصلُ فى هذا كلّه قولُ الحاكم بن قَنْبَر :

مستقبَلٌ بالّذى يَهوَى وإن كَثُرتْ ... منه الذّنوبُ ومعذورٌ بما صَنَعا

فى وجهِه شافعٌ يَمحو إساءتَه ... إلى القُلوب وجيهٌ حيثُما شَفَعا

وأبو فِراس بن حَمْدان كان أحذَق وأعرَفَ بالغزَل ، فقال :

أساء فزادَتْه الإساءة حُظْوةً ... حبيبٌ على ما كان منه ، حبيبُ(٢)

تَعُدّ علىَّ الواشيات ذُنوبَه ... ومن أيْن للوَجْه المليحِ ذُنوبُ !

وقال أبن الحَجّاج :

وكلّما رُمْتُ أن أُقابلَهُ ... على تَماديِهِ تيها فى تعدِّيهِ

جاءتْ على غَفْلةٍ محاسنُه ... تُلزمنى الصَّفحَ عن مَساوِيهِ

وقال عتيق بنُ محمّد الورّاق التميمىّ المغربىّ :

كلما أذنبَ أبدَى وَجهُه ... حُجَّةً فَهْو مَلِئٌ بالحُجَج

كيف لا يُفرِط فى إجرامِه ... مَن مَتى ماشاءَ من الذّنب خرَجْ

وقال أحمدُ بنُ أبى فَنَن :

أشكو إليه صَنيعَ جفونه ... فيقول مُتْ بأيْسَرِ الخَطْبِ

وإذا نظرت إلى محاسنِه ... أخرجْتهُ عُطْلاً من الذّنبِ

---

(١) ديوانه ٩٦   (٢) ديوانه ٣٩

وقال أبو تمام :

عَفَتْ محاسنُهُ عندى إساءتَه

حتى لقد حَسُنَتْ عندى مساويه(١)

وقال آخر :

لى حبيبٌ كالظبْى غِرٌّ ولكنْ بعذابى فى الحُبِّ ما أغراهُ

وإذا كرّر الذنوبَ فيكفيه اعتذاراً عمّا جَنَى ، أن أراهُ

وقال ابن المعتز :

ومستبصرٍ فى العُذْر مُستعجِل القِلَى

بعيدٍ من العُتْبى قريب من الهجْرِ(١)

له شافعٌ فى القلب مع كلّ زلّة وليس بمحتاجِ الذنوبِ إلى العُذْرِ

ولمّا وقع ابن عمّار فى قبضة المعتمد بن عبّاد ، وقد سجن بشقورة ، كتب ابن عمّار إلى المأمون بنِ المعتمِد يسأله الشفاعةَ فيه عند أبيه بقصيدةٍ أوّلُها :

هلاّ سألتَ شفاعةَ المأمونِ أو قلتَ ما فى نفسِه يكفينى

ما ضرّ لو نبهتَه بتحيّةٍ يسرى النسيمُ بها على دارين

مالى أنبّه ناظراً لم يغفُ عن حظّيه من دُنيا ولا مِن دِين

بيدى مِن المأمون أوثقُ عِصمةٍ لو كان أمرِى فى يدِ المأمونِ

أمرى إلى مولًى إليه أمرهُ وكفاكَ من فوقٍ كفاكَ ودُونٍ

حيثُ استوى الخصمان والتقيا

عِــزّ الغنىّ بذلّة المسكينِ

(١) ديوانه ٤٦٩

ومنها :

ومنها يا فتح جرّدها عناية فارس ... بطل على حرب الولىّ أمين

متقدّم من جدّه بكتيبة ... مستظهرٌ من لفظ بكمين

وأقرنْ شفاعتك الكريمة عنده ... بتواضع من عزه أو هون

فى سكتة من هيبة وسكينة ... ونصيحة من رحمة وحنين

* * *

١١٤ — وقوله : وفضلُ الجاهِ تعودُ بهِ صدقه .

وإذا امرؤٌ أهدى إليك صنيعةً

من جاهه فكأنَّها من ماله

الفضل هنا : ما يزيد من قدْر الحاجة .

والجاهُ : القدْر والمنزِلة وما يكون به الإنسان وجيها . وتعود به : تعطف وتنفع .

وما أحسنَ قولَ سراج الدّين عمرَ بن محمّد الورّاق المصرى ، نقلته من خطّه :

مَرِضتُ .. للهِ قومٌ ما فيهمُ مَن جفاني

عادُوا وعادُوا وعادُوا على اختلاف المعاني

الأوّل من عِيادة المريض ، والثانى من العَوْد ، وهو الرُّجوع ، والثالث من مادة هذا القول .

وفى الأدعية المأثورة : اللهمّ عُدْ علينا من فضلك .

قال أبو عبد الله بن حمدون النّديم : لقد رأيتُ الملوكَ فى مقاصيرِها ومجامعِ حَفْلها ، فما رأيت أغزرَ أدبًا من الواثق ، خرج علينا ذاتَ يومٍ وهو يقول : لَعمرِي لقد عرض عرضه من عِرضه ، لقولِ الخُزاعىّ — يعنى دِعبلا :

خليليّ ماذا أرتجي من هـــوى امرىء
طوى الكشح عنّي اليومَ وهوَ مكينُ(١)

وإنّ أمراً قدْ ضنّ عنّي بمنطـــق
يسُدُّ به من خُلّتي لضنينُ

فانبرى أحمدُ بن أبي دواد يسأله — كأنما أُنشِط من عِقال — في رجُل من أهل اليمامة ، وأطنبَ وأسهبَ ، وذهبَ به القولُ كلّ مذهب ، فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لقد أكثرتَ في غير كثير ولا طيّب ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه صديقي :

وأهونُ ما يُعطي الصّديقُ صديقَه من الهيّن الموجودِ أن يتكلّما

فقال: وماقدر اليماميّ أن يكون صديقك ! وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه شهرني بالاستشفاع إليك ، وجعلني بمرأى ومَسمَعٍ من الرّد والإسعاف ، فإن لم أقُم له في هذا المقام كنتُ كما قال أميرُ المؤمنين ... وأنشد البيتين . فقال الواثق : بالله يا محمد بنَ عبدِ الملِك ، إلاّ ما عجّلتَ لأبي عبدِ الله حاجتَه ليسلم من هُجنة المَطْل كما سلم من هُجنة الرّدّ !

قلت : وابن أبي دُوَاد القاضي له مقاماتٌ مشهورة معروفة عند أهل العِلم بأيّام الناس وتراجمهم ، قامها عند المعتصم والواثق ، في غيرِ واحد ، منها خلاصُ أبي دُلَف العِجْلي مِن الأفشين وقد قدمه لضرب العُنق ، ومنها : أنه لمّا وَقَع الحريقُ بالكرخ استطلق لهم من الخليفة ألفَ ألفَ دِرهم ، إلى غير ذلك .

وقول ابن زيدون :

---

(١) ديوانه ١٩١ .

وإذا امرؤٌ أسدَى إليكَ صَنيعةً ... من جاهِهِ فكأنّها مِن مالِهِ[١]

هذا البيتُ من جُملة أبياتٍ كتب بها أبو تمّام الطائىّ لإسحاق بن أبى ربعىّ كاتب أبى دُلَف ، أوّلها :

إنّ الأميرَ بَلاكَ فى أحْوالِهِ ... فرآكَ أنزَعهم غداةَ نِضالِهِ

وقد عكس البيتَ الّذى أوّله : « وإذا امرؤٌ » فقال أيضاً :

وإنّ امْرَأً ضَنّتْ يداه على امرىء ... بِنَيْلِ غِنًى مِن غيرِهِ لَبخيلُ

* * *

١١٥ — وقوله : لَعلّى أن أُلْقِيَ عصاىَ بذَراك ، ويستقرَّ النّوى فى ظِلّك .

الذَّرَى بالفتح : كلّما استترْتَ به ، يقال : أنا فى ظِلّ فلان وذَراه ، أى فى كَنَفه وسِتْرِه ودِفْئِه .

والنَّوَى : الوجهُ الّذى يَقصِده المسافر ، ويَنْوِيه من قرْب أو بُعد ، وهى مؤنّثة ، تقول: استقرّت به النّوى ، وقد حلّ فى هاتين السّجْعتين قولُ المعَقَّر بن أَوْسِ بنِ حمارٍ البارقىّ ، حليفِ بنى نُمَيْر :

فألقتْ عَصاها واستقرّ بها النَّوَى
كما قرّ عَيْنا بالإيابِ المُسافرُ[٢]

وقبلَ هذا البيت :

وحَلّت سُلَيْمَى فى هِضابٍ وأيكةٍ ... فليس عليها يومَ ذلكَ قادِرُ

(١) ديوانه ٢٤٠ (٢) اللسان (عصا)

والعرب تكنى عن الاستقرار والسكون بإلقاء العصا ، لأنّ المسافر إذا ألقى عصاه عن كتفه ، فقد قرّ قراره ، وسكنت حركته ، ولهذا قال أبو تمام الطائيّ :

كريمٌ إذا ألقى عصاهُ مخيّما
بأرضٍ فقد ألقى بها رحلهُ المجدُ(١)

وقال يزيد بنُ عبدِ الملك : ما يُقِرّ عيني ما أُوتيتُ من أمر الخلافة حتّى أشترى سلاّمةَ جارية مُصعَب بن سُهَيل الزّهرى ، وحَبابة جارية اللاحق المكيّة ، فاشتُرِيتا له ، فلمّا اجتمعتا عنده قال : الآن كما قال الشاعر :

فألقتْ عَصاها واستقرّ بها النّوى . . البيت .

ثمّ قال بعد ذلك : من شاء من أمرِ الدّنيا فليَلْقَنِي .

ويُحكى أنّه لمّا بُويع لأبى العبّاس السفّاح قام خطيبا ، فسقطَ القضيبُ من يدِه ، فتطيّر من ذلك ، فقام إليه رجلٌ فأخذَ القضيبَ ومَسَحه ، ودَفَعه إليه ، وأنشَد :

* فألقتْ عَصاها واستقرّ بها النوى . . . *

وقيل : إنّ قُتَيبة بنَ مسلم خَطَب على المِنبَر فى خُراسانَ أوّلَ قدومه إليها واليًا ، فسَقَطت العَصا من يدِه فتطيّر من ذلك ، فقام بعضُ الأعراب فمَسَحها وناوَلَه إيّاها ، وقال : أيها الأمير ، ليس كما ظَنّ العَدُوّ وساءَ الصديق ، ولكنه كما قال الشاعر :

---

(١) ديوانه ١٢٢ .

فألقتْ عَصاها واُستقرَّ بها النَّوَى . . . البيت .

فسُرِّىَ عنه ما وَجَدَه ، وأمرَ له بخمسةِ آلافِ دِرهم .

ومِثلُ هذا ما حُكِى أنَّ طاهرَ بنَ الحُسين لمـا خرج لقِتالِ علىِّ بن عيسى ابن ماهانَ ، وفى كُمِّه دَراهمُ يُفرِّقها على الضُّعفاء ، فنَسِىَ أنها فى كُمِّه ، فأَسبَلَ كُمَّه ، فتبدَّدتِ الدَّراهمُ ، فتطيَّرَ من ذلك ، فأنشد شاعر كان معه :

هذا تفرّق جمعهم لا غيره ... وذهابها منه ذهابُ الهمِّ

شىءٌ يكون الهمُّ نصفَ حُروفه ... لا خيرَ فى إمساكِه فى الكُمِّ

ودخل أبو الشَّمَقْمَق على خالدِ بن مَزْيَد الشَّيبانى ، وقد قلَّده المأمونُ المَوْصل ، فلمَّا دخلها اندقَّ منه اللواء فى بعضِ أبوابها ، فتطيَّر خالد من ذلك فقال أبو الشَّمَقْمَق :

ما كان مُندَقّ اللّواء لطيرةٍ ... تُخشَى ولا سوء يكون مُعجَّلاَ

لكنَّ هذا الرُّمح أضعفَ مَتْنَه ... صِغَر الولاية فاُستقلَّ المَوْصِلاَ

فسُرِّى عنه ما كان وَجَده .

وكتب صاحبُ البَريدِ بذلك إلى المأمون فزادَه دِيارَ ربيعة ، فأَعطى خالدٌ أبا الشَّمَقْمَق عشرةَ آلافِ دِرهم .

وقال خطيرُ الدَّولة الُحسين بن إبراهيم الكاتب :

ألا ليتَ شعرى هل أقولنَّ مرّةً ... وقد سكنت ممّا أُجِنُّ الضّمائرُ

وما بى إلى بابِ المحجَّب حاجةٌ ... ولا لِىَ عما يَحفَظُ العِرْضَ زاجرُ

فألقتْ عَصاها واستقرّ بها النّوى ... كما قرَّ عيناً بالإيابِ المُسافرُ

وقال علىُّ بنُ الُحسين الباخَرْزِىّ فى ضِدِّ ذلك :

حمل العصا للمُبتلى ... بالشَّيب عُنـــوانُ البِلى

وصفَ المســـافرُ أنّه ألقَى العَصـــا كَيْ يَنزِلاَ
فعلَى القياسِ سبيلُ مَن حَمَلَ العَصَا أن يَرْحَلاَ

وقال شيخ الشيوخ عبدُ العزيز الأنصاريّ :

ترامَتْ بنا آمالُنا كلّ مُرتمَى طَوَى من بَسِيطات المَمالكِ مَاطَوى
وأفضَى بهـا المَسْرى إلى عَتَباتِه فألقَت عَصاها واستقرّ بها النَّوَى

وقال شرفُ الدين بن عُنَين :

ولمّا استقرّت فى ذَراه بِيَ النّوَى
وألقَتْ عَصاهَا بينَ مُزْدَحَمِ الوَفْدِ
تنصَّل دهرِى واستراحَتْ من الوجَى(١)
قلُوصِى ونامَتْ مُقلَتِي وعَلاَ جَدّى

وقال عمارة اليمنىّ :

إنّ الكفالةَ والوزارةَ لم تزَلْ يُومِي إليكَ بفضلِها ويُشارُ
كانت مُسافرةً إليكَ وتَبْعدُ (٢) أخطارُ ما لم تُركَبِ الأخطارُ
حتى إذا نزلتْ عليكَ وشاهدتْ مَلِـكا يَزينُ المُلكَ منه سِوارُ
ألقَتْ عَصاها فى ذَراهُ وعُرِّيتْ عنها السُّروجُ وحُطّتِ الأكوارُ

وقال ابن صرّدرّ :

عَلَى رِسْلِكُمْ فى الهجرِ إنّا عِصابةٌ
إذَا ظفرتْ بالحبّ عفّ ضميرُها
سواءٌ على المُشتاقِ والهجرُ حظّه أألقتْ عصاها أو أجدّ بكورُها

---

(١) م : « النوى » .　(٢) ط : « يرى » تحريف .

وقال أيضا :

أقمتَ في نعماء مطمئنّةٍ   تحكمٍ الفؤادَ في إطرابِهِ
ألقتْ عَصاها وارتمتْ رِكابُها   في سُرَرِ الوادِي وفي شِعابِهِ

وما أحسنَ قولَ القائل :

إذا لم يَرَ الإنسان عند قدومِهِ   مُحيّاكَ مِثل البَدْرِ والبدر سافِرُ
فأقسمتُ ما ألقتْ عصاها يدُ النَّوى
ولا قرّ عينًـــــا بالإيابِ المُسافِرُ

حدّث أبو المحلّم عَوف بنُ المحلّم قال : كانت لي وفادة على عبد الله بن طاهر إلى خراسان، فصادفتهُ يريدُ الحجّ ، فعادلْته في العمارِيّة من مَرْوَ إلى الرّيّ ، فلما قاربنا الرّيّ ، سَمِع عبدُ الله بنُ طاهرٍ وَرَشانًا[1] في بعضِ الأغصان يَصيح ، فأنشدَ يقول متمثّلا :

ألا ياحَمام الأيْكِ إلفُكَ حاضرٌ   وغُصْنُك مَيّادٌ فنيمَ تَنُوحُ[2] !
أفِق لا تنحْ من غير شيءٍ فإنني   بَكَيتُ زمانًا والفؤادُ صَحيحُ
ولوعًا فشَطّت غُرْبةً دارُ زينبٍ   فها أنا أبكِي والفؤادُ جَريحُ

ثمّ قال : ياعَوْف ، أجِزْ هذا ؛ فقلتُ في الحال :

أفِي كلِّ يومٍ غُرْبةٌ ونُزوحُ   أمَا للنّوى من وَنْيةٍ فتُريحُ
لقد طَلّحَ البَيْنُ المُشِتُّ رَكائبي   فهل أرَيَنّ البَيْنَ وهو طَليحُ
وأرّقني بالرّيّ نَوْحُ حَمـــــامةٍ
فنُحْتُ وذو الشّجْوِ القديمِ يَنُوحُ

---

(١) الورشان : طائر أصغر من الحمام ، وهو المعروف بساق حر .
(٢) أمالي القالي ١ : ١٣٣ .

على أنها ناحت ولم تُذرِ دمعة
ونُحتُ وأسرابُ الدموع سفوحُ
وناحتْ وفرْخاها بحيثُ تراهما
ومن دون أفراخي مهامِهُ فِيحُ
عسى جُودُ عبدِ الله أن يُعقِبَ النوى
فيُلقِي عصا التسيارِ وهي طريحُ
فإنَّ الغِنَى يُدْنِي الفتَى من صديقه
وعُدْمُ الفتَى بالمُقترِين نزُوحُ

قال: فأخرج رأسه من العمارية، وقال للسائق: ألقِ الزِّمام، فألقاه. فوقف ووقف الحاجّ، ثمّ دعا صاحبَ بيْت المال فقال له: كم يضمّ مُلكُنا؟ فقال: ستّين ألفَ دينار. قال ادفعها إلى عوف. ثمّ قال: يا عوف، لقد ألقيتَ عصا تطوافك فارجع من حيثُ جئتَ. قال: فأقبل خاصّةُ عبدِ الله يلومونه ويقولون: أتُجيز أيُّها الأمير شاعراً في مثل هذا المكان بستّين ألفَ دينار، ولا تملك سِواها! فقال: إليكم عنّي، فإنّي استحييْتُ من الكرَم أن يسيرَ بي جملي، وعوف يقول: «عسى جُودُ عبدِ الله»، وفي ملكي شيء لا ينفرد به. ورجع عوفٌ إلى وطنه، فسئل عن حاله، فقال: رجعتُ من عند عبدِ الله بالغِنَى والرّاحة من النّوى(١).

قال الإمامُ فخر الدين الرّازي في كتاب «مناقب الشافعيّ» رضيَ الله عنه: روَى محمد بنُ جرير الطّبري، عن الرّبيع، قال: كان الشافعيّ جالساً يوما بين يدَي مالك رضيَ الله عنه، فجاء رجلٌ إليه فقال: يا أبا عبدِ الله، إنّي رجلٌ أبيعُ القُمْرِيّ. وإنّي بعتُ يوماً قُمْرِيًّا، فبعدَ زمانٍ أتاني صاحبُ

(١) الخبر في معجم الأدباء ١٦ : ١٤١ ـ ١٤٣.

القُمْرِيّ ، فقال : إنّ قُمْرِيكَ هذا لا يَصيح ؟ فتشاجرنا فحلفتُ بالطّلاق أنّ قُمْرِيِّي ما يَهْدأ من الصّياح . فقال مالِك : طَلُقَتْ امرأتُك . فقام الرجل حزينا . فقام الشافعيُّ إليه ــ وهو يومئذ ابنُ أربع عشرةَ سنةً ــ وقال للسائل : أصِياحُ قمريِّك أكثرُ أم سُكوته ؟ فقال السائل : بل صِياحُه ، قال الشافعيُّ : امضِ ، فإنّ زَوْجتك ما طَلُقَت . ثمّ رجع الشافعيُّ إلى الحلْقة ، فعاد السّائل إلى مالِك وقال : يا أبا عبد الله ، تفكّرْ في واقِعتي لِتَستحقّ الثّواب ! فقال مالك : الجوابُ ما تقدم . قال : فإنّ عندَك مَن قال : إنّ الطلاق غيرُ واقع . فقال مالِكٌ : من هو ؟ قال السائل : هو هذا الغلام ــ وأوْمَى إلى الشّافعيّ ــ فغضِب مالكٌ عليه ، وقال : من أينَ لك هذا الجواب ؟ فقال الشافعيّ : إني سألته : أصِياحُه أكثرُ أم سُكوتُه ؟ فقال : إنّ صِياحَه أكثر، فقال مالِك : وهذا الدّليلُ أقبح ، وأيُّ تأثيرٍ لِكَثْرة صياحِه وقلّة سُكوتِه في هذا الباب ! فقال الشافعيّ : إنّك حدَّثتَني عن عبدِ الله بن يزيدَ ، عن أبي سَلَمَة ، عن عبدِ الرحمن ، عن فاطمةَ بنتِ قيس ، أنّها أتت النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله، إنّ أبا جَهْم ومعاوية خطَباني ، فبأيِّهما أتزوّج ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : «أمّا معاويةُ فصُعْلوك ، وأمّا أبو جَهْم فلا يَضَع العَصا عن عاتِقِه» ، وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا جَهْمٍ كان يأكل وينام ويستريح . فعلِمنا أنّه عليه السلام أراد بقوله : «لا يَضع العَصا عن عاتِقِه» ، على تفسير أنه الأغلب من أحوالِه ذلك . فلما سمع مالكٌ تعجّب من الشافعيّ ، ولم يقدَح في قولِه ألبتّةَ .

* * *

١١٦ — وقوله : وأستأنِفُ التأدُّبَ بأدبِكَ ، والاحتمالَ على مَذْهبِكَ .

استأنفَ : استفْعَل ، من الاستئناف ، وهو الابتداء . والتأدُّب : تفعُّل ، من الأدَب ، والأَدَبُ أدبُ النفسِ وأدبُ الدَّرْس ، فالأدب اتصاف النفس بكلِّ خُلُقٍ جميل ، وقد أدُبَ الرّجل بضمّ الدّال فهو أديبٌ ، وأدَّبتُه فتأدَّب .

وقال ابن المعتز : الأدبُ صورةُ العقْل ، فحسِّن عقْلَكَ كيف شئتَ .

وقال أبو العتاهية :

ولم أرَ فضْلا تَمَّ إلاّ بشِيمةٍ ... ولم أرَ عقْلا تَمَّ إلاَّ على أدبْ

وقوله : « وأستأنفُ التأدُّبُ بأدبك » ، يعني أتوب عمّا كنتُ مُرْتكِبَه من الطّريق الأُولى ، فأَرجع عنها ، وآخذَ الآنَ بأَدَبك ، وأسلكَ طريقَك ، وأحذو حذْوَكَ . وما أحسنُ قولَ الأوّل :

إنْ تُتْهِمِي فتِهامةٌ وَطَنِي ... أو تُنْجِدِي يكنِ الهوى نَجدُ

وقولُ الآخر :

فإنْ تَدَعِي نجداً نَدَعْه ومَنْ به ... وإنْ تَسْكُنِي نجداً فياحبّذا نَجْدُ

وقول يزيدُ بنُ معاوية :

فإنْ تُسْلِمِي نُسْلِمْ وإنْ تَتَنَصَّرِي ... يَحُطُّ رجالٌ بين أعيُنِهِم صُلْبا

وقال ابنُ المعلِّم :

أتُخيِّمون على الحِجازِ فنقتدى ... أمْ عائدُونَ إلى الحِمَى فنعودُ

نَهْوَى لأجلِكم الحَجيجَ وما بنا   لولاكمُ نُسُكٌ ولا تزهيدُ
ويَشوقُنا أرجُ الحجازِ وذِكْرُه الدّا   نى ومرتَبع الحجازِ بعيدُ

وقوله: «والاحتمالُ على مَذْهبك». يعنى: ألزِم نفسى باتّباعك، والأخذِ بمذهبك تقليداً، ولا أنظر فى تعليل ما تأتيه وما تذَره.

وما أحسنَ قولَ الأوّل:

فلو قلتِ طأْ فى النارِ أعلمُ أنّه   رضاً لكِ أو مُدنٍ لنا مِن وِصالِكِ[1]
لقدّمتُ رِجْلى نحوَها ووطِئتُها   هُدًى منكِ لى أو ضَلّةً من ضَلالِكِ
لئن ساءنى أن نِلْتِنى بمَساءةٍ   لقد سرَّنى أنّى خَطَرْتُ ببالِكِ

والتقليد: هو قبولُ قولِ الآمرِ أو المُفتى أو المؤدِّب من غير طلب تعليل للحكم ولا حجّة، والتقليد فى الفُروع دونَ الأصول.

وذهبَ الأصحابُ إلى أنّه لا يجوز للعالِم تقليد العالم البتّة، وجوّزه أحمدُ رضىَ الله عنه وإسحاقُ بنُ راهَوَيه وسُفْيان الثّوْرىّ مطلقا، ومنهم من فصّل فقال: يجوزُ لمن بَعْد الصّحابة رضى الله عنهم تقليدُ الصّحابة دونَ غيرهم، وبه قال شمسُ الدّين محمّد بن يوسف الجزرى[2]، وهو القولُ القديمُ للشّافعىّ رضىَ الله عنه.

وقال محمد بنُ الحسن: يجوز تقليدُ العالم للأعْلم. وقيل: يجوزُ أن يقلّد غيرَه فيما يخصّه دونَ ما يُفتى به، وقيل: يجوزُ فيما يَخُصّه إذا كان بحيثُ لو اشتغلَ بالنّظر فات المقْصود.

* * *

(١) ديوان الحماسة ٢: ١٠٧.
(٢) ط: «الحريرى» تحريف.

١١٧ – وقوله: فَلاَ أُوجِدُ للحاسدِ مجالَ لحظة، ولاأَدَعُ للقادحِ مساغَ لفظة.

الحاسِدُ: الّذى يتمنّى زوالَ النِّعمةِ عن المَحسود، والحسد أوّلُ ذَنب عُصِىَ الله به فى الأرض وفى السّماء؛ لأنّ إبليسَ لعنه الله حسد آدمَ عليه السلام عندما أُمِر بالسّجود له، وكذلك قابيلُ بنُ آدم عليه السلام حَسَد أخاهُ هابيلَ على زواجِه بأخته توءمته؛ لأنّها كانت أحسنَ من توءمة هابيل، فلمّا قرّبا قرْبانا أكلتَ النارُ قرْبانَ هابيل، ولم تأكُل قربانَ قابيل. فحَسَده، فتأكَّد حسَدَه له فقتله. وفى المَثَل: ما خَلاَ جسد من حَسَد.

والمَجال: اسمٌ لمصدر جالَ يَجُول جَوَلانا، إذا طافَ فى البَلَد، وأصلُه من الحركة.

واللّحظ: مصدرَ لحَظ إذا نَظَر.

والقادح: الذى يَطعَن فى عِرْض غيرِه.

والمَساغ: اسمُ لِمَصدَر ساغَ يسوغُ الشّراب إذا سهل مَدخَله فى الحَلْق. ومعناه: إذا اتّصفتْ بهذه الأحوال لايجِدُ الحاسد مدارَ لحظةٍ، ولا الطاعن فى عِرْضى ما يَسوغ من لفظةٍ كما قال الأميرُ تميم بن المُعِز:

بلغتَ بى الحالَ الّذى كنتُ أرتجى ... عُلاها فخالى غِبطةٌ وسُرورُ(١)

وكيف أخافُ الحاسدِين وبَغْيَهم ... وأنتَ عليهمْ لى يدٌ وأَميرُ

كان أبو الحُسَين الجَزّار يَصحب قاضىَ القضاة عبد الوهاب ابن بنتِ الأعزّ، فظَفِر له شخصٌ من حُسّاده وأعدائه بورقةٍ بخَطِّه يدعو فيها شخصًا إلى مجالس أُنْس، ووَصفَ المَجلس؛ فأخذ ذلك الشخصُ تلك الورقةَ ووضَعها

---

(١) ديوانه ١٤٤، وروايته: «بلغت بى الحال».

فى القائمة الأُولى من كتاب صِحاح الجَوْهرىّ ، من نسخة كانت عنده فى ثمانىَ مجلدات ، وأعطَى الكتابَ الدّلاّل ، وقال : اعرضه على قاضى القضاة . فأحضر الدّلاّل الكتابَ إلى قاضى القضاة ، فلمّا أخذَ المجلّد الأوّل وجدَ تلك الوَرَقة فيه ، فعرف خطَّ الجزار ، فأخذَ الوَرَقة وقرأها[1] ؛ وقال للدّلاّل : رُدَّ الكتاب إلى صاحبه ، فإنّه ما يبيعه . ولمّا حضر الجزّار إلى قاضى القضاة ناوله الوَرَقة ، فَتَهم القصد[2] ، وقال : يامولانا ، لا إله إلاّ الله ، هذا خَطِّى منذ ثلاثين سنةً من أيّام الصِّبا . ثمّ إنّ الجزار أراد أن يَعرِف ما عند القاضى ، وهل تأثر بتلك الوَرَقة ، فقال له بعدَ أيّام فى أثناء حكايته : إنّ شخصا كان يَصحَب قاضىَ القُضاة عماد الدّين بن السكّرىّ ، فرفعتْ له شَهادةٌ على شخص ، فسابَقَه ذلك الشخص إلى القاضى ، وادّعى عليه أنه استأجره من مدّة كذا وكذا لِيُغَنِّىَ له فى عُرْسِه بكذا وكذا ، وقَبَض الأُجْرة ولم يُغَنِّ ، وانفصلَت الخصومة ، ثمّ وقعتِ الدّعوى على المُدّعى المذكور ، وشَهِد ذلك الشّاهد . فقال قاضى القضاة تاج الدين : ما صَنَع ابن السكّرىّ ؟ فقال : ما قبل شهادته . فقال : ما أنصف صاحبه ؛ فَعَلم الجزّار أن ابنَ بنتِ الأعزّ ما تأثّر لتلك الوَرَقة .

* * *

١١٨ — وقوله : والله مُيَسِّرُكَ من إطلابى بهذه الطَّلِبة ، وإشكائى من هذه الشَّكْوَى .

إطْلابى ، تقول : أطْلَبه إطلابا ، أى أسعفه ، وأطْلَبه : أحوجه ، وهو من الأضْداد ، والمراد هنا الأوّل ، وهو الإسعاف ، والطَّلِبة ، بكسر اللام : ما طلبْتَه من شىء .

(١) ط : « فقرأ الورقة وأخذها » . (٢) ط : « المقصود » .

والإشكائى ، تقول : إذا أعتبته من شِكايته وأزَلته عمّا يشكُوه ، وأشكيته إن فعلتَ به ما يشكوه ، وهو من الأضداد ، والمراد هنا الأوّل ، وما أحسنَ قولَ ابنِ الرُّومى :

تُشْكِى المُحِبَّ وتَشكو وهى ظالمةٌ
كالقوسِ تُصْمِى الرَّمايا وهى مِرْنانُ

وقلتُ أنا فى ذلك :

تُشكى المحبَّ وتَشكُو فالقلبُ لا يَطمئنُّ
كالقَوسِ تُصمِى الرَّمايا وبعدَ هذا تَئِنُّ

* * *

١١٩ — وقوله: بصنيعةٍ تُصيبُ منها مكانَ المصنَعِ، أو تَستودِعها أحسنَ مُستَوْدَعٍ.

الصَّنيعة : المعروف والإحسان إلى النَّاس.

والمَصنع : المصدر، تقول : صَنعت إليه صُنعاً ومَصْنَعا . قال ابنُ عبّاس رضى الله عنهما : لا يُزَهِّدَنَّكَ فى المعروف كُفْرُ مَن كَفَره ، فإنّه يَشْكُرك عليه من لم تَصْطَنِعْه إليه .

وسمِع عبدُ الله بنُ جعفر قولَ الشاعر :

إنّ الصَّنيعةَ لاتكونُ صَنيعةً حتى تصيبَ بها طريقَ المَصنَعِ

فقال : هذا رجلٌ يريدُ أن يُبخِّل الناس ، أمْطِر المعروفَ مطرا ، فإنْ صادفَ موضعاً فهو الّذى قصدتَ ، وإلاّ كنتَ أحقَّ به .

وجاء في كلام عبدِ الله بنِ المعتزّ : المعروفُ كَنزٌ ، فانظرْ من تُودِعه !

وقال الشاعر :

لا تَصْنَعِ المعروفَ في ساقطٍ ... فذاكَ صُنْعٌ ساقطٌ ضائِعُ
واصْنَعْهُ في حرٍّ كريمٍ يكن ... عُرْفُك مسكاً وعَرْفُه ضائعُ

وقال صالح بن عبد القدوس :

متى تُسْدِ معروفاً إلى غيرِ أهلِه ... رُزِئْتَ ولم تظفَر بأجرٍ ولا حَمْدِ

وقال أيضاً :

لا تَجُدْ بالعطاء في غير حقٍّ ... ليس في منع غير ذي الحق بُخْلُ
إنما الجود أن تَجودَ على من ... هو للجود منك والبذلِ أهْلُ

قال الحجاج لابن القِرِّيَّة : ما أضيع الأشياء ؟ قال : مطر جَوْدٌ في أرض مسبخة لا يجفّ ثراها ، ولا ينبت مرعاها ، وسراجٌ يوقدُ في الشمس ، وجاريةٌ حسناء تُزَفُّ إلى عِنِّين أعمى ، وصنيعةٌ تُهدَى إلى من لا يَشكُرها .

وقالت الحكماء : أصلُ كلّ عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام ، وقالوا : المعروف إلى اللئيم أضيع من الرسم على بساط الماء ، والخطّ على بسط الهواء . وقالوا : زوال الدولة باصطناع السّفلة .

أورد الشيخ أمير الدين أبو الغنائم ، مسلم بن محمود الشيزريّ في كتابه «القاصمة للفئة الغاشمة» ، قال : حدثني الشيخ الشريف يونس بن يحيي البغداديّ العباسيّ قراءة عليه ، قال : أخبرنا عمر بن شاهين ، حدثنا أحمد بن محمد الباخرزيّ ، حدثنا عليّ بن حرب الطائيّ ، حدّثنا جعفر بن الفزر العابد بنهروان ، قال : كنتُ عند سُفْيانَ الثَّوْرى ، فالتفَتَ إلى شيخٍ فقال : حدِّثِ القومَ بحديث الحيّة ،

فقال : حدثني عبدالجبار بن جهير بن عبدالله أنه خرج إلى متصيَّده ، فتمثَّلت بين يديه حيَّة ، فقالت: أجِرْني أجارك اللهُ في ظله يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِله ، فقال: وممَّ أجيرُكِ ؟ فقالت: من عدوّ قد رهَقني ، يريد أن يُقطِّعني إرْبًا إرْبًا. قال : ومَن أنتِ ؟ قالت : مِن أهلِ لا إله إلاَّ الله . قال : وأين أخبئك[١] ؟ قالت : في جَوفك[٢] إن كنتَ تريد المعروف[٣] . قال : ففتح فاهُ وقال : ها ، فدخلَتْ جوفه ، فإذا رجلٌ معه صَمْصامة ، فقال : يا جهير ، أين الحيّة ؟ قال : ما أرَى شيئًا ، قال : سبحان الله ! قال : نعم ، سبحان الله ما أرى شيئًا ، فذهبِ الرجل ، فأطلَعت الحيّة رأسَها وقالت : ياجهير ، أتحِسّ الرجلَ ؟ فقال لها : قد ذهب ، قالت : فاختر إحدَى خَصلتين : أن أنكُت في قلبك نُكْتة ، أو أثْقُبَ كَبِدَك فتلقيها من أسفل قِطَعًا قِطَعًا! قال: والله ما كافأتِني، قالت : حيث[٤] تصنَع المعروفَ عند من لا يستحقّه . قال : فأمهِليني حتى آتيَ سَفْحِ هذا الجبل ، فأمهِّد لنفسي ؛ فبينما هو يمشي إذْ هو بفتًى حَسَن الوجه طيب الرائحة ، حَسَن الثياب ، فقال : ياشيْخ ، مالي أراك مُسترسِلاً للموت ، آيسًا من الحياة؟ قال : مِن عدوّ في جَوْفي يريد هَلاكي . فاستخرَجَ شيئًا من كُمّه فدفَعه إليه وقال : كلْ هذا ، ففَعل ، فأصابه مَغَسٌ شديد ، ثم ناوَلَه أخرى فأكلها ، فرَمَى بالحيَّة من أسفلَ قِطَعًا قِطَعًا . فقال : مَن أنتَ يرحمُك الله ؟ فما أعظمَ مِنّةً عليَّ منكَ ! قال : أنا المعروف ، إنّ أهلَ السَّماء لمَّا رأوْا غدْر الحيَّة بك اضطرَبوا ، كلٌّ يسأل ربَّه أن يُغيثك ، فقال الله عزّ وجلّ : يا معروف أدْرِكْ عبدي ، فإيّاي أرادَ بما صَنَع .

وخرَج قومٌ للصّيد ، فطردوا ضَبُعًا حتى ألجئوها إلى خِباء أعرابيّ ، فأجارَها ، وجعل يُطعِمها ، فبينما هو نائم إذ وثبتْ عليه ، فبقَرَتْ بطنَه ،

---

(١) الإرب : العضو .
(٢) ط : « بطنك » .
(٣) ط : « إن كنت من أهل المعروف » .
(٤) م : « حين » .

وجاء ابنُ عمٍّ له يطلبه، فإذا هو بَقَبْرٍ، فَقَبَّمَها حتّى قتلها، وقال:

ومَنْ يَصنعِ المعروفَ في غيرِ أهلِهِ
يُلاقِ الذى لاقَى مُجيرُ أمِّ عامرِ

أعَدَّ لها لمّا استجارتْ بِبَيْتِهِ أحاليبَ ألبانِ اللِّقاحِ الدَّرائرِ
وأسْمَنَها حتّى إذا ما تمكَّنَتْ فَرَتْهُ بأنيابٍ لها وأظافرِ

فقل لِذَوِي المعروفِ: هذا جزاءُ من
يجودُ بمعروفٍ على غيرِ شاكرِ

وحكى الأصمعيُّ أنّ أعرابيًّا ربَّى جِرْوَ ذِئْبٍ، وجعلَ يُغَذِّيه بلَبَن شاةٍ له حتّى كَبِرَ، فخرج معها للرَّعْى كعادته، فحرَّكَتْه الطِّباعُ الدنيّة، والنفس الذِّئْبيّة على افتراس الشاة، فلمّا رأى الأعرابيُّ الشاةَ فَريسةَ الذئب، أنشد:

عقرتَ شُوَيْهَتِي وفَجَعْتَ قومى بشاتِهم، وأنتَ لها رَبيبُ
غُذِيتَ بدَرِّها ونَشأتَ معها فمَن أنباكَ أنّ أباكَ ذيبُ
إذا كانَ الطِّباعُ طِباعَ سوءٍ فلا أدبٌ يُفيدُ ولا أديبُ

وقال أبو تمّام الطائى:

شرُّ الأوائلِ والأواخرِ ذِمّةٌ لم تُصْطَنَعْ، وصَنيعةٌ لم تُشْكَرِ (١)

أغارَ مالكُ بنُ خُثَيْمَةَ الجعفىّ على بنى القَيْنِ، فاستاقَ لهم إبلًا، فأطلقوا الأعنّةَ ليطلقوها منه، فلم يَقْدِروا عليه، ولا وصلوا إليه، ثمّ إنه ذكر يدًا

(١) ديوانه ٣٩٧ .

كانت لبعضهم عنده ، فخلى عمّا كان في يده وولّى منصرفا . فنادوه وقالوا : إنّ أمامك مفازة ، ولا ماء معك ، وقد فعلت جميلا فانزل ولك الذمام والحباء . فلما نزل واطمأنّ وسكن ، أخذته سِنةٌ فنام ، فوثبوا عليه وقتلوه .

وما أحسن قول عمارة اليمني يخاطب السلطان صلاح الدين :

فياواصلَ الأرزاقِ كيف تركتني أمدُّ إلى زند العلا كفّ أقطع
وأقسم لو قالت لياليك للدُّجى أعِدْ غارب الجوزاء قال لها اطْلُعي
فيا زارعَ الإحسانِ في كلّ تربةٍ ظفرتَ بتُربٍ يُنبتُ الشكرَ فازرع

قلتُ : ما زرع عنده إلا أنه صلبه ، وجعل له في الجولا في التراب تربة ، لجناية نقمها عليه من ميله إلى أهل القصر ، ونقلها عنه الهمزة في ذلك العصر ، وعند الله تجتمع الخصوم !

وقال ابن القيسراني :

قد حسُن الصُّنعُ ألا فاصطنعْ وأمكن الدَّرُّ ألا فانتقِ
ومرَّ إحسانُك بي رائقا مرَّ الصَّبا بالغصنِ المورِقِ

وقال رشيد الدين الفارقيّ :

وأعجبُ ما حُدّثْتَ وصفُك للعلا ومثلي في أيام مثلِك ضائعُ
لئن أمطرتني من سجاياك مُزنةٌ
حكمتْ لك أرضي كيف تزكو الصنائعُ

وقال شاعرٌ قديم :

لَعَمرُك ما المعروفُ في غير أهلِه وفي أهلِه إلاّ كبعضِ الودائعِ
فمستودَعٌ ضاعَ الّذي كان عندَه ومُستودَعٌ ما عندَه غيرُ ضائعِ
وما الناسُ في شكرِ الصنيعة عندهم وفي كُفرِها إلاّ كبعض المزارعِ
فمزرعةٌ طابتْ فأضعفَ نبتُها ومزرعةٌ أكدتْ على كلِّ زارعِ

* * *

١٣٠ — وقوله : حَسْبُما أنتَ خليقٌ له ، وأنا منك حرًى به .

حَسْبُما ، أى قَدْرَ ما أنتَ خَليقٌ له ، تقول : فلانٌ خَليقٌ لكذا ، أى جَدِيرٌ به ، وقد خَلُق لكذا بضمّ اللام .

وحرًى به ، أى جَدِيرٌ به وخليقٌ ؛ وحرًى يُثَنَّى ولا يُجْمَع .

وأنشد الكِسائىّ :

وهُنَّ حَرًى ألاّ يُثِبْنَك نقرةً وأنتَ حَرٍ بالنّارحين تُثيبُ[(١)]

فإذا قلتَ : هو حَرٍ ، بكسر الرّاء وحرىّ ثنَّيْتَ وجَمَعْتَ ، فقلتَ : هما حَرِيّانِ ، وهُمْ حَرِيُّون وأحْرِياء ، وهى حَرِيَّةٌ ، وهنّ حَرِيّاتٌ وحرَايا ، ومنه اُشْتُقَّ التّحرِّى فى الأمور . وما أحسنَ قولَ أبى إسحاقَ الغَزّى .

إذا جادَت السُّحب السباخ بِطَيْبِها فأجدرُ مخصُوصٍ بِهِنّ الحدائقُ ؟

* * *

١٣١ — وقوله : وذلك بِيَدِه ، وهَيِّنٌ عليه .

أى بِيَدِه هذا الّذى سأله ؛ وقصده فيه ، أمْرُه راجعٌ إليه ، وهو فى حُكمه يصرّفه كيف أراد على ما يختار كما يكون الشىء بيده ، وهذا كنايةٌ عن القُدْرة والاستيلاء ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ والأرضُ جميعًا قَبْضَتُه يومَ القيامة والسّمواتُ مَطْوِيّاتٌ بيمينِهِ ﴾[(٢)] . وفى قوله تعالى : ﴿ بِيَمِينِه ﴾ لطيفة ؛ لأنه لم يقُل « فى يمينه » حتّى ينفى الظرفيّة الّتى هىَ من لوازم الأجسام . وكلّ هذه العبارة كنايةٌ عن القُدْرة التامّة ، والاستيلاء الكامل ، فتبارَكَ الله العظيم ! . وهذا النّوع يسمّيه أربابُ البَديعِ التّمْثِيل .

---

(١) اللسان — حرى ، من غير نسبة (٢) سورة الزمر ٦٧ .

وقول الرَّمّاح بن مَيّادة :

أَلَمْ تَكُ فى يُمْنَى يَدَيْكَ جَعَلْتَنِي ... فلا تجعلنّى بعدها فى شِمالِكا

أراد أن يقول : ألمْ أكنْ قريبا منكَ ؛ فلا تجعلنّى بعيدًا عنك، فعَدَل عن هذا اللفظ الخاص إلى لفظ أعمّ ؛ وهو التمثيل ، لما فيه من الزيادة فى المعنى ممّا تعطيه لفظتا اليمين والشِّمال من القُرْب والبُعْد ومن الأوصاف التى لا يحصل إلاّ بذِكْرها ؛ لأن اليمينَ أشدُّ قوّةً من الشِّمال ؛ وأقرب إلى ربِّها ، لأنّه بها يأخذ ويُعطى ويبطش ؛ ويَعمَل الصّنائع ، وبها يَعتمِد ، وهى عنده مُكَرّمة على الشِّمال . فهذه الأفعال الشّريفة ، وتلك للأعمال الخسيسة ، ولهذا كانت يَمينُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لأكله وشرابه ووُضوئِه وتنعُّله ، وشِماله لاستنجائِه وإماطةِ الأذَى عنه .

قال الزَّمخشرِىّ فى كَشّافه : فإن قلت : لمَ أخِّرت الصّلة فى قوله تعالى : ﴿ وهو أهْوَنُ عليه ﴾[1] ، وقدِّمَتْ فى قوله تعالى : ﴿ هوَ علىَّ هَيِّن ﴾[2] ؟ قلتُ : هناك قصد الاختصاص ، وهو محزّه . فقيل : هو علىَّ هَيِن ، وإن كان مُتصعّبًا عندكم أن يولَد بين هِمّ[2] وعاقر ؛ وأمّا هنا فلا معنًى للاختصاص . كيف والأمرُ مبنىٌّ على ما يَعقِلون من أن الإعادة أسهَلُ من الابتداء ، فلو قدِّمت الصلة لتغيّر المعنى[3] .

وقال المتنخّل :

ولكنّه هَيِّنٌ لَيِّنٌ ... كعالِيَةِ الرُّمْحِ عَرْدٌ نَساهُ

والهيِّن فعيل من الهَوْن ، وهو السّكينة ، وهانَ عليه الشىء ، أى خَفَّ . وهوّنه الله عليه ، أى سهّله وخفّفه .

---

(١) سورة الروم آية ٢٧ .

(٢) الهم : الشيخ الفانى .

(٣) الكشاف ٣ : ٢٧٥ .

وفي هَيِّن لغتان : هَيّن وهَيْن بتشديد الياء وتخفيفها ، مثل ليّن ولَيْن ، ومَيّت ومَيْت ، وفي الحديث : « المؤمن هَيْنٌ لَيْنٌ » ، بتخفيف الياء فيهما ، قال الشاعر :

هَيْنُون لَيْنُون أيسارٌ ذَوُو يَسَرٍ أربابُ مَكْرُمةٍ أبناءُ إيسارِ

وفي هذا المَثَل : « هَيْن لَيْن وأودت العين » ، يقال : إنّ هذا المَثَل سار من قوله دُغة ، وذلك أنّ صواحبها حسدْنها على أنساعٍ بها جُدُد جعلت تئطّ إذا ركبت ، فقلن لها : ويحك يا دُغة ! إنّ أنساعَك تئطّ ، وإذا سمع الرجال ذلك قالوا : هذا ضُراط دُغة ، فلو أنّكِ دهنتِها فهو ألين لها ، ويذهب عنكِ هذا الذي تخافين عارَه ؛ قالت : إنّي فاعلةٌ ذلك ، فلمّا نزلتْ حملت النساء السّمن لها في الأقداح ، فلما صار السمن بيدها أخذت نِسعًا من أنساعها ، فقطّرت بعض على نواحيه من السمن ، فاسودّ ولان ، فعند ذلك قالت : دُغه هَيْن لين وأوْدَت العَين » تعني حُسْنَ النّسع ، فصار مثلا .

* * *

١٢٢ — وقوله : وَلمّا توالَتْ غررُ هذا النّثرِ ، وَاتّسقت دُرَرُه .

توالت ، من المُوالاة ، وهي المُتابعة . والغُرَر جمع غُرّة ، وهي أوّل كلّ شيء وأكرمه . واتّسقت ، معناه انتظمت . والدُّرَر : جمع دُرّة ، وجوابُ « لمّا » يأتي فيها بعدُ ، وهو قوله : « عارضه النّظمُ » .

* * *

(١) الميداني ٢ : ٣٨٣

١٢٣ ــ وقوله : فهزّ عِطفَ غُلَوائه ، وجرّ ذَيل خُيَلائه .

الغُلَواء والغُلْوان : سُرعة الشباب وأوّلُه ، عن أبي زيد .

والخُيَلاء : الكِبْر والتِّيه ، يقال منه : اختال ، فهو ذو خُيَلاء وذو خالٍ وذو مخيلة . والعادة جرت بأنّ الناثر لا يَصِف رسالته بحُسْنٍ ، ولا يُثْنِي عليها، بخلاف الشاعر ، فإنّ له أن يُقرّظ قصيدته ، ويُثْنِي على فصاحة ألفاظها ، وبلاغة معانيها ، وينبّه على محاسنها ، وهذا أمرٌ قد استفاضَ بين الأدباء أمرُه ، وتقرّر عند البُلَغاء ذِكْرُه . فقلّ أن يُرى شاعرٌ نظم قصيدةً مطوّلةً إلاّ وختمها بالثناء على محاسنها .

وأبو الطيِّب حاملُ هذه الرّاية ، وأبو تمّام قبله ، قال أبو الطّيِّب :

أنا صخرةُ الوادي إذا ما زُوحِمَتْ   وإذا نطقتُ فإنّني الجوزاء(١)

وإذا خَفِيتُ على الغبيّ فعاذرٌ   ألاّ تراني مُقلةٌ عمياء

وقال أبو تمّام رحمه الله تعالى :

من كلّ بيتٍ يكادُ الميتُ يَفْهَمُه   حُسْناً ويَعبُدُه القِرطاسُ والقلمُ

وقال ابن القَيْسَراني :

فدونكها لو أدركتْها أُميّةٌ   لَحامَى جريرٌ دونَها والفرزدقُ

يُناقضها من لا يكاد يُجيبُه

وقد زأر الضّرغامُ والعَيرُ يَنْهَقُ

وقال عُمارةُ اليَمَنيّ :

قوافٍ هيَ الشِّعرى سُمُوًّا وإنّما   يلقّبها بالشِّعر من ليس يَشْعُرُ

(١) ديوانه ١ : ١٥

مَلَكْتُ عليها خُنْزُوَانَةَ كِبْرِها ... وفيها على قَوْمٍ سِواكَ تَكَبُّرُ

تَزَفُّ ولكنَّ الصُّدورَ خُدورُها ... وتُنْحَلُ أَلبابَ الرِّجالِ وتُمْهَرُ

* * *

١٢٤ — قوله : عَارَضَها النَّظْمِ مُبَاهِيًا ، بل كايَدَه مُدَاهِيًا .

عارَضَ: فاعَلَ من المُعارَضَة ،ومُباهِيًا: اسمُ فاعلٍ من المُباهاة ،وهى المُفاخَرة. وكايد ، فاعل من المُكايدَة ، والكَيْد : المَكْر والخَديعة ، وربَّما سُمِّىَ الحرب كَيدا .

يريدُ بهذا الكلام أنَّ النَّثر إذا تقدّم فلا بأسَ المتكلِّم أن يُلحِقه بشىء من النَّظم ، لأنَّ النفوسَ تَرتَاح إلى ذلك ؛ ولأنَّ البلاغة دائرةٌ بين هذين النَّوعين ، وهما النَّظم والنَّثر . وقد ذهَبَ قومٌ إلى أنَّ النَّثر أشرفُ من النَّظْم ، قالوا : ومن الدَّليل على ذلك أن الكُتّاب والمترسِّلين أقلّ من الشّعراء ؛ لأنه يكون فى كلّ زمان جماعةٌ من الشّعراء ، ولعل ذلك الزّمانَ لا يكون فيه كاتبٌ مُفْلِق يُدَوِّن كلامه ويُخَلَّد . ومن الدّليل أيضا على شرف النَّثر كونُ القرآنِ غيرَ منظوم .

قلت : ولأنّ الشعرَ يُروِّجه الوَزنُ الّذى هو مُلائم للطَّبْع ، والنَّثر إن لم يكن فى الذِّروة العُلْيا من البلاغة ، لا تَقبَله النّفوس ، وتَمُجُّه الأسْماع .

ومن عجيب الدَّهاء أنّ قوماً قدَّموا خَصْما لهمْ إلى الحاكم ، فقالوا : لنا عليه مالٌ ، فقال : صَدَقوا أيُّها الحاكم ، سألتُهم المُهلَة إلى أن أَبيع مالى من عَقارٍ ورقيق ، وإبلٍ وشاء ، فقالوا : كذب أعزّكَ الله ، وإنّما يداهينا بذلك ، فقالَ : أيُّها الحاكم ، قد شهدوا لى [1] بالإعسار . فخلّى الحاكمُ سبيله .

(١) ط : « على »

ومما قلتُ أنا :

تداهى عَذولى فى الغَرام ولم تَكُنْ مَقاصِدُه تَخفَى على عاشقٍ مِثلِى
أَحَبَّ ولمَّا غارَ مِنِّى وخافَ أن أُفاتِحَه فيه تَسابقَ بالعَذْلِ

* * *

١٢٥ — وقوله : وحِينَ أشفقَ من أَن يَعطِفَك اُستِعطافُه، ويَميلَ بنفسِك إلْطَافُه .

أَشفَق : بمعنى حَذِر. عَطَفك يَعطِفُك ، أى ثَناكَ إليه استعطافُه ، استِفْعالٌ من العَطْف . والإلْطاف ، مصدر أَلْطَفَه بكذا ، أى بَرّه وأتْحفه ، وهذا الّذى سلكه ابنُ زَيْدون فى هذا المكانِ نوعٌ من سحر البلاغة وزخرفِها ، وهو الّذى يسمِّيه أربابُ البَديع الإسجال بعد المُغالَطة ؛ لأنّه غالَطَه ابن جَهْوَر بما خَدَعه من كلامِه المتقدِّم ، ثمّ أسْجل عليه بعدذلك أنّ هذا النَّثر الّذى قدّمْته عطفك ، وأمالَ بإلْطافِه نفسك ، فأَشْفق النظمُ من ذلك ، وغارَمنه فأرادأن يُساهِمَه ، ويكونَ له نَصيب . وقد جاء من هذا النوع قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾(١) ، ومنه قولُ الشاعر :

جاء الشِّتاء وما عِنْدِى لقِرَّتِهِ إلاّ ارْتِعادى وتَصفِيقى بأسْنانى
فإنْ هلَكْتُ فمَولانا يكَفِّنُنِى هَبْنِى هَلَكْتُ فهَبْ لى بَعضَ أكْفانِ

وقد تأتى المُغالَطة بلا إسجالٍ كقول أبى نُواس :

أسائلُ القادِمين مِن حَكَمانِ كيف خَلَّفتُمُ أبا عُثْمانِ(٢)

---

(١) سورة غافر ٨ (٢) ديوانه ٣٩٥

فيقولون لى جَنانُ كما سَرّ ... كَ فى نفسِها ، فسَلْ عن جَنانِ
مالهمْ لا يُبارِكُ الله فيهمْ ... كيف لم يُغْنِ عندهم كِتْمانِي !

هذه جنان كان يهواها أبو نُواس ، وما صَدَق فى حُبِّ أحدٍ ممن كان يتعشقه غيرها . وأبو عثمانَ الذى ذكره فى شعره هو أخو مولَى جنان .

وما أحلى قولَ القائل :

بالله ياصاحبَ الوجْهِ الذى اجتمعتْ ... فيه المحاسنُ فاستَوْلَى على المُهَجِ
خُذْنى خَدِيناً وإن لم ترضَ بى صَلَفاً
فارْفَعْ بىَ العَينَ عن ذا المَنْظرِ البَهِجِ

***

١٣٦ — وقوله : فاستحسَن العائِدَةَ منه ، واعْتَدَّ بالفائدة له .

استحسن : استفعل من الحُسْن . والعائدة ، تقول : فلانٌ ذو عائدة ، أى ذو عفْوٍ وتعطُّف ، واعتدَدْت بالفائدة له ، معناه : عَدَدْتُ الفائدةَ له .

وهذا الكلام أخرجَه مخرجَ التوكيد لاستعطاف أبن جَهْوَر ، ومَيْل نفسِه إلى هذا النظم وقبوله له ، وأنه صادف من قلبه مَوْضعاً ، فكأنّ هذا الأمر صار وانفَصَل حُكْمُه ، وهذا من باب من قولك : غفر الله له ورحمه الله ، وهذا إنّما هو فى الأصل دُعاء ، والدّعاء طَلَب ، والطّلَب استدعاء أمرٍ لم يكن بعد ، ولكن تخرجه مخرجَ أمرٍ قد صار ومَضَى ووقع ، وُثوقاً برحمة الله ، وطَمَعاً فى جُوده . وما أحسَن ما أَتَى بهذه الألفاظ فى حَقِّ النّظم ، وأنه الذى يبلغه المقصود لا النثر ، وإن كان قد جاء فى هذا النثر بما هو السِّحر الحَلال ، والخُدعة التى لا مَحيدَ لها عن الانفعال ، ولكنّ هذا كلّه من التصرّف فى

فنون البَلاغة ، وقوَّة المارضة ، فهو يغالطه من هاهنا ويَخدَعه مِن هُنا ، ويُكايدُه مِن هنا ، حتى يظفر منه بمراده .

وفى المثل « تلطُّف أبى غزوان » ، وهو كُنْيَة القِطّ ، لأنك ترىَ القِطّ الذى يكونُ عندكَ فى البيت – ولا أعْنِى به الأجْنبى – كيف يقف حذاءك ويخضَع لك ويتمرَّغ على يَدَيك ، ويَطرَح نفسَه على مايَقرُب منه من جسدكَ ، وتارةً ينظرُ إليك، وتارةً يصيحُ ، ولا يَزالُ بكَ حتّى تطعِمَه إمّا رحمةً له ، أو ضجَراً منه .

* * *

١٢٧ – وقوله: فما زال يَسْتَكِدّ الذّهْن العليل ، والخاطرَ الـكَلِيل .

يستكد : يَستَفْعِل من الـكَدّ ، وهو الشّدّة فى العَمَل . والذِّهن : الفِطْنَة والحِفْظ .

والعَليل: فَعِيلٌ من العِلّة . والخاطرُ ، خَطَر الشىء ببالِى يَخْطُر – بضم الطاء – خُطوراً ، وأخطَره الله ببالى . والـكَلِيل : فَعِيلٌ من الـكلال ، كَلّ السيفُ إذا لم يَقْطع ، وكَلّت الريحُ إذا فَرّت بعد الهبوب ، والطَّرْفُ إذا ضَعُف نَظَرُه ، أو اللِّسان إذا حصَل له العِىّ ، يَكِلّ كلاًّ وكَلالةً وكِلّةً وكُلولا ؛ كلُّ ذلك مَصدرُ « كَلّ » .

ثمّ إنّ ابنَ زَيْدونَ أخَذ بعد تلك العبارة الأُولى يَصِف ماعاناه من الشّدّة ، وكابَدَه من العَناء فى نَظْم القصيدةِ التى سوف يُورِدها بعد انقضاء كلامه ، كالّذى يريد أن يستميل المخاطبَ إلى مايوردُه ، أو كالذى يُشوِّق من له غرامٌ فى مَرامٍ ، ويعده بأنه لو تحمّل لك ، لـكنت ترى عَجَبا ، وتظفر بأُمنية

بديعة ، فيحصُل حينئذ للمُخاطب استعدادٌ تامّ ، ويتكيّف لوُرودِ ذلك ولسماعه بكيفيّة قابلة ، وأعضاء مشتاقة . وما أحسَنَ قولَ أبي تمّام :

تغايَرَ الشِّعْرُ فيه إذ سَهِرْتُ له
حتّى ظَنَنْتُ قَوافِيه سَتَقْتَتِلُ[(١)]

* * *

١٢٨ — وقوله : حتى زَفّ إليك منه عَرُوساً مَجْلُوّةً في أثوابِها ، منصوصةً بِحُلِيِّها ومَلابِها .

جَلاه : فهو مَجلوّ ، وجَلَوْتُ العروسَ جِلاءً وجَلْوَةً وأجْلَيْتها بمعنًى . مَنصُوصة ، مفعولة من النَّصّ ، وهو الرَّفْع ، ومنه مِنَصّة العروس . والحُلِيّ : ماتزان به العروس من القلائد والشُّنُوف والأَسْوار وغير ذلك .

والمَلاب : الزَّعفران ، ومن أسمائه الجادِيّ والرَّيهقان والحُصّ[(٢)] . وقد ادّعى ابن زَيْدونَ أنّه قد زفّ إليه عَروساً من نَظْمه ، وهي القصيدةُ الميمية في أثوابها ، وحُلِيِّها ومَلابها . أرادَ بالثّياب ألفاظَها لأنّه تخيّر لها ألفاظاً فصيحةً عَذْبة التركيب ، عَرِيّةً من الألفاظ الغريبة الحوشيّة الّتي يَنْبُو عنها السّمع ، وأراد بالحُلِيّ المعانيَ الّتي قصدَها ، فإنّها بليغةٌ كأنّها أنواعُ الجَوْهر الّتي يضمّها الحُلِيّ . وأراد بالمَلاب مافيها من الثّناء ؛ لأنّ الثّناء يُوصَف بالطّيب على ماهو مَشْهور في العُرْف .

* * *

وقد جرَت عادةُ الشّعراء أن يُسمُّوا مدائحَهم عَروساً بديعةَ الحُسْن ، وأنّ سَوْقَها إلى مَمْدوحِيهم زِفاف ، وأنّ مَهرَها الإقبال على شاعِرها ، وهو أشهَرُ مِن أن يُستَشهَد له بشيء . قال ابنُ السّاعاتيّ رحمه الله تعالى :

---

(١) ديوانه ٢٢٧ . (٢) الجادى . الزعفران ، وكذلك الريهقان والحص .

تُجلَى فتُطرِبُ قبلَ أن يُحْدَى بها
وِتْرًا ولمَ تدرِ السُّقاةُ المُنكرا

رُعْبُوبةٌ حَسُنَتْ كوجهك مَنظرًا
مجلوّة طابَتْ كأصلِك مَخبرا

فاستَجلِها واستَحْلِها مستغرِبًا بِكرًا نَماها صائِغًا ومصوِّرا

وقال أيضا:

حتّى تُزَفّ بناتُ الحمدِ غاديةً
على رجالِ المَعالى ثُمَّ تنصرفُ

يَمُدّها الفَضْلُ من إحسانه حُجلا
وهىَ الشذورُ التى تأتيك والشُّنُفُ

وقال أيضا:

وقافيةٍ مَقْبونةِ الحقِّ حُزْتُها
فَوَفَّيْتها حقّا وآمنتها الغَبنا

عَروسٌ حَصانُ النّحرِ، فكرِى وَلِيُّها
مَهرتُ لها وَهْنًا فما وَجَدَتْ وَهْنا

وقال الأرَّجانىّ:

وإنِّى لأرضاكَ للمَدْحِ كُفْوًا كَرِيمًا وأرضَى بنُعماكَ مَهْرًا(١)
فدُونَك فاجتَلِ بالسَّمْعِ منك أزُفّ إليكَ ابنةَ الفِكْرِ بِكْرا

وقال ابنُ المعلِّم:

أيُّها المَولَى استَمِعْ شِعْرَ الّذِى حَدَّثَ المَشرِقُ عنه مَغْرِبَهْ

---

(١) ديوانه ١٠٨

جئت أهدى منه بِكراً سُمِّيَت بكَ إذ منك حُلاها المُذهَبَهْ

وقال سبط ابن التعاويذى :

زَفَفْتُ إليكَ عَرُوسَ الثَّنا ءِ عَذْراء من حُسْنها فى نِطاقِ (١)
وصُغْتُ لها حِليَةً من عُلاكَ على مَفرِق الدّهر ذاتَ ائتِلاقِ

ومنهم من يدّعى أن قصيدته « بُرْدٌ محبَّر » ، قال ابنُ بابَك :

أنصِتْ لشاردةٍ تُصغِى لرنَّتها فُصْحُ الحَمام إذا غَنّى بها الحادِى
مَعشوقة اللّفظِ تُستجلَى بدائعُها كأنّ ألفاظهـا تحبيرُ أبرادِ

ومنهم من يقول : « إنّه عِقْد جَوْهر » ، قال ابن قلاقس :

نظمتُ لكَ الدرّ الّذى مِن فَريدِه فرائدُ أبكارِ الدّرارِى القَوائِمِ
غرائبُ خُصَّت بالرَّغائبِ فانْثَنَتْ
وكم غُرَرٍ فى أوجهٍ ومَباسِمِ

وقال أبو تمّام :

إذا أُنشِدَتْ فى القوم ظَلّت كأنّها
مُسرّةُ كِبْرٍ أو تداخلها عُجْبُ (٢)
مُفَصّلة باللّؤلؤ المنتقَى لهـا من الشِّعر إلاّ أنّه اللّؤلؤ الرّطْبُ

ومنهم من يقول : « رَوْضٌ مُزْهر » ، قال أبن بابَك :

واستجلِ ألفـاظاً كأنّ سَقيطَها رَوْضٌ ألمّ به الرّكاب المسبَلُ
وإليكَ صَوْبَ مَدائحٍ لو أنّها ماءٌ لَثُجَّ به الرّحيقُ السَّلسَلُ

وقال أبن قلاقس :

إليكَ أتَى رِكابُ الشِّعر يَطوِى فَسِيحاتِ الحُزُونِ مع السُّهولِ

---

(١) ديوانه ٣٠٠ (٢) ديوانه ٣٤

كزَهْرِ الرَّوْضِ قد جُرَّت عليه ذُيولُ غلائلِ الــرِّيحِ البليلِ

ومنهم من يقول : « سحرٌ يُؤثِّر » ، قال سِبْط ابن التعاويذي :

قَوافٍ تَسحَرُ الألبابَ حتَّى يُخَالَ بها فُتورٌ واحْوِرارُ(١)
تَظَلُّ لَدَى بُيوتِكمُ وتُمسِي بها وَلَهـا طَـوافٌ واعتِمارُ

وقال ابنُ الساعاتيّ :

مَلَكتُ أعناقَ القريضِ مِلْكَ إذْ عانٍ فلَمْ أعمد له إلاّ اتّفق
يَصدَعُ بالسِّحرِ الحلالِ فِكْرتي وتارةً يَسمَح بالدُّرِّ النَّسَق

ومنهم من يقول « نسيمٌ الرياض يخطر » ، قال ابن القيسراني :

وذاتِ مَعانٍ قطَّعتْ لُبَّ الحَيَا إليكَ فجاءتْ وهي تلعَبُ بالَّلبِّ
تهزّ عميدَ القومِ حتّى كأنَّهـــا
نسيمُ الصَّبا أفضَى إلى الغُصُنِ الرَّطْبِ

وقال ابنُ الساعاتي :

سيارةُ الأمثالِ لست بواجدٍ كفؤاً سِواكَ لِمِثلِها وعَديلاَ
حضريّةُ النَّفحاتِ ضائعُ رَدْعِها(٢) عمّ البَسيطةَ عَرْضَها والطُّولاَ
فكأنّما نفَسُ القَبولِ أمدّهـا نَشْرَ الخُزامَى لَذّةً وقَبولاَ

ومنهم من يقول : « خمرٌ أسكر » ، قال ابن قلاقس :

جاءتك كالتَرِف الشّمائِل وَاعِداً بِوِصالِه متعفّراً من صَدّهِ
ذابَ البَديعُ بها فسَلْسَلَ لفظَهـا راحاً تؤمِّن شاربًا من حَدّهِ

---

(١) ديوانه ٢٠٤ (٢) الردع هنا : الزعفران .

وقال الأرّجانيّ :

خُذْها سُلافَةَ فِكرٍ قد هَزَزتُ لها
أعطافَ خِرْقٍ بكأسِ الحمْد نَشْوانِ (١)
راحاً يُشَعْشِعُها الرّاوِي بأكْؤُسِها يُشْرَبْنَ مِن دُون أفواهٍ بآذانِ

ومنهم من يقول : « حَمامٌ غَرِد » . قال ابنُ قلاقس :

جاءتْكَ كالأوراقِ باتَتْ في النَّدَى
خُضْراً وكالأوراق ناحَتْ هُتَّفا
من كلِّ قافيةٍ تحطّ قِناعها فتردُّ وجهَ « قِفا » وقائلها قفا (٢)

وقال ابن الزقّاق :

وإليكَها من واضِحاتِ قلائدي
مِدَحاً يَرِنّ بها الحمامُ ويهزجُ (٣)
كقطائمِ البُسْتان أينعَ زَهْرُها أو كالعذارَى البِيض إذ تتبرّجُ

ومنهم من يقول : « مِسْك أذْفر » ، قال ابنُ المعلّم :

نفّحتها شاعر ولىِّ الدرِّ إحسانِكم رَضيعُ
يَنثرُ منها بكلِّ نادٍ لطائماً نَشْرُها يَضُوعُ

وقال ابنُ الساعاتيّ :

قَعَدَتْ حولَكَ القوافي ولا يَنْفَكّ في الأرْض كلّها سيّارا
كلما كَتَموه نَمّ شَذاهُ فهو كالمِسْك نَفحةً وانتشارا

ومنهم من يقول : « ثوب أفق بالكواكب مدثّر » ، قال الخفاجيّ :

(١) ديوانه ٤٠١ ، والخرق من الفتيان : الظريف في سماحة .
(٢) يشير إلى معلقة امرىء القيس التي أولها : « قفا نبك » . (٣) ديوانه ١٢٠ .

لك الخير ما جَهْد القَوافِي ببالغٍ مداكَ ، وإن بذَّ الرِّياحَ مَسيرُها[1]
ولو نُظمت فيكَ النجومُ مَدائحًا
لقصر عن حَدِّ الثَّناء مَسيرُهَا

وقال أبو العَلاء المعرّى :

وَلَقَدْ غَصَبْتُ اللَّيلَ أحسنَ شُهْبه ونَظَمْتُها عقداً لأَحْسَنِ لابِسِ[2]
وأفدتها القِدْحَ المُعَلَّى فائضاً يَجرى ولم أقنع لها بالنّافسِ

ومنهم من يقول : « حُسامٌ صَقِيل مُجوْهَر » . قال ابن السّاعاتى :

فافترعْها غَيْداء جَيْداء كالمعـ شُوق يَجلُو على المُحِبِّ دَلالَه
كصفيح الهِنْديّ حُسْناً ولِيناً وكَحَدَّيْه قُوَّةً وجَزالَهْ

وقال الأرّجانى :

واسمعْ جميل ثناء من خلوصِ هوًى على لسان جنانى فيك يلقيه
ألا فقلّد حساماً من تَصادقهُ منها ، وطوّق حساماً مَنْ تعاديه

ومنهم من يقول : « ليث يزأر » ؛ قال ابن الساعاتىّ :

مديحٌ حكى زَأْرَ الأسود جزالةً وراء نسيبٍ كالغزال يُغازَلُ
فما نقشه إلاّ سوادُ عَجاجةٍ وما شكلها إلاّ قنا ومناصِلُ

وقد جمع سبط ابنُ التعاويذىّ غالبَ هذه الدعاوى وادّعاها لقصيدته ، فقال :

سأملأُ فيه أقاصى البــلاد ثناء متى سارت الشمسُ سارَا[1]

---

(١) ديوانه ٤٨ .

(٢) سقط الزند ٤١٢ ، والقدح المعلى من القداح : ما كان له سبعة أنصباء ، والنافس له خمسة .

وأبقى على مفرق الدهر منـ ـه تاجاً وفى معصميه سِوارا
قوافٍ كأنّ على السامعـ ـين أدير بهن شمولاً عُقارا
تضوع طيباً كأنّ الثنـا ء شيب بها مندلياً وغارا
وتفترّ عن مبسم كالريا ض ضاحك نُوّارها الجلّنارا
حسان فإن كنت أرسلتهن عُونا فإنّ المعانى عذارى

* * *

قوله بعد تمام القصيدة(٢) :

١٣٩ — ها كها أعزّك الله ، يَبْسُطها الأمل ، ويقبضها الخجل .

يبسطها الأمل ، أى يمدّها ويطوّلها حسن الظنّ بك . ويقبضها الخجل ، أى يجمعها ويضمها التقصير ، وكأنها تقدّم رجلا من الأمل ، وتؤخر أخرى من الخجل وقد طابق بين البسط والقبض وبين الأمل والخجل ، لأنّ الأمل يبعث والخجل يكفّ . وقد جرت العادة فى مثل هذا بين الأدباء ، أنه يُتبع النثر بالنظم ، لأنّ النظم له موقع فى السمع تلذّه ، وللنفس به ابتهاج لمناسبة بين الطبع والوزن ، قال أبو تمام :

فكيف ولم يزل للشعر ماء يرفّ عليه ريحان القلوب

ثم إنهم يعتذرون مع ذلك . وقد اعتمد هذا جماعة من الأدباء ، منهم أبو عبد الله الحسين بن علىّ بن محمد المعروف بابن قمّ اليمنىّ فى رسالته المشهورة التى كتبها إلى أبى حمير سبأ بن أبى السعود أحمد الصليحىّ ، فقال فى آخر رسالته المذكورة : وقد أصحب عبده هذه الأسطر شعراً يقصّر فيه عن واجب الحمد ، وإن بنيت قافيته

---

(١) ديوانه ١٧٩ (٢) انظر القصيدة بتمامها فى ص ٢٧ — ٢٩

على المدّ ، وما يمدّ نفسه إلى كهدي جلد السّبتيّ الأنمر(١) ، إلى الديباج الأحمر . أين درّ الحَبَاب ، من ثغور الأحباب ، وأيْنَ الشّراب من السراب !

* * *

١٣٠ — وقوله لَهَا ذَنْبُ التقصيرِ ، وَحُرْمَةُ الإِخْلَاصِ ، فهبْ ذنباً لحُرمَةٍ ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ .

الحُرمة : مالا يحلّ انتهاكه ، وكذلك المحرمة . والإخلاص : أن يكون الضمير لا يخالطه شكٌّ فيما يعتقده . واشفع ، أى أتبع النِّعمة بالنعمة حتى يكون ذلك شفعاً ، أى زوجاً . وقال عُمارة اليمنيّ :

خُذِ الْعَفْوَ واصْفَحْ عَنْ قُصُورِ قصائدِي
فإنَّكَ عن ذَنْبِ المُقِرِّينَ صافِحُ
وسامحْ وَخُذْ بعض الذى تستحقُّه
فمن عادةٍ أنّ الكريمَ يسامحُ

وما أحسن ما أنشدنيه لنفسه إجازة صفيّ الدين الحِلّيّ :

فاستَجْلِ بِكْرَ قصيدٍ لا صداقَ لها
سوى القبولِ وودٍ غير مكفورِ
على أبى الطيّب الكوفيّ مفخرُها
إذْ لم أضِعْ مسكَها فى مثل كافورِ
رقّتْ لتعربَ عن رِقّى لمجدكُمُ
حيًّا ، وطالتْ لتمحو ذنب تقصيرِ

وقال ابن المعلّم :

ما كان فى التقصير إلا مذنباً
شعرى وقد جاء إليك تائباً

قوله : « واشفع نعمة بنعمة » ، من قول أبى تمام :

---

(١) السبتى من أسماء النمر ، والأنمر ما فيه نكت سوداء وأخرى بيضاء .

وتقفو لى الجدوى بجدوى وإنما
يروقك بيت الشعر حين يصرع[(١)]

وقال ابن حيوس :

ولطالما أغنيت غير مشارك عن صوب غادية بصوب بنان
وفللت غرب كتيبة بطليعة وشفعت بكر صنيعة بعوان

* * *

١٣١ — وقوله : ليتأتى لك الإحسان من جهاته ، وتسلك إلى الفضل من طرقاته

التأنى : والتهيؤ ، وتأتى له ، أى ترفق وأتاه من وجهه. وقال الفراء : يقال : فلان يتأتى ، أى جاء يتعرض لمعروفك ، والإحسان مصدر « أحسن » ، وهو ضد الإساءة . وجهات : جمع جهة ، وهى الناحية والقصد . والسلوك . الذهاب والمرور . والفضل : اسم يعم كل خير ، وهو ضد النقص . والطرقات : جمع طريقة ، وهى المذهب .

---

(١) ديوانه ١٩٠ .

[فصل في نقد المؤلف لرسالة ابن زيدون]

فيما ظهر لي من الانتقاد على ابن زيدون رحمه الله تعالى ، وإن كان من الفضل بالمحلّ الأعلى، ومن الأدب بالنَّوْر الأَجْلَى ، فإنه لا بدّ من الكبوة للجواد والهفوة لمن عرض عقله على النُّقاد، فالعِصْمة لا تُشترط إلّا لمرسَل ، ومن عرّض نحرَه للعوالي فلا بد أن يُبْسَل[1] ؛ وفوق كلّ ذي علم عليم .

١ — من ذلك قوله: « الّذي وِدادي له »، أتى بهذه فذّةً لا أخت لها ، ولو قال بعدها : « وسدادي » لكان قد آخى بين الكلام ؛ كما قال بعد ذلك : « واعتدادي به ، واعتمادي عليه » .

٢ — ومن ذلك قوله: « وأنفعُ الحَيَا ما وافقَ جَدْبا ، وألذُّ الشَّرابِ ما أصاب غليلا » ، كان يحسن به ويليق بهذا الموضع لو أنشد :

لَوْلاَ اطّرادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ فَتَطارَدِي لِي بالوِصالِ قليلا

ومن ذلك قوله : « ولا أخلو من أن أكون بريئا فأينَ عَدْلُك ، أو مسيئا فأين فضْلُك » كان يحسن بهذا الموضع ويليقُ به لو قال بعد ذلك :

هَبِيني ظَلُوماً نلتِــهِ بمساءةٍ
قِصاصاً فأينَ الأخذُ يا عَزُّ بالفَضْلِ !

٣ — ومن ذلك قوله : « حنانيك قدْ بَلَغَ السَّيلُ الزُّبى » كان يحسن بهذا الموضع ويليق به أن لو زاده : « وجاوزَ الحزامُ الطُّبْيَيْن » ، الطُّبْي لذوات الحافر والسِّباع كالضَّرْع لغيرها .

---

(١) البسل : الهلاك .

وهكذا كتب عثمان بن عفان إلى علىّ بن أبى طالب وهو محصور فى الدار : « أمّا بَعْد ، فقد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى ، وجاوز الحزامُ الطبيين » . وقد تقدّم ذلك عند ذكر عثمان رضى الله عنه .

٤ — ومن ذلك قوله : « وتأوّلتُ فى بيعةِ العقبة » ، لم ينقُل أحد من علماء السِّيَر أن أحداً ممّن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة من الأنصار ـ رضى الله عنهم ـ نكث بيعته أو تأوّل فيها ؛ فإيرادُه هذه القرينة مع ما تقدمها من الوقائع المشهورة غير لائق .

٥ — ومن ذلك قوله : « وَتَخلّفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيظةِ » ، هذه وإن كان قد وقع فيها جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم ينقُلْ أحدٌ من أرباب السِّيَر فيما علمتُه أنه عاب على أحدٍ ممن تخلّف عن الصلاة فى بنى قُرَيظة تأخيره . فإنه فيهم من صلى العصر فى وقتها فى بنى قريظة ، ومنهم من تأخر عنها . ولما ورد قضى صلاة العصر فى بنى قريظة ، وما أنكر على أحدٍ منهم صلى الله عليه وسلم فعله ؛ وما يليق بالبليغ أن يورد هذه الواقعة مع ما أورده من تخلّف إبليس عن السجود لآدم ، ومن فعل ابن نوح ، ومن قول فرعون : (يٰهَامَانُ ابْنِ صَرْحًا) ، من عَقْر ناقة صالح ، مِمّا ذكره وعدّده من تلك الإساءات ، وأورده من تلك الذّنوب .

٦ — ومن ذلك قوله : « وزعمتَ أنَّ إمارَةَ أبى بكر كانت فلتةً » ، فإنّ مثل هذه العبارة لا تورد فى الجنايات ولا الخطايا ؛ لاسيما وهى من قول عمر ابن الخطاب رضى الله عنه على ما تقدم بيانُه . والذين تعلّقوا بهذه العبارة وعدّوها هفوة ، إنما تمسّكوا بما فسّره الخطابىّ فى كتاب غريب الحديث ؛ وليس ذلك بظاهر ، وابن زيدون رحمه الله تعالى تمسّك بما فسّره أبو عبيد .

٧ — ومن ذلك قوله : « وكتبتُ إلى عُمر بن سعد : أن جَعْجِع بالحسين » ،

فإنه عَنى بالـكاتب عُبيد الله بن زياد وعَنى بعمر بن سعد ، ابنَ أبي وقاص ، وهو الذي تولّى محاربة الحسين . وعبيد الله بن زياد إنما كتب بذلك إلى الحرّ بن يزيد التميميّ ـ وكان قد أرسله في ألف فارس ـ ليلاقي الحسين قبل إرساله عمر بن سعد . فلقيه الحُرّ ، ومنعه من التوجّه إلى الكوفة وإلى الشام ، وحال بينه وبين الرجوع ، وجرى بينهما الصلح ـ على ماهو مذكور في كتب التواريخ ـ على أن ينزل الحسين رضي الله عنه حيث انتهى إليه الحرّ وعسكره ، ويكاتب الحرّ عبيدَ الله . فكان جواب عبيد الله إليه : أن جعجِعْ بالحسين وأصحابه حتى تأتي عمرَ بن سعد ، وأنزلهم على غير ماء .

٨ — ومن ذلك قوله : « فكيف ولا ذنبَ إلاّ نميمةٌ أهداها كاشحٌ ، ونبأٌ جاء به فاسق » ؛ كان يليق بهذه الموطن أن يزيد فيه : « وفِرْيةٌ اختلقها حاسد » ، ليحسن بعد ذلك قوله : « وهم الهمّازون المشاءون بنميم » .

٩ — ومن ذلك قوله : وما ظنّك بقومٍ ، الصدقُ محمود إلا منهم .

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبُ(١)

ليس هذا البيت بعد هذه السجعات بمتمكّنٍ في إيراده ، ولا ثابتٍ في وضعه ، وكان الأليق بهذه السجعات لو أورد قول أبي الطيب :

وإنْ كان ذنبي كلَّ ذنب فإنّهُ
محا الذنبَ كلَّ المحْوِ من جاء تائبا(٢)

لكان حسناً وافياً بالمقصود .

---

(١) للنابغة ، ديوانه ١٢
(٢) ديوانه ١ : ١٧

١٠ — ومن ذلك قوله : « ووالله ما غششتُك بعد النصيحة ... » ، إلى قوله : « وعهد أخذه حسن الظنّ عليك » ، هنا بعد فراغه من هذه الْجمل التى عطفها على الجملة التى أقسم عليها ، يحسن إيراده قول الشاعر :

* حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة .. *

البيت

١١ — ومن ذلك قوله : « فممّ عَبثَ الجفاء بأذِمّتى » ، كذا وجدتُه بخط الشيخ الإمام الأديب الكامل علىّ بن ظافر رحمه الله تعالى فى اختصاره نفائس الذخيرة ، والظاهر أن ابن زيدون رحمه الله تعالى إنما قال : « ففيم[1] » أو « علام » .

١٢ — ومن ذلك قوله : « وما لك لم تمنَعْ مِنّى قبل أن أُفترَسَ ، وتُذْركنى ولمّا أمزّق ، أم كيف لا تتضرّم جوانح الأكفاء حسداً لِى على الُخصوص بك » ؛ هكذا نقلته من خط ابن ظافر رحمه الله تعالى ، وما لدخول هذه الجمل المصدّرة بأم مناسبة على هذه الجمل المصدرة بحرف الاستفهام ؛ لأنه لا يجوز أن تقول : مالك لم تقم ، ولِمَ تركب ، أم كيف لا تكون قاعداً ؟ وهذه « أم » إنما يعطَف بها على الاستفهام بالهمزة ، فتقول : أقمتَ أم قعدتَ ، والظاهر أن ابن زيدون رحمه الله تعالى قال : « وكيف لا » ؛ والله أعلم .

١٣ — ومن ذلك قوله : « عارفٌ بأن الأدَب الوطنُ لا يُخشى فِراقه ، والخليطُ لا يُتوقّع زياله » ، كذا وجدته بخط ابن ظافر رحمه الله تعالى ، وهو غير مستقيم ولا متفق ، لأنّ كل أحدٍ يخشى فراق وطنه . والظاهر أن ابن زيدون رحمه الله تعالى قال : « عارف أن الوطن يجتنب فراقه والخليط يخشى زياله » ، وإنما صحف « يجتنب » ، بـ « يخشى » وزادها « لا » ، لأنه قال

---

(١) وكذا طبعت فى ص ٢٥٨

فيما بعد : « غير أنّ الوطن محبوب والمنشأ معروف ، واللبيب يحنّ إلى وطنه » .

١٤ — ومن ذلك قوله : « والكريم لا يجفو أرضاً بها قبائله ، ولا ينسى بلداً فيها مراضعه » لو قال بعد هذا : « ولا يرفض معهداً قضى الشبابُ فيها مآربه » .

١٥ — ومن ذلك قوله : « إنّ الطّامع فى غيرك طَبِع ، والغناء من سواك عناء » ، لو قال بعد ذلك : « والطمأنينة إلى غيرك غرور ، والثقة بخلافك خذلان » لكان فيه زيادة حُسْن .

فصـــل

[رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر]

وإذ قد وصل بي العمل إلى هنا ، وفرغتُ من الكلام على الرســالة الزيدونيّة ، فلا بأسَ بإيراد الرسالة التي أنشأها الإمام الفاضل الكاتب القاضي محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر [1] ، أحد أشياخ الإنشاء ، لا بل إمامُ مَنْ ترسّل وتوصّل إلى المقاصد الغريبة ، بحسنِ ماخاطَب ، ولُطفِ ما توسّل . وهي رسالة كتب بها رحمه الله تعالى إلى الأمير ناصر الدين حسن بن شاور الكناني القُمَيْصيّ المعروف بابن النقيب [2] رحمه الله تعالى ، في معنى شخص تنقّصه بسبب التواضع في الجلوس ، وهو يُنسب إلى الرفض ، حذا فيها حَذْوَ ابن زيدون رحمه الله تعالى في هذه الرسالة في سنة ثلاثٍ وخمسين وستمائة . وقد نقلت ذلك من خطه رحمه الله تعالى :

بلغني ـ أعزّك الله ، ولا برحتَ رَحِيبَ فناء الفخر ، قشيبَ مَلْبسِ العمر ، يانع ثمر الشُّكر ، مُفْعم حياضِ البرّ ـ أنّ فلاناً غضّ منّي كلّ غضّ الجَنَى ، وأنه عَبثَ بي عبثَ الأيام بالمُنى ، وأنّه ردّني إلى أرْذل العمر في الاطّراح ، وغلّق في وجْه تَفجّحِي أبوابَ النجاح ، وزعم أن إناء أناتي [3] غيرُ مُفعَم ، وبناء مَجْدي غيرُ مُحْكَم ، وجواد إجادتي غيرُ مُلْجَم ، وأنّ ميلادَ مَجْدي حديث ، وسبب سَعْدي رَثِيث [4] ، وأن جَوارِح إجادتي جَرِيحة ، وقرائح ارتجالي قَرِيحة ،

---

(١) هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان محيي الدين القاضي الأديب المؤرخ ، من أهل مصر مولداً ووفاة ، توفي سنة ٦٩٢ . فوات الوفيات ١ : ٢١٢ .

(٢) هو الحسن بن شاور بن طرخان ، شاعر من أفاضل مصر ، وصاحب كتاب منازل الأحباب. توفي سنة ٦٧٨ . فوات الوفيات ١ : ١١٨.

(٣) في ط : إماتي » .

(٤) السبب : الحبل ، والرثيث ، أي البالي .

وأنّ صدورَ المجالسِ تُنْكِرُ إقدامَ أقدامى ، وبطونَ الطروس لا تلقح بوطء أقلامى ، وأنى لا أعدُّ فى جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبوابٍ متفرّقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب .

وإذا أتتكْ مَذمّتِي مِنْ ناقص فهى الشهادةُ لِي بأنِّيَ كاملُ[1]

وقد بنيت مقالة هذا القائل على أمورٍ ، وحملتُها على احتمالات ؛ غرّه فى جميعها الجهل ، كما غرّه بالله الغرور . والّذى أقوله له مخاطباً ، وأُوحيه إليه مجاوباً :

إن كان استرسالُك أيها العائب عبثاً ؛ فما كل الأفاعى تَعْبَث بها الأنامل ، ولا كلُّ المراعى تُنْصَب بها الحبائل ، ولا كلُّ زخّارٍ يُخاض ، ولا كلُّ جَناح يُهاض ، ولا كلّ جامح يُراض ، ولا كلّ سابقةٍ تُفاض ، ولا كلّ نسرٍ واقع ، ولا كلّ نيّرٍ راجع[2] ، ولا كلّ السُّموم يدخل فى دِرْياق ، ولا كلّ مطوّق يجذَب بالأَطْوَاقِ .

فإن كان ماقلتَه حُلماً ؛ فإنّ من الأحلام ما يَرُوع ، أو وهماً فإنّ من الأوهام ما يُخامِرُ الضلوع ، أو جهلاً فإنّ المندل الرطب لا يضرُّه كونُه حطباً فى موطنه ، والتِّبر لا يَضيره كونه تُراباً فى معدنه . ولا يضر الزِّناد الوارِيَ قدحُ القادح ، كما أنه لا يضير النَّجْم السارى نَبحُ النابح ، ولا علىّ إذا قلتَ ملاما ، وقلتُ أنا سلاماً ، والفخرُ فى أن أحلمُ إذا قلتَ اهتضاما ، لا فى أن تقول كلّ ما حلمتَ مناماً ؛ كما أنك مافى يدك أن تُحدِث لى ضُرًّا ، وفى يدى أن أُوسِعك صَبْرًا ، وفى قدرتى أنك تَستَغْضِبنى فلا أغضَب ، وفى قُدْرَتك أنى أسترضيك ولا ترضَى . وعندك أنك تأكل لحمى مَيْتاً ، وعندى أنّى لا أستحلّ أن آكلَ

(١) المتنبى ، ديوانه ٣ : ٢٦٠ .

(٢) لأن الكواكب فى زعمهم ، بعضها له رجوع ، وبعضها لارجوع له بل يستمر .

لك لقمةً ولا زيتاً ، ويعجبك أنك تحفر لى بئراً وتقع فيها ، ولا يعجبنى أننى أقع فيك .

أُنزِّهُ قلبي عن مُجازاة مثلِهِ متى كانت الآسادُ مثل الثعالبِ !

وأعودُ إلى محاققة النفس ، فتأبى إلاّ إظهار اللَّبس ، فأقول :

هل أنت يافلان إلاّ متخرّص بزُورٍ ، وآيسٌ من الخير كما يئس الكفّار من أصحاب القبور ، وآمن من العواقب ولله عاقبة الأمور ! وما مبالاتى بك إلا مبالاة الدّيك بالبطّ ، والشّمعة بالقطّ ، ورماح الخطّ بأقلام الخطّ ، ومتى خافت الرّعود من الوعود ، أم متى أحْجَمت الأسودُ عن القرود ، أم متى جَزِعت البحار من التيّار ، أم متى صارت النار كالأنوار . أم متَى فزعت بنات نعشٍ من ابنَىْ سَمِير[1] ، أم متى صَغُرت بنو الرّيان فى عين أبى كَبِير ، أم متى جَبُنَ الفرزدق من جرير ، أم متى شُبِّهت النّعامَى[2] بالنّمام ، أم متَى خاف هَرما مصر من الأيّام وهى التى يُخاف منها[3] على الأيام ! وهل تبالى الدّرة المضيئة إذا قيل لها : اليتيمة ! أم هل تعاب الأعيُن النّجل إذا قيل لها : السقيمة ! أم هل تُخجلُ الهَضيمة بالخصور إذا قيل لها : المضيمة !

وما مبالاتى بما تقوله إلا مبالاةُ آدمَ بعدم سجود إبليس، ولا ضَرَرَ منك إلاّ ضرر الصرح المُمَرَّد من قوارير بوَطْء بلقيس . أم هل أبالى بك إلاّ مبالاة البازى بالحمام والليث بالتفاف الخيس ، ومتى كانت هَمْدان تفخر على كَلْب[4] أو تحذَر منها الـكَيْد ، أمْ مَتَى خاف الأسَدُ من أبى زُبيدَ ! وهل بالتْ قريش بتأليب أبى سُفيان ، أم هل فزِعَتْ مازن يوماً من استباحة ذُهْل بن شيبان ، وبحمدالله ماأحوج الزّمان إلى زياد ، ولا ألجأ إلى تلقيه بوجه مكفهرٍ كأنّ عليه أرزاق العباد .

ولستَ ـ لحاكَ الله ـ من بنى صُرَيمٍ الّذينَ تلَقّتْهُم التّهائم والنّجود ،

---

(١) ابنا سمير : هما الليل والنهار .

(٢) النعامى : النسيم .

(٣) الأصل : « عليها » .

(٤) فى الأصل : « كليب » .

ولا من بنى عمرو الذين لبيوتهم تمت صعب الصمود، ولا فيك ما فى أبى قابوس من حزم ونائل، ولا لديك ما لدى مَن إذا قال لم يترك مقالا لقائل.

وكان الواجب عليك أن تمسك إمساك ابن المعذل عن ملاحاة المعرّض بنبهان، وأن تألف من فضيحة جهلك القطيعة أنفة جبلة بن الأيهم ما بين غسّان. وما كان أشغلك عن ذكرى بذكرك، وأحقك بأن تجيل فى خويصة نفسك جواد فكرك، وأولاك بأن تدخل فى رحمة الله بعرفانك لقدرك.

وَلَوْ أَنّى بليتُ بها شمىّ خئولتُهُ بنو عبد المدانِ[1]

لهانَ علىّ ما ألقى، ولكن تعالَوْا فانظروا بمن ابتلانى!

وتالله لقد استقطعت من مثلى مفوّها، وآثرت من ذمى مُرقّها، وهززت من قلبى مثقفا، وأصلت من كلمى مرهفا.

متى سألتْ بغداد عنّى وأهلُها فإنّىَ عن أهل العواصم سائل

ولئن عِبتَ منى يابن لخم هجاء، فإنى لأرجوا أنه سيبعث بك داء.

لقد هزّ مِنّى عامرٌ يوم لَعْلَعٍ حُساما إذا ذاق الضريبة صمّما

وها نحن ننتظر فعل الله فيك بما تفعل بنفسك، ونحسب لك عثارك فى غدك من أمسك، ونتربص بك الدوائر تربصك بفلسك.

ومن يتربص صَوْلة الدّهرِ يَلقَهُ
وشيكا، وَهَلْ توحى الأساود بالوَلَعْ!

وكيف لا يدخُل عليك الاعتلال، وأنت وأخُوك وأبوك وفوك وكلٌّ معتلٌ وذو مالٍ!.

---

(١) لدعبل الخزاعى، ديوانه ٣.

وليس الفتى إلاّ غِنَى زيَّن الفتى عشية يَقرِى أو غداة يُنِيلُ

وأمّا ما توهمتَ من حُلولى فى أُخريات المجالس، و كَوْنى فى ذلك غير منافس ولا منافِس ، فلا عَيْب على السِّنان إذا خَتم الأنابيب ، ولا حُلول القافية فى آخر البيت من الأعاجيب .

والبدر أحسن ما ترا ه العين فى ذيل الأفقْ

ولا حَطّ منزلة الحمدلة له إذا أتى بها فى آخر الـكتاب مَنْ كَتب ، ولا تُشانُ سورة الإخلاص إذا تقدمها فى المصاحف سورة أبى لهب .

ولو لم يعلُ إلا ذُو محلٍّ تعالَى الجيش وانحطّ القَتامُ

ولا تُعاب الشمس إذا كان لها دون فَلك زُحَلَ مقام، ولا يوم عَروبة إذا جاء سادساً للأيام ، ولا الألف إذا جاء بعد الواحد فى العَدَد ، ولا الزُّهرة إذا كان بيتها الثور كما لا فخر للشمس إذا كان بيتها الأسد .

مَنْ كان فَوْقَ محلِّ الشَّمْسِ موضعُه فلَيْس يرْفَعُه شىء ولاَ يَضَعُ

والبيت بأهلِه ، والغِمْد بنصْله ، والثوب بلابسه ، والجواد بفارِسِه ، والقَوْسُ برامِيها ، والصَّهوة برَاقيها ، ومن أسافل البحور تترقّى الدّرارى إلى أعالى النحور .

وقد يُنمَى كبير من صغيرٍ وينبت من نوى القشب اللّبان

ولئن تأخرت الواو فى «عمرو» فى الهجاء ، فلطالما كانت صدر الـكلام فى الابتداء ، ولئن جاءت الهمزة آخر الممدود من الأسماء ، فكثيراً ما جاءت أوّلا فى الاستفهام والإغراء ، وقد ورد التصغير للتعظيم ، ونطق القرآن بالتهكُّم بلفظ « الـكريم » .

على أنّ السعد بحمد لله لا يتوقف على الجلوس فى أوائل المجالس ولا الحلول

منها فى الأواخر ؛ ولا يحضّ المرتفع ويخصّ المتضع فقد غلظت السبابة والوسطى وحليت دونهما الخناصر ، ولا حسْن الثوب إلا بسجافه ، ولا رقم المعلم فى بُرْدٍ إلا فى أطرافه .

إذا أنت أعطيتَ السعادة لم تُبَلْ
ولو نظرت شَذْراً إليك القبائلُ(١)

تقتْكَ على أكتاف أبطالها القنا وهابتْكَ فى أغمادِهِنّ المناصلُ(٢)

ولقد لامست منى شيهماً ، ومارستَ ضيغما ، وجالستَ أرقماً ، وزاحمت جندلا ، وهاويتَ أجدلا .

ياسالكاً بين الأسِنّةِ والقنا إنى أشَمُّ عليكَ رائحةَ الدمِ

وها أنا قد وجدتُ مكانَ القول ذا سعة ، والسّيفُ أقطعَ ما يكون إذا هُزّ ، والجواد أسرع ما يكون إذا لُزّ . وإنّ مع اليوم غداً ، ولو تُركَ القطا لهدا ، وعداوة الشعراء بئس المقتنى !

وَمَنْ تَعْلَقْ بهِ حُمَةَ الأفاعِى يَعِشْ - إنْ فَاتَهُ أجلٌ - عليلا

وإن قلتَ : إنّك لا يضرّك هذا الإرهاج ، ولا يثيرك هذا الإزعاج ، ولا تبالى به إلا مبالاة الزِّجاج بالزُّجاج ، ولا تأنف منه إلا أنفة الحجّاج بالحِجاج .

فإنّ بنى الثُّويرة أدركتْهمْ مذمّتهم بعبد أبى سراجِ

وأعود فأقول : ما أظنك وقمتَ منّى على الخبير ، ولا أنت فى الفحص عن حالى فى قَبيلٍ ولا دَبير ، ولاعلمت أن جدّى سَعْد وجدّى سعيد ، ولا

---

(١) لأبى العلاء المعرى ، سقط الزند ٥٤٩ .

(٢) تفتك ، أى اتقتك .

أنى بحمد الله المأمون وكيف لا ووالدى الرَّشيد ، ولا أن لى إباء يضع لى فوق البدر مِهاداً ، وشيَماً تجعل الجوزاء تحت يدى وساداً .

وقد سارَ ذكرى فى البلاد فمن لهمْ
بإخفاء شمس نورها متكامِلُ (١)
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وتالله إن يَوْمى يُنافِس فى ّ الأمس ، وقَومى يفخرون بى كما فخر عصام بالنّفس .

إنّا ذوو النّسَب القصير فطَوْلُنَا
أعْيا على الكُبَراء والأشرافِ
والراحُ إن قيل ابنة العنب اكتفتْ
بأبٍ عن الأسماء والأوْصافِ

ولا أعلم أيها المتنقّصُ لى ذنباً يستدعِى هذا الإسهاب ، ولا بَيْنِى وبينك خطوباً فيما فهتَ به من الخطّاب . اللّهمّ إنّى لا أعتقد اعتقادَك المضلّل ، ولا أرى رأيك المؤوّل ، ولا أقلّد عبد الله بن سبأ فى اعتقادِهِ ، ولا أبا الخطاب الأسَدِىّ فى اجتهاده ، ولا أوافق هشام بن مسلم الجواليقىّ على مراده ، ولا أنشدك :

ألا إنّ الأئمّةَ من قُريشٍ
ولاة الحق أربعة سواء
علىٌّ والأئمة من بَنِيه
همُ الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط إيمان وبِرٍّ
وسبط غيّبته كَرْبَلاء
وسبْطٌ لايذوق الموت حتّى
تقودَ الخيل يقدُمها اللواء

ولا أنشدك قول السيّد الحِميَرىّ :

ألا قلْ للوصِىّ فدَتْكَ نفسى
أطلت بذلك الجَبَلِ المقاما
أضرّ بمعشر وَالَوْكَ منّا
وسمّوْكَ الخليفة والإماما

---

(١) لأبى العلاء ، سقط الزند ٥٢٣ .

أو أنك تعتقد أنى من شيعة أبى كامل ، أو أنى اتفقت أنا وابن ملجم على تلك الغوائل ، أو أنى من الطالبين بثأر الدار إذا جدّ الوَهَل ، أو أنى كنت مع بنى ضَبّة فى يوم الجمل ، أو أنى تأوّلتُ فى قتل عمّار بن ياسر ذلك التأويلَ السّقيم ، أو أنى كنت من جملة مَنْ رَفَع المصاحف لطلب التحكيم ، أو استبرأت عقل أبى موسى الأشعرى بالمُشاوَرة ، أو خدعتُه بخلع الرّجُلين فى المساوَرة ، أو اتبعت عبد الله بن وهب الراسبى فى جمعه ، أو ناظرتُ عبد الله بن عباس لما حضر لمناظرته على صفه ، أو ساعدت مُعاوية بن حُديج على فعله ، أو أشرت على معاوية بإنفاذ بُسر بن أرطاة إلى المدينة حين لا عهد لها بمثله ، أم ترانى أنشدت يوم قتل الإمام ، عليه السلام :

يفلّق هامًا من رجال أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما(١)

أم ترانى ألقى الله بعمل سنان بن أنس ، أم قد أقدمت إقدامه حين ضربه حتى ألقاه عن الفرَس ؛ حاش لله ! ما أنا من هذا القبيل ، ولا سالكٌ هذا السبيل . وعلى تقدير أنى أتيتُ بأكثر من هذه الذنوب ، وأن قافل توبتى لا يئوب ، أليسَ لى نفسٌ لا تصبر على ضَيْم ، وشمس إبائى لا يسترها غَيْم ، وبياض خلق ولا بياض خُلق سحيم !! آ آمنت كاتبَ الدرجات باتفاق الاسمين ، لما ظهر الفرق فى كتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بين العبدين ، أو باختلاف المنزلتين ، لما غلبت بيّنةُ الشمس على القمر وبينهما للزهرة وعطارد بعد فلكين

وإذا خفيتُ على الغبىّ فعاذر ... ألّا ترانى مقلة عمياء(٢)

أنا صخرةُ الوادى إذا ما زُوحمت ... وإذا نطقتُ فإننى الجوزاء

(١) للحصين بن الحمام المرى ، الشعر والشعراء ٦٣٠ .
(٢) لأبى الطيب المتنبى ، ديوانه ١ : ١٥ ، ١٦ .

وقد آن أن أحبس العنان ، وأغمد حدّي السيف واللسان ، وأشدّ بأعناق المنى غيرَ هذه وأضرب صَفحا ، وأنشىء على رأى العامرية صُلْحا ، وأعدل من نار القرّ إلى نار القِرَى ، وأسرى لأحمدَ السُّرَى ، وأستروح من مثالبه لأستريح ، وأوادعها ولا أودّعها ، وأجمّ لها ولا أجم منها[٢] ، وأهب جَفْن الدواة غَفْوَة ، وأغفر لحدّ القلم نَبْوَة . ومَنْ يكون المولى مهيمن فرائده ، وجوهريّ قلائده ، ومثقّف صِعاده ، ومقوّى زنده ومورى زنادِه ، والمحامى عنه بسيفه وقلمه ، والمرشّح له من دِيَمِه ، فلا يبالى بتنقيص العارِى ، ولا يتأسف على ثَلْب المبارى :

علىّ نحتُ القوافِي من مقاطعها — وما علىّ لهم أن تفهم البقرُ

ولا يضرّ الورد الخضِل ، استنقاص مَن به داء الجُعَل ؛[١] كما أنه لا يضرّ القمر المنير ، استهزاء الضرير .

ويكفيني ـ أطال الله بقاءك ـ فى الدعاء عليه تأمينُك ، وفى حفظ مساويه تلقينُك ، وفى الاعتداء عليه تجهيزك ، وفى التكاثر عليه تعزيزك . وها أنا أستعين وأستعير ، وأستميل وأستمير .

والقوافى كما علمتَ قوافٍ — إثرَ مَنْ حادَ عن طريق الصواب

وسأدهمه منها بما لا قبل له بها ، وأجلُب عليه بخيل ورجْل ولا قدرة له بجلبها ، وإن كان عِرْضُه لا يصلُح للهجو ، ولا يساوى ثوب ثَلْبه أجرة الرفو . فقد يجرّب السيف فى خُفّ البعير ، ويستحلّ نكاح المرأة البريئة بالعبد الصغير . وتصفّى الفضة الخلاص بالرّصاص ، وتفصّل عُقود الجوهر بالسخاب ، وتُساغ اللّقمة الحلالة بمحرَّم الشراب . ومن لم يجد ماء طهوراً تيمّما .

* * *

---

(١) الجعل : الحيوان .

فأدام الله لك النعمة إدامة لاينقصها اختزال ، وحرسها عليك حراسة لاتنتهى إلى زوال ، خذها أجلّك الله ، قد أنشأتها سُحبا ثقالا لك منها عذب الشراب ، ولغيرك عذاب السّراب ، وأوريتها ناراً لك منها الإنارة ولغيرك الإحْراق ، وأجريتُها بحاراً لك منها الإرواء ولغيرك الإغراق . وأدرتها شَمُولاً لك منها النّشوة ولغيرك الخمار ، وطبعتُها نصولاً لك ما ضُمّت عليه الأنامل منها ولنَحْرِ غيرك الفِرار ؛ وها قد أتَتْك لم يكشف غيرُك لها نقابا ، ووفَدَت عليك لم نطرق لغيرك بابا ؛ فأرْخِ عليها سِتْر معروفك الذي سترت به قِدْما علىّ عوارى . وقد حسدها القريض على سبقها إلى ناديك ، وغبطها على حلولها بواديك ، فتعلّقَ بأذيالها مستشفعا ، ونَظر خلال سطورها متطلّعا ، وها هو قد خيّمَ بأبياته فى ذراك ، وترجّلت قوافيه بين يدى عداك . . .

العلا فى ارتشافِ دَرّ العلوم ـ والحُلَى فى اتشاحِ دُرّ الحلوم ـ
والتناهى فى كل فعلٍ حميدٍ ما التّباهى بكلّ خِلّ حميم ـ
والسعيد الشقىّ من جمع الـ مال لتفريق خَلّةٍ وخديم
والغنىّ الفقير مَنْ لاتراهُ لفقيدٍ مواسياً وعَديمِ ـ
والعظيم المقدار كلُّ سَرِىٍّ يُترجّى فى كل خطبٍ عظيمٍ ـ
والكريم الآباء من يُسأل الفَضْـ ـلَ فيأتِى بكلّ فعلٍ كريمِ ـ
والتقى مَنْ يكونُ فى كلّ حالٍ ليس بالصّعْبِ، لاولا بالزّنيم ـ
ليس عندى الذميم فى الخلق إلاّ مَنْ أتى خُلقُه بفعلٍ ذميمِ ـ
فعقيم الرّياح يُكرَه بالطّبـ ـع ويلتذّ دائماً بالنّسيم ـ
واتفاق الأسماء ليْس بجدٍ ما سليم فيما يرى كسليم
واتّسام الإنسان بالشُكْرِ أوْلَى من رسوم في جلدهِ ووسوم ـ

إنما يظهر التفاوت فى الفضـــل ، وليست ولودةٌ كعقيم

ومَضاء الفِرار فى السيف أمسى ... سبباً فى زيادة التفخيم

واللآلى لَوْلاَ التلألُؤُ فيها ... لم تُقارَنْ بكلّ وجهٍ وسيم

إنّ حسن الثناء يُعلِى من المرْ ... ء ويغلى وَخيمَ أمرٍ وَخيم

وبغيضٍ كأنه الموتُ إلاّ ... فى اقترابٍ من الغفورِ الرّحيم

غَضّ مِنّى مالا يُغضّ وأمسى ... مِن عنائى يَثنى أشدّ شكيم

ولئن كان فى النعيم بمالٍ ... فهوَ بالبخل فى سَواء الجحيم

ولكم تاه من غناه فَقُلنــا ... ليس ذا التيه عِلّةَ التّعظيم

إن يكن بالحُطام يشرفُ شىء ... لم تعظَّمْ شمائلٌ للحطيم

أيها السائلِى عن العيبِ فيه ... هو كم عاثَ مَرّة فى أديم

هو ذو البخل والبذاءة واللؤ ... مِ ، وسوءِ الجُوار والتّجسيم

ولعمرى إن الحليم إذا ما ... سِيمَ خسفاً تراه غير حليم

حاضر العيب حين يرجم بالغيـ ... ـبِ تراه يبدو لِكُلّ عليم

لا تسلنى عنه فما هو خافٍ ... كيف يخفَى شيطانُهُ من رجيم !

وكذا ليس فى الأنام بخافٍ ... مَنْ أياديه مسلياتُ الهموم

سيّدٌ مِنْ كِنانةٍ هُو مِنهـا ... خيرُ سهمٍ مسدّد التصميم

زاننى مَدْحُه ، ولولا ثَناهُ ... لم أقلّد بكلّ نظيم

حسن الإسم والفَعالِ كروضٍ ... فاقَ حُسن المَرْأى وحسن الشميم

فلمجدى منه أمدّ خصيبٌ ... ولَضدّى منه أشدُّ خصيم

ولكم قات مملقا فى معاليـ ... ـه بشجْوٍ مُرَجّعِ الترنيم

خذ قريضا أداره كرم الو ... دّ مُلافاً يُزْرِى ببنتِ الكروم

هو فى الإمتزاج ماء ، وخمرٌ　　فى اقتسام التحليل والتحريم
ولئن جاء فيه هجْوُ فلانٍ　　بعد مدح لكم فغيرُ ملوم
فلعمرى له الهجاء نسيبٌ　　والنسيبُ الجدير بالتقديم
ولكم نفعُه وللغير مِنْهُ　　أَشْمُه ، ربَّ أرقمٍ من رقيم
إنَّ زُهْرَ النجوم منها رُجومٌ　　ووجومٌ والاهتدا بالنجوم
ربَّ وصلٍ أتاك من بَعْدِ هَجْرٍ　　وصَباحٍ من بعد ليلٍ بهيم
فهب الصفح لا عدمتُك مولًى　　ذا بنانٍ هامٍ وبرٍّ عميم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

فهرس الموضوعات*

صفحة

صدر الكتاب	٣ ـ ٥
ترجمة ابن زيدون:	
رسالته إلى أبى بكر بن مسلم لما اختفى	٦ ـ ١٠
أخباره مع ولادة بنت المستكفى	١٠ ـ ١٣
الكلام على قصيدته النونية ومعارضة المؤلف لها	١٣ ـ ١٤
ذكر بعض غرر شعره	١٥ ـ ٢١
تاريخ مولده ووفاته	٢١
ذكر رسالته كلها	٢٢ ـ ٢٩
السيد والمولى ، وهل يجوز إطلاق هذين اللفظين على المولى سبحانه ؟	٣١ ـ ٣٥
رأى الحليمى والسهيلى فى معنى لفظ السيد	٣٥ ـ ٣٦
قصة إسماعيل بن المنصور الخليفة الفاطمى وطبيبه	٤٨
حكاية قتل القاهر بالله بمؤنس المظفر	٥٠
بيان كيف سم الشماخ اليمانى إدريس بن عبد الله أبا الأدارسة	٥٠ ـ ٥١
قصة التركى الذى قتل المتوكل	٥١
مقتل أفريدون التركى بدمشق	٥٢
مقتل السلطان ألبا أرسلان على يد يوسف الخوارزمى	٥٢ ـ ٥٣
مقتل الملك الأمجد بهرام شاه على يد غلامه	٥٣
مقتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون على يد مملوكه الأمير سيف الدين بيدار	٥٣

* وهى الموضوعات التى ذكرت استطراداً فى الكتاب .

تنكر سيف الدين قوش للأمير تنكز ٥٣
حكاية الذكى عبد الرحمن بن وهب القوصى مع الملك المظفر صاحب حماه ٥٣
شرح المثل السائر : « سد ابن بيض الطريق » ٥٦ ، ٥٧
صبر أم سليم ، امرأة أبى طلحة الأنصارية ٦٠ ، ٦١
إيراد بعض أبيات من قصيدة أبى ذؤيب العينية ، وخبر معاوية لما حضرته
الوفاة مع الحسن رضى الله عنهما ٦١ ، ٦٢
قصيدة لابن الرومى فى الصبر مع ذكر ما يناسبها من الأبيات ٦٣ ، ٦٥
شرح قصة المثل : « اليوم خمر وغدا أمر » . ٨٣ ، ٨٤
ذكر خبر عفو النبى صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة بعد الفتح ٩٠
ذكر أشد شىء تأذى به النبى صلى الله عليه وسلم بعد يوم أحد ٩٠ ، ٩١
حكاية المأمون مع غلامه وقت وضوئه وعفوه عنه ٩١
حكاية أخرى للمأمون مع غلام له تركى ٩١
قصيدة لابن عمار يستعطف بها المعتمد بن عباد ٩٣
حديث أبى هريرة الشاعر المصرى مع الأمير تنكين ٩٤
حكاية محمد بن أزدشير مع الحسن بن منصور الوزير ٩٤ ، ٩٥
حكاية للحجاج مع عبد الملك بن مروان ٩٦
قصة العباس بن مرداس مع النبى صلى الله عليه وسلم ٩٦ ، ٩٧
صحة التقسيم (وهو نوع من أنواع البديع) وأمثلة له ٩٨
حكاية رجل من الأعراب مع بعض الكرماء ٩٩ ، ١٠٠
حكاية الوزير سليمان بن وهب مع والى مصر محمد بن خالد الصريفينى ،
وتدخل فى باب العفو ١٠٠ ، ١٠١

شرح المثل : «بلغ السيل الزبى» ، وخبر على بن أبى طالب حين سئل
عن ثلاثة قتلهم الأسد ١٠٧ ، ١٠٨
شرح المثل : « حسبك من شر سماعه » ١٠٩
ذكر المناظرة التى وقعت بين إبليس والملائكة ١١١ - ١١٣
الأسئلة التى سألها أبو القاسم الجنيدى لإبليس ، واستطراد بذكر
كلام ينسب لإبليس ١١٤
أبيات لأبى نواس فى هجاء إبليس ، واستطراد بذكر بعض الأشعار
فى هذا المعنى ١١٦ ، ١١٧
قصة نوح عليه السلام وابنه حين الطوفان ١١٨ ، ١١٩
قصة فرعون والصرح ١١٩ ، ١٢٠
قصة موسى عليه السلام والعجل والسامرى ١٢٠ - ١٢٣
بنو إسرائيل واعتداؤهم فى يوم السبت ١٢٣ - ١٢٥
قصة صالح عليه السلام وثمود وعقر الناقة ١٢٥ - ١٢٩
ذكر خبر طالوت وقومه وابتلائهم بالنهر ١٢٩ - ١٣٠
قصة أصحاب الفيل وأبرهة ١٣١ - ١٣٤
قريش وبنو هاشم والصحيفة ١٣٥ - ١٤٠
العقبات الثلاث ١٤٠ - ١٤٣
يوم بدر ١٤٤ - ١٥٥
يوم أحد ١٥٥ - ١٦٣
يوم بنى قريظة ١٦٤ - ١٦٥
حديث الإفك وبراءة عائشة ١٦٥ - ١٧٤
إمارة أسامة بن زيد وأنفة بعض كبار الصحابة من ذلك ١٧٤ - ١٧٨

بيعة أبي بكر وما دار حولها من الكلام	١٧٨ ـ ١٨٥
خالد بن الوليد وأبو شجرة السُّلمى	١٨٥ ـ ١٨٧
مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما قيل فى رثائه	١٨٧ ـ ١٨٩
مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه وما قيل فى رثائه	١٨٩ ـ ١٩٥
مقتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وما قيل فى رثائه	١٩٥ ـ ٢٠٣
مقتل الحسين بن على رضى الله عنه وما قيل فى رثائه	٢٠٣ ـ ٢٠٨
وقعة الحرة	٢٠٨ ـ ٢١٣
قصة رجم الكعبة ومقتل عبد الله بن الزبير ثم صلبه	٢١٣ ـ ٢١٩
رسالة أبى بكر بن القبطرية إلى أبى الحسين بن سراج	٢١٨ ـ ٢١٩
من رسالة لابن شهيد	٢١٩
قصيدة للسراج الوراق يذم غلامه	٢٢١ ـ ٢٢٢
قصة القاضى الخلنجى مع المأمون بسبب الأبيات التى أولها : « رأت من الإسلام . . . . »	٢٢٦ ـ ٢٢٧
حكايات لبعض السعاة بالنميمة وأجوبة الأمراء لهم وإيراد بعض الأشعار المناسبة لهذا الشأن	٢٣٢ ـ ٢٣٩
ذكر أبيات النابغة التى ورد فيها : « حلفت فلم أترك . . . »	٢٣٩ ـ ٢٤٠
أنواع المذهب الكلامى ومُثُل منه	٢٤٠
سخط الرشيد على حميد الطوسى ثم عفوه عنه	٢٤١
حكاية أبى الحسين الجزار مع ابن يغمور	٢٤١ ـ ٢٤٢
حكاية محمد بن المثنى مع الحجاج	٢٤٣ ـ ٢٤٤
قصة إبراهيم بن المهدى وما جرى بعد موته	٢٤٧
انحراف المتوكل على العلويين وخبر هدمه قبر الحسين بن على	٢٤٧ ـ ٢٤٨

انحراف عبد الله بن المعتز على العلويين وذكر شعره
فى هذا الشأن ، ومعارضة صفى الدين الحلى وابن سكرة له ٢٤٨ ـ ٢٤٩
مساجلة شعرية بين الملك الأفضل والملك الناصر ٢٤٩ ـ ٢٥٠
حكايات وقعت لجعيفران الموسوس وبهلول وسليمان
بن زبر فى التشيع ٢٥١ ـ ٢٥٢
ذكر ما فعله على بن محمد الجزرى عند معاوية ٢٥٢
حكاية حبيب بن المهلب مع زياد الأعجم ٢٥٩ ـ ٢٦١
حكاية محمد بن ناجية الرصافى مع الأسود بن قنان حين
استجار به ٢٦١ ـ ٢٦٢
حارثة بن مرة مجير الجراد ٢٦٣
ثور بن شحمة مجير الطير ٢٦٣
استجارة الأمير قراسنقر ومن معه ببيت مهنأ بن عيسى ٢٦٣ ، ٢٦٤
عفو الحجاج الثقفى عن بعض الأسرى من أصحاب عبد الرحمن
ابن محمد بن الأشعث ٢٦٣ ، ٢٦٤
حكاية الفضل بن يحيى مع بعض من انتسب إليه بالجوار
ومشابهة الاسم ٢٦٥
حديث الرجل الذى جاء يشكو أباه إلى النبى صلى الله عليه وسلم
وذكر الأبيات التى قيلت فى هذا الشأن ٢٦٦
المغلبون من الشعراء ٢٧٣
شرح المثل : « لو غير ذات سوار لطمتنى » وذكر قائله ٢٧٤
حكاية المجير السلولى مع نافع بن علقمة الكنانى ٢٧٦
حكاية الأمير قراسنقر مع الملك الأشرف ٢٧٧

الكفاءة فى الزواج واختلاف الأئمة فيها ٢٨٩
من رسائل القاضى الفاضل ٢٨١
خبر يوم حليمة بين الحارث بن جبلة والمنذر بن ماء السماء ٢٩٥ ، ٢٩٦
من رسالة لأبى حفص بن برد ٣٠١
من رسالة المؤلف إلى ابن سيد الناس ٣٠١
سؤال بهلول لرجل عن قول الشاعر : وإذا نبا بك منزل فتحول ..
وجوابه عليه ، وذكر أبيات معن بن أوس فى هذا المعنى ٣٠٩ ، ٣١٠
حكاية المأمون وسلم الخاسر بسبب بيت أبى العتاهية : تعالى الله
يا سلم بن عمرو . . . ٣١٥
حكاية لأبى الأسود الدؤلى مع عبيد الله بن زياد ٣١٥ ، ٣١٦
شرح المثل : « الطمع الكاذب يدق الرقبة » ، وذكر أول من قاله ٣١٦
شرح المثل : « أغرمن الدباء فى الماء » واستطراد بشرح بعض
الأمثلة الواردة على وزن « أفعل » ٣١٧
شرح المثل السائر : « خامرى أم عامر » ٣١٨
تفسير الآية من قوله تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا
أنفسكم ..... » وسبب نزولها ٣٢٠
أبيات ابن الرومى فى الحنين إلى الوطن ٣٢٩
كلام أبى دلف حينما سمع قول القائل : « لا يمنعنك خفض العيش
فى دعة ... » البيتين ، واستطراد بذكر بعض الأشعار
فى حب الوطن ٣٣٠
قصة زهير بن صرم السعدى حينما وفد على النبى صلى الله عليه
وسلم فى قومه ٣٣٣
شرح المثل : « كل الصيد فى جوف الفرا » وأول من قاله
والسبب الذى قيل فيه ٣٣٧

أول من قال : « عند الصباح يحمد القوم السرى »	٣٥٤
ذكر أبيات كتب بها الحسين بن الضحاك إلى عمرو بن مسعدة	٣٥٦
حكاية عبدالله بن خارجة مع يزيد الكاتب وتشفعه بسفيان ابن الأبرد	٣٥٩ ، ٣٦٠
ذكر بعض الأبيات الواردة فى الشفاعة	٣٦٠ ــ ٣٦٤
البيت المشهور : فألقت عصاها واستقر بها النوى ، واستطراد بذكر بعض الأبيات المشابهة له	٣٦٧ ــ ٣٦٨
وفادة عوف بن المحلم على عبدالله بن طاهر ، وما ورد فى أثناء ذلك من الشعر	٣٧٠ ــ ٣٧١
ذكر ما دار بين مالك بن أنس والشافعى حول مسألة فقهية	٣٧١ ، ٣٧٢
حكاية أبى الحسين الجزار مع عبد الوهاب ، ابن بنت الأعز	٣٧٥ ، ٣٧٦
نبذ من أقوال الحكماء فى عاقبة اصطناع المعروف عند اللئام واستطراد بذكر حديث الحية	٨٧٨ ، ٣٧٩
قصة الضبع وغدرها عن أجارها ، واستطراد بذكر بعض الأشعار الواردة فى هذا المعنى	٣٧٩ ــ ٣٨٢
ما نقله المؤلف عن الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « وهو أهون عليه »	٣٨٣
الألفاظ اللغوية المرادفة للفظ « الزعفران »	٣٩٠
الأوصاف المختلفة لمدائح الشعراء وإيراد الشواهد لكل وصف	٣٩٠ ــ ٣٩٦
فصل فى نقد المؤلف لرسالة ابن زيدون	٣٩٩ ــ ٤٠٣
رسالة محيى الدين بن عبد الظاهر التى جرى فيها على غرار رسالة ابن زيدون	٤٠٤ ــ ٤١٦

الفهارس العامة

١ — فهرس اللغة

(ء)

أتى : يُؤتَى الحذر من مأمنه ، يتأتّى ٣٩٨

أثر ـ المآثر ٢٨٩

أمن : من مأمنه ٤٩

أنس : حلى إيناسك ٣٩

أنف : الاستئناف ٣٧٣

أوب : الإياب ٢٧٠

(ب)

بثث : البثّ ٢٩١

برأ : البراءة ٣٤٢

برد : برود إسعافك ٤٠

برر : البِرّ ٣٢٣

بسط : يبسط الأمل ٣٩٦

بطأ : أبطأ الدِّلاء ٧٨

بلا : أبليتُ البلاء ٢٨٣

بهى : أبهى أثراً ٣٢٢ ، مباهياً ٣٨٦

(ث)

ثقف : مثقفه ٦٨

(ج)

جبن : الجبين ٦٥

جذب : الجذْب ٨٠

جلد : أتجلّد ٦٠

جلس : الجليس ٣٢١

جلا : تنجلى ٧٤ الجلاء ٣١٩ ، مجلوّة ٣٥١

جمد : الجماد ٤٤

جنب : الجناب ٣٢٣

جنح : الجوانح ٢٧٨

جهم : الجَهام ٣٤٧

جوز : الجوْزاء ٢٨٩

جاه : الجاه ٣٦٤

---

* اقتصر فى هذا الفهرس على ما شرحه المؤلف من ألفاظ الرسالة .

(ح)

حذر : الحذر ٤٩

حزم : الحزم ١٧ .

حرم : الحُرمة ٣٩٧

حسد : الحاسد ٣٧٥

حس : أحسّ الجاد ٤٤

حسن : الإحسان ٣٩٨

حفل : أحفلُها ٧٨

حكم : حكم الصبيّ ٣٢٧

حلا : حُلى إيناسك ٢٩ ، حَلّيتك ٢٩٦

حمد : استحمادى ٤٥ ، الحمْد ٨٦

الحامد : ٢٩١

حمى : حمايتك ٤١

حنن : الحنين ٣٣١ .

حوز : الحائز ٣٢٣ .

حوط : حياطتك ٤٠ .

حيى : الحيّا ٨٠ .

(خ)

خطر : الخاطر ٣٨٩ .

خلب : الخلب ٣٤٧ .

خلص : الإخلاص ٣٩٧ .

خلط : الخليط ٣٢١ .

خلا : لا أخلُو ٩٧ .

خمر : خامرى أم عامر ٣١٨ .

خيل : خُيَلائه ٣٨٥ .

(د)

درر : الدّرر ٣٨٤ .

دمى : أدْمَاها سوارها ٦٥ .

دهى : مُداهيا ٣٨٦ .

(ذ)

ذبل : الذّبالة ٣٠٥ .

ذرى : الذّرَى ٣٦٦ .

ذمم : الذّمام ٢٥٨ .

ذهب : ضاقت مذاهى ٢٦٨ .

ذهن : الذّهن المليل ٣٨٩ .

ذيع : أذعته ٢٩١ .

(ر)

ركب : المركب ٢٧٠ .

(ز)

زبى : الزُّبْية ١٠٧ .

زجر : الازدجار ٧١ .

زمع : أزْمَمت يأسًا ٢٥٣ .

زند : زَنْد الأمل ٣٨ .
زهى : زَهانِى ٢٨٢ .
زيل : زَيَّاله ٣٢١ .

(س)

سبأ : سِباء ٣١٩ .
سعف : إسعافك ٤٠ .
سعى : السعاة ٢٣١ .
سلب : سلبتنى ٣٩ ، سَلِيبا ٢٩٦ .
سهر : السهرى ٦٨ .
سند : إسنادى ٤٤ .
سنا : أسْنَى ٣٢٢ ، سنّيت ٣٥٥ .
سود : سيّدى ٣١ .
سور : سِوارها ٦٥ .
سوغ : مَساغ لفظة ٣٧٥ .

(ش)

شرف : المَشْرفىّ ٦٧ .
شفع : الشفاعة ٣٥٨ ، فاشفَعْ ٣٩٧ .
شفق : أشفق ٣٨٧ .
شكا : إشْكائِى ٣٧٧ .
شمت : شماتة الحساد ٥٧ ، الشامتين ٦٠ .
شيع : التشيّع ٢٤٧ .
شيم : أشيم ٣٤٧ .

(ص)

صرح : الصَّرْح ١١٩ .
صغى : الصّاغية ٢٤٥ .
صقل : صاقِله ٦٨ .
صمم : الأصمّ ٤٤ .
صنع : الصَّنيعة ، المصْنَع ٣٧٧ .
صيب : المصائب ٥٧ .

(ض)

ضحك : ضُوحك ٣٢٥ .
ضرب : الضّارب بسهم ٣٢٣ .
ضرم : تضرّم ٢٧٨ .
ضعضع : أتضعضع ٦٠ .
ضيق : ضاقت مذاهبي ٢٦٨ .

(ط)

طبع : الطَّبع ٣٣٥ .
طرف : طرف حمايتك ٤١ .
طرق : من طرقاته ٣٩٨ .
طلب : إطْلابى ، الطلبة ٣٧٦ .
طول : التطاول ، التطوّل ٩٦ .

(ظ)

ظمأ : أظمأتني ٤٠ .

(ع)

عجز : أستوطى العجز ٣١٦ .

عدد : اعتدادي به ٣٦ ، أعتد بالفائدة ٣٨٨ .

عدل : عدلك ٩٧ .

عدا : اعتديت في السبت ١٢٣ .

عذر : لم تعتذر ٣٥٥ .

عرف : المعروف ٣٥٨ .

عزم : العزم ٣٨ .

عطف : يعطفك استعطافه ٣٨٧ .

عطل : عطلتني ٣٩ ، عطلا ٢٩٦ .

عطن : العطان ٣٣١ .

عطى : تعاطيت ١٢٨ .

عفر : العفار ٣٤١ .

عقب : العواقب ٧٣

علل : الذهن العليل ٣٨٩

عمد : اعتمادي عليه ٣٦

عمر : نعمرك ٣٠٩

عمل : المعاملة ٢٠٤

عود : العائدة ٣٨٨

عهد : المعهد ٢٥٤

عيش : عاش المعوق ٢٦٤

(غ)

غرر : الغرور ٣١٦ ، غرر الفقر ٣٨٤

غشش : ماغششتك ٢٤٢ .

غصص : قد يغص ٤٥ .

غضض : غضضت ٤١ .

غفل : الأغفال ٨٦ ، غفلا ٢٩٦ .

غلب : المغلب ٢٧٢ .

غلل : ما أصاب غليلا ٨٠ .

غلا : المغالاة ٣٣٤ ، غلواءه ٣٨٥ .

غمر : غمرة ثم تنجلي ٧٤ .

غوى : الغواة ٢٢٩ .

(ف)

فرأ : جوف الفرا ٣٣٧ .

فصل : فصاله ٢٨٩ .

فضل : الفضل ٩٧ ، ٣٦٤ ، ٣٩٨ .

(ق)

قبض : يقبضها الخجل ٣٩٦ .

قبل : جناب قبول ٣٢٣ .

قدح : القادح ٣٧٥ .

قرن : قران السعد ٣٢٢ .

قشع : تقشّع ٧٥ .

قود : اقتادت ٣٨٦ .

(ك)

كدد : استكدّ ٣٨٩ .

كدى : أكدتْ مطالبى ٢٦٨

كنى :الكِفاية ١٠٨ ، الأكْفاء ٢٧٨ .

كال : الإكليل ٦٦ ، الكَليل ٣٨٩ .

كيد : مكايدا ٣٨٦ .

(ل)

لبب : اللّبيب ٣٣٠ .

لبس : اللّباس ٣٩ .

لحظ : مجال لَحْظة ٣٧٥ .

لصق : ألْصَقه ٦٨ .

لطف : إلطافه ٣٨٧ .

لفأ : لِفاء ٣٣٩ .

(م)

متت : مواتّ ٢٦٤ .

مثل : المُثْلة ٣١٩ .

مجد : استَمْجَد ٣٤١ .

مرخ : المرْخ ٣٤١ .

مضى : ماضى حدّ العزم ٣٨ .

ملأ : أملؤُها ٧٨ .

ملب : الملّاب ٣٩٠ .

ملى : استملى الربيع ٣٩٠ .

منى : مُنية المتمنّى فى أمنيّته ٤٩ .

ميل : الميل عمّن لا يميل عنك ٢٤٢ .

(ن)

نبأ : النّبْوة ٧٤ .

نجب : التّنجيب ٣٣١ .

نسب : النّسِيب ٣٢٢ .

نصب : نصبت لك ٢٤٦ ، النّاصبة ٣٠٤

نصح : النصيحة ٢٤٢ .

نصص : منصوصة ٣٩٠ .

نعم : عهد النّعمة ٣٨ ، إنعامك ٣٩ .

نفس : أنفاس النُّظراء ٢٨٠ ، المنافسة ٢٨٣ .

نفض : نَفَضْت ٤٠ .

نقل : النُّقلة ٣١٩ .

نكب : النّكْبة ٧٤ .

نمم : منمنما ٢٨٦ .

نور : منوّرا ٢٨٦ .

نوى : النّوى ٣٦٦ .

(هـ)

هبل ـ اهتباله ٨٠ .

همز : الهمّازون ٢٢٥ .

هون : هيّن ٣٨٢ .

هوى : هَواك ٣٤٣ .

(و)

وجه : جهاته ٣٩٨ .

ودد : ودادى له ٣١ .

ورى ـ وارِى زَنْد الأمل ١٣٨ .

وسق : اتسقت دُرَره ٣٨٤ .

وسل : الوَسائل ٢٦٧ .

وسم : وسْم نِعمتك ١٨٢ ،
وَسَمَتْكَ غُفْلاً ٢٩٦ .

وشى : الوَشْى ٢٨٦ .

وطىء : أستوطِىء ٣١٦ .

وطن : الوطن ٣٣١ .

ولى : مولاى ٣٠ ، المُوالى ٢٨٦ ،
يتولاّك ٣٤٢ ، توالت ٣٨٤ .

(ى)

يئس ـ اليأس ٢٥٣ .

٢ — فهرس الأمثال

	صفحة
أخرِج الطمع من قلبك تحلّ القيْد من رجالك	٣١٣
ارض من المركب بالتعليق	٢٧٠
أعزّ من الدُّباء فى الماء	٣١٧
أغرّ من الأمانىّ	٣١٧
أغرّ من سراب	٣١٧
أغرّ من ظبى مقمر	٣١٧
التقى البِطان والحقَب	١٠٨
التقتْ حلقتا البِطان	١٠٨
إنّ مع اليوم غدا	٧٣
إن من الشرّ خياراً	١٠٧
بلغ السيلُ الزُّبَى	١٠٧، ١٩٢
تلطُّف أبى غَزْوان	٣٨٩
جاوز الحِزام الطُّبيين	١٠٨، ١٩٢
حرِّك لها حُوارَها تحِنّ	٣٥١
حسْبك من شرٍّ سماعه	١٠٩
خامرِى حَضاجر ، أتاك ما تحاذِر	٣١٨
خامرِى أم عامر	٣١٨
سبَق ابن بَيْضٍ الطريق	٥٦
الطمع الكاذب يدُقّ الرّقبة	٣١٦
العجزُ ريبة	٣١٦

صفحة

عسى غدُك لغيرِك	٨٣
غداً غدُها إن لم يعقنى عائق	٨٣
غمرات ثم تنجلي	٧٥
قد بلغ الشظاظ الوَرِكين	١٠٨
قنعت من الغنيمة بالإياب	٢٧٠
كلُّ الصيد فى جَوْف الفرا	٢٣٧
لا فى العير ولا فى النَّفير	١٥٤
لا يغرّنك الدباء وإن كان فى الماء	٣١٧
لكل صباح صَبوح	٨٣
لكل غدٍ طعام	٨٢
لو ذاتُ سوار لطمتنى	٢٧٤
المرء يَعْجزُ لا محالة	٨
من فسدت بطانته كان كمن غَصّ بالماء	٤٨
من شُبّ إلى دُبّ	٦٢
نبّه لها عُمراً ثمّ نَمْ	٣٥٢
ياماء لو بغيرك غَصصت !	٤٨
يأتيك كلّ غدٍ بمافيه	٨٢
اليوم خمر وغداً أمر	٨٣

٣- فهرس الأشعار

القافية	القائل	الصفحة
	(ء)	
الأسواء	ابن القيم	٤٢
	* * *	
رجاء	المكعبر الضبي	٧٩
القضاء	—	٨٣
جلاء	زهير	٩٨
ذكاء	المتنبي	٢٢٤
البرحاء	الغزى	٣٤٣
الجوزاء	المتنبي	٣٨٥
سواء	—	٤١٠
عمياء	المتنبي	٤١٢
بكاؤه	ابن خفاجة	٧٣
جفاؤه	منصور بن الحاكم	٨٥
يكلؤها	ابن المعتز	٧٨، ٧٩
رجاؤها	ابن أبي عيينه	٢٧١
	* * *	
بالماءِ	—	٤٥
بماءِ	—	٤٥
الأعداءِ	أبو تمام	٥٩
الندماءِ	—	٢٢٤
الأقذاءِ	ابن الرومى	٢٤٥
القضاءِ	ابن الخياط	٣٦٩
الضعفاءِ	أبو تمام	٢٧٤
أكفاءِ	—	٢٧٨
من ماءِ	أحمد بن عبد العزيز	٣٢٤
الأمراءِ	عدىّ بن الرّقاع	٣٣٩، ٣٤٠
من أبنائه	أبو روح المروى	٣١٤
	(ب)	
اللبابُ	محمد بن مناذر	١٨
ربُّ	المتنبي	٣٤
قُلّبُ	السراج الوراق	٣٤٨
أدبُ	أبو العتاهية	٣٧٣
	* * *	
وأعتبا	—	١٠١
متابا	—	١٠٥
شهابا	مهرّش	١٢٦
المذانبا	الغزى	١٣٠
تائبا	المتنبي	٢٢٠، ٤٠١

القَيْبَا	ابن زيدون	٢٣٩
كذبا	عبد الصمد بن بابك	٢٥٦
السهبا	ابن عنين	٢٩٠
مسحبا	عروة	٣١٩
صبا	ابن حَيّوس	٣٤٨
هيابا	عبد الله بن خارجة	٣٦٠
صلبا	يزيد بن معاوية	٣٧٣
حبيبَةَ	الصفدى	٤٢
مَضرَبَهْ	ابن المعلم	٣٩١

* * *

واذهبُ	أبو بكر بن حمزة	١٨
الأحسابُ	الأبيوردى	١٨
مذهبُ	ابن الرّومى	٦٣
الثاقبُ	ابن كلّس	٦٦
تأديبُ	مهيار	٧٢
سيذهبُ	الصّابى	٧٧
كذبوا	ظافر الحداد	٧٨
كَثَبُ	أبو تمام	٧٩
لاتخيبُ	محمد بن أحمد الخازن	٩٣
حَرَبُهْ	حسّان	١٩١
عتبه	العباس بن الأحنف	١٠٦
عِطْبهُ	الأرّجانى	١٧٤
المناصبُ	ابن عنين	٢٢١
مذهبُ	النابغة	٢٣٩
لمعذّبُ	ابن الأحنف	٢٤٢
دبيبُ	عروة بن حزام	٢٤٥
القلبُ	أحمد بن سعيد الطائى	٢٥١
المهلّبُ	زياد الأعجم	٢٦٠
المضاربُ	ابن حَيّوس	٢٩٢
وأكتبُ	المتنبي	٢٩٧
قليبُ	محمد بن أحمد الخازن	٣٠٠
النسيبُ	الرستمّى	٣٠٢
ذنوبُ	محمد بن على الواعظ	٣٠٦
جديبُ	حاتم	٣٢٦
تجبُ	أبو تمام	٣٣٤
حبيبُ	أبو فراس	٣٦٢
ربيب	—	٣٨٠
شيبُ	—	٣٨٢
عجبُ	أبو تمام	٣٩٢
مذهبُ	النابغة	٤٠١ ، ٤٠٢
حاجبهُ	—	٤٦
شاربهُ	الفرزدق	٤٦
لقبه	البحترّى	٨٥

ترابُه	ابن سناء الملك	٢٦٣
عيونُها	الفرزدق	٣٣
تصيبُها	إبراهيم بن العباس	٨٦
سحابُها	—	٢٣٢
	* * *	
مقلبِ	امرؤ القيس	٨ ، ٢٧٢
ثوابِ	ابن زيدون	١٨
حسبِ	ابن الوحيد	٤٣
قلة الأدبِ	شافع بن على	٤٣
الشروبِ	—	٤٦
صاحبِ	المعتصم بن صمادح	٥٤
الخطوبِ	القاضى الفاضل	٦٥
بشؤبوبِ	النابغة الذبيانى	٧٦
الذنوبِ	السلامى	١٠٥
لم أذنبِ	مهيار	١٠٦
الكربِ	العباس بن الأحنف	١١٠
لمجتنبِ	—	١١٣
القشيبِ	حسان	١٥٣
منيبِ	عاتكة بنت زيد	١٨٩
الحسابِ	أبو الأسود	٢٠٦
كاذبِ	الخفاجى	٢٢٢
المتجنبِ	عمر بن أبى ربيعة	٢٢٣
مشروبى	الصفدى	٢٢٤
اجتهدوا بى	—	٢٢٤
الكذبِ	الحظيرى الوراق	٢٤٧
طالبِ	الأفضل	٢٥٠
المهلبِ	زياد الأعجم	٢٦١
فى أملٍ خرابِ	ابن بابك	٢٦٩
بالإيابِ	امرؤ القيس	٢٧٠
بالأجربِ	عمارة اليمنى	٢٧٤
أبى	عباد بن شاس	٢٧٦
التجاربِ	النابغة الذبيانى	٢٩٥
السحابِ	الحسين بن الضحاك	٣٠٥
المذنبِ	أبو تمام	٣٢٦
معجبِ	أبو تمام	٣٢٧
الكواكبِ	أبو هلال	٣٣٦
فلم يعقبِ	الكميت	٣٤١
فى السحابِ	الحسين بن الضحاك	٣٤٧
محبوبِ	المتنبى	٣٤٨
شهابِ	الحسين بن الضحاك	٣٥٦
الخطبِ	أحمد بن أبى فنن	٣٦٢
باللبّ	ابن القيسرانى	٣٩٣
القلوبِ	أبو تمام	٣٩٦
الثعالبِ	—	٤٠٥

حطبِه	—	٤٠٩
قربه	ابن دقيق العيد	١٣٠
إطرابِه	ابن حردرْ	٢٧٠

(ت)

لاتموتْ	—	٦٣

* * *

تشتيتا	أبو العلاء	١٣٠
البتّه	على بن سراج	١٨٣

* * *

بلوتُ	عبد الرحمن بن وهب	٥٤
بدأتُ	أسامة بن منتقذ	٨٨
بدأتُ	إبراهيم السراق	١٠١
أجبتُ	ابن الزّقاق	١٢٤
كفيتُهُ	دريد	٢١٥

* * *

مقتِ	البهاء زهير	٣١
ديتي	عبد الرحمن بن وهب	٥٤
باهتِ	أبو تمام	٥٩
سمعت	—	٨٦
لغنّتِ	—	١٩٥
حلّتِ	—	١٩٥
لغنّتِ	—	٢٦٨
من خَلوتِهْ	أبو نواس	١١٦
فى خيبته	الصفدى	١١٦

(ث)

العوابثُ	—	٢٧٥
الحوادث	أبو بكر بن عمار	٢٠٨

(ج)

الّلهجُ	بشار	٥٦
لجوجُ	أبو ذؤيب	٦٣
ويهزجُ	ابن الزقّاق	٢٩٤
مزاجُها	الشريف الرضى	٣٢٥

* * *

فى سراجِ	أبو طالب بن زيادة	٣٠٦
على المهج	—	٣٨٨

(ح)

الوِشاحْ	ابن زيدون	٢٠
جحاجحْ	أمية بن أبى الصلت	١٥٥
النصاحْ	حسان بن المقيصىّ	٢٩٠

* * *

فرحا	الخطيب البغدادى	٥١
الصلحا	محمد بن القاسم	٦٧
نصيحا	—	٢٢٩
صحيحا	—	٢٣٨

شحاحا	—	٣٣٦
	* * *	
أوضحُ	ابن عمار	٩٢
ذبحوا	أيمن بن خريم	١٩٣
واقحُ	العجير السلولى	٢٧٦
مفتوحُ	—	٣٣٩
السيحُ	أبو على التنوخى	٣٦١
قريحُ	عوف بن محلَّم	٣٧٠
صافح	عمارة اليمنى	٣٩٧
	* * *	
بنازحِ	—	٢٢٨
الصباحِ	ابن الساعاتى	٢٨٥
ورواحِه	ابن قلاقس	٣٥٥
سماحِه	القاضى الفاضل	٣٥٥

(د)

أجدْ	محمد بن أزدشير	٩٥
	* * *	
الندى	ابن زيدون	٢٠
سرمدا	ابن طباطبا	٨٤
ماوردا	تميم بن المعز	٨٥
أرشدا	ابن مقبل	٨٥
أبعدا	البحترى	١٠٦
عيدا	أبو فراس	١٢٤
يسوق يدا	»	٢٨٢
الجلمودا	ابن حيوس	٣٠٣
تسدّى	ابن حيوس	٣٣٦
الأفئدَهْ	طاهر بن الفقيه	٣٦
وصده	أبو تمام	٧٢
	* * *	
زادَها	عدى بن الرقاع	٣٨
يكمدُ	—	٦٥
تفرّد	الحيمى	٦٩
متجددُ	على بن الجهم	٦٩
جهدُ	ابن حيوس	٨١
يدُ	على بن الجهم	٨٤
الحقود	ابن الخياط	٩٢
أرود	أبو طالب	١٣٩
مُسوّد	ابن الساعاتى	٢٢٣
سعود	البحترى	٢٨٧
الوليدُ	—	٢٠٦
الخلدُ	الخادرة	٢٩٢
يعدو	تميم	٢٩٧
يدٌ	ابن العميد	٣١٠
المجدُ	أبو تمام	٣٦٧
جديد	ابن الرومى	٣٢٩
فياحبذا نجدُ	—	٣٧٣
الهوى نجدُ	—	٣٧٣
فنعود	ابن المعلم	٣٧٣

اعتمادها	الفرزدق	٨٦
ورشادُها	الخفاجى	٢٠٦
لا أُريدها	كثير	٢٢٦
* * *		
والسؤددِ	حسان	٣٥
على التمادى	محمد بن غالب الرصافى	٣٦
الورودِ	ابن الساعاتى	٣٩
وساعِدى	أبو فراس	٤٦
البارِدِ	—	٤٧
حاسدِ	أبو فراس	٧٩
مصرَّدِ	—	٦٢
الشدائدِ	ناصح الدين	٦٥
والمهدِ	الصّابى	٧٧
بادِى	القُطامى	٨١
تحمدِ	أبو تمّام	٩٢
مستقيدِ	—	١٠٢
بعدى	محمد بن القلمسانى	١١٠
مساعدِ	ابن الشّبلى	١١٥
الحميدِ	ابن نُباتة الأعور	١١٦
قوّادِ	أبو نواس	١١٦
جيدِى	الغزى	١١٦
البلدِ	حسان	١٧١
ودّى	صفىّ الدين الحلى	١٨٣
فى عبدِ	زين الدين بن الوردى	١٨٥
من مرادِ	عمرو بن معد يكرب	١٩٨
الفؤادِ	عبد العزيز الأنصارى	٢٠٢
لم يعدِ	أبو الحسن الجزار	٢٠٧
حدادِى	أبو تمام	٢٣٨
الرّمد	ابن عنين	٢٦٨
أبى الوردِ	الصابى	٢٧٧
ودادِى	أبو سعيد الرستمى	٢٨٣
ميمادِى	—	٢٩١
لم يولدِ	—	٢٩٢
شواردى	الغزّى	٢٩٣
حسّادِى	الشريف الرضى	٣٢٠
بنا	أبو تمام	٣٢٤
السؤددِ	الأرّجانى	٣٦٢
المردودِ	ابن المعلم	٣٤٨
الرفدِ	ابن عنين	٣٦٩
حمدِ	صالح بن عبد القدوس	٣٧٨
الحادِى	ابن بابك	٣٩٢
حسدِك	ابن الرومى	٥٨
لودّه	عمارة اليمنى	٣٠٣
بردّه	صفى الدين الحلى	٣٠٣
من رفدِه	هبة الله بن الفضل	٣٠٤
من ولده	أبو تمام	٣٢٨
من صدّه	ابن قلاقس	٣٩٣

(ذ)

قذى	يوسف بن على	٥٠
غذى	—	٢٨٣

(ر)

السريرْ	هبة الله بن الفضل	٧٦
القدَرْ	—	١٢٢
السفيرْ	—	١٥٥
زأرْ	أبو العلا	١٨٣
القمرْ	علاء الدين بن السكندى	١٨٩
غررْ	—	٣١٧
خاطِرْ	البهاء بن زهير	٣١٨
لاعمَرْ	مستوفى إربل	٣٥٢
صبرْ	ابن شمس الخلافة	٣٥٣

* * *

الوعْرا	الصنوبرى	٤٠
فقيرا	أبو الحسين الجزار	٦٤
فتحقرا	أبو بكر الخوارزمى	٦٥
نصرا	ابن سناء الملك	٦٩
قيصرا	—	١٥٤
أن أعمّرا	أبو شجرة السلمى	١٨٥
شمرا	المبارك مستوفى إربل	٢٠٥
السكرى	ابن عنين	٢٥٠
شرّا	الصفدى	٢٥٢
شزرا	على بن الجزرى	٢٥٢
الدرْا	كمال الدين بن البثيه	٢٨٤
مرّا	ابن سناء الملك	٣١٧
وكبرّا	ابن سناء الملك	٣٢٥
وكرا	محمد بن غالب الرصافى	٣٣٢
وقيصرا	ابن عنين	٣٣٧
الفرا	على بن الحسين القهستانى	٣٣٧
الفرا	ابن المعلم	٣٣٨
الفرا	الفزى	٣٣٨
مفكرا	صفى الدين الحلى	٣٣٨
يفترى	أبو الحسين الجزار	٣٣٨
الأكبرا	أحمد بن حسن الدوينى	٣٣٨
ءقارّا	الأعشى	٣٤١
ثارّا	علىّ بن جاباب	٣٤٢
وأثمرا	علىّ بن أحمد الجوهرى	٣٤٢
وزرا	ابن قلاقس	٣٥٢
السكرى	عبد العزيز الأنصارى	٣٥٤
تيسّرا	بشار	٣٥٥
مهرا	الأرجانى	٣٩١
المسكرا	ابن الساعاتى	٣٩١
سيارّا	ابن الساعاتى	٣٩٤
سارّا	سبط ابن التعاويذى	٣٩٥

* * *

لفخارُ	الخنساء	٣٢

الفرارُ	—	٤٦
يحذرُ	أبو العتاهية	٤٩
يعطرُ	ابن الخياط الدمشقي	٥٠
نظرُ	المؤمل	٥٥
الجسورُ	سلم الخاسر	٥٦
السوارُ	المتنبي	٦٦
يجرُ	—	٧٤
هجرُ	الأرّجاني	٨١
ما ذخروا	ابن حجاج	٨٤
السكرُ	محمد بن العفيف	٨٤
فنعتذرُ	المؤمل	١٠٥
البدرُ	خالد بن المهاجر	١٠٩
قدارُ	عمارة	١٢٨
عمرُ	عمارة	٢٠٢
القارُ	السراج الوراق	٢٢١
بدور	تميم بن المعز	٢٢٩
طاهرُ	الملك الناصر	٢٤٩
تذكرُ	أبو العتاهية	٢٦٩
تشيرُ	حماد عجرد	٢٧٣
البكرُ	ابن حيوس	٢٩٢
تشهدُ	»	٢٩٩
شعرُ	المتنبي	٢٩٧
يعتبرُ	صفي الدين الحلي	٣٠٣
أعتذرُ	—	٣٠٦
ويحتقرُ	المغيرة بن حبناء	٣٢٢
بشيرُ	أبو تمام	٣٢٦
ونتنظرُ	زهير بن صرد	٣٣٣
واحورارُ	سبط ابن التعاويذي	٣٥٣
عسرُ	مجير الدين بن تميم	٣٥٣
وتدّخر	الخفاجي	٣٥٣
الدّهرُ	ابن المعلم	٣٥٦
المسافرُ	معقر البارقي	٣٦٦
الضمائرُ	الحسين بن إبراهيم	٣٦٨
ويشارُ	عمارة	٣٦٩
سافرُ	—	٣٧٠
سرور	تميم بن المعز	٣٧٥
يشعرُ	عمارة اليمني	٣٨٥
البقرُ	—	٤١٣
مقابره	—	٣٥٩
يضرها	الخفاجي	٥٥
قرارها	أبو تمام	٧٩
تَبورها	مالك بن زغبة	٣٣٩
حسيرها	الخفاجي	٣٩٥

* * *

لم تتخيّر	ولادة	١١

عطارِ	ابن زيدون	١٢
بالأثرِ	»	١٦
اعتصارى	عدى بن زيد	٤٦
الخمرِ	قيس بن ذريح	٤٧
الصفارِ	الباخرزى	٦٧
الأحرارِ	أبو المنيع	٦٩
القارِ	إبراهيم بن المدبر	٧٠
السَّحَرِ	التهامى	٧٨
الأعمارِ	—	٨٠
الحضورِ	أبو هلال العسكرى	٨١
القمرِ	غيلان بن خرشة	٨٥
شكرى	—	١٠٤
أدرى	مسلم	١٠٥
الأحرارِ	البحترى	١٠٧
الفجارِ	بشار	١١١
للكفرِ	عمار	١٢٠
بأخبارِ	بعض شعراء ثمود	١٢٧
القارِ	الباخرزى	١٨٤
البدرِ	علاء الدين الكايلى	١٨٥
من عمرِ	ابن عبدون	١٩٥
البشرِ	»	٢٠٢
وأشعرِ	يزيد بن معاوية	٢١١
ولا مُضْرِ	—	٢١٣
الحبرِ	—	٢٣١
فكرى	الشهاب محمود	٢٣١
ألاتضارى	زياد الأعجم	٢٦٠
أوسارِ	محمد الرصافى	٢٩٢
دهرِى	أبو تمام	٢٩٣
الذكرِ	الشريف الرضى	٢٩٣
شكرِى	ابن المعلم	٣٠٢
صدرِى	الصفدى	٣٠٥
بصبّارِ	ابن الخياط الدمشقى	٣١٠
ثأرِ	الشريف الرضى	٣١٤
بمعذورِ	—	٣١٦
من ضمائرى	الصفدى	٣١٩
صِهْرِ بِرّ	أبو الفتح البستى	٣٢٣
والبشرِ	أبو الأسود	٣٢٦
دارى	ابن عتيق	٣٣٢
من الهجرِ	ابن المعتز	٣٦٣
لم تشكرِ	أبو تمام	٣٨٠
أم عامرِ	—	٣٨٠
إيثارِ	—	٣٨٤
مكفورِ	صفى الدين الحلى	٣٩٧
بخيره	أبو الحسين الجزار	٣٠٦

مختارِها	—	٣٥٧

(ز)

المتحرّزِ	ابن الرومى	٢٥٧

(س)

باسُ	ابن زيدون	١٩
تدليسُ	الصفدى	١١٧
إيناسُ	أبو الفتح البستى	٣١٤

* * *

خمسِ	الباخزرى	٣١
بوسِ	ابن قلاقس	٧٩
تدليس	صردرّ	١١٧
بالإيناسِ	—	٣٥١
إبساسِ	الحطيئة	٣٥١
لا يبس	أبو العلاء المعرى	٣٩٥
أمسه	أبو تمام	٣٠

(ش)

من وَشى	السراج الوراق	٢٢٩

* * *

رشاشُها	بشار	٣٤٧
ماخشى	ابن عبد الظاهر	٢٢٨
موحِش	القائم بأمر الله	٢٢٩
بعيشه	أبو الفضل الميكالى	٣١٥

(ص)

الحريصْ	عدى بن زيد	٥٦

(ض)

من بعض	طرفة	١٠٧
من بعض	—	١٩٢
والعرض	أبو نخيلة	١٠٧

(ط)

وماشّطوا	ابن زيدون	٩
تخطُو	طلائع بن رزيك	٧٨

(ع)

دعْ	ابن زيدون	١٢
نافِعْ	الصفدى	٢٧١
ولا استمَعْ	عبيد الله بن زياد	٣١٥
جذَعْ	—	٣٥٧

* * *

مطلما	عمرو بن الأبرد	٥٧

مطعما	علاء الدين الوداعى	١٢٤
طعما	أبو بكر الصديق	١٧٢
بلقعا	أبو تمام	٢٠٨
قنوعا	على بن أبى طالب	٣١٤
صفعا	الحاكم بن قنبر	٣٦٢

* * *

مبتدعه	عمرو بن معديكرب	٣٤٧
مرقوع	ابن هرمه	٥
أتضعضع	أبو ذؤيب	٦١
يقطع	أبو تمام	٦٨
أوسع	البحترى	١٠٣
تشفع	نصيب	١٠٣
جميع	حسان	١٦٢
يرفع	—	٢٠٨
تصدع	أبو تمام	٢٩٨
مولع	ابن قلاقس	٢٥٥
ترضع	ابن المعلم	٢٩١
المطامع	البعيث	٣١٣
ضائع	—	٣٧٨
ضائع	رشيد الدين الفارق	٣٨١
رضيع	ابن المعلم	٣٩٤
يصرع	أبو تمام	٣٩٨
ولا يصدع	—	٤٠٨
سماعه	—	١٠٩
شفيعها	قيس أو المجنون	٣٦٠

* * *

لم يدع	ابن زيدون	١٦
الخليع	أصرم بن حميد	٥٤
شفيع	—	٨٩
ببديع	محمد المنقرى	٨
الأقرع	العباس بن مرداس	٩٦
الأطماع	ابن عنين	٢٨٩
الترفيع	أبو الحسين الجزار	٢٩٧
أطماعى	ابن نباته	٣١٤
شافع	ابن عنين	٣٦٠
شافع	دعبل	٣٦١
شفيع	—	٣٦٢
المصنع	—	٣٧٧
أقطع	عمارة اليمنى	٣٨١
الودائع	—	٣٨١
بالولع	—	٤٠٧

(ف)

تصرفْ	—	٧٠
الشرفْ	محمد بن أزدشير	٩٥

* * *

وكفى	أبو تمام	١١٠
تفويفا	أبو تمام	٢٩٨
رشفا	الخفاجى	٣٠٠
الألفـا	ابن حيوس	٣٤٠
هُتَفَا	ابن قلاقس	٣٩٤
ثقافهْ	الباخرزى	٧٠

* * *

فلمحفُ	ابن زيدون	١٥
ألوف	المتنبيّ	٨٨
زخرفوا	أبو سعيد الرستمى	٢٢٨
التعطفُ	البهاء زهير	٢٣٥
وهى سلافُ	—	٢٤٤
فأعترفُ	ابن منقذ	٢٨٤
ثم تنصرفُ	ابن الساعاتى	٣٩١
مؤلفه	ابن المعلم	٣٠١
يألفه	الصفدى	٣٤٣
الأضيافِ	الغزى	٣٣٦
والأشرافِ	—	٤١٠
فى صحفهْ	الغزى	٢٩٧

(ق)

لا يفارقْ	ولّادة	١١
اتفقْ	ابن الساعاتى	٣٩٣
الأفقْ	—	٤٠٨

* * *

راقا	ابن زيدون	١٥
اتقى	الصفدى	٨٧
مطلقا	أبو بكر الخوارزمى	٢٥٣
المقهْ	أحمد بن فارس	٥٠

* * *

تعبقُ	ابن زيدون	١٨
أزرقُ	ابن سناء الملك	٤٧
يشرقُ	البحترى	٤٧
يملقُ	البهاء زهير	٨٧
ورقُ	أبو شجرة السلمى	١٨٧
مسترقُ	الغزّى	٢٩٩
ماعشقوا	ابن الأحنف	٣٠٥
وصديقُ	عمرو بن الأهتم	٣٢٥

فواقُ	الأعشى	٣٣٥
الحدائقُ	الغزى	٣٨٣
والفرزدقُ	ابن القيسرانى	٣٨٥
رفيقه	الصفدى	٣٢١

* * *

المخترَقِ	رؤبه	٣٦
الطرقِ	محمد بن الوحيد	٤٣
الخالق	ابن وهب	٥٤
من التمويقِ	الواسطى	١١٧
بأسوقِ	أحد شعراء الجن	١٨٨
أمزقِ	الممزق العبدى	١٩٢، ٢٧٦
الحمق	ابن الساعاتى	٢٢٨
الحدقِ	ابن الرومى	٢٥٨
أستقِي	الغزى	٣٩٢
فى نطاقِ	سبط بن التعاويذ	٣٩٢
ورزقه	أبو الحسين الجزار	١٧٢
فانتق	ابن القيسرانى	٣٨١
مخلوقِ	محمد بن الإخميمى	٢٥١

(ك)

رحالَكْ	عبد المطلب	١٣٢

* * *

ماأزكاكا	مسلم بن الوليد	٩٢
حماكا	عبد المطلب	
	ابن هاشم	١٣٢
امتساكا	المتنبي	٢٧١
عطفاكا	ابن حيوس	٢٩٩
كذاكا	—	٣٠٦
مالكا	ابن الرومى	٣٢٩
يهواكا	الشريف الرضى	٣٤٤
شمالكا	ابن ميادة	٣٨٣

* * *

المهالكُ	الشريف الرضى	٤٩
شركُ	صفى الدين الحلى	٢٤٧
وهو ضاحكُ	—	٣٢٦

* * *

منساكِ	ابن زيدون	١٥
رماكِ	الشريف الرضى	٢٠٧
وصالكِ	—	٣٧٤

(ل)

قليلْ	عبد الرحمن بن وهب	٥٥

الأمثلْ	ابن الزبعرى	٢٠٨، ٢١٣
مَن قتلْ	محمد بن أسلم	٢١١
الثّقيلْ	—	٢١٥
هائِلْ	الصفدى	٢٦٧
الرجالْ	أبو العتاهية	٣١٣، ٣١٥

* * *

الرحلا	—	٦٣
وكهلا	أبو فراس	٦٨
غايلاَ	كشاجم	٨١
جبالا	—	١٨٣
قليلا	—	١٩٣
وطالاَ	ابن المعتز	٢٣٦
الخجلاَ	—	٢٥٣
تعالَى	الصفدى	٢٥٥
أن أذلّا	أبو تمام	٢٨٥
المبجّلا	أبو تمام	٢٨٧
عقلا	المتنبي	٢٩٨
مجهلا	أبو تمام	٢٨٧
عليلا	—	٤٠٩
مثلَه	—	٣٧
محلّه	الشهاب محمود	٢٥٥
نعالها	كثير	٢٢٧
خيالها	ابن النقيب	٢٢٨
قالا	ابن قلاقس	٣٠٣
وفعلا	الصفدى	٣٠٨
أن يتحوّلا	أبو تمام	٣٠٩
التحويلا	أبو محمد غانم	٣١١
أن يتحوّلا	ابن مدبر	
	الطرابلسى	٣١١
الأشبالا	الصفدى	٣١٢
مقبولا	محمد بن شرف	٣٢٤
أولى	رجاء بن هارون	٣٢٩
الشمألا	ابن قلاقس	٣٥٥
تسهيلا	محمد بن شرف	٣٥٦
الخليلاَ	أبو العلاء المعرى	٣٥٧
شمألا	»	٣٥٧
تعجّلا	ابو الشمقمق	٣٦٨
البلى	الباخرزى	٣٦٨
قليلا	—	٣٨٩

وعديلا	ابن الساعاتى	٣٩٣
منزلَه	الشافعى	٣٠٨
دلالَه	ابن الساعاتى	٣٥٥

* * *

الرسولُ	أبو نواس	٣١
طويلُ	—	٤١
والزَّآلَ	القطامى	٥٦
الصياقلُ	الغزى	٦٨
السبلُ	ابن قزل المشد	٧٠
مطالُ	ابن قلاقس	٧٩
منزل	معن بن أوس	٨٤
الفضلُ	—	١٠٢
أهلُ	إبراهيم بن المهدى	١٠٤
تبذلُ	محمد بن عبد الله بن المولى	١٠٥
مخذولُ	الصفدى	١٣٤
جلاجلُ	أوس بن حجر	٢٢٢
كما قالوا	الخلنجى	٢٢٦
فعالوا	—	٢٣٥
وتنهلُ	—	٢٦٦
ويسهلُ	ابن الخيمى	٢٦٧
فعلوا	المتنبي	٢٧١
دلائلُ	يحيى بن بقىّ	٢٧٩
أشغالُ	المتنبي	٢٩٢
أقولُ	الغزى	٢٩٣
صقيلُ	الغزى	٢٩٩
أقولُ	ابن المعلم	٣٠٢
متحوّل	معن بن أوس	٣١٠
الجبلُ	المتنبي	٣٢٤
ومقيلُ	—	٣٢٥
منقولُ	الصفدى	٣٤٣
فرحلوا	—	٣٥٧
لبخيلُ	أبو تمام	٣٦٦
بخلُ	صالح بن عبد القدوس	٣٧٨
ستقتلُ	أبو تمام	٣٩٠
المسبلُ	ابن بابك	٣٩٢
يغازلُ	ابن الساعاتى	٣٩٥
كاملُ	المتنبي	٤٠٥
سائلُ	—	٤٠٧
يقبلُ	—	٤٠٨
القبائلُ	أبو العلاء	٤٠٩
متكاملُ	أبو العلاء	٤١٠
تحِلَّة	—	٤١٣
كلُّه	أبو فراس	٤١٣

عاجِلُهْ	أبو سعيد الرستمى	٢٧٥
أسافِلُهْ	أبو سعيد الرستمى	٢٩١
ذبولُها	ابن الخياط الدمشقى	٧٦
* * *		
ولا ذنبَ لى	ولّادة	١١
السّراويلِ	ولادة	١٢
النّصلِ	ابن زيدون	١٦
موالى	الغزى	٣٠
أصطلِى	ابن سناء الملك	٤٦
زلالِ	الغزى	٤٦
السؤال	ابن حيوس	٤٧
ناحِلِ	جحظة	٥٩
والإبلِ	المتنبى	٧٣
مختالِ	مستوفى إربل	٦٤
بالصّقلِ	الخفاجى	٦٨
القساطلِ	ابن الساعاتى	٦٩
الماجلِ	جعفر بن شمس الخلافة	٧٥
يُعجِّلِ	الغزى	٧٩
الفاصلِ	عمارة اليمنى	٧٩
الدّلِّ	ابن القيسرانى	٨١
حالِ	—	٨٢
بالفضلِ	—	١٠١
الأملِ	الشريف العقيلى	١٠٣
زالى	إسحاق الموصلى	١٠٣
من المالِ	امرؤ القيس	١٠٩
فى كل حالِ	الفضل بن محمد	١١٠
الفوافِلِ	حسان	١٧٣
بتبخّلِ	مروان بن أبى الجنوب	١٨٢
بغافِلِ	حسان	١٩٤
مثلِى	الذهبى	٢٠٢
محلّ	—	٢٠٢
من المذَلِ	—	٢٤٣
على عملِى	الأفضل	٢٤٩
حق على	الأفضل	٢٤٩
الأفضلِ	ابن عنين	٢٥٠
عواطِلِ	ابن التعاويذى	٢٦٧
من لى	أبو سعيد الرستمى	٢٦٧
المحلِ	الغزى	٢٦٩
بالقفلِ	الطغرائى	٢٧٠
مستقِلِ	الصفدى	٢٧
نائلِ	—	٢٨٤
فى حفلِ	أبو سعيد الرستمى	٢٨٤
ممل	ابن دراج القسطلى	٢٩٤

بأسمالِ	عمارة اليمنى	٢٩٤
المحلّ	ابن المعلم	٢٩٨
نقولِ	ابن الشبل	٣٠٠
فقلِ	المتنبى	٣٠١
والإبلِ	»	٣٠١
الجبالِ	الغزى	٣٠٢
مثلى	أبو سعيد الرستمى	٣٠٥
فتحوّلِ	عنترة	٣٠٩، ٣٠٠
الرّجالِ	البستى	٣٦٣
من رجلِ	عمرو بن أوس	٣٢٤
المحلِ	—	٣٢٨
فى زمنٍ محلِ	الرشيد بن الزبير	٣٢٨
أهلى	ابن مهادة	٣٣٢
تنبه لى	الرشيد الفارقى	٣٥٣
فحوملِ	امرؤ القيس	٣٥٨
مثلى	الصفدى	٣٨٧
السهولِ	ابن قلاقس	٣٩٢
بالفضلِ	—	٣٣٩
فى تبجيله	ظافر الحداد	١١٥
حالِه	أبو تمام	٣٦٤، ٣٦٦
فعلِه	الصفدى	٣٢٧

(م)

المحتشمْ	عبد الصمد بن بابك	١١٧
منتظر بهمْ	ابن الرومى	١٢٤
بالرّغامْ	أبو بكر الإسفرايينى	١٨٤
أنْ ترافقهمْ	شهاب الدين محمود	٣٤٦
الألمْ	السراج الوراق	٣٥٢
ثمّ ثمْ	بشار	٣٥٢
يراكما	أبو فرعون	٣٢
تقوّما	ابن حيوس	٦٩
ألوما	البحترى	١٠٢
سلّما	الإمام الشافعى	١٠٤
أظلما	الحصين المرى	٢٠٥، ٤١١
سلّما	»	٢١٤
الدما	»	٢١٥
مظلوما	على بن أحمد البسامى	٢٤٨
أتمطّا	البحترى	٢٧١
أنجما	»	٢٨٦
وحائما	ابن شهيد	٣٠٨
أتهما	ابن صردر	٣٠٨

مفرما	أبو الفتح البستى	٣٥١	وأصوم	عمر بن الخطاب	١٨٨
أن يتكلما	—	٣٦٥	الحليمُ	قيس بن زهير	٢١١
صمما	—	٤٠٧	فمُ	عمارة اليمنى	٢٢٨
المقاما	السيد الحميرى	٤١١	كلامُ	ابن الخياط	٢٣٠
الملامة	ابن الساعاتى	٤٧	كلامُ	الشهاب محمود	٢٣١
* * *			إلمامُ	صفى الدين الحلى	٢٣٦
لعظيمُ	—	٤١	إيلامُ	سيف الدين بن المشد	٢٣٦
قديمُ	—	٤٢	قديمُ	—	٢٤٦
صممُ	المتنبى	٤٢، ٤٥	كريمُ	أبو العتاهية	٢٥٣
يتألمُ	تاج الدين السبكى	٦٤	انصرامُ	ابن الخياط الدمشقى	٢٥٤
أرقمُ	تميم بن المعز	٦٤	مشمومُ	محمد بن غالب الرصافى	٢٨٨
الحسامُ	الأحوص	٦٧	النظامُ	ابن الرومى	٢٩٨
يرحمُ	أبو تمام	٧١	ناظمُ	المتنبى	٢٩٨
سلمُ	على بن الجهم	٧٣	مظلمُ	البحترى	٣٠٤
وأنعمُ	شرف الدين بن المبارك	٧٥	سقيمُ	—	٣٤٢
نسيمُ	أبو العتاهية	٧٧	عدمُ	المتنبى	٣٤٤
الجهامُ	المتنبى	٧٩	سقمُ	»	٣٤٥
يترنمُ	يزيد بن معاوية	٨٢	إمامُ	شهاب الدين محمود	٣٥٤
عظيمُ	محمد بن قرطاى	٨٧	علمُ	عمارة اليمنى	٣٥٦
الشمُّ	أبو الفرج الببغاء	٩٣	والقلمُ	أبو تمام	٣٨٥
أعظمُ	أبو نواس	١٠٤	القتامُ	—	٤٠٨
مجرمُ	—	١٠٤			

حائمه	المتنبي	٤

* * *

النسيم	ابن زيدون	٢٧
محتلم	أبو العلاء	٧٣
لم يدم	—	٨٣
خاتم	الحسن بن رشيق	١١٧
المسمّم	—	١٩٥، ١٩٦
أعجم	البحترى	٢٠٢
الخضارم	الفرزدق	٣٧٥
باسمي	ابن المعلم	٢٨٣
على علم	أبو نواس	٢٨٣
سموم	أبو فراس	٢٩٠
المتقادم	—	٣٣٢
بظلم	المتنبي	٣٣٦
والرّخم	»	٣٤٩
من الخدم	ابن قلاقس	٣٥٢
الدّيم	الخفاجي	٣٥٩
الهمّ	—	٣٦٨
القوائم	ابن قلاقس	٣٩٢
الدّم	—	٤٠٩
الحلوم	ابن عبد الظاهر	٤١٤

(ن)

لم أخنه	الصفدى	٣٧

* * *

تجافينا	ابن زيدون	١٢
الجبينا	البحترى	١٣
تناديا	الصفدى	١٣
فأمتنا	ابن زيدون	٢٥
من زبّانا	الفرزدق	٣٦٠
ولنا	الحريرى	٣٧
سجنا	ابن سناء الملك	٥٠
آخرينا	—	٥٨
المنى	سيف الدين الناصرى	٥٩
تمنينا	السراج الوراق	٧٤
ينجلينا	—	٧٥
ماعنَى	أبو فراس	١٠٦
أجمعينا	»	١١٦
عثمانا	حسان	١٩١
رضوانا	عمران بن حطان	٢٠٥
أركانا	بكر بن حماد	٢٠١
راحمينا	المتنبي	٢١٩، ٢٢١

زمانا	يزيد بن المهلب	٣٤٨
الوطنا	—	٣٢١
أعادينا	أبو فراس	٣٢٨
متيقنا	الغزى	٣٢٤
تؤذونا	—	٣٤٤
الغبنا	ابن الساعاتى	٣٥١
يقظانا	المتنبى	٣٥٣
مضمونَهْ	عمر بن الوردى	٢٢٤
لتينَهْ	أبو الشمقمق	٢٧٣
بمحنَهْ	—	٣١٠

* * *

الزَّمَنُ	ابن زيدون	١٩
ظمآنُ	ابن شهيد	٦٤
هوانُ	البهاء زهير	٨٧
إنسانُ	محمد بن غالب الرصافى	٩٣
مرنانُ	ابن الرومى	٢٤٧ ، ٣٧٧
لايطمئنّ	الصفدى	٢٤٧
الثمينُ	ابن حيوس	٣٠٢
أغصانُ	الصفدى	٣٤٣
مكينُ	دعبل	٣٦٥
مطمئنّ	الصفدى	٣٧٧

اللبانُ	—	٤٠٨
مستني	أبو الحسين الجزار	٤٩
فى بدن	عبد الرحمن وهب	٥٣
الدنانِ	نصر بن سيار	٧٠
أو بهجرانِ	أبو تمام	٧٣
أو بهجرانِ	—	٨١
الحنانِ	امرؤ القيس	١٠٧
الحسينِ	أحمد بن عيسى الهاشمى	٢٠٧
الشنآنِ	عمـارة	٢٠٧
بلميان	—	٢٠٩
لاتبكيني	—	٢١٧
من الهذيانِ	ابن عطية	٢٣٠
دينى	الصلاح الصفدى	٢٣٦
يمانِ	أمامة بنت الجلاح	٢٦٢
عبد المدانِ	دعبل	٢٧٤
عصيانى	ابن حيوس	٣٠٢
المعانى	صفى الدين الحلى	٣٠٣
بإنسانِ	أبو بكر الخوارزمى	٣١١
الغزلانِ	الصفدى	٣١٢
التيجان	«	٣١٢

الحدثانِ	—	٣٢١
أوطانِ	—	٣٣٠
بمكينِ	أبو هلال العسكرى	٣٣٠
تكفينى	—	٣٣٥
العيونِ	الصفدى	٣٤٣
من جفانى	السراج الوراق	٣٦٤
يكفينى	ابن عمار	٣٦٣
بأسنانى	—	٣٨٧
أبا عثمانِ	—	٣٨٧
نشوانِ	الأرجانى	٣٩٤

(هـ)

تيهاً	ولادة	١١
بها	الأعشى	٤٧
يهواها	شرف الدين شيخ الشيوخ	٣٤٤
مابها	ابن المعتز	٢٤٩
ضميرها	ابن صردور	٣٦٩

* * *

مكروهُ	أمية بن أبى الصلت	٥٥
مفاداهُ	ابن الخياط	٩٤
نساهُ	المتنخل	٣٨٣
مشبِهِ	—	٣٧

(و)

عدوٌّ	أبو تمام	٢٢١

(ى)

عَلَىّ	السراج الوراق	٢٥٦
لديهِ	الصفدى	٣٧
لاتخفيهِ	أبو الحسين الجزار	٦٦
يديهِ	الصالح بن رزيك	٢٥٠
عليه	أبو العتاهية	٣٤٤
عليهِ	ابن القيسرانى	٣٦١
مساويهِ	أبو تمام	٣٦٣
يلقيهِ	الأرجانى	٣٩٥
أدنيها	الرشيد المراقى	٨٧
واشيها	ابن التلمسانى	٢٢٣
من فيهاَ	الأرجانى	٢٥٨
زمانيا	المتنبى	٢٢١
المبانيا	عبدالله بن محمد بن ورقاء	٢٥٩

واليا	المتنبي	٢٨١
القوافيا	ابن قلاقس	٢٨٥
شبابيا	صفي الدين الحلي	٣٢٨
مابيا	مرار بن هباش	٣٣١
الحاشيَهْ	دعبل	٣٣
الهاويهْ	—	٥٨

* * *

العصىُّ	امرؤ القيس	١٠٨

الألف المقصورة

ارعوَى	ابن قزل	٧٤
سرى	—	٢٠٩
الجوى	السراج الوراق	٣٤٢
اهتمدى	خالد بن الوليد	٣٥٤
القرى	ابن سناء الملك	٣٥٣
ماطوى	شيخ الشيوخ	٣٦٩

(ء)

إبراهيم (عليه السلام) ١٣١
إبراهيم السراق (مولى المهلب) ١٠١
إبراهيم بن العباس ٨٦
إبراهيم بن على بن تميم الحصرى ١١٧
إبراهيم بن المدبر ٧٠
إبراهيم بن المهدى ١٠٤، ٢٤٧
إبراهيم بن يحيى بن زيد بن على ٢١٢
إبرهة بن الصباح أبو يكسوم ١٣١، ١٣٤، ٢١٩
إبليس ١١٠ - ١١٥
أبى بن خلف الجمحى ١٦٠
ابن أبى = عبدالله بن أبى بن سلول
الأبيوردى ١٨
الأثير بن بنان ٢٥
أثير بن عمرو السكونى (الطبيب) ١ : ١٩٨، ١٩٩
أحمد بن جعفر (الراوى) ٢٦١
أحمد بن الحسين بن على البيهقى ٣٤
أحمد بن حنبل ٢٧٨
أحمد بن خالد الصريفينى ١٠٠
أحمد بن الخصيب ٢٤٨
أحمد بن أبى دواد ٣٦٥
أحمد بن عبد العزيز المقدسى ٣٢٤
أحمد بن عبد الملك بن شهيد
أبو عامر ٦٤، ٢١٩
أبو أحمد العسكرى (الراوى) ٢٦١
أحمد بن على بن ثابت الخطيب
البغدادى ٥١
أحمد بن عيسى الهاشمى ٢٠٧
أحمد بن فارس ٥٠
أحمد بن أبى فنن ٣٦٢
أحمد بن محمد الباخرزى ٣٧٨
أحمد المزيدى أبو العباس ١٢٤
أحمد بن المعلى الدمشقى ٣٠٧
الأحنف بن قيس ٩٤، ٢٣١، ٢٣٤

الأحوص ٦٧
الأخنس بن شريق ١٤٦، ٢٢٥
إدريس بن عبد الكريم ٣٠٧
إدريس بن عبد الله بن الحسن
العلوى ٥٠، ٥١، ٢١٢
الأرجانى ٦٠، ٨١، ١٧٤،
٢٥٨، ٣٦١، ٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٥
أزادمرد بن الهربد ٢٤٣
أسامة بن زيد ١٦٨، ١٧٤ –
١٧٧، ٢٢٠
أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة) ٨٨
أبو إسحاق (الراوى) ١٧٢، ٢١٧
إسحاق بن إبراهيم الموصلى ١٠٣
إسحاق بن أبى ربعى ٣٦٦
إسحق بن سليمان الإسرائيلى
(الطبيب) ٤٨
أبو إسحاق الصابى ٧٧، ٢٧٧
إسحق بن عبد الله الأندلسى ٢٠
إسحاق بن عيسى (الراوى) ١٩٤
أبو إسحاق الغزى ٣٠، ٤٦،
٦٨، ١٣٠، ٢٦٩، ٢٩٣،
٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٢٦،
٣٣٤، ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٨٢
أسماء بنت أبى بكر ٢١٧
أسماء بنت عمرو بن عدىّ ١٤٢
إسماعيل (عليه السلام) ٢١٣
إسماعيل بن المعتضد ٢٠
إسماعيل بن المنصور
ابن القاسم (صاحب إفريقية) ٤٨
أبو الأسود الدؤلى ٢٠٦، ٣١٥
الأسود بن عبد الأسد ١٤٩
الأسود بن عبد يغوث ٢٢٥
الأسود بن قنان ٢٦١
الأشتر بن الحارث النخعى ١٨٩
الأشرف (الملك) =
خليل بن منصور ٢٧٧
ابن الأشعث بن قيس ٢٩٣
أصحمة النجاشى (ملك اليمن) ١٣١
أصرم بن حميد ٥٤

الأصمعى ٢٠٤، ٢٧٤

ابن الأعرابى ٢٠٤

الأعشى (ميمون بن قيس)
٤٧، ٢٩٣، ٣٣٥، ٣٤١

الأعمش ٣٠٧

الأعور المعلى ٨٣

ابن الأفطس ٢٠

الأفشين ٣٦٥

الأفضل = على بن
السلطان صلاح الدين الأيوبى

الأفضل = نور الدين على
ابن صلاح الدين الأيوبى

الأقرع بن حابس ٨٠

ألبا أرسلان (السلطان) ٥٢

أمامة بنت الجلاح الكلابية ٢٦٢

امرؤ القيس بن حجر ٨٣، ١٠٧،
١٠٩، ٢٥٩، ٢٧٠، ٢٧٢،
٢٧٣، ٣٥٨

أمية بن خلف الجمحى ١٤٤، ١٤٦

أمية بن الصلت المغربى ٥٥

أمية بن أبى الصلت (   ) ١٥٥

أمين الدولة بن جهير ٢٣٤

أنس بن مالك ٢٤٣، ٢٥٤

أوس بن حجر ٢٢٢

أم أوف ٣٤٩

إياس بن معاوية ١٧٧

أيمن بن خريم ١٩٣

أيوب (عليه السلام) ٥٨

أبو أيوب الأنصارى ١٧٠

أم أيوب ١٧٠

(ب)

ابن بابك = عبد الصمد

الباخرزى (صاحب الدمية)
٣١، ٣٧، ٦٧، ٧٠، ١٨٤،
٢٥٢

البحترى ١٣،
١٧، ٥٢، ٨٥، ١٠٢، ١٠٣،
١٠٦، ١٠٧، ٢٠٢، ٢٧١،
٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٤، ٣٠٨

البخارى (صاحب الصحيح) ٢٢٥،
٢٤٣

أبو البخترى ١٣٧، ١٣٨، ١٤٦، ١٥١

البراء بن عازب ١٦١
أبو البركات = محمد بن أحمد المنقرى
بريدة بن الحصيب الأسلمى ١٧٥ ، ١٧٦ .
بريرة (الصحابية) ٣٥٩
بزر جمهر ٣٣
ابن بسام (صاحب الذخيرة) ٦ ، ٢١ ، ١٤١
بسبس بن عمرو ١٤٥
بشار بن برد ٥٦ ، ١١١ ، ٢٧٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥
بشر بن المفضل ٣٤
ابن بشكوال (صاحب الصلة) ٢١
أبو بصرة (الراوى) ٣٤
البعيث ٣٨ ، ٢٧٣
أبو بكر المعروف بالملك العادل ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٥٣
أبو بكر بن أحمد بن سعيد الطائى ٢٥١ ، ٢٥٢
أبو بكر بن أحمد بن عبد الله بن أحمد
ابن غالب بن زيدون ٦ - ٢١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩
أبو بكر الإسفراييني ١٨٤
أبو بكر الباقلانى ١٧٣ ، ١٧٤
بكر بن حماد ١٩٨ ، ٢٠١
أبو بكر بن حمزة ١٨
أبو بكر الخوارزمى ٦٥ ، ٢١٢ ، ٢٥٣ ، ٣١١
أبو بكر بن داسة ٣٤
أبو بكر بن سعيد بن القبطرية ٢١٨ ، ٣٢٧ .
أبو بكر الصديق ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٣٥٤
أبو بكر بن عمار = ابن عمار
أبو بكر بن القاسم السلامى ١٨٣
أبو بكر بن مسلم ٦
بكر بن النطاح ٥٥

بلال بن أبي بردة ٧٦

بندار = سيف الدين بندار

البهاء زهير ٣١ ، ٨٧ ، ٢٣٥ ، ٣١٨ ، ٣٥٣

بهرام شاه بن فرخشاه ٥٣

ابن بيض ٥٦

(ت)

تاج الدين الكلبي (الأمير) ٦٤

سبط ابن التعاويذى (محمد بن عبيد الله) ٢٦٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣

تقيّ الدين بن تيمية ١٧٤

الأمير تكين ٩٤

ابن التلمسانى ٢٢٣

أبو تمام (حبيب بن أوس) ٣٠ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٨ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦

تميم بن المعز ٦٤ ، ٨٥ ، ٢٢٩ ، ٢٩٧ ، ٣٧٥

أبو تميمة الراوى ٣٨٧

تنكز = سيف الدين تنكز

التهامى ٧٨

ابن تيمية = تقيّ الدين

(ث)

ثابت البنانى ١١٤ ، ٢٥٤

ثور بن شحنة العنبرى (مجير الطير) ٢٦٣

(ج)

جابر بن عبد الله الأنصارى ٣٦٦

الجاحظ (عمرو بن بحر) ٩٤ ، ٣٦١

جبلة بن الأيهم ٤٠٧

جبير بن مطعم ١٥٨

جحظة ٥٩

جرير بن عبد الله (الراوى) ١٤٣

الجزار = أبو الحسين

جعفـــــر المتوكل = المتوكل (الخليفة)

جعفر بن سليمان ١٢٨

جعفر بن شمس الخلافة (شمس الدين) ٧٥

جعفر بن أبى طالب ١٧٧ ، ٢٠٤

جعفر بن القرز العابد ٣٧٨

جعفر بن مخارق ٣٠٧

جعيفران الموسوس ٢٥١

جمال الدين بن الحاجب ٩٨

جنان (صاحبة أبى نواس) ٣٨٨

جندب بن عبد الله ٣٠٧

أبو جهل بن هشام ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢

ابن جهور ٣ ، ٦ ، ١٦ ، ٢١ ، ٤١

ابن الجوزى ٢٠٧

(ح)

حاتم الطائى ٢٧٤ ، ٣٢٦

حابس (أبو الأفرع بن حابس) ٩٧

الحادرة ٢٩٢

أبو الحارث ٢٢٤

الحارث بن جبلة ٢٩٥

« بن أبى شمر ٢٥٩ ، ٣٣٣

« بن الصمة ١٦٠

حارثة بن سراقة ١٥٠

حارثة بن مرة (مجير الجراد) ٢٦٣

الحاكم بأمر الله ٦٧

الحاكم بن قنبر ٣٦٢

الحباب بن المنذر بن الجموح ١٤٧ ، ١٨٠ .

حبيب (الراوى) ٢٠٩

حبيب بن المهلب بن أبى صفرة ٢٦٠

ابن حجاج (الشاعر) ٨٤ ، ٢٧٤ ، ٣٦٢

الحجاج بن يوسف الثقفى ٥٢ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٨ .

حجر بن عمرو (أبو امرىء القيس) ٨٣ .

حجر بن شراحبيل ١٣١

حذيفة بن اليمان ١٥١

الحر بن يزيد التميمى ٤٠١

الحريرى (صاحب المقامات) ٣٧ ، ٢٢٣ .

حزام ٧

أبو الحزم بن جهور = ابن جهور

الحزين = عمرو بن عبيد

حسان بن ثابت الأنصارى ٣٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٩١ ، ١٩٤ .

حسان بن المصيصى الشبلى ٢٩٠

أبو الحسن البرمكى ٢٦١

الحسن البصرى ٣٠٤

الحسن بن رشيق ١١٧

حسن بن شاور ناصر الدين المعروف بابن النقيب ٤٠٤

الحسن بن علىّ بن أبى طالب ٦١ ، ٦٢ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٢

الحسن بن القاسم الداعى ٢١٢

الحسن بن قحطبة ٢٤١

الحسن بن منصور أبو غالب (الوزير) ٩٤ ، ٩٥ .

الحسن بن هانىء = أبو نواس

الحسين بن إبراهيم الكاتب ٣٦٨

الحسين بن إسماعيل المصعبى ٢١٣

أبو الحسين الجزار ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١٧٢ ، ٢٠٧ ، ٢٤١ ، ٢٨٥ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٩٧

الحسين بن حمدان أبو العشائر ٨٨

الحسين الخليع = الحسين بن الضحاك

أبو الحسين بن سراج (الوزير) ٢١٨

الحسين بن الضحاك ٣٠٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٦ .

الحسين بن على بن أبى طالب ٢٠٠ ، ٢٠٣ ـ ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٤٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

الحسين بن على بن محمد المعروف بابن قم ٣٩٦

الحصرى = على بن إبراهيم بن على ابن تميم

حصن بن حذيفة بن بدر ٩٧

ابن الحصيب = بريدة

الحصين بن الحمام المرى ١٤١ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٤١١

الحطيئة ٣٥١
الحظيرى الوراق ٢٤٧
أبو حفص بن برد الكاتب ١٩ ، ٣٠١ .
الحكم بن موسى ٣٠٧
أبو الحكم بن هشام ١٣٧
حكيم بن جبلة ١٨٩
حكيم بن حزام ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨
حليمة بنت الحارث بن أبى شمر (صاحبة المثل) ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
الحليمى (صاحب المنهاج) ٣٥
حماد بن سلمة ٢٥٤
حماد عجرد ٢٧٣
حمزة بن عبد المطلب ١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦١ – ١٦٣
حمنة بنت جحش ١٧٠
حميد الطوسى ٢٤١
الحنفية (أم محمد بن الحنفية) ١٨٢
ابن حيوس أبو الفتيان ٤٧ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٩٨ .

(خ)

خارجة (أحد الخوارج الثلاثة) ٢٠٠ ، ٢٠٢
ابن خاقان ٦
خالد بن برمك ٣٤٧
خالد بن سنان ١٣٤
خالد بن صفوان ٧٦ ، ٨١ ، ٣١٦
خالد بن طليق (قاضى البصرة) ١٨
خالد بن مزيد الشيبانى ٣٦٨
خالد بن المهاجر ١٠٩
خالد بن الوليد ١٥٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٠ ، ٣٥٤
خالد بن يزيد بن معاوية ١٥٤ ، ١٥٥ .
الخباب (من ثمود) ١٢٥
أبو خبيب = عبدالله بن الزبير
خديجة بنت خويلد ١٣٦

الخطابى (صاحب كتاب غريب الحديث) ٤٠٠
ابن خفاجة ٧٣
الخلنجى القاضى (عبد الله بن محمد) ٢٢٦
الخليل بن أحمد ٢٥٣
خليل بن المنصور قلاوون الملك الأشرف ٥٣ ، ٢٧٧
الخنساء ٣٢
خولى بن يزيد الأصبحى ٢٠٦
ابن الخياط الدمشقى (الشاعر) ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٢ ، ٢٣٠، ٢٥٤، ٢٦٩ ، ٣١٠
ابن الخيمى ٢٦٧

(د)

داود (عليه السلام) ١٢٢ ، ٢٠٦
أبو داود(صاحب السنن) ٣٤ ، ١٧٦
أبودجانة الأنصارى ١٥٩
ابن دراج القسطلى ٢٩٣
دعبل بن على الخزاعى ٣٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤
ابن دقيق العيد ١٣٠

أبو دلف العجلى ٣٣٠ ، ٣٦٥، ٣٦٤
ابن أبى دواد ٧٩ ، ٢٢٧

(ذ)

الذهبى = محمد بن أحمد
ذو النون المصرى ٢٤١
ذؤاب بن عمرو(بن ثمود) ١٢٥
أبو ذؤيب الهذلى ٦١ ، ٦٣
ذو اليمينين ٥٧

(ر)

رأس الجالوت ٢٠٦
الربيع بن زياد العبسى ١٠٩
رجاء بن هارون العكّى ٣٢٩
رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز الحنبلى ٢٠٨
الرستمى = محمد بن محمد الرستمى
الرشيد = هارون
الرشيد بن الزبير القاضى ٣٢٨
الرشيد الفارقى ٣٥٣ ، ٣٨١
الرشيد = محفوظ العراقى ٥٧

طبع خطأ فى هذا الرقم « دداد ».

أبو رقية (تميم بن أويس الدارى)
٢٤٣
الرماح بن ميادة ٣٣٢ ، ٣٨٣
رؤبة ٤٦
روح بن زنباع ٢١٠
أبو روح = ظفر الهروى
رومان بن سرحان ١٩٠
ابن الرومى ٥٨ ، ٦٣، ١٢٤ ، ٢٩٨ ،
٣٢٨ ، ٣٧٧
الرياشى (الراوى) ٣٠٦

(ز)

الزبرقان بن بدر ٢٨٣
ابن الزبير = عبد الله
الزبير (بن بكار) ٢٠٦
الزبير بن العوام ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٧٩، ١٨٧ ، ٢٠٠
ابن الزقاق الأندلسى ١٢٤ ، ٢٩٤
الزمخشرى ٣٨٣
زمعة بن الأسود بن عبد المطلب
١٣٨ ، ١٤٦
ابن زنجويه ١٨٢
زهير بن أمية بن المغيرة ١٣٧ ، ١٣٨
زهير بن أبى سلمى ٩٨ ، ٢٩٣ ،
٣٤٩
زهير بن صرد الجشمى ٣٣٣
ابن الزيات = محمد بن عبد الملك
ابن زياد = عبيد الله بن زياد
زياد بن أبيه ٩٤
زياد الأعجم ٢٦٠ ، ٢٦١
زياد بن السكن ١٥٩
الزيادى (الراوى) ٩٩
زيد بن ثابت ١٧٤ ، ١٩١
زيد بن حارثة ١٧٦ ، ١٧٧
زياد الكاتب ٣٦٠
زيد بن أرقم ٢٠٤
زيد بن على ٢١٢
ابن زيدون = أبو بكر بن أحمد بن
عبد الله بن أحمد بن غالب
زين الدين بن الوردى ١٨٥، ٢٢٤
زينب بنت جحش ١٦٨

(س)

أبو الساج ٢١٢

ابن الساعاتى ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦٩ ،
٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٨٠ ، ٣٩٠ ،
٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥
سالم بن حامد ٥٢
السامرى ١٢٢ ، ١٢٢
سدوس بن عيسى ١٨٩
السراج الوراق ٨٣ ، ٢٠٨ ، ٢٢١ ،
٢٢٩ ، ٢٥٦ ، ٣٤٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤
أبو سرح ٢٣٠
ابن أبى سرح ١٩٠
ابن سعد (صاحب الطبقات) ٢٠٥
سعد بن زيد الصحابى ١٧٥
سعد بن عبادة الأنصارى ١٨٠
سعد بن معاذ الأنصارى ١٤٥
سعد بن أبى وقاص ١٤٥ ، ١٥٩
سعيد بن جبير ٢٠٠
أبو سعيد الخدرى ١٣٢ ، ١٥٩
أبو سعيد الرستمى = محمد بن محمد
الرستمى
سعيد بن السماك (الراوى) ١٠٨
سعيد بن عمرو بن نفيل ١٧٨
سعيد بن يزيد ٣٤
سلار سيف الدين (الأمير) ٢٣٥
سلامة (الجارية) ٣٦٧
السلامى ١٠٥
سلم الخاسر ٥٦
أبو سلمة ٢٧٢
سليمان بن زبر ٢٥١
سليمان بن وهب (الوزير) ١٠٠
سليمان بن عبد الله بن طاهر ٢٣٩
سليمان بن عبد الملك ١١٩ ، ٢٠٥
سفيان الثورى ٣٧٨
أبو سفيان بن حرب ١٤٤ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ٢٣٧ ، ٣٦٠
سفيان بن أبى العرجاء ١٨٦
ابن سكرة الهاشمى ٢٤٨
سكين بن عبد العزيز ١٩٨
السماك بن حرب (الراوى) ١٠٨
أبو السمط = مروان بن أبى الجنوب
أم سليم (امرأة أبى طلحة
الأنصارى) ٦٠
السموءل بن عادياء ٢٥٩

ابن سناء الملك ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٦٩،
٣٠٠، ٣١٧، ٣٢٥، ٣٢٣، ٣٥٥

سنان بن أنس ٤١١

سنان بن أبي أنس النخعي ٢٠٦

سهيل بن عمرو ١٤٦

السهيلي (عبد الرحمن) ٣٤، ٣٥

سودان بن حمران (قاتل عثمان) ١٩٠

سوار بن كعب ١٧٨

السيد الحميري ٤١١

ابن سيد الناس = محمد بن محمد

سيف بلبان الطباخي (نائب
حلب) ٢٧٧

سيف الدين السامري ٥٩

سيف الدين بغدار (الأمير) ٥٣

سيف الدين تنكز ٥٣

سيف الدين بن المشد بن قزل = ابن قزل

سيف الدولة بن حمدان ٧٣، ١٢٢،
٣٤٥

(ش)

شأس بن نهار العبدي المعروف
بالممزق ٢٧٥، ٢٧٦

شافع بن علي ، ناصر الدين ٤٣

الإمام الشافعي ١٠٤، ٣٠٨، ٣٧١،
٣٧٢

ابن شبرمة ٧٦، ٣١٣

ابن الشبل البغدادي ١١٥، ٣٠٠

أبو شجاع السلجوقي ٥٢

أبو شجرة السلمي ١٨٥، ١٨٧

شديد الملك بن منقذ ٢٨٤

شرف الدين بن شيخ الشيوخ
= عبد العزيز الأنصاري

شرف الدين عنين = ابن عنين

شرف الدين المبارك = المبارك
مستوفي إربل

الشريف الرضي ٤٩، ٢٩٣، ٣١٤،
٣٢٤، ٣٢٥، ٣٤٤

الشريف العقيلي = عليّ بن الحسين العقيلي
الشعبي ٢٣٩
الشماخ بن ضرار ٥١
شمر بن ذى الجوشن ٢٠٣ ، ٢٠٤
شمر بن عمرو الغساني ٢٩٥
أبو الشمقمق ٢٧٣ ، ٣٦٨
شمس الخلافة ٣٥٣
شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة = جعفر بن شمس الخلافة
شمس الدين الذهبي = محمد بن أحمد
شمس الدين بن السلعوس ٢٧٧
شمس الدين محمد بن العفيف = محمد بن العفيف
شهاب الدين الخيمي ٦٩
شهاب الدين محمود ٢٣١ ، ٢٥٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤
شهريار بن شيرويه الحافظ ٣٠٧
شيبة بن ربيعة ١٤٦ ، ١٤٩
شيخ الشيوخ = عبد العزيز الأنصارى
جان ٩٤

(ص)

الصابى = أبو إسحاق
صالح (عليه السلام) ١٢٥ — ١٢٨ ، ٤٠٠
الصالح بن رزيك ٢٥٠
صالح بن صالح الشنتريني ٢٨٣
صالح بن عبد القدوس ٣٧٨
صخر (أخو الخنساء) ٣٢
ابن صردرّ ٣٠ ، ١١٧ ، ٣٦٩
صفوان بن المعطل ١٦٦، ١٧١، ١٧٢
صفى الدين الحلى ١٣ ، ١٨٣، ٢٣٦، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٣٠٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٨ ، ٣٩٧
صفية بنت حيي بن الأخطب ٢٩٦
صلاح الدين الأيوبى ٣٩ ، ٣٥٣، ٣٨١
ابن صمادح ٨٩
صناجة الدوح = محمد بن القاسم
الصنوبرى (أبو بكر) ٤٠

الصولى ٣٨

(ض)

ضرار بن الخطاب ١٥٤

ضمضم بن عمرو الغفارى ١٤٤

(ط)

طالوت ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢١٩

طاهر بن الحسين ٣٦٨

طاهر بن الفقيه ٣٦

طالب بن أبى طالب ١٤٦

أبو طالب بن عبد المطلب ٣٦ ، ١٣٥ ،
١٣٩ ، ١٤٠

ابن طباطبا ٨٤

الطبرانى ٣٠٧

طعيمة بن عدى ١٤٦

الطغرائى ٢٧٠

أبو طلحة الأنصارى ٦٠ ، ٦١

طلحة بن عبيد الله ١٥٩ ، ١٦٠

طلائع بن رزيك ٧٨

أبو الطيب = المتنبى

(ظ)

ابن ظافر الأزدى = على بن ظافر

ظافر الحداد ٧٨ ، ١١٩

ظفر الهروى أبو روح ٣١٤

(ع)

عاتكة بنت زيد بن عمرو
ابن نوفل ١٨٩

عاتكة بنت عبد المطلب ١٣٧

الملك العادل = أبو بكر الأيوبى

ابن عامر ١٩٠

أبو عامر (أحد القرشيين فى يوم أحد) ١٥٩

عامر الحضرمى ١٤٩

أبو عامر بن شهيد = أحمد بن
عبد الملك

عامر بن الطفيل ٣٤

أبو عامر بن عبدوس ١٠ ، ١٢

العائذ = عبد الله بن الزبير

ابن عائشة ٣١٣

عائشة بنت الصديق ٩٠ ، ١٣٤ ،
١٦٥ — ١٧٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠

عباد (ممدوح ابن زيدون) ١٥

أبو عباد (وزير المأمون) ٩٤

ابن عباد ٢١
عباد بن شأس ٢٧٦
ابن عباد = عبد الله
العباس بن الأحنف ١٠٦، ١١٠، ٢٤١، ٣٠٥، ٣٠٦
أبو العباس السفاح ٣٦٧
العباس بن عبد المطلب ١٤٢، ١٥١
العباس بن علىّ بن أبى طالب ٢٠٤
العباس بن مرداس ٩٦
عبد الله بن أبىّ بن سلول ١٥٥، ١٥٧، ٢٢٠
أبو عبد الله البطليوسى ١٢
عبد الله بن جبير ١٤٧
عبد الله بن جدعان ١٥٢
عبد الله بن جعفر ٣٧٧
عبد الله بن الحسن ٣١٥
عبد الله بن الحسين بن على ٢٠٤
أبو عبد الله بن حمدون ٣٦٤
عبد الله بن حنظلة الغسيل ٢٠٩، ٢١٠
عبد الله بن خارجة ٣٥٩
عبد الله بن رواحة ١٧٧
عبد الله بن الزبعرى ١٦٢، ٢١٣
عبد الله بن الزبير ٦٩، ١٨٧، ١٩١، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣ – ٢١٧، ٢٢٠
عبد الله بن سلام ١٩١
عبد الله بن شهاب الزهرى ١٥٩
عبد الله بن طاهر ٩١، ٣٧٠، ٣٧١
عبد الله بن العباس ١٣٣، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٥٩
عبد الله بن عبيد الله بن أبىّ ٢٥٦
عبد الله بن عمر ١٨٨، ١٩١، ١٩٢، ٢١٥
عبد الله بن عمرو بن حزام ١٥٧
عبد الله بن أبى عيينه = عبد الله بن محمد بن أبى عيينه
عبد الله بن الغسيل = عبد الله بن حنظلة
عبد الله بن محمد الخفاجى ٥٥، ٦٨، ٢٠٦، ٢٢٢، ٣٠٠، ٣٥٣، ٣٥٩، ٣٩٤

عبد الله بن محمد بن أبى عيينة ٥٧ ،
٢٧١
عبد الله بن محمد بن ورقاء الشيبانى
٢٥٩
عبد الله بن مسعود ١٥٢، ٣٢٠
عبد الله بن مسلم بن عقيل ٢٠٤
عبد الله بن المعتز ٤٥ ، ٢٣٦، ٢٤٨،
٢٧٣ ، ٣٦٣ ، ٣٧٨
عبد الله بن وهب الراسبي ٤١١
عبد الله بن يزيد ٣٧٢
ابن عبد البر ١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٩٠
عبد الجبار بن جهير ٣٧٩
عبد الرحمن بن عوف ١٧٨ ، ١٨٨
عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٢٦٤
عبد الرحمن بن مسلم بن عقيل ٢٠٤
عبد الرحمن بن المفضل (الراوى)
٢٩٥
عبد الرحمن بن ملجم ١٩٦ — ٢٠١،
٢٢٠
عبد الرحمن بن وهب القوصى المعروف
بالزكى ٥٣ ، ٥٤
عبد الصمد بن بابك ٦٧ ، ٢٥٦ ،
٢٦٩ ، ٣٩٢
عبد العزيز الأنصارى شيخ الشيوخ
٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤، ٣٦٥، ٣٦٩
عبد العزيز بن عبد الملك ٢٣٢
عبد المطلب بن هاشم ١٣١ — ١٣٣
عبد الملك بن مروان ٩٦ ، ١٩٥،
٢١٣ ، ٢١٦ ، ٣٥٩
عبد الوهاب ، ابن بنت الأعز ٣٧٥
ابن عبد ياليل ٩٠
ابن عبدوس = أبو عامر
ابن عبدوس ١٩٥ ، ٢٠٢
أبو عبيد البكرى ٥٦
أبو عبيدة بن الجراح ١٥٩ ، ١٧٥ ،
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
عبيدة بن الحارث ١٤٩ ، ١٥٤
أبو عبيدة معمر بن المثنى ١٠٩ ،
٣١٣ ، ٣٣٧
عتاب بن أسيد ١٧٧
أبو العتاهية ٤٩، ٧٧ ، ٢٥٣، ٢٦٩ ،
٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٣

العتابى ٣٧٥
عقبة (جارية المهدى وصاحبة أبى العتاهية) ٧٧
عقبة بن ربيعة ١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩
عقبة بن أبى سفيان ٥٥
عقبة بن مسلم الباهلى ٣٣٩
عقبة بن أبى وقاص ١٥٩
العقبى ٢٢١
عقيق بن محمد الوراق ٣٦٢
عثمان العزيز (الخليفة الأيوبى) ٢٤٩ ٣٥٣
عثمان بن صهيب (الراوى) ١٩٧
عثمان بن عفان ١٥٥ ، ١٨٩ ـ ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٤٩
أبو عثمان المازنى ٣٢
عثمان بن محمد بن أبى سفيان ٢٠٩
العجاج (الراجز) ٩٦
العجير السلولى ٢٧٦
ابن عدس البلوى ١٨٩
عدىّ بن الرقاع ٣٨ ، ٣٤٠
عدىّ بن أبى الزغباء ١٤٥
عدلى بن زيد ٤٦ ، ٥٦
عروة بن حزام ٢٤٥
عروة بن الزبير ٢١٦
عزة (صاحبة كثير) ٢٢٦ ، ٢٢٧
العزيز الخليفة الأيوبى = عثمان
أبو العشائر = الحسين بن حمدان
عضد الدولة ٥٢
ابن عطية (الشاعر) ٢٢٥
عقبة بن أبى معيط ١٤٤
عقيل بن أبى طالب ٢٠٤
العقيلى الشريف = على بن الحسين
عكرمة بن أبى جهل ١٥٧
علاء الدين الكابلى ١٨٥
علاء الدين الكندى ١٨٩
أبو العلاء المعرى ٣٦ ، ٤٤ ، ٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٠٨ ، ٣٥٧ ، ٤٩٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠
علاء الدين مغلطاى = مغلطاى
علاء الدين الوداعى ١٢٤

ابن أخت علوية المغنى ٢٢٦
على (غلام ابن زيدون) ١١
على بن أحمد البسامى ٢٤٨
على بن أحمد الجزرى ٢٥٢
على بن أحمد الجوهرى ٤٣٢
أبو على بن البقاء البغدادى ٣٠٧
أبو على التنوخى القاضى ٣٦١
على بن جلباب ٣٤٢
على بن الجهم ٦٩ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ٢٧٣
على بن حرب الطائى ٣٧٨
على بن الحسين الباخرزى (صاحب الدمية) ٣١ ، ٣٧ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ١٨٤ ، ٢٥٢ ، ٣٦٨
على بن الحسين العقيلى الشريف ١٠٣
على بن الحسين القيسقانى أبو بكر ٣٣٧
أبو على الروذبارى ٣٤
على بن زيد الجدعانى ٢١٧
على زين العابدين بن الحسين ٢٠٤
على بن أبى سراج ١٨٣
على بن سليمان الكلبى ٣٠٧
أبو على بن شاذان ٣٠٧
على بن صلاح الدين الأيوبى (الملك الأفضل) ٢٤٩ ، ٢٥٠
على بن أبى طالب ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ — ٢٠٢ ، ٢٢٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٤٠١
على بن ظافر الأزدى ١٤١ ، ٤٠٢
على بن عيسى بن ماهان ٢٤٥ ، ٣٦٨
على بن قزل المشد سيف الدين = ابن قزل
على بن موسى العلوى ٢١٢
العماد الأصفهانى (الكاتب) ٢٤٣
عماد الدين (صاحب حماة) ٢٣
عماد الدين بن السكرى ٣٧٦
عمار بن ياسر ٢٠٠ ، ٣٣٠
ابن عمار الأندلسى ٩٢ ، ٣٠٨ ، ٣٦٣
عمارة بن يزيد بن السكن ١٥٩

عمارة اليمنى ٥٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ،
٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٨ ، ٢٧٤ ،
٣٠٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ،
٣٨٥ ، ٣٩٧
ابن عمر = عبد الله
ابن أبي عمر المدني (الراوي) ١٧٦
عمر بن الخطاب ٣٣ ، ٩٨ ، ١٣٥ ،
١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٥ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ١٨٦ - ١٨٩ ، ٢٠٠ ،
٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٩٣ ،
٣٢٠ ، ٤٠٠
عمر بن أبي ربيعة ٢٢٣
عمر بن سعد بن أبي وقاص ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٤٠٠ ،
٤٠١
عمر بن شاهين ٣٧٨
عمر بن شهيد ٣٠٨
أبو عمر بن عبد البر = ابن عبد البر
عمر بن عبد العزيز ٢٠٥
عمر بن على اللغوى ٢١٢
عمر بن الوردى = زين الدين
عمران بن حطان ٢٠٠
عمرو بن الأبرد ٥٧
عمرو بن الأهتم المنقرى ٢٧٣ ، ٣٢٥
عمرو بن أوس ٣٢٤
عمرو بن الحضرمى ١٤٩
عمرو بن سكن ٢٥٩
عمرو بن العاص ٢٠٠ ، ٣٥١
عمرو بن ود ١٤٦
عمرو بن عبيد المعروف بالحزين ٣٤
أبو عمرو بن العلاء ٣٥٢
عمرو بن مسعدة ٣٥٦
عمرو بن معد يكرب ٣٤٧
ابن العميد ٣١٠
عمير بن الحمام ١٥٠
عمير بن وهب الجمحى ١٤٨
عنترة العبسى ٣١٠
عنيزة (من ثمود) ١٢٦
ابن عنين ٢٢١ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤٨ ،
٣٦٠ ، ٣٦٩

عوف بن الحارث ١٤٩ ، ١٥٠ ،
٣٧٠ ، ٣٧١
عرف بن محلم ٣٧٠ ، ٣٧١
عـون بن عبد الله بن جعفر بن
أبي طالب ٢٠٤
عويمر بن ساعدة ١٧٩
عيسى بن زيد العلوى ٢١٢
عيسى بن مريم (عليه السلام) ١٧٤ ،
١٧٩
عيسى بن موسى العباسى ٢١٢
عيينة بن حصن ٩٦

(غ)

الغزى = أبو إسحاق الغزى
أبو غانم محمد ٣١١
غيلان بن خرشة ٨٥

(ف)

فاطمة الزهراء ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ،
٢٥١ ، ٢٧٨
فاطمة بنت قيس ٢٧٢
فتح (صاحب الحظيرى الوراق) ٢٤٧
أبو الفتح البستى ٣١٣ ، ٣١٤ ،
٣٢٣ ، ٣٥١
الفتح بن خاقان ٢٨٦
أبو الفتيان = ابن حيوس
فخر الدين الرازى ٩٨ ، ١١٢ ،
٢٨٨ ، ٣٧١
أبو فراس الحمدانى ٥٩ ، ٦٨ ،
١٠٦ ، ١٢٤ ، ٢٤٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ ،
٣٢٨ ، ٣٦٢
أبو الفرج الببغاء ٩٣
الفرزدق ٣٣ ، ٤٦ ، ٨٦ ، ١٨٨ ،
٢٧٥ ، ٣٦٠
فرعون (صاحب موسى) ١١٩ ،
١٢١ ، ٢١٩
الفضل بن الربيع ١٠٣
الفضل بن عبد الصمد الرياشى ٣١
الفضل بن محمد القاضى أبو بشر ١١٠
أبو الفضل الميكالى ٣١٥
الفضل بن يحيى ٢٦٥
فيروز = أبو لؤلؤة المجوسى

(ق)

القادر بالله (الخليفة) ٢٣٣

القاسم بن ثابت (صاحب الدلائل)
١٥٤

القاسم بن الحسن بن على بن أبى
طالب ٢٠٤

القاضى الفاضل ٨٢، ١٠٢، ٢٤٣،
٢٧٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥

القاهر بالله (الخليفة) ٥٠

القائم بأمر الله (الخليفة) ٢٢٩

ابن القبطرية = أبو بكر بن سعيد

قتادة بن النعمان ١٦٠ ، ١٧٥

قتيبة بن مسلم ٩٨، ٢١٢ ، ٣٦٧

ابن أبى قحافة = أبو بكر

قدار (عاقر ناقة صالح) ١٢٦، ١٢٩

قراسنقر شمس الدين ٢٦٣ ، ٢٧٧

قرواش = أبو المنيع

ابن قزل المشد ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٤ ،
٢٣٦

قس بن ساعدة ١٣٤

قطام (المحرضة على قتل على)
١٩٦ ، ١٩٧

القطامى ٥٦

ابن قلاقس ٧٩ ، ١٠٤ ، ٢٥٠ ،
٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣٥٢، ٣٩٤، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥

ابن قمئة ١٥٩

قيس بن ذريح ٣٦٠

قيس بن زهير بن جذيمة ١٠٩

قيس بن معدى كرب ٢٩٣

قيس بن أبى صعصعة بن صوحان
١٤٤

ابن القيسرانى مهذب الدين ٨١ ،
٣٦١ ، ٣٨١ ، ٣٨٥

(ك)

كثير عزة ٢٢٦ ، ٢٢٧

الكسائى ٢٥٣ ، ٣٨٢

كشاجم ٨١

كعب بن مالك الأنصارى ١٥٤ ،
١٦٠

الكلبى (الراوى) ١٣٥، ٣٦٣، ٣٦٨

ابن كلس (وزير العزيز) ٦٦
كمال الدين بن العديم ٣٣٨
كمال الدين بن النبيه ٢٨٤
الكميت ٣٤١
كنانة بن بشر التجيبي ١٨٩

(ل)

لقمان ٥٧
أبو لهب ١٣٥
أبو لؤلؤة المجوسى (فيروز)
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٢٠

(م)

مالك بن أنس ٢١٦ ، ٣٧١، ٣٧٢
مالك بن خيثمة الجعفى ٣٨٠
مالك بن زغبة ٣٣٨
مالك بن سنان ١٥٩
مالك بن طوق ٧١
المأمون (الخليفة العباسى) ٩١، ٩٢،
٩٤ ، ١٠٤ ، ١٧٧ ، ٢١٢ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٣١٥ ، ٣٥٦ ،

المبارك (مستوفى أربل) ٦٤ ، ٢٠٥ ،
٢٧٥ ، ٣٥٢
المبرد ٧٦ ، ٢٩٤
المتنبي ٤ ، ٤٢ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٨ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٧٤ ، ٢٩٣ ،
٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٢٣ ،
٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٨٣ ،
٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤١٢
المتنخل ٣٨٣
المتوكل (الخليفة) ٥٢، ٨٤ ، ١٨٢،
٢٤٧
مجاهد (الراوى) ١٢٣
المجنون (قيس بن الملوح) ٨٦
مجير الدين بن تميم ٣٥٢
مجير الجراد = حارثة بن مرة
مجير الطير = ثور بن شحنة
محب الدين بن النجار ١١٤
محفوظ العراقى ٨٧

محمد (صلى الله عليه وسلم) ٣٤ ، ٣٥ ، ٦١ ، ٩٧ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ - ١٧٩ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨ ، ٣٧٢

محمد بن إبراهيم (والى نيسابور) ٢١٢

محمد بن أحمد الخازن أبو عبد الله ٩٣ ، ٣٠٠

محمد بن أحمد الخياط = ابن الخياط

محمد بن أحمد الذهبي أبو عبد الله ٢٠٢ ، ٢٠٥

محمد بن أحمد المنقرى أبو البركات ٨٩

محمد بن الإخميمى نصير الدين ٢٥١

محمد بن أزدشير ٩٤

محمد بن أسلم الأنصارى ٢١١

محمد بن أبى بكر الصديق ١٩٠

محمد بن التلمسانى شمس الدين ١١٠

محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ٢١٠

محمد بن جرير الطبرى ٣٧١

محمد بن جعفر أبو الفرج (الوزير) ٢٣٢

محمد بن حاطب ١٥١

محمد بن الحداد المغربى ٣٠٣

محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة ١٨٩

أبو محمد بن حزم ٢٠٠

محمد بن الحسن الشيبانى ٣٧٤

محمد بن الحسن بن مقسم العطار ٣٠٧

محمد بن حنا الصاحب (تاج الدين) ٢٣١

محمد بن الحنفية ١٨٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٧

محمد بن خالد الصريفينى ١٠٠

محمد الرصافى = محمد بن غالب الرصافى

محمد بن زيد العلوى ٢١٢

محمد بن سلمة الحرانى ٣٠٧
محمد بن عبد الواحد القرشى (الراوى) ٢٠٤
محمد بن شرف الدين القيروانى ٣٢٤، ٣٥٦
محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ٢٠٤
محمد بن عبد الرحمن = المستكفى
محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن المقدسى ٥٩
محمد بن عبد الملك الزيات ٣٠٩
محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (صاحب كتاب الملل والنحل) ١١١، ١١٢
محمد بن العفيف التلمسانى ٨٤
محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ٢١٠
محمد بن على الواعظ الدورى ٣٠٦
محمد بن غالب الرصافى ٣٦، ٩٣، ٢٨٨، ٢٩٢، ٣٣٢
محمد بن القاسم (صناجة الدوح) شاعر الحاكم ٦٧
محمد بن قرطاى الأربلى ٨٧
محمد بن قلاوون (الملك الناصر) ٤٩، ٢٣٤، ٢٤٩، ٢١٣، ٢٦٤
محمد بن قيم الجوزية ١٦٩
محمد بن كثير ٢١٧
أبو محمد بن مالك المقرى ٨٩
محمد بن المثنى بن الأجدع الهمذانى ٢٤٣، ٢٤٤
محمد بن محمد بن بن سيد الناس ١٤٣، ٣٠١
محمد بن محمد الرستمى أبو سعيد ٢٢٨، ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩١، ٣٠٢، ٣٠٥
محمد بن مناذر ١٨
محمد بن ناجية الرصافى ٢٦١
محمد بن الوحيد ٤٣، ٤٤
محمد بن يحيى بن زيد ٢١٢
محمود (اسم فيل النجاشى) ١٣١
محيي الدين بن عبد الظاهر ٢٢٨، ٤٠٤
المدائنى (الراوى) ٣١٥
مرجانة ابنة عبيد الله بن زياد ٢٠٥

مروان بن أبى الجنوب أبو السمط ١٨٢ ، ٢٧٣
مروان بن الحكم ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢١٦
مريم (عليها السلام) ١٧٤
مزاحم بن خاقان ٢١٣
المسترشد بالله (الخليفة) ٣٦١
المستظهر بالله (الخليفة) ٢٣٤ ، ٢٣٥
المستكفى بالله (الخليفة) ١٠
مسدد (المحدث) ٣٤
السدس = لقب ابن زيدون ١١
أم مسطح (خالة أبى بكر) ١٦٧
مسطح بن أثاثة ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢
أبو مسمر ١٧٦
ابن مسعود ٦٢ ، ٩١ ، ٢٢٥
أبو مسعود الثقفى ١٣٣
المسعودى (صاحب مروج الذهب) ٦٢
المسعودى (شارح المقامات) ١٧٧
مسلم (صاحب الصحيح) ٩١ ، ٢٢٥ ، ٢٤٣
مسلم بن عقبة ٢٠٩ ، ٢١٠
مسلم بن محمود الشيزرى ٣٧٨
مسلم بن الوليد ٩٢ ، ١٠٥
مسلمة بن عبد الملك ٢٩٩
مصدع بن برج ١٣٦
مصعب بن سهيل الزهرى ٣٦٧
مصعب بن عمير بن هشام ١٤٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨
مطرف بن عبدالله بن الشخير ٣٤
المطعم بن عدى ١٣٨
الملك المظفر (صاحب حماة) ٥٣ ، ٥٤
ابن المظفر = محمد بن على الواعظ
معاذ بن جبل ١٠٨ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٠
معاذ بن عمرو بن الجموح ١٥٢
معاوية بن أبى سفيان ٤٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٩٣ .
المعتصم (الخليفة العباسى) ٢٤٧
المعتصم بن صمادح ٥٤
المعتضد ٢٠ ، ٢١ ، ٥٠
المعتمد بن عباد ٢١ ، ٩٢ ، ٢٣٧
المعتمر ١٠٨

ابن المعذل ٤٠٧
المعرى = أبو العلاء
معقر بن أوس البارقى ٣٦٦
ابن المعلم ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٣٨ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٧١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧
معن بن أوس المزنى ٨٤ ، ٢١٠
معن بن عدىّ ١٧٩
معوّذ بن الحارث ١٤٩
معوّذ بن عفراء ١٥٢
مغلطاى علاء الدين ٢٣٤
المغيرة بن حبناء ٣٢٢ ، ٣٤٧
المغيرة بن شعبة ١٨٧ ، ١٨٨
المفضل (الراوى) ٢٩٥
ابن مقبل ٨٥
المقتدر (الخليفة) ٥٠
المقداد بن عمرو ١٤٥
ابن المقدسى = محمد بن عبد الرحمن
المكعبر الضبى ٧٩
ابن ملجم = عبدالرحمن
ابن مليكة ٢١٦
الممزق العبدى = شأس
منبه بن الحجاج ١٤٦
المنتصر (الخليفة) ٢٤٨
منحا (الصائغ)
المنذر بن ماء السماء ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦
المنصور (الخليفة) ٩٩
منصور بن الحاكم الهروى ٨٥
منصور بن عكرمة (كاتب صحيفة) ١٣٨
منظور بن زبان ٣٦٠
ابن منير الطرابلسى ٣١١
أبو المنيع قرواش ٦٩
مهجع (مولى عمر بن الخطاب) ١٥٠
المهدى (الخليفة) ٧٧ ، ١٠٣ ، ١٧٧ ، ٢٣٥
مهذب الدين القيسرانى = ابن القيسرانى
مهرش بن غنمة ١٢٥
المهلّب بن أبى صفرة ٢٦٠ ، ٢٦٢

مهنأ بن عيسى ٢٦٣ ، ٢٦٤

مهيار الديلمى ٧٢ ، ١٠٦

مؤرج السدوسى ١٠٨

موسى (عليه السلام) ١١٩ ، ١٢٠ــ ١٢٢

أبو موسى الأشعرى ٣٥٨ ، ٤١١

موسى بن جعفر بن أبى طالب ٢١٢

موسى بن ظفر = السامرى

الموفق الحكيم المعروف بالورل ٢٠٨

المؤمل بن أميل المحاربى ٥٥ ، ١٠٥

مؤنس المظفر (أمير الجيش فى عهد المقتدر) ٥٠

المؤيد = محمد بن أحمد المنقرى .

ابن ميادة = الرماح

(ن)

النابغة الذبيانى ٧٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٩٥

ناصح الدين القاضى ٦٥

ناصر الدين بن النقيب ٢٢٨ ، ٤٠٤

الناصر = محمد بن قلاوون

ناصر الدين بن المقدسى = محمد بن عبد الرحمن

نافع بن علقمة الكنانى ٢٧٦

نائلة بنت الفراقصة ١٩٠

ابن نباتة الأعور الموصلى ١١٦

ابن نباتة السعدى ٣١٤

نبيه بن الحجاج ١٤٦

النجاشى ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤

نجم الدين بن صلاح الدين ٤٧

أبو نخيلة (الراجز) ٢٩٩

نصر بن سيار الهرمزى ٧٠

نصر بن قلاقس = ابن قلاقس

النضر بن الحارث ١٤٦

نضلة بن هاشم بن عبد مناف ١٣٧

النعمان بن بشير ١٩٤

النعمان بن المنذر ١٠٧ ، ٣٣٣

ابن النقيب = ناصر الدين بن النقيب

النوار (زوج الفرزدق) ٣٦٠

أبو نواس ٣١ ، ٤٨ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٢٥٤ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨
نوح (عليه السلام) ١١٨
نور الدين الأفضل = على بن صلاح الدين .
نوفل بن خويلد ١٤٦
نيار بن عياض الأنصارى ١٩٠

(ه)

هارون الرشيد ٩٣ ، ٢١٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦
هامان ١١٩ ، ١٢٠ ، ٤٠٠
أم هانىء بنت عبد المطلب ١٣٤
هبة الله بن الفضل (الطبيب) ٧٦ ، ٣٠٤
هرم بن سنان المرى ٢٩٣
أبو هريرة (الصحابى) ١٧٧ ، ١٩١
أبو هريرة (الشاعر المصرى ٩٤)
ابن هشام (صاحب السيرة) ١٤٥
هشام بن عمار ٣٠٧
هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب ١٣٧
هشام بن الكلبى (الراوى) ١٠٩
أبو هلال العسكرى ٨١ ، ٢٦١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦
أبو الهيثم (الراوى) ٢٩٦
أبو الهيثم بن التيهان ١٤٢

(و)

الواثق (الخليفة) ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٣٦٥
ابن الوحيد = محمد بن الوحيد
أبو الورد البغدادى ٢٧٧
وردان بن مجالد ١٩٦
ابن الوردى = زين الدين
ولادة بنت المستكفى ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥
الوليد بن عبد الملك ١٥٤ ، ١٥٥
الوليد بن عقبة ١٤٩
الوليد بن المغيرة ٢٢٥

(ى)

ياقوت الحموى ١٩٥
يحيى بن أكثم ١٧٧

يحيى بن بقى ٢٨٩
يحيى بن زيد بن الحسن بن على ٢١٢
يحيى بن عبدالله العلوى ٢١٢
يحيى بن عمر الزيدى ٢١٣؟
يزيد حوراء ٧٧
يزيد بن أبى سفيان ٢٢٠
يزيد بن عبد الملك ٣٦٧
يزيد بن معاوية ٨٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢٧٣
يزيد بن المهلب ٢٤٨ ، ٢٧٨ ، ٣٣٩
يعقوب بن السكيت ٢٤٨
يعقوب بن الليث ٢١٢
ابن يغمور ٢٤١
أبو يكسوم = أبرهة
يوسف بن تاشفين ٢١
يوسف الخوارزمى ٥٢ ، ٥٣
يوسف بن على ٥٠
يونس بن حبيب ٢٧٣
يونس بن يحيى البغدادى ٣٧٨
يونس بن يزيد بن الزهرى (الراوى) ١٨١

(ا)

بنو أبان بن درام ٢٠٦
الأدارسة ٥١
بنو أسد ٧٦ ، ٨٣
بنو إسرائيل ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢١٩
أشعر ٢١١
بنو أمية ١٧٧ ، ٢١٠ ، ٢٣٢
الأنصار ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢٦٢
١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ٤٠٠
الأوس ١٥٣

(ب)

آل أبي بكر ١٦٩

(ت)

تنوخ ٢٠٨ ، ٣٧٠

(ث)

ثمود ١٢٥ ـ ١٤٨ ، ٢١١ ، ٢١٩

(ج)

بنو جمهور ١٧

(ح)

بنو حزم ١٩٠
حمير ٢٠٦ ، ٢١٢
بنو حنيفة ١٨٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٥

(خ)

الخزرج ١٤١ ، ١٤٣
الخوارج ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٣٤٤

(ر)

ربيعة ٣٦٨
الروافض ٢٠٠ ، ٢٥١
الروم ١٢٤ ، ١٧٤

(ز)

بنو زهرة ١٤٦ ، ١٥٤

(س)

آل ساسان ٢١٢
بنو ساعدة ١٥١
السكون ٢١٢

بنو سلمة ١٥٠ ، ١٥٤

بنو سليم ١٨٦

(ش)

بنو شمجى ١٠٧

بنو شيبة ٢١٥

بنو شيبان ٢٥٩ ، ٢٦١

الشيعة ٢١٢

(ض)

بنو ضبة ٤١١

(ط)

الطالبيون ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

الطوائف ٦

طيء ٩٩ ، ٢٠٠

(ع)

عاد ١٢٥ ، ٢١١

بنو عامر ٣٤

بنو عبد المدان ٤٠٧

بنو عبد الدار ١٥٧

بنو عبد المطلب ١٣٥ ، ٣٣٣

بنو عبد مناف ٢١٩

بنو عدىّ بن النجار ١٥٠

عكّ ٢١١

العلويون = الطالبيون

بنو عمرو بن عوف ١٥٧

عنزة ٢٧٤

(ف)

الفرنج ٤٩

(ق)

قريش ١٣١ ، ١٣٥ ـ ١٣٩ ، ١٤٤ ـ ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٣٣٣

بنو قريظة ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٢٠ ، ٤٠٠

بنو القين ٣٨٠

(ك)

بنو كعب ٦٦ ، ١٣٥

كلب ٢١٢ ، ٢٦١

كنانة ١٣١ ، ١٥٦ ، ١٩١

كندة ٢٥١

(ل)

لؤىّ بن كعب ١٣٥

(م)

بنو مازن بن النجار ١٤٢ ، ١٤٤

بنو المصطلق ١٦٥

المعتزلة ٣٢

(ن)

بنو نبهان ٤٠٧

بنو النجار ١٦٣

النصارى ١٧٣

النصيرية ٢٠٠

بنو نمير ٣٦٦

(هـ)

بنو هاشم ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ٢١٩

(ى)

اليمانية ٢٥١ ، ٣٦٥

يهود ١٤١ ، ٢٠٦

(ا)

أبنى ١٧٦ ، ١٧٧

أحد ١٥٥ ـ ١٦٣ ، ٢٢٠

الأخشبان ٩١

ألبيرة ٢١ ، ٢١٠

الأردن ١٢٩ ، ٢١٥

أسود (اسم جبل) ١٤٠

إشبيلية ٦ ، ١١ ، ٢١

أفريقية ٤٨

الأهواز ٢٣٢

الأندلس ٦ ، ٢١٢

أيلة ١٢٢

(ب)

باجرى ١٢١

باخرز ٢٥٢

بدر ١٤٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ، ١٧٩

برك الغماد ١٤٥

بركة الحبش ٩٤

البصرة ١٨ ، ٣٢ ، ١٧٧ ، ١٨٩

بطن عارم ٢١٧

بعلبك ٥٣

بغداد ١٧٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٣٤٩

البقيع ١٩٣

البلقاء ١٧٧

البيت الحرام ٢١٣ ، ٢١٧

البيت المقدس ٢٢٩

(ت)

تهامة ١٥٦

(ث)

الثنية ٢١٦ ، ٣١٣

(ج)

الجرف ١٧٥

الجعرانة ١٧٥

(ح)

الحبشة ١٥٨
الحجاز ١٢٥، ١٤٤، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣
الحجر الأسود ٢١٤
الحجر ٢١٧
الحجون ١٣٨، ١٣٩
حراء ١٥٣
الحرة ٢٠٨، ٢٠٩، ٣١٠، ٢١١، ٢٢٠
الحرم المكى ١٣١
الحرم النبوى ٦٦، ١٣١
حلب ٢٥٧
حماة ١٣، ٥٣، ٥٤، ٣٤٤
حمص ١٩٤، ٢١٥، ٢٥٢
حنين ١٥١، ٣٣٣
حومانة الدراج ٣٤٩
الحيرة ٥٥

(خ)

خراسان ٩٨، ٢١٣، ٢٦٠، ٣٣٩، ٣٦٧، ٣٧٠
الخيف ٢١٧

(د)

دار بنى حزم الأنصارى ١٩٠
دار صفية بنت حيي بن الأخطب ٢١٦
دمشق ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٢٦، ٢٣٢، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٧٧

(ذ)

ذفران ١٤٥

(ر)

الرى ٣٧٠

(ز)

الزهراء ١٥
الزيقية ٥٩

(س)

سامرا ٢١٢
سرف ١٦١
السقيفة ٢١٢

سكة المطارين بالبصرة ٣٢
سوق على بدمشق ٢٥١

(ش)

الشام ٩٩ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ٢١٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١
شعب قريش ١٥٢ ، ٢٢٠

(ص)

الصفراء ١٤٥
جبل / الصفا ٢١٥
صنعاء ١٣١ ، ١٣٣

(ط)

الطائف ١٥٥
طبرستان ٢١٢

(ع)

العذارية ٥٩
العراق ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤
عسقلان ١٧٧
العقبة ١٤١ ـ ١٤٣ ـ ٤٠٠

(غ)

الغرب ٥١
غمدان ١٩٥

(ف)

فارس ٣٤٧
فخ ٢١٢
الفرات ٢٠٦
فلسطين ١٢٩ ، ١٧٦

(ق)

القاهرة ٢٣٤
جبل / أبى قبيس ٢١٣
قرطبة ٦ ، ٢١
قرن الثعالب ٩٠
قليب بدر ١٥٢
القيروان ٤٨

(ك)

كربلاء ٢٠٧
الكرخ ٣٦١
الكعبة ١٣١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩
الكناسة ٢١٢

الكوفة ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٩، ٢٠٣،
٢١٣ ، ٢٥١ ، ٣٤٩ .

(م)

المثلم ٣٤٩
مدائن كسرى ٦٧
المدينة ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ،
١٧٨، ١٨٨، ١٩٩، ٢٠٥، ٢١٠،
٢١١، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
مرو ٣٧٠
مسجد رسول الله ١٧٦
مصر ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٨٩ ، ٢١٣ ،
٢١٤، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥ ، ٣٤٩
المعرة ٢٠٨
مكة ٩٠ ، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٨،
١٤١، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٥، ١٦٠،
١٧٧ ، ١٨٩، ٢٠٣، ٢١٠، ٢١٣
المنصورية ٤٨
منى ٢٦٧
الموصل ٣٦٨

(ن)

النهروان ١٩٥
نيسابور ٢١٢

(هـ)

الهند ٢٥٠

(و)

وادى الحجارة ١٢٦
وادى القرى ١٢٥ ، ٢١٠

(ى)

ينبى = أبنى
يثرب ١٤٥
اليمن ٨٣ ، ١٣١ ، ١٧٨ ، ٢١٣

٧ — فهرس الكتب *

أدب الكاتب للصولى ٣٨
الاستيعاب لابن عبد البر ١٩٠
الأسماء والصفات للبيهقى ٣٤
الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٢٦٠
الدلائل لقاسم بن ثابت ١٥٤
دمية القصر للباخرزى ١٨٤ ، ٢٥٢
الذخيرة لابن بسام ٩ ، ٢١ ، ١٤١
سيرة ابن سيد الناس ١٤٣
سيرة ابن هشام ١٤٥
صحاح الجوهرى ٣٧٦
طبقات ابن سعد ٢٠٥
غريب الحديث للخطابى ٤٠٠
الفردوس الأعلى لشهريار بن شيرويه الحافظ ٣٠٧
فصل المقال لأبى عبيد البكرى ٥٦
فضائل أبى بكر لابن زنجويه ١٨٢
القاصمة للفئة الفاشمة ٣٧١
قلائد العقيان للفتح بن خاقان ٦
الكشاف للزمخشرى ٣٨
مروج الذهب للمسعودى ٦٢
معجم البلدان لياقوت ١٩٩
مناقب الشافعى لفخر الدين الرازى ٣٧١
نفائس الذخيرة لابن ظافر ١٤١

* هى الكتب التى نقل عنها المؤلف .

٨ — مراجع التحقيق

أدب الكاتب للصولى (المطبعة السلفية ١٣٤١ هـ)

الاستيعاب لابن عبد البر (مطبعة نهضة مصر ١٣٨٠ هـ)

الإعجاز والإيجاز للثعالبي (المطبعة العمومية ١٨٧١ م)

الأعلام للزركلى (الطبعة الثانية)

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (مطبعة التقدم سنة ١٣٣٣ هـ ، ودار الكتب)

أمالى القالى (مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ)

أمالى المرتضى (عيسى الحلبى ١٥٩٠ م)

إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى (طبعة دار الكتب)

البداية والنهاية لابن كثير (مطبعة السعادة ١٩٣٢ م)

بديع القرآن لابن أبى الإصبع (طبعة مكتبة نهضة مصر)

البسامة ، وهى شرح قصيدة ابن عبدون (مطبعة السعادة ١٣٤٠ هـ)

البيان والتبيين للجاحظ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م)

تاريخ الطبرى (دار المعارف بمصر)

تفسير الطبرى (دار المعارف بمصر)

تقريب التهذيب (مكتبة القاهرة ١٩٦٠ م)

التمثيل والمحاضرة للثعالبي (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦١ م)

حسن المحاضرة للسيوطى ؛ مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦٨ م)

حماسة ابن الشجرى (حيدر آباد ١٣٤٥)

ديوان الخفاجى (مخطوطة دار الكتب برقم ٥١٠٠ ـ أدب . وطبعة بيروت ١٣٠٩ هـ)
خاص الخاص للثعالبى (مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ)
خزانة الأدب للبغدادى (بولاق ١٢٩٩ هـ)
ابن خلكان (المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ)
دمية القصر للباخرزى (المطبعة العلمية بحلب سنة ١٩٣٠ م)
ديوان الأرجانى (بيروت ١٣٠٧ هـ)
ديوان أبى الأسود الدؤلى ـ ضمن مجموعة نفائس المخطوطات (بغداد ١٩٦٤ م)
ديوان الإمام الشافعى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٦ م)
ديوان امرئ القيس (دار المعارف ١٩٥٨ م)
ديوان أمية ابن أبى الصلت (بيروت ١٩٣٤ م)
ديوان أوس بن حجر (بيروت ١٩٦٠ م)
ديوان البحترى (مطبعة هندية ١٩١١ م)
ديوان البهاء زهير (القاهرة ١٢٩٧ هـ)
ديوان أبى تمام (بيروت ١٣٣٣ هـ)
ديوان تميم بن المعز (مطبعة دار الكتب)
ديوان التهامى (دمشق ١٩٦٤ م)
ديوان حسان بن ثابت (المطبعة الرحمانية ١٩٣٩ م)
ديوان الحسين بن الضحاك (دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠ م)
ديوان الحماسة بشرح التبريزى (مطبعة حجازى ١٩٢٨ م)
ديوان الحماسة بشرح المرزوقى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢ م)
ديوان ابن حيوس (مطبعة المجمع العلمى بدمشق)

ديوان الخنساء (المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م)

ديوان ابن الخياط الدمشقي (طبعة دمشق)

ديوان ابن درّاج القسطلي (دمشق ١٩٦١ م)

ديوان دعبل الخزاعي (بيروت ١٩٦٣)

ديوان سبط ابن التعاويذي (مطبعة المقتطف ١٩٠٣)

ديوان ابن الزقاق الأندلسي (دار الثقافة ببيروت ١٩٦٤ م)

ديوان زهير بن أبي سلمى (مطبعة دار الكتب ١٣٦٣ هـ)

ديوان ابن زيدون (مطبعة الرسالة ١٩٥٧ م)

ديوان الشريف الرضي (بيروت ١٣٠٧ هـ)

ديوان الشريف العقيلي (مطبعة عيسى الحلبي بمصر سنة)

ديوان أبي طالب (طنطا ١٩٥١ م)

ديوان طرفه بن العبد (الأنجلو بمصر ١٩٥٨ م)

ديوان العباس بن الأحنف (دار الكتب ١٩٥٤ م)

ديوان على بن الجهم (دمشق ١٩٤٩ م)

ديوان عمر بن أبي ربيعة (مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ)

ديوان ابن عنين (دمشق ١٣٦٥ هـ)

ديوان الغزي ـ مخطوطة دار الكتب رقم ٨٨ ـ أدب

ديوان أبي فراس الحمداني (المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥٤ م)

ديوان الفرزدق (مطبعة الصاوى ١٩٥٤ م)

ديوان لبيد (الكويت ١٩٦٤)

ديوان المتنبي (مصطفى الحلبي ١٩٣٦ م)
ديوان مجنون ليلى (دار مصر للطباعة)
ديوان مسلم بن الوليد (دار المعارف ١٩٥٧ م)
ديوان ابن المعتز (مطبعة المحروسة ١٨٩١ م)
ديوان معن بن أوس (مطبعة النهضة ١٩٢٧م)
ديوان ابن مقبل (مطبعة دمشق ١٩٦٢ م)
ديوان مهيار (مطبعة دار الكتب)
ديوان النابغة الذبيانى (ضمن خمسة دواوين من شعراء الجاهلية - ١٢٩٣ م)
ديوان أبى نواس (العمومية ١٨٩٨ م)
ديوان الهذليين (مطبعة دار الكتب)
الذخيرة لابن بسام (مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٣٩ م)
سرح العيون لشرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (مطبعة المدنى ١٩٦٤ م)
سقط الزند (مطبعة دار الكتب)
السلوك فى دول الملوك (مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر)
سيرة ابن هشام (مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٣٩ م)
شرح نهج البلاغة (مطبعة عيسى الحلبي بمصر)
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (مطبعة دار الكتب)
صحيح مسلم (مطبعة عيسى الحلبي)
طبقات الشعراء لابن سلام (دار المعارف بمصر)
العبر للذهبي (طبع الكويت)

العقد لابن عبد ربه (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠ هـ)

العقد الثمين فى الشعراء الستة الجاهلين (ليدن ١٨٧٠ م)

عيون الأثر لابن سيد الناس (القدس ١٣٥٦ هـ)

فصل المقال (الخرطوم ١٩٥٨ م)

القاموس المحيط للفيروز آبادى (المطبعة الحسنية ١٣٣٠ هـ)

الكامل للمبرد (مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦ م)

الكشاف للزمخشرى (المطابعة البهيه ١٣٤٣ هـ)

كشف الظنون لحاجى خليفة (الآستانه ١٩٤١ م)

اللآلى على أمالى القالى لأبى عبيد البكرى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤)

لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء (مطبعة الجمالية ١٩١٥ م)

لسان العرب لابن منظور (بولاق سنة ١٣٠٠ هـ)

مجمع الأمثال الميدانى (مطبعة الاستقامة ١٩٥٢)

مختارات البارودى (مطبعة الجريدة ١٣٢٧ هـ)

مروج الذهب للمسعودى (مطبعة الاستقامة ١٩٤٨ م)

مصارع العشاق (مطبعة الجوائب ١٣٠١ هـ)

معاهد التنصيص للعباسى مطبعة السعادة (١٩٤٩)

معجم الأدباء لياقوت (دار المأمون بمصر ١٩٣٦)

معجم البلدان (مطبعة السعادة ١٩٣٦ م)

معجم الشعراء للمرزبانى (مطبعه عيسى الحلبى)

المفضليات (دار المعارف سنة ١٩٥٢)

مقامات الحريرى (مطبعة الحسينية ١٣٢٦ هـ)

الملل والنحل للشهرستد (مكتبة الأنجلو ١٩٥٦ م) .

المؤتلف والمختلف للآمدى (مطبعة عيسى الحلبى)

الميدانى = مجمع الأمثال

الوافى بالوفيات (نشرة جمعية المستشرقين الالمانية)

النهاية لابن الأثير (مطبعة عيسى الحلبى بمصر)

نهاية الأرب للنويرى (مطبعة دار الكتب)

استدراك وتعليق

صفحة	سطر	
٣٦	٢٠، ٢١	تكتب العبارة هكذا : « وما نبهتك إلاّ لأنام ، وما سريت لكَ إلاّ لأحمد السُّرى لديك ، وإنّك متى سنّيت عقد أمرى تيسّر » ، وانظر الشرح صفحة ٣٥٢ ، ٣٥٥ .
٣٨	١	سقطت الواو من أول الفقرة الثالثة ، والصواب إثباتها للعطف .
٥٢	١٨	صواب الاسم : « ألبا أرسلان محمد بن جعفر المدعو عضد الدولة أبو شجاع السلجوقى » ، وعليه يدل ما ورد فى فهرس الأعلام ص ٤٦٨ هكذا : « أبو شجاع السلجوقى = ألبا أرسلان » .
٢٠٥	١٦، ١٧	العبارة فى الأصل هكذا : « لما قتل قالت مرجانة ابنة عبيد الله بن زياد: خبيث قتل بنت رسول الله ، لا يرى الجنة أبداً » .
٣٠٥	٢	البيت للحسين بن الضحاك ، وورد منسوباً إليه مع أبيات أخرى فى صفحة ٣٤٧ .
٣٣		وقع سقط بعد آخر كلمة فى آخر سطر من هذه الصفحة ؛ وهو : « فهو ذاوٍ لا يثمر ، وذابل لا ينضُر ، كالوحش النّائى عن وطنه ، فهو فريسة كل سبع ، ورمية كل رامٍ ، قال الشاعر :

صفحة	سطر	
		لقربُ الدارِ فى الإقتارِ خيرٌ من العيش الوسع فى اقتراب
		وقال أبو الفتح البستىّ :
		لا يعدمُ المرء كِنًّا يستكنّ بهِ وضعةً بين أهليه وأصحابهْ
		ومن نأى عنهم قلّت مهـــابتهُ كالليث يحقر لما غابَ عن غابهِ
		وقال الأول . . . .
٣٣٨	٥	كذا فى الأصل : « أحمد بن المتصوّف الدومى » ولم أهتد إلى معرفته .